ساعدت جامعة بغداد على نشره
تسلسل التعضيد (٣٨) لسنة ٧٤ - ١٩٧٥

أبو بكر الزبيدي الأندلسي
وآثاره في النحو واللغة

تاليف

نعمة رحيم العزاوي

الرسالة التي نال بها المؤلف درجة الماجستير
بتقدير امتياز من جامعة بغداد

مطبعة الآداب في النجف الاشرف

١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥

ابو بكر الزبيدي الاندلسي

ساعدت جامعة بغداد على نشره
تسلسل التعضيد (٣٨) لسنة ٧٤ - ١٩٧٥

أبو بكر الزبيدي الأندلسي
وآثاره في النحو واللغة

تأليف

نعمة رحيم العزاوي

الرسالة التي نال بها المؤلف درجة الماجستير
بتقدير امتياز من جامعة بغداد

مطبعة الآداب في النجف الأشرف

١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هـذا بحث دأبت على إعداده ، وأنفقت فيـه من الجهد والوقت ما عسى أن يكون كفيلا بانضاجه ، وتبرئته من الزلل في المنهج ، أو الخطل في الرأي ، الا أني لا أدعي له الكمال ، لأن الكمال فى البحث العلمي أمر بعيد المنال .

عرف الناس أبا بكر الزبيدي واحداً من رجال الطبقـات ، وكتاب التراجم والسير ، وكان كتـابه (طبقات النحويين واللغويين) أوسع كتبه شهرة ، وأسيرها ذكرا ، عرفه القدامى ونقلوا منه ، ورجع إليه المحدثون ، وعولوا عليه ، ونشر كرنكو مختصراً له في أوائل هذا القرن .

وثمة كتاب آخر ، كان له الفضل فيما أصاب الزبيدي من شهرة ذلك هو كتابه المعروف بـ (مختصر العين) ، الذى أطنب العلماء فى تقريظه ، وأقبلوا عليه يروونه ، وينسخونه ، وينقلون منه ، حتى فضله بعضهم على كتاب (العين) نفسه :

ولم يعرف الناس عن أبي بكر الزبيدي أكثر من ذلك ، وبقيت كتبه الاخرى بمنأى عن أيدي الدارسين ، لا يفكر أحد في درسها ،

واستجلاء ما ضمنته من آراء ، تجعل صاحبها في طليعة اللغويين الكبار الذين تضلعوا من علوم العربية ، وكان لهم فيها قدم راسخة ، وباع طويل .

ولما نشر الدكتور رمضان عبد التواب كتاب الزبيدي المعروف بـ (لحن العامة) ، زادايمان الدارسين بمكانة هذا العالم اللغوي ، وبسعة معارفه ، فكتب عنه البير مطلق فصلا في كتابه (الحركة اللغوية في الاندلس) ، عرض فيه لسيرته وآثاره عرضاً سريعاً ، لا يقنع الباحث ولا يشفي غلته .

وكتب عنه الدكتور عبدالعزيز مطر فصلا في كتابه (لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثه) وقد تركز هذا الفصل حول كتاب واحد من كتب الزبيدي ، وهو كتاب (لحن العامة) .

ولم ينل الزبيدى بعد ذلك ، عناية تستحق الذكر من أحد (١) ، ولم يحظ بأكثر من هذين الفصلين اللذين لا يكفيان لابراز شخصيته ، وتجلية جوانبها ، والكشف عما كان لها من أثر في تطوير الدرس اللغوى في الاندلس ، ذلك الدرس الذى بقي بعيداً العمق والاصالة ، حتى ظهرت مؤلفات الزبيدى ، فاستطاعت أن تقف بمصاف كتب المشارقة ، وتثبت للناس أن الاندلس شبت عن الطوق ، واشتد

---

(١) درس كرونكوف مخطوطة (لحن العامة) وكتب عنها مقالا في مجلة كلية الآداب العراقية فى عام ١٩٥٩ كما نشر الدكتور أمين علي السيد مقالا عن الزبيدي في مجلة أدب الرافدين ـ كلية آداب الموصل ـ العدد الاول ١٩٧١ . وكتب الدكتور محسن جمال الدين مقالا عنه في مجلة الشرطة العدد ٢٣ ، ٢٤ سنة ١٩٧٣ .

منها الساعد ، ولم تعد مجرد تلميذ يأخذ من المشرق ، دون أن يكون له موقف مما يأخذه ، أو رأى فيه .

وكنت قد لمحت في الشيء القليل الذى قرأته عن الزبيدي ، ان هـذا الرجل جليل القـدر ، عظيم المنزلة ، فعقدت العزم على دراسة شخصيته ، وآثاره ومنهجه ، ثم كان هـــذا البحث الذى أضعه بين يديك .

وكانت طبيعة الموضوع تقضي بأن أجعل البحث في بابين : درست في الباب الأول أبا بكر الزبيدي ، ودرست فى الباب الثاني كتبه التي وصلت إلينا .

وقد قسمت الباب الأول على ثلاثة فصول . درست في الفصل الأول عصره من نواحيه السياسية والاجتماعية والثقافية ، ودرست في الفصل الثاني حياته ، ووقفت عند ثقافته وصفاته : ثم عقدت الفصل الثالث لآثاره فاحصيتها ، وأشرت إلى المفقود منها . ودرست في هـذا الفصل أيضاً كتابه (طبقات النحويين واللغويين) ، ولم أشأ أن أضمه إلى الباب الثاني الذي درست فيه آثاره النحوية واللغوية ، لأني وجدت أن هذا الكتاب في جملته ، كتاب سير وتراجم ، وليس كتـاب نحو أو لغة .

وأما الباب الثاني فقد تضمن أربعة فصول ، تناولت في كل فصل منها كتاباً من كتب الزبيدى التي وصلت إلينا : خصصت الفصل الأول لدراسة (الواضح في النحو) ، والثاني لكتـاب (أبنيـــة الاسماء والافعال) ، والثالث لكتاب (لحن العامـــة) ، والرابع لكتاب (مختصر الرابع) .

ودرست في كل كتاب دواعي تأليفه ، وخصائصه ، ومنزلته بين نظائره ، كما أوضحت ما بذل الزبيدي فيه من جهود ، وما اتبع في تأليفه من منهج ، وما اعتمد عليه من مصادر وشواهد ، وما كان له من آثر في الكتب التي ألفت بعده .

ثم كانت الخاتمة اجمالا للبحث ، وابرازا لأهم نتائجه . ووضعت بعد الخاتمة ملحقاً لشرح ما ورد في البحث من الفاظ غريبة .

لقد هدفت - حين عزمت على المضي في هذا البحث - إلى أن أرسم لأبي بكر الزبيدى النحوي اللغوى ، صورة جليـــة الملامح ، واضحة القسمات ، تبرز أهم جهوده في تاريخنا اللغوي ، وتحدد مكانه بين علماء اللغة ، فأرجو أن أكون قد وفقت إلى ما هدفت إليه ،

ولم أنل الرسالة بتغيير ، حين قدمتها للطبع ، وانما حذفت منها فقرات يسيرة كنت قد أثبتها رغبة في اشباع بعض مناحي البحث :

ولابد من الاشارة إلى أن هـذا البحث كان في أولى مراحله مسجلا في كلية الآداب بجامعة عين شمس ، وكان لتوجيهات الاستـاذ الكبير عبد الحميد حسن ، المشرف عليه آنذاك ، الاثر الذي لا يجحد في إنارة سبيلي ، وأنا أخطو الخطوات الاولى في تهيئته والاعداد له . فاليه عظيم الاحترام وخالص التقدير .

وبعد أن نقلت دراستي إلى كلية الآداب بجامعة بغـــداد ، تولى الاستاذ الجليل الدكتور ابراهيم السامرائي الاشراف على هـذا البحث فرعاني خير رعاية ، وأمدني من علمه وخبرته الراسخة بما اعان على بلوغ ما كنت أصبو إليه من نضج وسداد : فاليه تحية التلميذ البار وشكر المعترف بالجميل .

ومن دواعي الاعتزاز أن ينال هذا البحث اعجاب الاستاذين الكبيرين الدكتور محمود غناوي الزهيري والدكتور هادى الحمدانى اللذين أطرياه على الملأ ، غداة الامتحان . وانى لذاكر - أبداً - جميل رأيهما فيّ .

ومن الله التوفيق

الفهرس

الباب الثاني
دراسة لآثاره
الفصل الاول

الفصل الثاني

كتاب « ابنية الاسماء والافعال »

الفصل الثالث

الفصل الرابع

البَابُ الأوَّلُ

عصر الزبيدي وحياته وآثاره

الفصل الأول

عصر الزبيدي

الحياة السياسة

ولد الزبيدي في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠هـ - ٣٥٠) وتوفى في عهد الحاجب المنصور (٣٦٦هـ - ٣٩٢ هـ) فامتدت حياته خلال فترة تعد ازهى عصور الاندلس ، وعاصر ثلاثة حكام اقوياء ، ردوا على الاندلس عازب أمنها واستقرارها ، وقضوا على الفتن التي اشعلها المتمردون والعصاة في انحائها ، حتى ليستطيع المؤرخ أن يسجل أن الاندلس لم تعرف الهدوء وقوة القانون ، واحترام الدول الاخرى لها إلا في هذا القرن .

كانت الاندلس في مدى النصف الثاني من القرن الثالث تضطرم بالفتن ، وتموج بالثورات ، وقد سقطت بعض مدنها بأيدي الثائرين ، وكان عمر بن حفصون أشد الثائرين خطرا ، فقد ارتد إلى المسيحية ، دينــه القديم ، وأسمى نفسه صمويل ، واستقل بغرناطة ، وتحصن بجبالها المنيعة ، كما استقل حاكم مرسية ، واستولى نصارى الشمال على طليطلة ، وهكذا اصبحت الدولة (ممزقة الاشــلاء منبتة الاواصر ، تبعثرت فيها المقاطعات المستقلة . . .) (١) وأوشك ملك بني أمية أن يتقوض ، واصبحت دولتهم اضعف من أن تقف بوجه أعدائها فى الداخــل والخارج ، وحاول الامراء عبثاً فرض سيادتهم ، واسترداد

---

(١) تاريخ الاسلام السياسي : ٣ / ١٧١ .

ما ضاع من ملكهم ، كما كانت خزائنهم تعاني عجزاً كبيراً ، اذا انقطعت عنها واردات المدن المستقلة ، واستنزفت حملاتهم الفاشلة على العصاة جزءاً كبيراً من مواردها ، فانتشر الغلاء ، وارتفع ثمن الخبز ، وكثرت عصابات اللصوص ، وعد الناس ما أصابهم ضربا من البلاء فتوجهوا إلى الله تعالى ، ليهيء لهم من أزمتهم الخانقة مخرجاً (١) .

وجاء القرن الرابع بتباشير الخلاص ، فقد توفي الأمير عبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن في مستهل ربيع الأول من سنة (٣٠٠ هـ) فخلفه حفيده عبد الرحمن الناصر وكان فتى يافعاً لا يجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، فتعلقت به القلوب ، وعقدت عليه الآمال ، ووجد الناس فيه خير من ينقذ ملك أجداده ، ويسترد ما فقد اسلافه من الاندلس (٢) : وكان الفتى النابه عند ظن الناس به ، فقد واجه الثورات بشجاعة فائقة ، وثقة كبيرة بالنفس ، وقاد بنفسه الجيوش ، وظل يوالي حملاته نيفا وعشرين سنة حتى استقامت له الاندلس كلها ، ولم يبق في جزء منها ثائر أومرتد . ولم يكتف بالقضاء على العصاة بل توغل في شمال الاندلس ، وغزا الدول النصرانية ، والقى الرعب في قلوب سكانها ، فاضطر ملوكها إلى عقد الصلح معه ، ودفع الجزية له (٣) ، كما استطاع أن يوقف توسع الفاطميين في شمال افريقيا (٤) .

ولابد من الاشارة الى أن الناصر قد حذا حذو المعتصم العباسي في عدم الثقة بالعرب والاسترابة باخلاصهم ، فأبعدهم وانشأ جيشاً من

(١) تاريخ الاسلام السياسي : ٣ / ١٧١ وما بعدها .
(٢) دولة الاسلام - محمد عبد الله عنان ، ص ٣٦٧ (ط ٣) .
(٣) تاريخ العرب في أسبانيا (ط ١) : ٤٩ - ٥٠ .
(٤) تاريخ الفكر الاندلسي : ٧ .

الصقالبة والمماليك ليوطد به ملكه (١) ، ويقضي على خصومه على نحو ما فعل المعتصم حين أنشأ جيشاً من الاتراك .

والصقالبة اسم يطلق على أسرى الحروب من البلاد الاوربية ، وعلى من يقع بأيدي المسلمين من الرقيق الذين يجلبون إلى قرطبة ليباعوا فى سوق خاصة بهم . وكان اليهود أهم من يقوم بهذه التجارة ، كما كان القراصنة الاسبان يغزون بمراكبهم السواحل ليصيدوا الناس ويبيعوهم في سوق الرقيق . وقد اشترى الناصر كثيراً من هؤلاء ونشأهم على طاعته والولاء له ، ودربهم على الحروب فاعتمد عليهم اعتماداً كبيراً بحيث كان يولي بعضهم أحياناً قيادة جيش كبير ، فعظمت منزلتهم ، وتجمع في قرطبة عدد ضخم منهم يتمتع بالجاه والثراء . فمثلوا فيها ما مثل الاتراك في بغداد على عهد المعتصم (٢) .

وقد عزا بعض المؤرخين سقوط الدولة الأموية في الاندلس إلى ابعاد العنصر العربي أو تقليل الاعتماد عليه وتقوية العناصر الاخرى التي اتسع نفوذها فنافست العرب على الحكم ، ولعبت دوراً مهماً في الفتنة الكبرى التي عصفت بالحكم الاموي ، واقامت على انقاضه دويلات الطوائف (٣) .

وحين بلغ الناصر ما أراد من توطيد ملكه ، والانتصار الباهر على أعدائه رأى أن يتسم بسمة الخلافة ، ويتلقب بلقبها ، ومن أحق بهذا

---

(١) ظهر الاسلام : ٣ / ١٢٥ ومابعدها . وانظر : تاريخ العرب فى أسبانيا : ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) ظهر الاسلام : ٣ / ٦ : وانظر : تاريخ الشعوب الاسلامية ٢ / ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٣) تاريخ العرب في أسبانيا : ٥٥ .

اللقب منه ، وقد نهض بدولة اسلامية كانت مهددة بالسقوط والانهيار وانقذ حكماً عربياً وهت دعائمه ، وأوشك أن يتقوض بنيانه ، بل انه لأحق من خليفة بغداد بهذا اللقب فقد تواترت عليه الأنباء عن ضعف الدولة العباسية ، واستبداد الاعاجم بخلفائها حتى صار بأيديهم تولية الخليفة وعزله ، وحياته وموته ، كما ان حاكم مصر الفاطمي قد لقب نفسه بالخلافة ، ولذلك أعلن عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة وتسمى بامرة المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله في مستهل ذي الحجـــة سنة (٣١٧ هـ) (١) .

وصفوة القول أن الاندلس على عهد الناصر قـد بلغت من القوة ما بوأها مركز الصدارة بين الدول الاسلامية آنذاك ، فلم يكن للخلافة العباسية ولا الخلافة الفاطمية ما كان للخلافة الاموية بالاندلس من قوة وهيبة ولذا فقد هاب الناصر ملوك روما والقسطنطينية وفرنسا وألمانيـا وتسابقوا لارضائه ، وأوفدوا عليـه رسلهم وهداياهم ، كما خشيه ملوك الاسبان المجاورون ، فكانوا يزورونه ، ويمثلون بخشوع امام سدته ، ويحتقبون جوائزه . وقد أطنب المؤرخون وخاصة المقرى في وصف هذه الوفود ، واستقبال الناصر اياهم بما يذهلهم من مظاهر العظمة ، ويعلي شأن المسلمين في نفوسهم (٢) .

وجاء بعد الناصر ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) الذي استفاد من الرعب الذي بثه أبوه في القلوب ، فلم تعترضه الثورات

---

(١) الحلة السيراء : ١ / ١٩٨ : وانظر : دولة الاســـلام في الاندلس : ٣٩٣ .

(٢) دولة الاسلام في الاندلس : ٤١٠ . وانظر : تاريخ العرب في أسبانيا : ٥٥ ، ٥٦ .

الجامحة التي اعترضت أباه في أول عهده (١) ، وظلت الدولة على أيامه مرهوبة ، عزيزة الجانب ، وقد ألقى إليه الاسبان المجاورون بالزمام ووفدوا عليه يخطبون وده ، ويستهيرونه في أمور ممالكهم ، ويلتمسون عونه على ما ينشب بينهم من نزاع (٢) ، فتميز عهده بالهدوء وقلة الحروب .

ولم يكن الناصر وابنه حاكمين قويين فقط بل كانا يحبان العدل ويعاملان الرعية به ، يقول ابن عذارى عن الحكم المستنصر مصوراً عدله : (وفي سنة ٣٥٦ هـ عهد الخليفة الحكم بمخاطبة العمال بكور الاندلس يمنعهم على جرأتهم ويحذرهم من سطوته وعقوبته إذا اتصل به أن بعضهم استزادوا زيادات فاحشات يعاملون بها الرعية ظلما لهم فأنكر ذلك عليهم) (٣) . ومما يؤثر عن عطف المستنصر على رعيته ، وميله إلى تخفيف آلام الفاقة عن معوزيهم ، أنه ابتنى داراً للصدقة و (اتخذها معهداً لتفريق صدقاته) (٤) . وكان يلتمس المناسبات ليسقط عن كاهل رعيته بعض الضرائب أو بعض ما تجمع عليهم منها فحين نقه من مرض ألم به سنة ٣٦٤ هـ اسقط (سدس المغارم عن الرعايا بجميع كور الاندلس شكرا لله على إنظاره له) (٥) . ولم يكن العدل والعطف على الرعية ، ومحاسبة العمال ومراقبتهم من صفات الخلفاء الامويين فقط بل كان ذلك ديدن من جاء بعدهم من العامريين أيضاً .

(١) تاريخ الاسلام السياسي : ٣ / ١٧٧ .

(٢) المصدر السابق ٣ / ١٧٧ .

(٣) البيان المغرب : ٢ / ٢٣٩ .

(٤) المصدر نفسه : ٢ / ٢٣٩ .

(٥) المصدر نفسه : ٢ / ٢٤٩ .

وولي بعد الحكم المستنصر ابنه الوحيد هشام الملقب بالمؤيد بالله وكان حدثاً في التاسعة من عمره ، وكانت امه أم ولد تدعى (صبح) وهي نصرانية نافارية ، فخشيت أن ينزع من ابنها سلطانه ، وينتقض عليه الطامعون ، فاتفقت مع محمد بن أبي عامر ، وكان كاتبها والمشرف على ادارة املاكها وضياعها ، على أن يضمن لابنها دوام السلطة وسكون الحال ، فتطلق يده نظير ذلك في الحكم . وقد نجح في سياسته وقضى على أعداء الخليفة الناصر ، ومناوئيه ومنهم عمه المسمى المطرف بن عبد الرحمن الناصر ، ثم استطاع بعد زمن أن يقصي جعفر المصحفي عن الحجابة ويأخذها لنفسه كما استأصل جميع منافسيه (حتى صار صاحب التدبير والمتغلب على الامور وحجب هشاماً المؤيد وتلقب بالمنصور واقام الهيبة فدانت له اقطار الاندلس كلها وأمنت به ولم يضطرب عليه شيء منها أيام حياته لعظيم هيبته وفرط سياسته) (١) .

واذن لم تفقد الاندلس على أيام المنصور ما كان لها من مجد سياسي واستقرار ، بل كان عهده وعهد ابنه المظفر آخر عهود البهاء والاشراق فيها . وولي بعد المنصور ابنه المظفر الذي لم يتغير في عهده شيء ولم يضطرب حبل الامن على أيامه ، وبقي الخليفة هشام محجوراً عليه ، وكانت أيام المظفر (أعياداً دامت سبع سنين إلى أن مات وثارت الفتن بعده) (٢) .

وجاء بعد المظفر أخوه فلم يقنع بالنيابة عن الخليفة ، ولم يكتف بالحجر عليه ، بل رام خلعه واغتصاب الخلافة لنفسه ، وأعلن نفسه ولياً

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب - المراكشي : ١٨ .

(٢) المعجب : ٢٥ ، ٢٦ .

للعهد ، فثار به الامويون محاولين الابقاء على الخلافة فيهم (١) وخلعوا هشاماً المؤيد وبايعوا ابن عمه محمداً الثاني الملقب بالمهدي ، فاستغل البربر والصقالبة اندلاع الفتنة ، فشاركوا فيها وخربوا قرطبة ، ونهبوا قصور الاسرة العامرية واحرقوها ، ولم تسلم مدينة الزهراء الجميلة ، بل لقيت شر ما تلقى المدن من نهب وتخريب وقتل واحراق ، وظل البربر ينقلون السلطة من شخص لآخر حتى تفرقت الاندلس إلى دول عديدة ، واصبح في كل مدينة منها منبر وأمير .

ولابد لي أن أذكر القارىء ان الزبيدي لم يشهد عصور الاضطراب السياسي التي سبقت خلافة الناصر كما لم يمتد به العمر ليشهد نشوب الفتنة بعد أن غاب عن المسرح آخر حاكم قوي هو الحاجب المنصور ، وقد صدقت عبارة ابن خاقان حين قال عن الزبيدي : (نجم والاندلس في اقبالها والانفس أول تهممها بالعلم واهتبالها) (٢) .

الحياة الاجتماعية

كان الفاتحون الأولون للاندلس من قبائل العرب المختلفة ، فمنهم العدنانيون من هاشميين وأمويين ، ومنهم اليمنيون كقبيلة كهلان والازد ، ولحق بهؤلاء مصريون وشاميون وعراقيون ، وكان البربر يؤلفون جزءاً كبيراً من جيش الفتح ، وقد امتزجت هذه العناصر كلها بسكان

(١) المعجب : ٢٥ ، ٢٦ . وانظر : تاريخ الشعوب الاسلامية : ٢ / ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) مطمح الانفس : ٦١ .

البلاد الاصليين (١) ، من أسبانيين وقوط وغيرهم ممن كانوا يقطنون الاندلس نازحين اليها من نواح مختلفة من أوربا ، ولذا فان المجتمع الاندلسي كان امشاجا من طوائف شتى تختلف في الدين والجنس والوطن ، وقد كانت العناصر الاربعة الآتيـــة هي التي تشكل غالبية هذا المجتمع :

١ ـ العرب : وكانوا يستشعرون التفوق على الاسبان والبربر ويرون أنهم هم الذين ادخلوهم في الاسلام ، كما كانت لغتهم الغنية تزيدهم زهوا على غيرهم .

٢ ـ البربر : وكانوا يحسون انهم شركاء العرب في الفتح ، ونظراؤهم فى الدين والبداوة والشجاعة ، ولذلك كان هـذا العنصر مثار متاعب ، ولطالما تمرد وأشعل نيران الثورات .

٣ ـ الاسبان : وهم الذين لم يدخلوا في الاسلام وآثروا البقاء على دينهم المسيحي ، وكانوا يمقتون العرب والبربر ويرونهم دخلاء مغتصبين .

٤ ـ المسلمون المولدون من تزاوج العرب بالبربر أو العـــرب بالاسبانيات والصقالبة ، وقـد كان من هؤلاء جيل جديد يحمل صفات خاصة ، واتسم المولدون من الاسبانيات بالذكاء والشجاعة والجمال (٢) .

ولم ينتصر العرب على سكان البلاد حربيا فقط بل مالبثوا أن نشروا الدين الاسلامي واستمالوا اليـه الكثير من أهل البلاد فدخلوا فيه ، وتعلموا العربية ونسوا لغاتهم اللاتينية ، وانكروا ما عرفوا من تعاليم دينهم المسيحي ، فجأر القسيسون بالشكوى ، وتذمروا من موجة

(١) ظهر الاسلام : ٣ / ١ .
(٢) ظهر الاسلام : ٣ / ٢ .

الفتح الروحي التي أعقبت الفتح العسكري ، وهالهم أن يخرج مواطنوهم عن دينهم ، وينسوا لغاتهم (١) .

ويعلل الاستاذ أحمد أمين اقبال الاسبانيين على اللغة العربية ، وتعصبهم لها ضد لغاتهم ، بأنها لغة تزخر بالعلوم والمعارف التي افتقرت اليها لغاتهم ، يضاف إلى ذلك انها لغة الفاتحين (٢) .

ولم يكن هذا الشعب المؤلف من عناصر متباينة بالذي تسهل سياسته ، ويمكن ضبطه ونشر الاستقرار في ربوعه ، فقد كان كل عنصر متربصاً بالآخر ، حاقدا عليه ، فالبربر ينفسون على العرب سلطانهم ، ويتحينون الفرص للادالة منهم ، والاسبان يمقتون العرب والبربر ويرون أنهم أحق منهم بحكم بلادهم ، ولذلك كثرت الفتن ، ونشبت الثورات وتكرر انفصال بعض المدن عن العاصمة قرطبة .

وكانت هذه العناصر المختلفة تصطرع مالم يثبت الحاكم كفايته وما لم تأنس فيه القوة والبطش ، وقد رأينا الاندلس تهدأ وتستقيم أمورها ، وتنقشع عن جوها سحب الفزع والاضطراب منذ تولى الناصر حتى سقطت دولة بني عامر سنة (٤٠٠ هـ) لأن ملوك هذا العهد كانوا أقوياء حازمين .

وقد ظهرت الشعوبية وجهر أهل الاندلس الاصليون بالافتخار بآبائهم وأجدادهم حين رأوا ارستقراطية العرب وازدراءهم العناصر الاخرى وشموخهم بأنوفهم على من سواهم وبذا ظهر تيار يعادي العرب ويحاول سلبهم فضائلهم ، ويجرؤ على غمزهم وتقديم الاسبان عليهم كما

---

(١) ظهر الاسلام : ٣ / ٧ .

(٢) المصدر نفسه : ٣ / ٧ ، ٨ .

فعل الفرس في المشرق (١) .

وبسبب من اختلاط العناصر وتشابك الاجناس غزا اللحن الالسنة ونشأ الخطأ اللغوي ، وقامت لغة خطاب عامية تختلف عن عامية المشرق ولم يكن اللحن والتخفف من قيود الفصحى مقصوراً على العامة ، بل ارتكبه خاصة القوم وادباؤهم مما حمل الزبيدي على أن يضع كتاباً يجمع فيه أخطاء أهل بلده ويرشدهم إلى وجه الصواب فيها ، وقد ذكر فيه نماذج من لحن الخاصة ، ويبدو أن اللحن قد استفحل بعد عصر الزبيدي بحيث تورط فيه بعض النحاة كأبي علي الشلوبين الذي يروون انه كان لحاناً لا يكاد يبين (٢) :

وقد سلمت الاندلس من شرور الاختلاف المذهبي بين المسلمين ، ولم ينشب فيها ما نشب من صراع عنيف بين المذاهب في المشرق ، فقد كان الاندلسيون (يدينون بمذهب الاوزاعي متأثرين في ذلك بالشاميين الذين كانوا في الجند الذي فتح الاندلس إذ كان الاوزاعي بيروتيا وكان اماماً كبيراً وفقيهاً معدوداً ، ثم انتقلوا إلى مذهب الامام مالك) (٣) .

ويبدو أن مذهب مالك قد ساد الاندلس ، وكان للفقيه عيسى بن دينار المقام الأول في نشر هذا المذهب فيها ، اذ انه كان مالكيا ، وقيل انه لقي الامام مالكاً وتلمذ له ، كما اتيح لهذا المذهب نصير آخر جهد في نشره ، بما كان له من نفوذ في البلاط ، وسلطان على الخلفاء ، ذلك هو الفقيه يحيى بن يحيى الليثي الذي كان مالكيا خرج إلى

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية : ٢ / ١٦١ .

(٢) نفح الطيب : ١ / ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٣) ظهر الاسلام : ٣ / ٢٩ ، ٣٠ .

المدينة وتفقه على مالك ، وروى عنه الموطأ ، وقد عهد اليه الخلفاء باختيار القضاة (فكان لا يختار الا المالكية وإذ ملأ الناس حب الدنيا رغبوا فى المذهب للمنصب) (١) : وان يكن قد ظهر في الاندلس بعض الناس الذين اعتنقوا الاعتزال او التشيع ، أو أخذوا بالمذهب الظاهري فان هؤلاء كانوا قليلين اذا قيسوا بالاكثرية التي تدين بمذهب مالك (٢) .

ولم تكن الاندلس في عهد من عهودها أغنى ولا أكثر خصباً وامراعا ووفرة خيرات مما كانت عليه في عهد الناصر (٣) ، فقد بسط الرخاء ظله على الجميع ونعموا بعيش آمن ، وجنوا ثمار ازدهار الزراعة والتجارة والصناعة حتى ارتفع دخل الدولة السنوي من طريق الضرائب والمكوس فبلغ على عهد الناصر (٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠) مليون دينار (٤) ، وقد روي أن الناصر كان يرصد ثلث هذا المبلغ لتغطية نفقات الدولة الخارجية ، ويدخر ثلثه الثاني في الخزانة ، وينفق الباقي على مشروعات البناء التي جعلته من أعظم رجال العمران في الاسلام (٥) ، فصارت قرطبة في عهده تفوق كثيراً من مدن اوربا ، وتضاهي بغداد في بهائها وفخامة قصورها (٦) .

وقد حفظت كتب التاريخ أوصاف مدينة الزهراء التي بناها الناصر وأسماها باسم جارية حظية عنده ، فقالوا (انه عمل في بنائها

---

(١) ظهر الاسلام : ٣ / ٤٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٣ / ٣٠ .

(٣) تاريخ الاسلام السياسي : ٣ / ١٧٧ .

(٤) ظهر الاسلام : ٣ / ٦ ، ٧ .

(٥) تاريخ الشعوب الاسلامية : ٢ / ٥٥ .

(٦) تاريخ الفكر الاندلسي : ٨ .

عشرة آلاف عامل في خمس وعشرين سنة وبقي فيها قصر للخليفة ومنازل للموظفين إلى البساتين والقاعات من الذهب والرخام ذي ألوان متعددة) (١) :

وعرف الاندلسيون بالاناقة ونظافة اللباس والمأكل (٢) ، فكانوا يفضلون المأكل النظيف البسيط على المأكل الفخم القذر ، وكانوا يضيقون بغطاء الرؤوس فاعتاد أغلبهم السير في الشوارع ورؤوسهم عارية ولم يتحرج رجل القضاء من أن يضع العمامة ويسير مكشوف الرأس في الطريق (٣) .

ويدل اختيارهم لباس البياض عند الحداد على أنهم يضيقون بالألوان المعتمة ، فلا شيء يجبرهم على لبسها حتى الحزن ، وقد يكون انصرافهم عن السواد أن اللون الاسود شعار العباسيين الذين كانوا أعداء الامويين :

ومما يعطينا صدرة لانغماس القوم بالترف والرخاء ما عرفوا به من شغف بسماع الغناء ، وكلف بمجالسه ، فقد كانوا يفضلون الضروري من العيش مع السماع ، على العيش المترف الذي يحرمون معه من شدو القيان وتناوح العيدان (٤) ، ولم تكن مجالس الغناء مقصورة على قصور الخلفاء والاغنياء بل كانت تعقد في بيوت الأوساط أيضاً .

وكانت المرأة متاعاً رخيصاً فقد امتلأت الاندلس على عهد الحاجب المنصور بما جلب إليها من سبي وغنائم ، وغصت سوق الرقيق في

(١) ظهر الاسلام : ٣ / ٦ ، ٧ .

(٢) نفح الطيب : ١ / ٢٠٨ .

(٣) المصدر نفسه : ١ / ٢٠٧ .

(٤) ظهر الاسلام : ٣ / ٣٠ .

قرطبة ببنات الروم وأولادهم حتى (نودى على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبـــة وكانت ذات جمال رائع فلم تساو اكثر من عشرين ديناراً) (١) وقد أدى رخص اثمان الجواري إلى أن ينصرف النـاس عن التزوج من الحرائر فكان الآباء يغالون فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلي ليرغبوا فيهن ، ويكسبوا الازواج لهن (٢) .

وامتلأت البيوت الاندلسية بالحرائر والاماء من الاسبانيات وغيرهن حتى أصبح ما يجرى فيها من نزاع بين الحرائر والاماء وما ينشب من صراع بين أولادهن ، صورة لما يحدث في المجتمع من فتن واصطراع . ولا ريب في أن الاندلسيين أخطأوا في الاكثار من اقتنـاء الجواري الاسبانيات وغيرهن فقد كن (يتظاهرن بحب العروبة والاسلام ولكنهن لم ينسين نصرانيتهن ولا أسبانيتهن فكان بعضهن جاسوسات على الخلفاء ينقلن لقومهن دقائق الامور ، ويوقعن المسلمين في أشـــد أنواع الحرج) (٣) .

وكان الاندلسيون يتساهلون فى حجـاب الاماء والسرارى ولكنهم يحجبون الحرائر وربما كان حجابهن أكثف من حجاب حرائر المشرق ، وقد قابلوا سفور ولادة بنت المستكفي بشيء من الاستغراب ولم يستسيغوا أن تبرز للرجال وتسمر معهم وتشارك في الشعر والادب (٤) :

وقـد كان من النساء في جميع العصور من أثرت في السياسة وتدخلت في شؤون الدولة ففي عهد عبد الرحمن الثاني كان لطروب ،

(١) المعجب : ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) ظهر الاسلام : ٣ / ٣٠ ، ٣١ :

(٤) المصدر نفسه : ٣ / ٣٠ .

زوجه الاثيرة عنده ، نفوذ واسع ، كما كان لمولاها نصر الخصي الأسباني دور في تسيير دفة الامور ، وقد شارك طروبا ونصرا في نفوذهما المغني زرياب والفقيه يحيى بن يحيى الليثي وان كان الاخير دون أولئك نفوذاً وحظوة (١) .

ولم يعدم عهد الناصر امرأة ذات نفوذ ، فقد كانت الزهراء حظيته سبباً في بناء مدينة الزهراء الجميلة ، كما استطاعت صبح أن تبسط سلطانها على زوجها الحكم المستنصر وتتدخل في شؤون الدولة بمعاونة صاحبها جعفر المصحفي ، ثم هفا فؤادها لشخص آخر ، وهو المنصور ابن أبي عامر ، وتمكنت بينهما الصلة ، فعينته بعد وفاة الحكم حاجبا أي رئيس وزارة وأطلقت يده في الحكم كما تقدم :

الحياة العقليه

دخل المسلمون الاندلس فوجدوا بلداً مقفرا من مظاهر الفكر والحضارة ، ورأوا شعباً متخلفاً من القوط الغربيين ، ولكن الفاتحين الأولين لم يكونوا إلا محاربين متحمسين لنشر الاسلام ، وتوطيد الظفر وبسط النفوذ ، فانصرفوا عن التفكير بالعلم (٢) ، وانشغلوا بما واجهوا من مصاعب وما نشب من صراع تعددت بواعثه ، وقد كان الصراع عنيفاً بين القبائل العربية من يمنية ومضرية وكان الخلاف قوياً بين العرب والبربر وبين العرب والاسبان ، وطبيعي أن لا يكون للعلم مكان

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية : ٢ / ١٤٨ . وانظر نفح الطيب : ١ / ٣٢٧ .

(٢) تاريخ الفكر الاندلسي : ٢٢٣ .

في هذه الظروف المضطربة ، وحين هدأت الامور ، وولي الحكم بعض الامراء الاقوياء ، ظهرت بواكير الحركة الفكرية (١) ، وقد تآزرت عوامل عديدة على تطوير الحياة العقلية منها :

١ - الرحلة في طلب العلم

كان المشرق موئل الحركة العلمية ، ومهبط العلماء ، ومثابة الطلاب وحط رحالهم ، فرحل بعض الاندلسيين اليه ، والتقوا بشيوخ العلم فيه وأخذ كل منهم العلم الذي ندب نفسه لتحصيله والتبحر فيه ، فمنهم من طلب الفقه ومنهم من استماله الحديث ، ومنهم من تعلم النحو والصرف أو التفسير والقراءات وقد توفر بعضهم على عدد من هذه الفروع . وكان هؤلاء الراحلون إلى الشرق للتزود من العلم كثيرين ، وبلغ من اقبالهم على الرحلة انهم كانوا يعيبون الشخص إذا قعد عنها ولم يؤم حواضر العلم في المشرق (٢) .

وذكر صاحب النفح ثبتاً طويلا باسماء الذين رحلوا من الاندلس للشرق طلباً للعلم . وقد أسدى هؤلاء الراحلون خيراً كثيراً للحركة الفكرية ، فقد عادوا لبلدهم يحملون معهم الكتب ، ويدرسون ، ويؤلفون .

٢ - هجرة بعض اللغويين المشارقة إلى الاندلس :

ولقد كان الذين رحلوا الى الاندلس من علماء المشرق قليلين لا يقاسون بكثرة الذين وفدوا على المشرق من أهل الاندلس (وكانت لهم من الرحلة غايات منها التجارة أو التكسب عامة أو أسباب أخرى

---

(١) ظهر الاسلام : ٣ / ٢١ .

(٢) المصدر نفسه : ٣ / ٢٤ .

خاصة) (١) وكان بعضهم يظن أن الاندلس قطر متأخر في النواحي العلمية ثم يتبين أن فيها نهضة علمية تبعث على الاعجاب ، من هؤلاء أحمد بن محمد بن هارون البغدادي الذي قال لمن سأله بعد دعوته كيف تركت الاندلس (والله لقد رأيت بها مالم أتوهم ان أراه مع نأي دارها ، لقد رأيت فقهاً وشعراً ونحويين وأدباء) (٢) .

وقد ظن القالي بالاندلس مثل هذا الظن قبل أن يفد عليها ولكنه وجد فيها ما حمله على الاعجاب بذكاء القوم ، وتقدير ما كانوا عليه من حال فكرية تعد أرقى كثيراً مما كانت عليه بلدان المغرب الاخرى .

يقول القالي : (ولما ذكرت القيروان وانا اعتبر من أمر به من أهل الامصار فاجدهم درجات في العبادات وقلة الفهم بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد ، كأن منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم محاصة ومقايسة :

قال أبو علي فقلت ان نقص أهل الاندلس عن مقادير من رأيت في افهامهم بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم فسأحتاج إلى ترجمان في هذه الأوطان ، قال ابن بسام فبلغني انه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق الاندلسي في ذكائهم ويتغطى عنهم عند المباحثة والمناقشة ويقول لهم : (ان علمي علم رواية وليس علم دراية ، فخذوا عني ما نقلت فلم آل لكم ان صححت) (٣) .

وقد انفض الاندلسيون عن حلقات بعض المشارقة الوافدين عليهم وخطأوا البعض الآخر وتتبعوا سقطاته ، واوشك القالي نفسه أن يخسر

(١) الحركة اللغوية في الاندلس : ٥٨ .

(٢) طبقات الزبيدي : ٢٩٦ .

(٣) نفح الطيب : ٤ / ١٥٠ .

ثقة القوم به لولا انه أظهر لهم ما أعلى شأنه لديهم ، فقد انسلخ من الوفد الذي استقبله يوم وفوده على قرطبة رجل من اهل الأدب والمعرفة يدعى ابن رفاعة الالبيري وذلك لانه سمع القالي ينشد بيت عبدة ابن الطيب :

ثمت قمنا إلى جرد مسومة   اعرافهن لأيدينا مناديل

فانشده القالي (أعرافها لا يدينا مناديل) فاستعاد الالبيري أبا علي البيت مرتين وقد أنشده في كلتيهما (اعرافها) فلوى ابن رفاعة عنانه منصرفاً وقال (مع هذا يوفد على أمير المؤمنين ويتجشم الرحلة لتعظيمه وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا تغلط الصبيان فيه ، والله لاتبعته خطوة ، وانصرف عن الجماعة وندبه أميره ابن رماحس أن لا يفعل فلم يجد فيه حيلة وكتب إلى الحكم يعرفه ويصف له ماجرى لابن رفاعة ويشكوه فأجابه على ظهر كتابه الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطىء وافد العراق الينا ، وابن رفاعة أولى بالرضا عنه من السخط ، فدعه لشأنه ، وأقدم بالرجل غير منتقص من تكرمته فسوف يعليه الاخبار ان شاء الله أو يحطه) (١) .

والذي لاريب فيه أن الذين وفدوا على الاندلس من علماء المشرق قبل أبي علي لم يكن لهم الا أثر ضئيل محدود في النهضة العلمية فيها (وذلك لقلـــة عددهم ولانهم لم يكونوا من طراز عال في علمهم واطلاعهم) (٢) :

وأما القالي فقد ملأ الاندلس علماً ولغة ، ووجه الدرس اللغوي توجيها خاصاً ، وترك فيه أثراً بارزاً . ويمكن اجمال تأثيره في حياة

(١) نفح الطيب : ٤ / ٧٠ ، ٧١ :

(٢) الحركة اللغوية في الاندلس : ٦٢ .

اللغة في الاندلس بنشره الكتب الكثيرة التي حملها معه وكان معظمها من الاصول المعتمدة المقروءة على العلماء ، وبتأليفه الكتب التي ظلت مدار التاليف ومحور النشاط اللغوي للاجيال القادمة ، تشرحها وتكملها وتدرسها ، كما انه خرج طبقة من العلماء ، واستكمل آخرون منهم درسهم عليه .

٣ - هجرة الكتب المشرقية إلى الاندلس

ان هؤلاء الراحلين من اندلسيين ومشارقة قد غذوا الحياة الفكرية (لا بما جلبوه من علم مروي فحسب ، وانما بالكتب التي هاجرت معهم) (١) فقد كان بين أيدى القوم كتب الاعلام الشهيرة في اللغة والحديث والفقه والعلوم ، وان كنا لا نعرف جميع الكتب التي دخلت الاندلس في هذه الفترة فاننا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن كثيراً من كتب الاصمعي والكسائي والفراء والمبرد وابن قتيبة والمازني وابن ولاد قد عرفها الاندلسيون وتداولوها . كما أن كتاب سيبويه قد دخل الاندلس فاعتنى به أهلها وعكفوا عليه ، وكان اهتمامهم بكتاب (العين) كبيراً فقد وصلت اليهم نسخ عديدة منه ، ولقي كتاب (الغريب المصنف) لأبي عبيد القاسم بن سلام الاهتمام نفسه .

٤ - جهود الخلفاء

يعد الخليفة الناصر أول من رعى الحركة الفكرية (وكانت مكتبة القصر التي عني بها دليلا واضحاً على الدرجة العالية التي بلغتها الثقافة الاندلسية في عصره) (٢) وكان لابنه الحكم فضل كبير فيما بلغته الثقافة الاندلسية من نضج وازدهار فقد كان هو نفسه مثقفاً وتلميذاً

(١) الحركة اللغوية في الاندلس : ٦٢ .

(٢) تاريخ الفكر الاندلسي : ١٠ .

لاستاذين جليلين هما القاسم بن اصبغ والخشني محمد بن عبد السلام، وعده المقري واحداً من علماء الاندلس كما انكر ابن الابار على ابن الفرضي وابن بشكوال عدم ذكره فيمن ترجما لهم من أعيان أهل العلم (١) ، ولذا قرب العلماء إليه ، واستقدم بعضهم من المشرق واسنى لهم العطايا ، وأغدق عليهم الصلات ، وشجعهم على البحث والتأليف ، فألف بعضهم كتبه تلبية لرغبته ، أو طمعاً في الحظوة لديه ومن الكتب التي أهديت إليه وكان له الفضل في ظهورها كتب الزبيدي الثلاثة وهي طبقات النحويين ولحن العامة ومختصر العين ، وكتاب قاسم ابن اصبغ وغير ذلك من كتب العصر ، كما كان الحكم اكثر الخلفاء الاندلسيين تسامحاً وحرية فكر ، فلم يحظر علماً ، ولم يضطهد فئة من أهل الفكر بل أطلق الحرية للرياضيين والفلكيين والمشتغلين بالكلام والطب ونال كل هؤلاء تشجيعه ، وتقلبوا في نعمائه (٢) .

وحين نذكر جهود الحكم في تشجيع العلم ورعاية أهله نذكر عنايته بجمع الكتب وولعه الشديد بشراء النادر القيم منها ، فاستجلب من بغداد ومصر وغيرهما من ديار المشرق والمغرب عيون التآليف والمصنفات الغريبة في العلوم القديمة والحديثة (وكان له وراقون باقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف ، ورجال يوجههم إلى الآفاق عنها) وقيل انه (لم يسمع في الاسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وايثارها والتهمم بها) (٣) . وقد ابتنى سبعاً وعشرين

(١) نفح الطيب : ١ / ٣٧١ ، ٣٧٢ .

(٢) تاريخ الفكر الاندلسي : ١٠ وما بعدها .

(٣) الحلة السيراء : ٢٠٠ ، ٢٠٢ .

مدرسة في قرطبة وأدخل فيها الطلاب الفقراء مجاناً (١) .

أما الحاجب المنصور فلم يكن مثل الحكم في هذه الناحية بل (تعثرت الحضارة الاندلسية في سيرها على أيامه) (٢) وحاول استرضاء الفقهاء فأحرق ما كان بمكتبة القصر من كتب الفلك والفلسفة وغيرهما من العلوم ليظفر بتأييدهم وينال حب العامة (٣) .

ومال المنصور إلى العناية بالادب وتشجيع الشعراء فجعل لهم ديوانا صنفهم فيه على طبقات وجعل رواتبهم على قدر حظوظهم من الاحسان فأطلق السنتهم في مدحه والاشادة بأعماله (٤) . ومن العلوم التي حظيت بتشجيعه ، التاريخ ، فقد كانت لابن الفرضي المؤرخ في بلاطه كما كان صاعد البغدادي من الذين تألق نجمهم فيه (٥) .

نجمت عن تضافر هذه العوامل حركة فكرية ناشطة وبرز اعلام كثيرون في مختلف العلوم العقليـــة والنقلية واللسانية ، حتى تبوأت الاندلس مكانة علمية نالت اعجاب الذين وفدوا عليها من علماء المشرق كما سلف به البيان . وسأتناول مظاهر هذه النهضة العلمية وما امتازت به في كل جانب من جوانبها العديدة .

١ ـ العلوم الدينية :

لقد كان في الجيش الذي فتح الاندلس بعض الصحابة والتابعين كالمنذر أو المنيذر وهو صحابي ، وموسى بن نصير وعلي بن رباح وحنش

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية : ٢ / ١٦٢ .

(٢) تاريخ الفكر الاندلسي : ١٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٢ .

(٤) المصدر نفسه : ١٢ ، ١٣ .

(٥) المصدر نفسه : ١٣ :

ابن عبد الله الصفاني وهم من التابعين (١) ، وقد كان هؤلاء الرعيل الأول الذي بذر البذرة الأولى للعلوم الدينية ، إذ ان جهودهم لم تتعد قراءة القرآن بالقراءات وتحفيظه ، وتفسير الحديث واستنباط الأحكام منه ، وبيان ما يتعلق به من سيرة الرسول وغزاوته (٢) ، ثم خطت العلوم الدينية خطوة أبعد على أيدي علماء الطبقة الثانية وأشهر رجالها عبد الملك بن حبيب السلمي ويحيى بن يحيى الليثي وعيسي بن دينار فقد عمل الاول على نشر مذهب مالك كما كان له دور في تعليم الفقه إذ كان فقيهاً ومؤرخاً وعالما باللغة والاعراب (٣) .

وأما يحيى بن يحيى الليثي فقد أتم نشر مذهب مالك (٤) ، ووضع نظام القضاء في الاندلس ، وأسس مجلساً للشورى يضم عدداً من القضاة لينظر في المشكلات الفقهية . ولم تقتصر جهود عيسى بن دينار على تولي القضاء وعضوية مجلس الشورى الفقهي بل كان (مؤلفاً مكثرا ألف كتاب الهداية ويقول ابن حزم انه ارفع كتب جمعت في معناه على مذهب مالك وأجمعها للمعاني الفقهية على المذهب) (٥) .

وجاءت بعد هؤلاء طبقة أخرى خطت بالعلوم الدينية خطوة جديدة واكثر رجالها من التأليف ، فكانت كتبهم طرازاً جديداً ، لأنها كتب حديث وفقه معاً (٦) ، ومن كبار المحدثين في هذه الحقبة قاسم بن

---

(١) ظهر الاسلام : ٣ / ٤٨ .

(٢) المصدر نفسه : ٣ / ٤٨ .

(٣) المصدر نفسه : ٣ / ٤٩ :

(٤) المصدر نفسه : ٣ / ٤٩ .

(٥) المصدر نفسه : ٣ / ٥٠ .

(٦) ظهر الاسلام : ٣ / ٥٠ ، ٥١ .

أصبغ الذي رحل إلى المشرق وساح في حواضر العلم وعاد بعلم غزير ، وكان بصيراً بالحديث والرجال فألف كتاباً طويلا واختصره سماه (المجتنى) وأهداه للحكم المستنصر وضمنه الفين وأربعمائة وأربعة وتسعين حديثاً في سبعة أجزاء ، صنفه على أبواب الفقه وهي طريقة جديدة كان له فضل نشرها في الاندلس . وله كتاب جليل في بيان صحيح الحديث وغريبه ، ودارت بعض كتبه حول علوم القرآن فقد ألف في أحكام القرآن والناسخ والمنسوخ (١) .

وكان بقي بن مخلد (٢٧٢ هـ) مبتكر طريقة تصنيف الاحاديث على أبواب الفقه (٢) وكان واسع الاطلاع لم يتعصب لمذهب مالك ولم يقتصر على السماع من المالكيين بل سمع من الشافعيين كما كان من كبار أصحاب أحمد بن حنبل ، ولذا إنه لم يتابع مذهباً معيناً كالذي فعله سلفه من علماء الاندلس بل (كان يصدر آراءه في المسائل بحسب مايتراءى له معتمداً على آي الكتاب) (٣) ، فلم تعجب طريقته فقهاء الاندلس الذين كانو ايتعصبون لمذهب مالك ، وينكرون الاستقلال بالرأى أو اتباع أي رأي آخر ، وقد حاولوا الايقاع به ، وايغار صدر الامير محمد بن عبد الرحمن عليه ، واتهموه بأنه يقرأ على الناس مسند ابن أبي شيبة وهو لا يعرض آراء المدنيين وحدها بل آراء غيرهم كذلك (٤) .

ولذا ان ابن حزم لم يكن غالياً حين عد بقي بن مخلد مفخرة

---

(١) فهرست ابن خير : ١٢٥ وظهر الاسلام : ٣/ ٥٠ ، ٥١ :
(٢) ظهر الاسلام : ٣ / ٥١ .
(٣) تاريخ الفكر الاندلسي : ٤٠٧ وما بعدها .
(٤) المصدر السابق : ٤٠٧ ، ٤٠٨ ه

الاندلس (١) ، لأنه كان أول من نزع الى الاجتهاد والاستقلال بالرأي وله تفسير كبير فضله ابن حزم على تفسير الطبري وغيره حيث قال : (اقطع قطعا لا استثني فيه أنه لم يؤلف مثله في الاسلام لا تفسير محمد ابن جرير الطبري ولا غيره) (٢) وله مصنفات أخرى في الحديث وفتاوى الصحابة والتابعين (٣) . ومن المفسرين النابهين فى هذه الحقبة ابن عامس عثمان بن محمد (٣٥٦ هـ) ، ومكي بن أبي طالب (٤) .

ومن علماء الحديث الذين كانت لهم في تفسيره طريقة جديدة تخالف ما كان عليه فقهاء الاندلس ، ابن القوطية الذي أسخط العلماء فطعنوا عليه بأنه يفسر الحديث على هواه (٥) .

والذي يرصد حركة التأليف في الحديث في هذه الحقبة التي نؤرخ لها ، يجد ظاهرتين بارزتين : أولاهما أن كتب الحديث هي كتب فقهية أيضاً ، اذ أن الحديث مصنف فيها على أبواب الفقه ، وثانيتهما أن غالبية المؤلفين مالكيون يعالجون المسائل في ضوء هذا المذهب ككتاب (الكافي فى الفقه على مذهب مالك) ليوسف بن عبد البر وكتاب (التمهيد) له أيضاً ، صنفه في فقه الحديث (٦) ولم تظهر كتب تنزع إلى الاستقلال عن مذهب مالك أو تجهر بما يخالفه ويشذ عنه ، عدا ما رأينا من محاولات بقي بن مخلد وابن القوطية اللذين قابلهما علماء

---

(١) ظهر الاسلام : ٣ / ٥١

(٢) نفح الطيب : ٤ / ١٦٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٤ / ١٦٢ :

(٤) تاريخ الفكر الاندلسي : ٤٠٨ .

(٥) المصدر نفسه : ٣٩٥ :

(٦) ظهر الاسلام : ٣ / ٥١ .

الدين بالاستنكار فسموا بالأول ، وحاولوا الحاق الأذى به ، واتهموا الثاني وطعنوا عليه :

وقد نجم عن اجماع الفقهاء على مذهب مالك ، وتعصبهم له انعدام الخلاف بينهم ، ولذا إن ما يسمى بكتب الخلاف الفقهية لم تظهر في الاندلس إلا بعد هذا العصر الذي نؤرخ له حين ضعفت سيطرة المذهب المالكي ، وكثرت المذاهب من ظاهرية ومالكية وشافعية وشيعة في حين كانت كتب الخلاف كثيرة في المشرق : وهي كتب تجمع آراء الفقهاء في المسألة الواحدة ككتاب (اختلاف الفقهاء) للطبري (١) :

٢ ـ العلوم العقلية :

نشطت هذه العلوم في الاندلس ، وكان الطب أسبقها إلى الظهور وذلك لحاجة الناس والحكام الأولين إلى أطباء يداوونهم ، وكان هذا العلم قد وفد عليهم من المشرق ، حمله يونس الحراني منذ وقت مبكر (٢) .

وفي عهد الناصر وصلت إلى الاندلس نسخة من كتاب ديسقوريدس في النبات ، وكان قد ترجمه من اليونانية أيام المتوكل اسطفن بن باسيل ثم صحح الترجمة حنين بن اسحاق ، إلا ان المترجم لم يستطع ترجمة بعض أسماء العقاقير إلى العربية فكان للاندلس فضل اكمال ترجمة الكتاب وتفسير المجهول من مصطلحاته وذلك عندما بعث ارمانيوس ملك القسطنطينية بنسخة منه هدية للناصر ، وأرسل راهباً يدعى نيقولا فعلم الناس ما جهلوا من أسماء عقاقير الكتاب ، فاكرم الناصر مثوى الراهب

(٣) ظهر الاسلام : ٣ / ٥٢ .

(٢) تاريخ الفكر الاندلسي : ٩

وتلمذ له بعض أطباء الاندلس (١) .

ولم ينكر أهل الاندلس العناية بالطب ، ولكنهم انكروا الفلسفة ورموا من يتظاهر بهـا بالكـفر والزندقة والالحاد ، واضطهد الفقهاء المالكيون كل من رام التجديد (واتهموا من تكلم في المنطق في دينه) (٢) ولم يسمحوا بأي مذهب يخالف مذهبهم حتى لقـد منعوا الناس قراءة كتب بعض الاجلاء من أهل السنة كمسند ابن أبي شيبة وكتـاب المعارف لابن قتيبة (٣) ، وسعوا ببقي بن مخلد لانه أراد أن يعلم الفقه الشافعي في الجامع (٤) ، وطبيعي الا تنشأ حركة فلسفية في هذا الجو الذي قيد عقول الناس ، وكبل تفكيرهم ، وكان العوام أشد من الفقهاء كراهة للفلسفة والتنجيم ، وأثقل وطأة على من يتعاطى هذين العلمين أو يتهم بهما ، إذ كانوا يراقبونه ، فان حامت حوله شبهة رجموه أو حرقوه قبل أن يصل امره إلى السلطان ، وقـد يقتله السلطان استرضاء للعامة ، وأحرق بعض ملوكهم كتب الفلسفة كما فعل الحاجب المنصور (٥) ،

ولكن لم تعدم الفلسفة عهداً رعاها وآزر حركتها ، ذلك هو عهد الحكم المستنصر الذي كان اكثر الخلفاء حرية وتسامحاً ، فلم يحظر علماً ولم يؤذ فئة و (نقل إلى الاندلس كثيراً من الكتب ومنها الكتب الفلسفية التي ترجمت عن اليونانية ولم يظهر كتـاب عظيم في الفلسفة

---

(١) ظهر الاسلام : ٣ / ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

(٢) تاريخ الفكر الاندلسي : ٣٢٤ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٢٤ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٢٤ .

(٥) نفح الطيب : ١ / ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

إلا وينقل فوراً إلى الاندلس) (١) . وكانت رسائل اخوان الصفاء من كتب الفلسفة التي دخلت الاندلس (٢) ، كما لعب ملوك القسطنطينية دوراً كبيراً في ايقاد جذوة هذا العلم إذ أهدوا خلفاء بني أمية بعض الكتب الأدبية والفلسفية (٣) ؛

ولم يظهر في الاندلس فيلسوف قبل ابن مسرة في اوائل القرن الرابع ، وكان أول أمره معتزلا يخفي اعتزاله ، لانه مذهب غير مرغوب فيه كغيره (٤) ، ثم أصبحت له آراء نسبت إليه ، فانحاز إليها الكثيرون عن تلمذوا له وأتبعوه ، وفي بعض آرائه أثارة من اطلاعه على الفلسفة اليونانية ، وقيل ان كثيراً من تعاليمه ذات صبغة الحادية تشبه تعاليم امبيد وقليس وهو فيلسوف يوناني مشهور (٥) .

وتعرض ابن مسرة للاضطهاد في حياته ، واشتد الهجوم على اتباع مذهبه حين أظهر الحكم في أخريات أيامه الرغبة في التكفير عما أبدى من تسامح وميل إلى الفلسفة ، وكان أبو بكر الزبيدي والقاضي محمد ابن يعز وأبو عمر بن الطلمنكي من أشد خصوم ابن مسرة (٦) .

فقد ألف الزبيدي كتاباً في تفنيده والرد عليه . وحين تولى الحاجب المنصور وتظاهر بالذب عن الدين ليستميل قلوب العامة ويرضي الفقهاء تحرج موقف أصحاب ابن مسرة فسجن بعضهم وهرب البعض الآخر

(١) ظهر الاسلام ٣ / ٢٣٣ .

(٢) تاريخ الفكر الاندلسي : ١١ .

(٣) ظهر الاسلام : ٣ / ٢٣٣ ؛

(٤) المصدر نفسه : ٣ / ٦٩ ، ٧٠ ؛

(٥) تاريخ الفكر الاندلسي : ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،

(٦) المصدر نفسه : ٣٢٩ .

وكان ابن الانليلي اللغوي المعروف من الذين تعقبهم الفقهاء لانه من المشتغلين بالفلسفة . ولم تنقرض المدرسة المسرية بل ظلت قائمة ولها أتباع (١) :

٣ ـ اللغة وعلومها :

أ ـ قبل القرن الرابع :

لقد نشأت منذ وقت مبكر طبقة المؤدبين الذين أخذوا على عاتقهم تعليم النشء مبادىء العربية ، واطرافاً من الفقه والحديث والاخبار والأدب ، وقد أدى هؤلاء المؤدبون دوراً هاماً في تطور حياة اللغة ، وبذروا البذرة الأولى للدرس اللغوي ، وكانت قرطبة تزخر بعدد كبير منهم ، كما كانوا كثيرين فى مدن الاندلس الأخرى ولا سيما في اشبيلية التي تعد عاصمة ثانية ، واتخذوا التعليم حرفة يرتزقون منها ، وكان المسجد المكان الذي يتلقى فيه الطلاب علومهم على أيدي المؤدبين ، عدا أولاد الخاصة ، الذين كانوا يتلقون علومهم فى دورهم ، ويبدو أن المسجد ظل يقوم مقام المدرسة حتى بنى الحكم المستنصر سبعاً وعشرين مدرسة وعين فيها المؤدبين واجرى عليهم الرواتب ليعلموا أولاد الفقراء مجاناً . وكان في كل ربض من أرباض المدينة ـ قرطبة ـ مدرسة ، وحول الجامع ثلاث مدارس (٢) .

ولم يكن لعامة هؤلاء المؤدبين بصر تام بالنحو ، ولا كبير علم باللغة ، وقد حدد الزبيدي طبيعة المعارف اللغوية التي كانوا يضطلعون بتدريسها ، فقال : (ولم يكن عند مؤدبي العربية ولا عند غيرهم ممن

(١) تاريخ الفكر الاندلسي : ٢٣١ .

(٢) البيان المغرب : ٢ / ٢٤٠ ، ٢٤١ .

عني بالنحو كبير علم ، حتى ورد محمد بن يحيى عليهم ، وذلك أن المؤدبين انما كانوا يعانون اقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها ، وتقريب المعاني لهم في ذلك ، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربيـــة وغوامضها والاعتلال لمسائلها ثم كانوا لا ينظرون في امالة ولا ادغام ولا تصريف ولا ابنية ولا يجيبون في شيء منها) (١) .

وحفظ لنا كتاب طبقات النحويين واللغويين نماذج من المسائل اللغوية التي كانت تدور في حلقات المؤدبين ، وهي في جملتها يسيرة لا تتعدى المبادىء والأوليات ، منها : (أخبرني محمد بن عمر ، أخبرني غير واحد ممن شهد ابراهيم بن حجاج ـ أحد ولاة اشبيلية وقد قال له أبو محمد الاعرابي العامري شاكراً على شيء اصطنعه اليـــه : تالله ما سيدتك العرب إلا بحقك ، فقال ابو الكوثر الخولاني وكان حاضراً يا أبا محمد العلماء عندنا بالعربية يقولون : سودتك فقال : السواد : السخام ، يخطئون ويصحفون ، فانتهره ابراهيم وقال : تتسور على الاعراب في لغاتهم : فكتب أبو الكوثر الى يزيد بن طلحة بالخبر فأجابه : المعروف سودتك بالواو ولعل ما ذكر أبو محمد لغة لبني عامر .

فلما وردت السحاءة على أبي الكوثر قال : يا أبا محمد أنكر الاستاذ ما ذكرت وحكى له قوله فصاح الاعرابي وهاج وبعث ابراهيم في يزيد فلما حضر خرج عليه فقال له : اتتسور على الرجل في كلامه فقال له ابن طلحة ان العلم ليس من جهة المغالبة ولكن من جهة الانصاف والحقيقة فليجبني أبو محمد عما اسأله عنه ، فقال له سل ، فقال يزيد : كيف تقول العرب : ساد يسود أو ساد يسيد ؟ قال الاعرابي : ساد يسود فقال يزيد هـذه الواو معنا في الفعل ، فكيف

(١) طبقات الزبيدي : ٣٣٥ وما بعدها .

تقول العرب السودد أو السيدد ، فقال : السودد ، فقال يزيد : هذه الواو ثابتـــة في الاسم ، ثم قال : أي منزلة عندكم عمر بن الخطاب رضي الله عنـه من الفصاحة ؟ فقال الاعرابي : فوق كل منزلة : قال يزيد : فقد ثبت عندنا أنه قال : (تفقهوا قبل أن تسودوا) وهذا حديث لم يطعن فيه أحد من علماء اللغة . كما صنعوا في سائر الأحاديث التي وقع فيها الغلط . فلج الاعرابي وقال : يا أهل الامصار ماذا صنعتم بالكلام) (١) .

إلا أن هناك طبقة أخرى من المؤدبين تعد أرقى عن تقدم ، إذ كانت أوسع علما ، وأوطد في اللغة قدما ، لانهم من الذين رحلوا إلى المشرق ولقوا أئمة اللغـــة فيه فكانت تقرأ في حلقاتهم كتب الاعلام الشهيرة ، وتدرس عليهم مؤلفات النحو المطولة ، وخير نموذج لهؤلاء جودي النحوي الذي كان أول من أدخل كتاب الكسائي (٢) والبغل الذي وضع كتاباً في شرحه (٣) ، والافشنيق الذي عاد بنسخة من كتاب سيبويه (٤) . على أني لا أقول بأن هؤلاء المؤدبين كانوا يحسنون فهم وافهام هذه الكتب المطولة التي آبوا بها من المشرق ، أو يحيطون بدقائقها وإنما كانوا يلمون بها وينظرون فيها . أما النظر الجاد في هذه الكتب ، والسمو إلى جلاء غوامضها ، فلم يبدأ إلا على يد الرباحي كما سيأتي به البيان :

ولم يكن النشاط اللغوي في هـــذه الفترة مقصوراً على التدريس

(١) طبقات الزبيدي : ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٧٨ :

(٣) المصدر نفسه : ٢٩٧ :

(٤) المصدر نفسه : ٣٠٥ .

والمناقشة الشفوية ، بل ظهرت بعض الكتب اللغوية والنحوية التي تعد باكورة التأليف اللغوي في الاندلس . ومؤلفو هـذا الدور فريقان : الأول لم نعرف أسماء كتبهم وهم : جودي النحوي ، وله تآليف في النحو (١) . ابن أبي غزالة : وله كتاب في العربية (٢) : خصيب الكلبي : وله تآليف في اللغة نحو مصنف أبي عبيد (٣) . أبو الاصبغ عثمان بن ابراهيم البرشقيري وله تآليف في النحو (٤) . يحيى بن عبد الرحمن الأبيض وله تآليف في النحو (٥) . ابن خاطب المكفوف له تآليف في النحو (٦) .

والفريق الثاني وهم الذين عرفنا أسماء كتبهم : البغل : وله كتاب في شرح كتاب الكسائي (٧) . عبد الملك بن حبيب : وله كتاب في شرح الحديث ، وآخر في اعراب القرآن (٨) . الخشني : وله كتاب في شرح الحديث فيه من الغريب علم كثير (٩) قاسم بن ثابت وله كتاب الدلائل في شرح غريب الحديث وهو الذي روى الزبيدي عن القالي قوله فيه : (لم يؤلف بالاندلس كتاب اكمل من كتاب ثابت في

(١) طبقات الزبيدي : ٢٧٨ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٨١ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٨١

(٤) المصدر نفسه : ٣٣٤ :

(٥) ابن الفرضي : ٢ / ١٣٩ .

(٦) طبقات الزبيدي : ٢٩٧ :

(٧) المصدر نفسه : ٢٩٧ .

(٨) المصدر نفسه : ٢٨٢ .

(٩) المصدر نفسه : ٢٩٠ .

شرح الحديث) (١) ، ثم عقب الزبيدي على عبارة القالي بقوله : (ولو قال اسماعيل إنه لم ير بالمشرق كتاباً أكمل من كتاب قاسم في معناه لما رددت مقالته ، على أن لأبي عبيد في هـذا الفن فضل السبق إليه) (٢) .

ب ـ اللغة في القرن الرابع :

جاء القرن الرابع فبلغت الاندلس ذروة مجدها السياسي ، وتعاقب على حكمها ثلاثة خلفاء أقوياء ، دانت لهم البلاد بالطاعة ، وخمدت على عهدهم نيران الفتن ، فاتخذت الاندلس مكاناً مرموقاً بين دول العالم ، وازدهرت فيها الحضارة المادية والفكرية ، وقد اجملنا فيما سلف مظاهر الازدهار في العلوم العقلية والنقلية ، ونريد هنا أن نشير إلى مظاهر النهضة اللغوية وأبرز أعلامها :

وأول ملامح هذه النهضة ظهور العـــالم اللغوي المتخصص الذي يقف فى صف أكابر علماء اللغة في المشرق ، فقـد كان الزبيدي ابن دريد المغرب ، وكان تلامذة القالي يقاسون بتلامذة المبرد ، ولم تنجب الاندلس قبل هذا القرن عالماً لغوياً متخصصاً ، وانما كانت اللغة تدرس بوصفها فرعاً مكملا للعلوم الاسلامية من فقه وحديث وتفسير ، وكان الذين يضطلعون بعبء تدريسها هم المحدثين والفقهاء ، ولم تكن اللغة كل بضاعتهم ، بل كانت جانباً من ثقافتهم الدينية كقاسم بن أصبغ والخشني وغيرهما ممن عاصرهما أو تقـدم عليهما . وكان الرباحي أول عالم لغوي متخصص لأنه لم يؤثر عنه اشتغال بالحديث وغيره من العلوم

---

(١) طبقات الزبيدي : ٣٠٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٠٩ :

الدينية ، وكان في أواخر القرن الثالث وبداية هذا القرن نظير القالي في التجرد لتدريس اللغة وتعليم دقائق النحو ، وكان كتاب سيبويه من الكتب التي درست عليه .

ومن أمارات النهضة اللغوية استغناء الطلاب عن الرحلة إلى إلى المشرق ، لأن الأندلس أصبحت بيئة ثقافية ، ومركزاً من مراكز العلم تتوافر فيها المكتبات الضخمة ، وعلى رأسها مكتبة الحكم المستنصر كما حمل القالي إليها (خلاصة العلم اللغوي المشرقي) فأصبح بامكان دارس اللغة أن يقرأ من الكتب والمتون والدواوين ما يجعله عالماً ومؤلفاً ، وحسبنا دليلا على الاستغناء عن الرحلة إلى المشرق أن الزبيدي وإبن القوطية وهما أكبر عالمين اندلسيين لم يستشعرا الحاجة الى طلب العلم في المشرق : والذي لا نشك فيه أن ما جلب القالي من كتب ودواوين كثيرة قد ساعد على أن تقل الحاجة إلى الرحلة وان لم تنعدم .

ومن دلائل النهضة اللغوية ، نشاط حركة التأليف وتعدد اتجاهاته فقد كثرت المؤلفات في هذا القرن ، وتنوعت موضوعاتها ، ونستطيع أن نقول إن الموضوعات التي دارت حولها كتب العصر هي :

(١) التأليف المعجمي :

وقد ظهر فيه اكثر من كتاب ، وكان كتاب (العين) للخليل ابن أحمد أساساً لبعض هذه الكتب ، فألف الزبيدي كتاباً في اختصاره وتهذيبه ، وآخر في الاستدراك عليه ، وثالثاً في الانتصار لمؤلفه والرد على من نسب الخلل الواقع في الكتاب إليه ، كما ألف ابن التياني كتاباً في اختصاره (١) :

---

(١) المزهر : ١ / ٨٨ .

ومن المعاجم كتاب (البارع) للقالي وقد « زاد فيه على كتاب (العين) نيفاً واربعمائة ورقة مما وقع في العين مهملا فأملاه مستعملا ومما قلل فيه الخليل فأملى فيه زيادة كثيرة » (١) : وألف الزبيدي كتاباً حول زيادات القالي على الخليل أسماه (المستدرك من الزيادة في كتاب البارع لأبي علي البغدادي) (٢) . ومما يلحق بالتأليف المعجمي كتاب (العالم) لابن سيد (٣) وهو فى مائة جزء صنفه على الاجناس ، بدأ بالفلك واختتم بالذرة ، فهو أشبه بالمعاجم المرتبة حسب الموضوعات ونعد كتاب (الانواء) لعبد الله بن الحسين الغربالي (٤) لاحقاً بالتأليف المعجمي وكذلك (الابل ونتاجها وجميع أحوالها) و (حلي الانسان والخيل وشياتها) و (النوادر) لأبي علي القالي (٥) ،

(٢) تنقية اللغة :

وهو أمر مست الحاجة اليه ، بعد أن ظهر اللحن بأنواعه ، لاختلاط العرب بغيرهم من الاقوام ، وقد ظهر في هذا الجانب كتابان للزبيدي وهما (لحن العامة) و (مختصر لحن العامة) (٦) .

---

(١) فهرست ابن خير : ٣٥٤ :

(٢) المصدر نفسه : ٣٥٠ .

(٣) جذوة المقتبس : ٣٨١ :

(٤) الحركة اللغوية : ١١٦ :

(٥) المصدر نفسه : ١١٤ .

(٦) فهرست ابن خير : ٣٤٦ وما بعدها .

(٣) النحو :

لم تظهر فيه كتب مطولة ، تنتظم أبوابه ، وتعالج جميع مسائله وانما ظهرت كتب تعالج مسائل معينة منه ، وتعرض لباب من أبوابه كالمقصور والممدود و (فعلت وأفعلت) للقالي (١) وكتابي (الافعال) و (المقصور والممدود) لابن القوطية (٢) وكتاب (الأفعال) لابن طريف (٣) .

ويختلف الزبيدي عن غيره في أنه جرد كتاباً ضم موضوعات النحو المختلفة وهو (الواضح) كما أفرد آخر لمعالجة موضوع واحد منه وهو كتاب (الأبنية) ؛ ونلاحظ أن مؤلفين آخرين اتجهوا إلى تبسيط بعض الكتب وشرحها تحدوهم غاية تعليمية كشرح الجمل لابن العريف (٤) وشرح كتاب الأخفش لابن سيد (٥) .

كما ظهرت كتب أخرى كان الغرض منها تعليمياً أيضاً مثل كتاب (العالم والمتعلم) لابن سيد أيضاً ، وهو مبني على المسألة والجواب (٦) ووضع ابن العريف كتاباً في النحو يشتمل على مسائل اعترض فيها على جعفر بن النحاس ، ورسالة في اعراب قولهم (ان الضارب الشاتم

---

(١) الحركة اللغوية : ١١٤ .

(٢) نفسه : ١١٤ ، ١١٥ .

(٣) نفسه : ١١٥

(٤) نفسه : ١١٦ ؛

(٥) جذوة المقتبس : ٣٨١ .

(٦) نفسه : ٣٨١ .

والده كان زيداً (وقد استقصى فيها ثمانمائة ونيفاً وعشرين وجهاً) (١) وفي هذا دليل على ميل أهل اللغة في الاندلس إلى الاستقصاء وتحرى الوجوه الممكنة في المسألة الواحدة ، وشاهد على توافر المصادر التي تسمح بالتقصي ، وتتبع الآراء :

(٤) وفي موضوع تراجم اللغويين والنحويين ظهر كتاب واحد وهو (طبقات النحويين واللغويين) للزبيدي .

والذي يتأمل حركة التأليف اللغوي فى هـذا العصر يجد أنهـا متأثرة باتجاهات التأليف اللغوي في المشرق ، إذ أن علماء اللغـة في الاندلس ، ترسموا خطى اللغويين في المشرق ونسجوا على منوالهم حتى ليخيل إليك أنهم كانوا ينفسون على المشـارقة ما أحرزوا من مكانة ، وما نالوا من شهرة ، فمضوا يجرون في المضمار الذي جروا فيه ، ليثبتوا أنهم لا يقصرون عن بلوغ شأوهم ، ولا يسقطون دون الغاية التي أوفوا عليها ، وكان من نتيجة ذلك ان ظهرت كتب اندلسية تشابه في موضوعاتها وأسمائها كتباً مشرقية ككتـاب (لحن العامة) للزبيدي الذي يماثل (لحن العامة) للسجستاني وكتاب (فعلت وأفعلت) يحاكي القالي فيه كتاب (فعلت وأفعلت) للزجاج ، وكتاب (البارع) للقالي أيضاً وقد زعم أنه وضعه ليكون نظير (العين) بل ليأتي فيه باصول ومفردات لم ترد في (العين) .

وقد جرد الاندلسيون كتباً أخرى تدور حول كتب مشرقية شرحاً

---

(١) الحركة اللغوية : ١١٦ . وقال بروكلمان « وهو يستقصي في ذلك نحو (٥٨) قولا » تاريخ الأدب العربي ٢ / ١٣٣ وما بعدها .

أو اختصاراً أو اكمالا لما فيها من نقص أو ردا على ما جاء بها من أخطاء ، وهكذا فانهم ينظرون في معظم نتاجهم الى نتاج المشرق فيؤلفون على غراره أو يخدمونه .

وقبل أن أترك التأليف النحوي في هذا العصر أورد نصاً للاستاذ احمد أمين يقول فيه : (أما النحو فقد بدأ في الاندلس كما بدأ في المشرق عبارة عن قطعة مختارة فيها لفظ غريب يشرح ، ومشكلة نحوية توضح ، على النحو الذي نراه في الأمالي للقالي ، والكامل للمبرد ، ثم ألفوا نحواً في مسائل جزئيـــة كما فعل أبو علي القالي نفسه في فعلت وأفعلت ، والمقصور والممدود ، وكما فعل ابن القوطية في كتابه الأفعال فلما انتقل كتاب الكسائي وسيبويه ألف الاندلسيون في النحو من حيث هو كل يشمل جميع الابواب ، وكان أشهر كتب النحو في أيام ابن حزم تفسير الحوفي لكتاب الكسائي) (١) . ان لي ملاحظتين على هذا النص .

الأولى : يبدو أن الاستاذ لا يعرف أن للزبيدي كتاباً ضم أكثر أبواب النحو وانتظم معظم مباحثه ولم يكن مقصوراً على مسألة جزئية منه ، ولذا عد عصر القالي وابن القوطية ، وهما معاصران للزبيدي ، من العصور التي لم تنتج في النحو كتاباً مطولا يعالج أكثر مسائله .

الثانية : أن الاستاذ يعزو تأخر ظهور كتب نحوية شاملة في الاندلس الى تأخر اطلاع القوم على كتاب سيبويه وكتاب الكسائي ، لكأن ابن القوطية لم يعرف هذين الكتابين ، وحقيقة الامر انهما وصلا الى الاندلس منذ زمن مبكر وان محاولة درسهما وشرحهما تمت قبل

---

(١) ظهر الاسلام : ٣ / ٩١ .

وفود القالي عليها . ولم يكن انصراف إبن القوطية عن تأليف كتاب شامل في النحو ناجماً عن جهله بكتابي سيبويه والكسائي ، كما يفهم من عبارة الاستاذ السابقة .

وعلى كل حال فان الزبيدي أول عالم اندلسي عالج النحو ككل في كتاب واحد .

الفصل الثاني

حياته

نسبه وأسرته :

أ ـ نسبه :

هو محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج بن محمد بن عبد الله ابن بشر الداخل بن أبي ضمرة من بني مازن بن ربيعة بن زبيد بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج (١) . وكنيته أبو بكر (٢) : ولقبه الزبيدي نسبة إلى جده الاعلى زبيد بن صعب .

وقد ضبط ابن خلكان كلمة الزبيدي بقوله : (والزبيدي بضم الزاء وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة ، هذه النسبة الى زبيد واسمه منبه بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج) كما ضبط كلمة مذحج بقوله : (مذحج بفتح الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء المهملة وبعدها جيم وهو في الاصل اسم أكمة حمراء

---

(١) جمهرة أنساب العرب ـ ابن حزم : ٤١٢ :

(٢) جذوة المقتبس : ٤٣ وما بعدها . معجم الادباء : ١٨ / ١٧٩ وانظر وفيات الاعيان : ٤ / ٧ والوافي بالوفيات : ٢ / ٣٥١ والديباج المذهب : ٢ / ٢٦٣ ومرآة الجنان : ٢ / ٤٠٩ وتاريخ ابن الفرضي : ٢ / ٩٢ وشذرات الذهب : ٣ / ٩٤ .

باليمن ولد عليها مالك بن أدد فسمي باسمها ، ثم كثر ذلك في تسمية العرب ، حتى صاروا يسمون بها ويجعلونها علماً على المسمى ، وقطعوا النظر عن تلك الاكمة) . وقال عن قبيلته : « وزبيد قبيلة كبيرة باليمن خرج منها خلق كثير من الصحابة وغيرهم رضي الله عنهم » وهي قبيلة عمرو بن معد يكرب الزبيدي الفارس الجاهلي المشهور .

وقد نال التحريف بعض هذه السلسلة من أسماء آبائه في بعض المصادر ، ففي جذوة المقتبس ، وفي معجم الادباء عنها ، وردت (بشير) بدل (بشر) وهو تحريف . وفي نفح الطيب (محمد بن الحسين) وهو تحريف صوابه ما ذكرنا . وقد ورد في معجم الأدباء (حمزة) بدل (ضمرة) وهو تحريف ، كما ضبطت كلمة مذحج في شذرات الذهب (بضم الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء المهملة وبعدها جيم) وهو تحريف صوابه ما ذكره ابن خلكان .

وشكلت كلمة الزبيدي في معجم الادباء بفتح الزاي وهو تحريف صوابه ما ذكره ابن خلكان في ضبطها . وتذكر المصادر أن أصله من حمص فى الشام ثم هاجر أسلافه إلى الاندلس وقطنوا اشبيلية التي قيل عنها انها (حمص) الأندلس ، ولكننا نجهل من مِن أجداده كان أول من رحل إليها .

ب ـ أسرته :

ذكرت المصادر أن والده وهو أبو القاسم الحسن بن عبد الله من أهل اشبيلية (١) ، وقد (كان شيخاً طاهراً) (٢) من أهل الفضل ،

---

(١) تاريخ ابن الفرضي : ١٢٨/١ ، ١٢٩ وانظر جذوة المقتبس : ١٨٠ .
(٢) تاريخ ابن الفرضي : ١ / ١٢٨ ، ١٢٩ .

ويبدو أن علوم الحديث قد جذبته اكثر من غيرها ، فسمع باشبيلية من محمد بن جنادة ، وبقرطبة من طاهر بن عبد العزيز وعبيد الله بن يحيى بن يحيى الليثي (١) ، وقد رحل (فلقي بمكة عبد الله بن علي ابن الجارود وسمع منه كثيراً ومن ابن القمري وابراهيم بن سعيد الحذاء ومحمد بن حميد الجرجاني كاتب علي بن عبد العزيز وأبي سعيد عبد الرحمن بن سعيد يعرف بالمعلم وغيرهم) (٢) ، ثم عاد إلى الاندلس فأكثر من رواية كتب الرجال في التعديل والتجريح غير أنه (لم يكن له بصر بالحديث ولا معرفة بطرقه) (٣) :

ومن كتب الرجال التي قرئت عليه كتب ابن الجارود وهي : (التعديل والتجريح) لأصحاب الحديث (ويقع في ثلاثة أجزاء) (٤) وكتاب (الآحاد في أسماء الصحابة) ويقع في سبعة أجزاء (٥) وكتاب (الضعفاء المتروكين) وكتاب (أبو حنيفة) وكتاب (المنتقى) (٦). ومن الذين تلمذوا له ، وسمعوا منه أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي الباجي وقد قرأ عليه الكتب المذكورة ، وابو بكر بن القوطية (٧) ، ولم يقتصر جهده على الرواية بل وضع كتاباً في فضائل مالك بن

---

(١) تاريخ ابن الفرضي : ١/١٢٨ ، ١٢٩ وانظر جذوة المقتبس : ١٨٠ .

(٢) تاريخ ابن الفرضي : ١ / ١٢٨ وما بعدها :

(٣) المصدر نفسه : ١ / ١٢٨ :

(٤) فهرست ابن خير : ٢١٢ .

(٥) المصدر نفسه : ٢١٥ :

(٦) جذوة المقتبس : ١٢٠ ، ١٢١ :

(٧) الديباج المذهب : ٢ / ٢٦٢ وابن الفرضي : ٢ / ٧٨ :

أنس وقد رواه عنه تلميذه أبو محمد الباجي (١) . توفي سنة ثماني عشرة وثلاثمائة (٢) وقيل قريباً من سنة عشرين وثلاثمائة (٣) ، وكان ابنه محمد في سن صغيرة لم تسمح له بالاخذ عنه والسماع منه (٤) وهذا ما ذكره الزبيدي نفسه .

وكان للزبيدي أخ هو أبو محمد عبد الله بن الحسن الزبيدي ، ذكره الحميدي في جذوة المقتبس وقال انه على حظ من اللغة والادب (٥) وكان ابن أخيه أبو الوليد محمد بن محمد بن الحسن الزبيدي يذكر فضل عمه ، ويروى أطرافا من أخباره (٦) .

وللزبيدي ابنان ذكرهما الحميدي أيضاً . أكبرهما أحمد ويكنى أبا القاسم والثاني محمد ويكنى أبا الوليد ، أما أحمد فقد روى الحميدي عن ابن حزم قوله فيه : (كان شديد العجب فأخبرني ابن عمي ابو عمر أحمد بن عبد الرحمن ، قال : كتب أبو القاسم بن الزبيدي إلى الوزير أبيك كتاباً يرغب إليه أن يحسن العناية به في بعض الامور وكتب في آخر الكتاب :

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدواً له ما من صداقته بد

قال ابن عمي : فأخبرني عمي يعني الوزير أبا عمر وقال : فحولت الكتاب ووقعت على ظهره ولم أزد :

---

(١) فهرست ابن خير : ٢٨١ .

(٢) تاريخ ابن الفرضي : ١ / ١٢٨ .

(٣) جذوة المقتبس : ١٨٠ ،

(٤) ابن الفرضي : ١ / ١٢٨ ، ١٢٩ ،

(٥) جذوة المقبس : ٢٤٢ .

(٦) المصدر السابق : ٢٤٢ .

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى صديقاً له مامنعداوته بد (١)

وأما أبو الوليد محمد فقد كان (من أهل الفضل والأدب ولي قضاء اشبيلية بعد أبيه) ويبدو أنه سمع من أبيه (مختصر العين) وروى عن عمه عبد الله أيضاً (٢) ، كما كان أحد الثلاثة الذين قبضوا على مقاليد الامور في اشبيلية عام ٤١٤ هـ بعد أن أيد أهلها أهل قرطبة وآزروهم فى ثورتهم على قاسم بن حمود وطردهم إياه إلى شريش فأخرج أهل اشبيلية ابنه محمداً وكان قاسم قد استخلفه على ادارة شؤونها .

وأما الثلاثة الذين تولوا تصريف الامور في اشبيلية بعد هذه الحوادث فهم القاضي محمد بن عباد وابن يريم وابن الزبيدي ، ولكن محمد بن عباد قد مكر بصاحبيه وتجنى عليهما بعد أن نجح في استمالة القلوب اليه ، فاخرجهما وانفرد بحكم أشبيلية ، بعد أن راض بهما الامور واستغلهما في تهدئة الفتنة واخمادها (٣) . وقد قصد محمد بن الزبيدي شمال افريقيا ودخل القيروان ثم استوطن المرية وولي القضاء بها ، وقد كان على قيد الحياة بعد الأربعين والاربعمائة (٤) .

لقد ترك الزبيدي لابنيه هذين ثروة كبيرة كان قد جمعها بسبب علاقته بالحكام الذين وصلوه وخلعوا عليه ، قال ابن خلكان : (ونال أبو بكر منه ـ الحكم المستنصر ـ دنيا عريضة ، وتولى قضاء اشبيلية

(١) جذوة المقتبس : ٩٨ ، ٩٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٦ .

(٣) الحلة السيراء : ٢ / ٣٦ ، ٣٧ وانظر (نصوص عن الاندلس) : ١٠٦ .

(٤) جذوة المقتبس : ٣٦ .

وخطة الشرطة وحصل له نعمة ضخمة لبسها بنوه من بعده زماناً) (١) :

مولده ونشأته :

أ ـ مولده :

تتفق المصادر على أن الزبيدي اشبيلي سكن قرطبة فيما بعد (٢) كما تذكر أن والده كان من فضلاء اشبيلية ، ولذا من الراجح أن تكون اشبيلية مسقط رأسه :

وأما تاريخ مولده فان المصادر لم تذكره على عادتها حين تهمل أحياناً ذكر ميلاد من تترجم لهم ، وقد اعتمد الباحثون المحدثون فى تحديد ميلاده على سنة وفاته ، وعلى رواية ابن خلكان التي ذكرت أنه عاش ثلاثاً وستين سنة ، فذهبوا إلى انه ولد سنة ٣١٦ هـ .

ولكن بعض الباحثين (٣) لم يطمئن لهذا التاريخ ، ورآه غير معقول لانه يتعارض مع الرواية التي تقول (وكان ـ أي الزبيدي ـ حينئذ اماماً في الأدب ولكنه عرف فضل أبي علي فمال اليه واختص به واستفاد منه وأقر له) (٤) :

ومعنى ذلك ان الزبيدي كان اماماً حين وصل القالي إلى الاندلس لثلاث بقين من شعبان من سنة ٣٣٠ هـ (٥) ، وذلك أمر مستبعد لان من يولد سنة ٣١٦ هـ يكون عمره أربع عشرة سنة في سنة ٣٣٠ هـ وهو

---

(١) وفيات الأعيان : ٤ / ٧ :

(٢) المصدر السابق ومعظم المصادر المذكورة :

(٣) الحركة اللغوية في الاندلس : ١٢٤ :

(٤) بغية الملتمس : ٣١٧ .

(٥) طبقات اللغويين : ٢٠٥ .

عمر لا يبلغ الانسان فيه درجة الامامة في اللغة أو في غيرها . ولما كانت سنة وفاته متفقاً عليها فان على الباحث أن يشك في أحد أمرين : الاول تقدير عمره ، والثاني الرواية التي وصفته بالامامة عند ورود القالي واني اتفق مع السيد الپير مطلق في الشك في تقدير عمره .

وعلى ذلك فان الزبيدي ولد قبل سنة ٣١٦ هـ ، ولكي نفترض تاريخاً لمولده يتفق مع الرواية السابقة ، ويتفق مع رواية أخرى تقول : ان والد الزبيدي توفي سنة ٣١٨ هـ وان ابنه محمداً لم يسمع منه لصغره (١) فانني أرى أن يكون هذا التاريخ هو سنة ٣٠٨ هـ وعلى هذا يكون عمره عشر سنوات حين توفي أبوه وهو عمر لا يؤهله لسماع كتب التعديل والتجريح التي كان أبوه يكثر من روايتها ، ويكون عمره اثنين وعشرين عاماً عند ورود القالي عام ٣٣٠ هـ وهو عمر يمكن أن يبلغ الانسان فيه درجة الامامة إذا كان قد أوتي ما أوتيه الزبيدي من رسوخ ملكة ، وتوقد خاطر .

هذا وقد حدد محقق الجزء المطبوع من (مختصر العين) تاريخ ميلاده بسنة ٣٠٦ هـ (٢) دون أن يشير إلى سبب هذا التحديد ، ويبدو أنه حاول في هذا أن يوفق بين الروايتين المذكورتين وان لم يشر إلى ذلك : وأراني أميل إلى التاريخ الذي افترضته لان الهبوط بسنة ميلاده عن ٣٠٨ هـ يتناقض مع رواية عدم سماعه من أبيه لصغره ، كما أن الارتفاع بها يتناقض مع الرواية التي تقول انه كان اماماً عند وصول القالي الى الاندلس ، وكلتا الروايتين صحيحة لا مجال لاطراحها أو تجريحها .

---

(١) تاريخ ابن الفرضي : ١ / ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢) الجزء المطبوع من مختصر العين : و .

ب ـ نشأته :

لاتذكر المصادر من حياة الزبيدي وأخباره الا نتفا ضئيلة لاتحدد معالم هذه الحياة ، ولا تكشف عن مراحل تطوره الفكري ، فنحن لا نعلم عن طفولته شيئاً ، ولاندري على من تلقى مبادىء علومه باشبيلية كما لا نعلم من أمر صباه شيئاً ، وكل الذي نعلمه أن والده توفي وهو صغير ، وأنه أم قرطبة ليأخذ عن شيوخها ، ويبدو أنه عاد إلى اشبيلية بعد أن اكمل تعليمه : ولما ذاع صيته ، وظهر فضله ، استدعاه الحكم المستنصر إلى قرطبة على عادته في استقدام أهل العلم ليؤدوا ما يرسم لهم من أدوار في الحياة الفكرية ، التي بلغت في هذا العصر من الرقي درجة لم تبلغها من قبل بفضل جهود الناصر السياسية ، وجهود ولي عهده الثقافية . ولكن المصادر لا تذكر السنة التي استدعاه فيها وكل الذي تذكره هو أن « الحكم المستنصر استدعاه من اشبيلية إلى قرطبة لفضله والاستفادة منه » (١) وربما كان ذلك قبيل وصول القالي إلى قرطبة عام ٣٣٠ هـ وربما كان الزبيدى بين العلماء الذين استقبلوه حين حل بقرطبة :

واذن فقد برز الزبيدي للمجتمع القرطبي في سن مبكرة ، واحتل مكاناً مرموقاً فيه ، وتمكنت الصلة بينه وبين الحكم المستنصر حتى قيل عنه انه لازم المستنصر و « كان في صحبته » (٢) :

ووجده الحكم عوناً له في النهضة العلمية التي كان باني صرحها، ومرسي دعائمها : وكان من ذلك أن اقترح عليه التأليف في بعض

(١) أنباه الرواة : ٣ / ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) شذرات الذهب : ٣ / ٩٤ ، ٩٥ .

الموضوعات ، كما ندبه لاعمال علمية أخرى غير التأليف ، فحين اختلف الرواة مثلا في تقدير عدد كلمات كتاب (الغريب المصنف) لأبي عبيد القاسم بن سلام وزعم بعضهم أن فيه مائة الف حرف وقال آخرون ان فيه عشرة آلاف ، طلب الحكم من الزبيدي أن يحصي كلمات الكتاب ، يقول الزبيدي : (ولما اختلفت هاتان الروايتان في العدد أمرني أمير المؤمنين رضي الله عنه بامتحان ذلك فعددت ما تضمنه الكتاب من الالفاظ فألفيت فيه سبعة عشر ألف حرف وتسعمائة وسبعين حرفاً) (١) .

ولم يكن علم الزبيدي وحده موضع ثقة الحكم ، وانما كان يثق به في الشؤون الادارية فولاه أحكام القضاء في الموضع الذي يقطنه من قرطبة (٢) ، ولذلك لم يرد اسمه في الكتب التي أرخت قضاة الاندلس عامة وقضاة قرطبة خاصة .

وحين أيفع هشام المؤيد ، أوكل الحكم إلى الزبيدي تأديبه وتعليمه العربية والحساب ، فنفعه فيهما نفعاً كبيراً ، وكان هشام من النجابة والذكاء وحضور الذهن بحيث نال اعجاب استاذه وظفر بثنائه فزعم أنه لم يجالس من أبناء الزعماء في سنه من كان بذكائه وتوقد فكره (٣) :

ولقد ذكر ابن حيان في حوادث سنة ٣٦٢ هـ حادثة اختيار الحكم المستنصر للزبيدي مؤدبا لابنه فقال : (ذكر أدناء الزبيدي النحوي : ٣٦٢ هـ وفي يوم الاحد للنصف من ذي القعدة منها نفذ العهد إلى محمد

---

(١) طبقات الزبيدي : ٢٢٠ ، ٢٢١ :

(٢) تاريخ ابن الفرضي : ٢ / ٩٢ .

(٣) وفيات الأعيان : ٤ / ٧ وما بعدها :

ابن حسن الزبيدي ثم الاشبيلي النحوي بالتزام مدينه الزهراء لمجالسة الاميرابي الوليد هشام بن أمير المؤمنين ومفاتحته النظر في العربية وقد أعتدت لنزوله منها الدار التي يسكنها صاحب الشرطة أحمد بن سعيد الجعفري في حياة والده ، واجريت الأرزاق الواسعة عليه ، واستقبل هذا اليوم بصلة سنية وخلعة فاخرة جزاء على الذي تولاه من اختصاره لكتاب العين للخليل بن أحمد واقامته على الترتيب والتصنيف اللذين حدهما له أمير المؤمنين فيه ، فارتضى عمله فيه عند تصفحه له وأجزل صلته وأدنى مكانه وأوصله إلى نفسه يومه هذا ففاوضه في عمله الذي برع فيه واستشار له من غوامض فنونه . .) (١) .

وفي هذا النص ما يفصح عن رفعة مكانة الزبيدي في البلاط ووثاقة علاقته بالحكم ، فقد كان يجزل عطاءه ، ويغدق عليه ، ويقربه منه ، ويناقشه في كتبه التي يؤلفها استجابة لرغبته ويمتحن مدى تقيده بالخطة التي يرسمها له قبل تأليفها . وكان من أثر هذه الصلة الوثيقة أن تشبث الحكم بالزبيدي حين أراد الرحيل إلى اشبيلية وكانت مدرج صباه ، ومستقراً لجارية كان يحبها (٢) .

وبعد وفاة المستنصر ولاه الخليفة هشام المؤيد خطة الشرطة (٣) ويبدو لي أن توليه هذا المنصب كان على عهد جعفر بن عثمان المصحفي الذي ظل حاجباً لهشام ـ أي رئيس وزارته ـ مدة من الزمن ، قبل أن ينكبه المنصور بن أبي عامر ، وينفرد بالسلطة .

ويغلب على الظن أيضاً ان الاقامة في قرطبة لم تطب للزبيدي ، بعد

(١) المقتبس : ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) جذوة المقتبس : ٤٣ وما بعدها .

(٣) الديباج المذهب : ٢ / ٢٦٣ .

أن تبدل الوضع السياسي ، وتسلط المنصور على الحكم ، وحجر على الخليفة القاصر ، ولم يأذن لأحد بالوصول إليه ، كما استأصل البارزين من رجاله ، وأصبح الآخرون مراقبين لا يطمئن لهم المنصور ولا يأمن جانبهم ، وصار الميل الامويين جريمة يعاقب عليها المرء ، ولذلك نجد الزبيدي ، وهو أحد أقطاب العهد الاموي ، يؤثر الابتعاد عن الاحداث الجديدة ، ويعود إلى اشبيلية حيث ينفق بقية حياته ، ولكننا نجهل السنة التي عاد فيها إليها ، فالمصادر لا تذكر عن هذا الطور من حياته سوى أنه تولى القضاء باشبيلية ، وأنه توفي بها وكان ما يزال في منصبه قال ابن فرحون : (وتوفي الزبيدي رحمه الله تعالى باشبيلية وهو على قضائها في جمادى سنة تسع وسبعين وثلثمائة وولي بعد وفاته القضاء مكانه ابنه أبو القاسم أحمد وابنه الآخر أبو الوليد) (١) .

ويبدو ان الزبيدي لم يعتكف باشبيلية ولم يقطع صلته بقرطبة ، وانما كان يزورها ويلم بقصر العامريين ، فقد ذكرت المصادر (٢) أنه ناظر صاعداً البغدادي في مجلس المنصور ، وإذا عرفنا أن صاعداً دخل الاندلس في حدود ٣٨٠ هـ (٣) فمعنى ذلك ان الزبيدي كان في السنة التي توفي فيها .

شخصيته :

وليس بين أيدينا في كتب التراجم ما يلقي ضوءاً على شخصية الزبيدي ، أو يكشف عن طباعه واخلاقه ، ولم يكن الزبيدي أديباً أو

(١) الديباج المذهب : ٢ / ٢٦٤ .
(٢) نفح الطيب : ٤ / ٧٥ وما بعدها .
(٣) جذوة المقتبس : ٢٢٣ :

شاعراً مكثراً حتى نستشف من شعره ما يجلو لنا صفاته ، وينير لنا جوانب شخصيته ، فكل آثاره علمية خالصة ، لاتحمل في تضاعيفها أمارات نفسه ، وسمات سلوكه ، وطبيعة علاقاته بأهله ومجتمعه .

والحقيقة أن حديث المصادر عنه مقتضب موجز ، لايتجاوز الثناء العاطر عليه ، والألقاب التي حلاه بها مترجموه ، والاشارة العابرة إلى علاقته بالحكم المستنصر ، ثم تعداد كتبه وشيوخه وتلاميذه .

ومن العجيب ألا تجد عن شخص كالزبيدي الا هذه النتف الضئيلة ، وقد كان ملء السمع والبصر علماً ومكانة في عصره ، ولكننا نستطيع أن نحمل أخباره كل دلالاتها البعيدة والقريبة ، ونستخلص منها صفاته ، وأول ما يلاحظ الباحث في شخصيته أنه متواضع لايتردد في أن يأخذ عن القالي ويحضر مجالسه ، وقد كان غنياً عن ذلك ، ولعل القصة الاتية تدلنا على تواضعه من جهة ، وعلى توقيره علماء عصره من جهة أخرى ، كما تدلنا على منزلته في نفوس فضلاء معاصريه ، فقد كانوا يزورونه ، ويلمون بداره ، سائلين عنه متفقدين أحواله ، فهذا أحد صدور الفقهاء في قرطبة وهو القاضي محمد بن يبقى بن زرب الذي (كان من أخطب الناس فوق منبر ، لا يملك أحد من البكاء عينيه عند سماعه) (١) قد وقف يوماً بباب الزبيدي (فلما أوذن به ، بادر بالخروج اليه حافياً مكشوف الرأس كما كان يجلس في بيته ، فوقف بين يديه ، قائماً على قدميه ، اجلالا له . وأبلغ في شكره على تعهده فوافاه ابن زرب حق تكرمته اياه ، وسأله الجلوس ، فأبى عليه ، وأنشد متمثلا :

---

(١) تاريخ قضاة الاندلس : ٧٧ .

أقوم ومابي أن أقوم مذلة على فانى للكرام مذلـــل
على انهــا مني لغيرك هجنة ولكنهــا بيني وبينك تجمل (١)

ويصح لنا ان نستنتج من توليه منصب القضاء ، وخطة الشرطة أنه كان مستقيم السلوك ، حسن السيرة ، معروفاً بالعدل والحزم والقدرة الادارية ، إذ انهما منصبان لا يختار لهما إلا من وثق بعدله وعرف بورعه وتقواه ، وكان لوظيفة القضاء مكانها الرفيع بين الوظائف ، فقد كان الناس يجلون القضاة ويحترمونهم ، وكان الخليفة يوقرهم ويمثل بين أيديهم اذا طلبوه (٢) .

وأما صاحب الشرطة فقد كان أيضاً (عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن وجب عليـه دون استئذان السلطان ، وذلك قليل ، ولا يكون إلا في حضرة السلطان الاعظم ، وهو الذي يحد على الزنا وشرب الخمر وكثير من الأمور الشرعية راجع اليه) (٣) ،

ويبدو لنــا أن الزبيدي كان محافظاً يمقت الفلسفة ويرمي أصحابها بالكفر ، والزندقة ، شأنه في ذلك شأن فقهاء المالكية في عصره ، ويتجلى ذلك في موقفه من ابن مسرة ، فقد كان أحد الذين ألفوا في الرد عليه ، وربما شارك في استتابة اصحابه واحراق مابأيديهم من كتبه وأوضاعه .

ولم يكن الزبيدي متشدداً في الدين فقط ، بل كان لغوياً متشدداً كثير الغيرة على اللغـــة ، يستبرد العامية ، ويبرم بشيوع اللحن على ألسنة معاصريه ، ولـذا ألف كتابا جمع فيـــه الأخطاء اللغوية في

(١) تاريخ قضاة الاندلس : ٧٨ .
(٢) نفح الطيب : ١ / ٢٠٣ .
(٣) المصدر نفسه ١ / ٢٠٣ .

عصره وصححها .

وإذا صح لنا أن نستمد بعض صفاته من شعره القليل ، فانه يبدو لنا في شعره متواضعاً لا يحفل ببريق المظهر ، ولا يقدر الناس لملابسهم ومراكبهم ، وانما الذي يرفع من شأنهم عنده هو مايمتازون به من نفوس عالية ، وعقول ذكية ، وألسنة ذربة ، وهو انسان لا يؤثر الراحة ولا يخلد إليها ، وانما هو دؤوب على اكتساب العلم وتحصيله ، يكد من أجله ، ويجفو راحته في سبيله ، لانه يعلم أن الكسل سبيل الجهل ، وان العلم لا ينال الا ببذل الجهد ، وحمل النفس على ما تكره : وهو في شعره أيضاً رحب الصدر ، حليم ، يقابل العنف بالرفق ، ولا يستغل أصدقاءه ، ولايتجر بعلاقته بهم ، بل يقنع منهم بالطفيف اليسير ، وهو رجل بر واحسان ، يضع المعروف في موضعه وفي غير موضعه :

وتذكر المصادر بيتين كان يكثرمن ترديدهما والتمثل بهما وهما :

الفقر في أوطاننا غربة والمال في الغربة أوطان

والارض شيء كلها واحد والناس جيران واخوان

فهو يرى أن على الانسان أن يتحول عن الارض التي يضيق فيها رزقه ، ويشح مورده إلى الأرض التي يجد فيها الغنى وبسطة العيش مهما نأت عن أرضه ، ومهما شطت عن أهله ووطنه ، لانه لا يعد الارتحال في طلب الغنى غربة ، وانما الغربة أن يعيش الانسان في وطنه فقيراً ، وهو يحبب السفر ويرى أن الأرض وطن الجميع ، وان الانسان حيث كان أخ للانسان ، ولعله بهذين البيتين كان يخفف عن نفسه عبء الشعور بالغربة في قرطبة لانها ليست مدينته وليست مستقر أهله وذوي قرباه ، ولكن طموحه إلى الغنى ، وأمله في الشهرة ،

واستفاضة الصيت قد حملاه على أن ينزلها ، ويتخذها مقراً له بدل اشبيلية .

ذلك ما استطعنا أن نجمعه من جوانب شخصيته وصفاته . ولا ريب أن هناك أموراً لم نستطع أن نكشف عنها لاننا لم نجد ما يوضحها لنا .

ثقافته :

كان على الدارس في عصر الزبيدي أن يلم بالعلوم الدينية والأدبية قبل أن يختار مجال تخصصه ، وكان من أثر ذلك ان تنوعت ثقافة العالم الاندلسي ، وتعددت جوانب معرفته ، فكان أديباً فقيهاً ثم متخصصاً (١) يستقصي علما من العلوم ، فيلم بدقائقه ، ويصبح اماماً فيه .

وقد سلك الزبيدي في تحصيله سلوك معاصريه فأكب على علوم الدين من تفسير وفقه وحديث حتى أصبح من فقهاء عصره المعروفين بتضلعهم من علوم الدين ، وأحكام الفقه ، ثم استمالته علوم اللغة ، فاستأثرت بأوسع جهده ، وحظيت بجل عنايته واهتمامه ، حتى تبوأ مكان الصدارة لا بين علماء اللغة في الاندلس فقط ، بل بين علماء المشرق أيضاً ، وثابت إليه الامامة في عصره ، يقول ابن فرحون في تعداد بعض وجوه ثقافته : (وكان متفنناً فقيهاً أديباً شاعراً ، وكان مع ادبه من أهل الحفظ للفقه والرواية والحديث) (٢) ويقول أيضاً :

---

(١) ظهر الاسلام : ٣ / ٤٩ .

(٢) الديباج المذهب : ٢ / ٢٦٣ .

(وغلب عليه الأدب وعلم لسان العرب فشهر به وصنف فيه) (١) ؛

والواقع أن الزبيدي كان من علماء اللغة الكبار الذين ساهموا في نقل النوادر ، وعرفوا بسعة الحفظ ، وحسبك دليلا على كثرة محفوظه أنه ألف في الاستدراك على اكبر عالمين من علماء اللغة ، هما الخليل وسيبويه ، إذ استدرك عليهما ما سهوا عنه واغفلاه من ابنية ومفردات ، واما معرفته بالغريب وقدرته على شرح العويص من الكلمات فهو أمر تشهد به كتبه ، إذ أنه لا يكاد يغادر لفظاً غريباً دون أن يشرحه ويذكر المعروف من معانيه ، ويستشهد بالشعر على ما يذكر من معاني النوادر والكلمات الغريبة . وقد احتوى كتاب (الابنية) على عدد ضخم من المفردات الغريبة المشروحة ، وكان الزبيدي شديد الاعتزاز بهذا الجانب من ثقافته ، كثير الأدلال به ، وكان يغمز اللغويين بجهل معاني الأبنية الغريبة التي أوردها سيبويه في كتابه وقعودهم عن شرحها ، وكان في النحو علماً من أعلامه ، وواضعاً لاصول المدرسة الاندلسية التي قامت على الجمع بين آراء الكوفيين والبصريين والانتخاب منهما ؛ وأما في العروض فقد عالج بعض موضوعاته مع موضوعات النحو والصرف في كتابه (الواضح في النحو) والذا فقد ذكر بعض مترجميه هذا العلم بين العلوم التي شهر بها الا أن علمه بالعروض أقل من علمه باللغة والنحو ؛

ولم تكن اللغة والعلوم الدينية كل معارف الزبيدي ، بل كان أيضاً مؤرخا ، عالماً بالسير والاخبار ، وقد ألف في هذا الجانب كتابين أحدهما معروف مشهور وهو (طبقات اللغويين والنحويين) والآخر مفقود وهو (اخبار الفقهاء المتأخرين من أهل قرطبة) . كما كان

(١) الديباج المذهب : ٢ / ٢٦٣ ؛

على حظ من العلم بالحساب ، وقد ذكرت بعض المصادر هذا الفرع من المعرفة بين جوانب ثقافته :

واكثر مترجموه من تقريظه ، والثناء عليه ، وحلوه بألقاب عديدة فقالوا عنه : (الحبر العماد ، والخبير فى الاسناد) (١) ووصفوه بأنه (شيخ الاندلس بل وغيرها في العربية) (٢) ، وقرنه بعضهم بابن دريد وأنزله نفس منزلته (٣) ، وقال ابن خلكان : (كان أوحد عصره في علم النحو ، وحفظ اللغة ، وكان أخبر أهـل زمانه بالاعراب والمعاني والنوادر إلى علم السير والاخبار ، ولم يكن في الاندلس في فنه مثله في زمانه) (٤) .

ونقل ابن فرحون طائفة من أقوال العلماء فيه ، فقال : (وكان واحد عصره فى علم النحو وعلم اللغـــة وسمع منه ، وقال ابن حيان لم يكن له في هذا الباب نظير في الاندلس مـع افتنان في علوم كثيرة من فقـه وحديث وفضل واستقامة ، قال القاضي ابو عمرو بن الحذاء لم تر عيني مثله في علمه وأدبه وكان ابن زرب يفضله ويقدمه ويزوره) (٥) وقال الفتح بن خاقان : « امام اللغـة والاعراب ، وكعبة الآداب ، أوضح منها كل ابهام ، وفضح دون الجهل بها محل الافهام ، وكان أحد ذوي الاعجاز ، واسعد أهل الاختصار والايجاز ، نجم والاندلس في اقبالها ، والانفس أول تهممها بالعـــلم واهتبالها ، فنفقت له عندهم

(١) روضات الجنات : ٦٨٥ .

(٢) شذرات الذهب : ٣ / ٩٤ .

(٣) نفح الطيب : ٥ / ٢٤ .

(٤) وفيات الاعيان : ٤ / ٧ .

(٥) الديباج المذهب : ٢ / ٢٦٣ :

البضاعة ، واتفقت على تفضيله الجماعة ، واشاد الحكم بذكره ، فأورى بذلك زناد فكره ، وله اختصار (العين) للخليل ، وهو معدوم النظير والمثيل ، ولحن العامة وطبقات النحويين ، وكتاب الواضح ، وسواها من كل تأليف مخجل لمن أتى بعـده فاضح ، وله شعر مصنوع ومطبوع ، كأنما يتفجر من خاطره ينبوع ، وقد أثبت له منـــه ما يقترح ولا يطرح . . .) (١) .

شيوخه :

درج الزبيدي في كنف أب وصفته المصادر بأنه عالم يتعاطى رواية وتدريس كتب الرجال وأساليب نقدهم تعديلا وتجريحاً ، ولكن صغر المترجم حال دون أخذه عن أبيه ، وانتفاعه بفضله ، ثم سلبه القدر أباه ، وهو ما يزال نابتاً طرياً ، وحين شب وادرك ما حوله ، تلقى مبادىء علومه على أحد المؤدبين في اشبيلية ، وهي يومئذ لا تقل عن قرطبة في نشاط رياح العلم والفكر ، وكثرة من فيها من المؤدبين ، والمشتغلين بعلوم اللغة والدين ، الا ان المصادر لا تشير إلى هذا الدور المبكر من حياته ، وليس فيها ما يلقي الضوء عليه ، فنشأته مبهمة يكتنفها الغموض ، وكل الذين ترجموا له بدأوا من نقطة واحـدة في حياته ، تلك هي فترة دراسته في قرطبة . وقـد مر بنا أن الزبيدي متعدد وجوه الثقافة ، متشعب نواحي المعرفة ، الا أن الناحيتين اللغوية والدينية تشكلان معظم بضاعته العلمية . والذي يتتبع شيوخه يستطيع أن يجعلهم في مجموعتين :

---

(١) مطمح الأنفس : ٦١ وما بعدها .

الأولى : شيوخ العلوم الدينية :

وهؤلاء هم الذين تعاطوا تدريس كتب الحديث ، والتصانيف المؤلفة في رواته وأساليب تجريحهم وتعديلهم ، كما قاموا بتدريس كتب الفقه والأحكام والتاريخ والسير ومغازى الرسول (ص) وغير ذلك ، وهم : قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح بن عطاء وعطاء هذا كان مولى للوليد بن عبد الملك بن مروان ، وتذكر المصادر أن قاسماً بن أصبغ يعرف بالبياني نسبة إلى مدينة بيانة في الاندلس ولكنه سكن قرطبة وسمع فيها من بقي بن مخلد ومحمد بن وضاح ومحمد ابن عبد السلام الخشني وغيرهم (١) ثم ارتحل إلى المشرق (سنة ٢٧٤ هـ) فلقي المبرد وثعلبا وابن قتيبة وأخذ عنهم (٢) ، كما سمع من مشاهير العلماء فى كل من مكة ومصر والقيروان ثم عاد إلى الاندلس بذخيرة كبيرة وعلم غزير ، فتقاطر الناس عليه ، وأخذوا عنه الحديث وكتب الرجال ، ودرسوا عليه كتب ابن قتيبة (وكان قاسم بن اصبغ بصيرا بالحديث والرجال ، نبيـــلا في النحو والغريب والشعر) (٣) وهو (امام من أئمة الحديث ، حافظ مكثر مصنف) (٤) ، كما كان نظير ابن الاعرابي في المشرق فهما متكافئان في السن وفي المنزلة العلمية

---

(١) تاريخ ابن الفرضي : ١ / ٤٠٦ وما بعدها ، وجذوة المقتبس ٣١١ وما بعدها .

(٢) تاريخ ابن الفرضي : ١ / ٤٠٦ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه ١ / ٤٠٦ وما بعدها .

(٤) جذوة المقتبس : ٣١١ ، ٣١٢ .

وكانت اليهما الرحلة في تلك الحقبة (١) : وكان ابن اصبغ يتمتع باحترام معاصريه ويحظى بتقديرهم لما كان عليه من ورع وجلال قدر ، كما كان يشاور بالأحكام (٢) .

وأما تلاميذه فيتفاوتون في المنزلة الاجتماعية ، منهم الخليفة الناصر قبل ولاية الخلافة ، وولي عهده الحكم واخوته ، واكابر اهل الاندلس ومشاهير علمائها (٣) . وامتد به طلق العمر حتى أخذ عنه الشيوخ والكهول والاحداث ، ثم امتنع الناس عن الاخذ عنه قبل وفاته بسنين لتغير ذهنه ، ووهن ذاكرته . توفي سنة ٣٤٠ ﻫ وكانت ولادته سنة ٢٤٤ ﻫ (٤) .

ولكن هل كان الزبيدي مدينا لابن اصبغ فى ثقافته الدينية أم ثقافته اللغوية ؟ أم كان مديناً له بكلتيهما ؟ الحق ، أن الغالب على قاسم بن اصبغ هوالاتجاه إلى رواية الحديث والتصنيف فيه ، فقد كان محدث الاندلس ، الحافظ المكثر ، البصير بالرجال ، ولو تأملنا أسماء الكتب التي ألفها لألفيناها كلها تدور حول الحديث وعلومه ، وحول الانساب والتاريخ والاحكام والسنن ، فقد صنف في السنن كتابا حسنا وله كتاب في (أحكام القرآن) وكتاب (المجتبى) على ابواب كتاب (المنتقى) لابن الجارود ، وهو فى هذا الكتاب أنقى حديثاً وأعلى سنداً من ابن الجارود .

---

(١) تاريخ ابن الفرضي : ١ / ٤٠٦ وما بعدها . ويعني أبا سعيد ابن الاعرابي .

(٢) جذوة المقتبس : ٣١١ ، ٣١٢ .

(٣) تاريخ ابن الفرضي : ١ / ٤٠٦ وما بعدها .

(٤) تاريخ ابن الفرضي : ٤٠٦/١ وجذوة المقتبس : ٣١١ - ٣١٢ .

وله أيضاً كتاب (الناسخ والمنسوخ) و (غرائب حديث مالك ابن انس) و (فضائل قريش) وكتاب (الانساب) (١) . فابن اصبغ اذن ـ وان لقي علماء اللغة في المشرق وتلمذ لهم كثعلب والمبرد وابن قتيبة ، ونعته مترجموه بالتضلع من النحو والغريب والشعر ـ كان الغالب عليه الاشتغال بالحديث وعلوم الدين تأليفاً وتدريساً ، ولذا أرجح أن يكون الزبيدي قد عب من هذا المعين الفياض ثقافته الدينية وآية ذلك ان الزبيدي روى عن شيخه ابن اصبغ في مواطن عدة من كتاب (لحن العامة) كثيراً من الاحاديث التي استشهد بها فهو لايكاد يروي حديثاً الا أسنده إلى قاسم بن أصبغ .

وأما ما ذهب اليه بعض الدارسين (٢) من أن ابن اصبغ هو أشهر مدرسي اللغة في تلك الحقبة ، فلا أراه ، وليس بدليل ان الذين أخذوا عنه أصبحوا علماء اللغة فى عصرهم كالزبيدي وابن القوطية ، إذ أنهما درسا عليه ، كما درسا على الرباحي والقالي وكانا متجردين لتدريس اللغة وحدها . وإذا قلنا ان القاسم بن أصبغ أيضاً أثراً في الجانب اللغوي من ثقافة الزبيدي ، فلا نعدو الواقع ، فقد مر بنا ان كتب ابن قتيبة قرئت عليه ، واكثرها كتب لغوية .

أحمد بن سعيد بن حزم بن يونس الصدفي (٢٨٤هـ ـ ٣٥٠هـ) :

ويكنى أبا عمرو وهو من أهل قرطبة ، تلقى علومه في الاندلس ، ثم رحل سنة احدى عشرة وثلثمائة ، فمكث في مكة يتردد على علمائها كما قيض له مروره بمصر والقيروان الالتقاء بمن فيهما من الشيوخ (٣)

(١) جذوة المقتبس : ٣١١ ، ٣١٢ .

(٢) الحركة اللغوية : ٧٤ .

(٣) تاريخ ابن الفرضي : ١/٥٥ وما بعدها . وانظر جذوة المقتبس ١١٧

ولما عاد الى الاندلس عني بالحديث ، وصرف همـــه إلى التأليف في علومه (فصنف تاريخا في المحدثين بلغ فيـه الغاية ، قرىء عليه ولم يزل يحدث إلى أن توفي) (١) .

ومن نافلة القول أن أبا بكر الزبيدي تلقى على أحمد بن سعيد هذا الحديث ومايتصل به من كتب الرجال ، وطرق توثيقهم أو تجريحهم ولم يأخذ عنه الحديث فقـــط بل وما يتعلق بلغته والفاظه من شروح واقوال وشواهد ، يدلنـا على ذلك ما أورده في كتابه لحن العامة عن أحمد بن سعيد من روايات جاءت تعقيبا على بعض ما استشهد به من احاديث لتفسر غريبها أو تجلو ما غمض من مفرداتها ، فهو حين يفسر (المخنث) من الرجال بقوله (الذي فيه تكسر ورخاوة ومنه قولهم : امرأة خنثة . ويقال خَنَثَ السقاء وانخنث إذا مال وتكسر) يدعم هذا التفسير بحديث يقفوه بيت من الشعر يرويه عن أحمد بن سعيد ، ليعزز به المعنى الذي ذكره لكلمة (مخنث) ، قال الزبيدي : (وفي الحديث : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اختناث الاسقية ومعناه أن تمال فيشرب من افواهها . وأنشدنا احمد بن سعيد قال : انشدنا احمد بن خالد عن علي بن عبد العزيز لشاعر ذكر انه شرب من سقاء فألغز وقال :

أخذت مُخَنَّثاً فلثمت فاه فيا طيب المخنث من لثيم (٢)

وترد في لحن العامة شواهد شعرية أخرى غير هـذا البيت (٣)

---

(١) تاريخ ابن الفرضي : ١ / ٥٥ وما بعدها .

(٢) لحن العوام : ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٣) المصدر نفسه : ١٠٢ و ٢١٦ و ٢٠ .

وأقوال (١) يرويها الزبيدي عن أحمد بن سعيد مما يدل على أن أثر هذا الشيخ لم يقتصر على الجانب الديني من ثقافة الزبيدي ، بل تعداه الى الجانب اللغوي منها أيضاً . وان كان أثره في الجانب الأول أعمق وأبعد ، لما نعرف عنه من اهتمام بالحديث والسنن ، ولأن الذين تلمذوا له وأخذوا عنه . ما عدا الزبيدي ، لم يصبحوا من حملة اللغة أو علماء العربية في ذلك الصقع :

أحمد بن نصر بن خالد (٢) :

وكنيته ابوعمرو ، ويبدو أنه سكن قرطبة قادما إليها من طليطلة ثم وصل أسبابه ببعض أهل العلم فيها ، فسمع منهم ، ودرس عليهم واجتذبه الحديث والفقه ، فندب نفسه لتحصيلهما ، والتبحر فيهما ، ومن شيوخه أسلم بن عبد العزيز وقاسم بن أصبغ وغيرهما . كان من مؤدبي هشام المؤيد ، فقربه الحكام ، وأسندوا إليه أحكام الشرطة والسوق وقلدوه قضاء كورة جيان .

لم يذكر الذين ترجموا للزبيدي أنه تلمذ لاحمد بن نصر بن خالد ، الا انني في اثناء التنقيب عن شيوخه ، عثرت في ترجمة ابن الفرضي لاحمد بن نصر هذا على ما يفيد اتصال الزبيدي به ، ويثبت أخذه عنه ، قال : (حدثني محمد بن حسن الزبيدي أنه سمع منه - يعني احمد بن نصر - موطأ مطرف عن محمد بن عمر بن لبابة ، وقرأه لأمير المؤمنين هشام) . وفي هذا النص ما يفصح عن أن الزبيدي تلقى على نصر طرفاً من ثقافته الدينية ، واخذ عنه الحديث . توفي سنة (٣٧٠ هـ) وكان مولده سنة ٢٨٨ هـ .

---

(١) لحن العوام : ١٤١ .

(٢) تاريخ ابن الفرضي : ١ / ٦٢ وما بعدها .

سعيد بن فحلون بن سعيد (٢٥٢ هـ - ٣٤٦ هـ)

وكنيته ابو عثمان ، وهو من أهل البيرة ، وفيها تلقى علومه (١) ثم أتم تحصيله في قرطبة حيث سمع من بقي بن مخلد ومحمد بن وضاح وابراهيم بن قاسم بن هلال ، ومطرف بن قيس ويوسف بن يحيى المغامي (٢) :

ولم يكتف بما وصل اليه من المعرفة فقصد إلى المشرق وأم بعض حواضر العلم فيه الا أنه لم يتوغل في رحلته ولم يجاوز شمال افريقيا فألم بالقيروان والاسكندرية والتقى فيهما ببعض العلماء فتلمذ لهم ، واستقى علومه منهم ، ثم آب الى الاندلس ، فسكن بجانة (٣) .

ويبدو لي من أسماء الشيوخ الذين لقيهم ، ومن اسماء الذين أخذوا عنه انه ممن عني بالحديث وما يرتبط به أويدور حوله من فروع المعرفة . لم يلق دروسه في معاهد قرطبة وجوامعها ، بل كان طلابه يقصدونه في (بجانة) ويتكلفون الرحلة اليه من قرطبة وغيرها ، وذلك لانه كان آخر رواة يوسف بن يحيى المغامي موتا ، فاحتاج الناس اليه ليسد الفراغ الذي تركه موت تلاميذ المغامي ورواته (٤) .

ولاشك أن الزبيدي كان من بين الذين وفدوا على بجانة مستقين من هذا العالم ، وناهلين من فيضه الغزير ، وقد تساءل بعضهم (٥) عن

---

(١) تاريخ ابن الفرضي : ١ / ٢٠٠ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٢٠٠.

(٣) المصدر نفسه : ١ / ٢٠٠ ، ٢٠١ :

(٤) المصدر نفسه : ١ / ٢٠١ .

(٥) الحركة اللغوية : ١٢٤ .

المكان الذي لقي فيه الزبيدي شيخه ابن فحلون ، أهو قرطبة أم بجانة ؟ ولعل تساؤله يرجع الى أنه لم يطلع على ما جاء في تاريخ ابن الفرضي من ان تلامذة ابن فحلون كانوا يرحلون اليه ، ويلمون ببجانة حيث يقيم . ونعته بعض من ترجم له بقوله : (وكان سعيد بن فحلون صدوقاً فيما روى ، غير انه لم يكن حصيف العقل ، وكانت له اخلاق كريمة جداً ، أخبرني بذلك عنه جماعة ممن لقيه ، ووقف على هذه الحالة منه) (١) .

المجموعة الثانية :

واليها يرجع الفضل فيما بلغ الزبيدي من منزلة في العلوم اللغوية لم يبلغها معاصروه ، وتضم هذه المجموعة شيخين من شيوخه هما الرباحي والقالي ، ولعلي لا أعدو الصواب اذا قلت ان الاندلس لم تعرف قبلهما من خطا بالدرس اللغوي خطوات فساحا نحو النضج والازدهار ، فهما اللذان مكنا لطلاب العربية هناك من أن يستغنوا عن الرحلة الى المشرق للتفقه في النحو واللغة على اعلامه وجهابذته ، ولم ينجم في الاندلس قبلهما من بلغ شأوهما في امتلاك ناصية اللغة ، والتضلع من علومها ، فالذين نهضوا بتعليم العربية قبلهما لم يكونوا من المختصين المتبحرين فيها ، ولم تكن اللغة أهم بضاعتهم بل كانت جانبا من جوانب ثقافتهم ، فليس بينهم من يبلغ في اللغة منزلة القالي وليس لأحد منهم ما لهذا العالم الجليل من كتب ومصنفات ضارعت أشهر ما صنف اعلام البصرة والكوفة وبغداد ، ووقفت بجوار أنفس

(١) تاريخ ابن الفرضي : ١ / ٢٠١ .

مالهم من أسفار . كما أن أحداً منهم لم يصرف همه إلى تعليم العربية وحدها ، ولم يقف نشاطه عليها كما فعل الرباحي الذي لم يؤخذ عنه غير العلوم اللغوية ، ولم يكن الرباحي نظير القالي في العلم باللغة أو مساوياً له في المنزلة العلمية ، فبينهما بون واسع واختلاف كبير ، يدلك على ذلك كثرة ما للقالي من مؤلفات تعد من أوعى الكتب للغريب والنوادر ، وأجمعها للشعر والاخبار ، وأحفلها بالمسائل ، كما يدلك عليه ما جلب القالي معه من كتب ودواوين ومتون كان الاندلسيون يفتقرون إليها ، ولا يجدون مناصاً من الرحلة الى المشرق بغية الوقوف عليها والنظر فيها .

أما الرباحي فلم يكن الا استاذاً يشرح لطلابه ما دق عليهم ، وخفي عنهم من مسائل وقضايا تضمنتها طائفة من كتب اللغة والنحو دخلت الاندلس منذ وقت مبكر ككتاب سيبويه وكتاب الكسائي وغيرهما ولم يتعد التدريس إلى التأليف والتصنيف .

ومهما يكن من أمر فقد ترك هذان الشيخان أثراً بارزاً في الدرس اللغوي في الاندلس واسديا خيراً كثيراً إلى حركة اللغة والنحو في ذلك الصقع ، حتى ظهر من تلامذتهما وأتباعهما من تخصص باللغة ، واخلى ذرعه لها ، ووقف جهده وحياته عليها كالزبيدي وابن القوطية وامثالهما بينما عجز الشيوخ الذين تقدموهما عن ان يمنحوا الاندلس مثل هذين العالمين وخاصة أبا بكر الزبيدي الذي قطع بالدرس اللغوي شوطاً بعيدا ونقله نقلة كبيرة ، وطبعه بطابع لم تنل منه الأيام ، ولم يبدل من ملامحه تراخي السنين ، كما سيأتي به البيان .

محمد بن يحيى بن عبد السلام الازدى النحوى المعروف بالرباحي (ت ٣٥٨ ه) :

تذكر كتب التراجم ان أصله من جيان ، ولكنه سكن قرطبة ، كما تشير إلى أن نسبه يتصل بيزيد بن المهلب (١) : سمع بقرطبة من قاسم بن اصبغ وغيره ، إلا أنه كان ظامئاً للعلم ، محباً للاستزادة منه فشد الرحال إلى المشرق ، وألم بمكـة ، فالتقى فيها بابن الاعرابي ، وأخذ عنه . وأقام في مصر زمناً لزم خلاله أبا جعفر بن النحاس (فحمل عنه كتاب سيبويه رواية) (٢) كما لقي فيها علي بن الحسن المعروف بعلان وابن ولاد ولازمهما ، فكانت بينه وبين علان مناظرات (٣) :

ويبدو أن الرباحي قـد ضرب بسهم في عـدد من علوم عصره ، فطالع (كتب اهل الكلام ، وتفنن فيها ، ونظر في المنطقيات فاحكمها إلا انه لا يتقلد مذهباً من مذاهب المتكلمين ، ولا يقود أصـلا من اصولهم) (٤) .

وقد أكسبه النظر في كتب المتكلمين باعا طويلا ، ونفسا مديدا في الجدل والحجاج ، فكان لا يقهر في مناظرة ، ولا يؤوده انتصار على خصم وان كان ذلك الخصم على حق مبين .

ويبدو من وصف تلميذه الزبيدي اياه ، انه رجل ذو قدرة عجيبة على الجدل ، استمدها من ثقافة واسعة ، وفطنة حادة ، وعقل يقظ ، يعرف كيف يتصيد الحجج ، ويلجم بها المجادلين ، مهما كان الموضوع الذي يحتدم النقاش فيه ، فكان (يناظر اهل الطب والتنجيم في دقائق معانيهم ولطائف مسائلهم مناظرة من عني الدهر الطويل بعلمهم ، وشغل نفسه بمدارسة كتبهم ، فيقطعهم ويستشرف عليهم وذلك للطف حسه

(١) تاريخ ابن الفرضي : ٢ / ٧١ ، ٧٢ .

(٢) طبقات الزبيدي : ٣٣٥ وما بعدها :

(٣) و (٤) المصدر نفسه : ٣٣٥ وما بعدها :

وصحة خاطره وحذقه بأعمال القياس) (١) : وهو على ما أوتي من بسطة في العلم والبيان ، لم يكن يعبأ بمظهره ، أو يحتفل بملبسه ، فكان ظاهره لا ينبىء بفضله وسعة علمه ، ولكنه اذا (فوتش ونوظر لم يصطل بناره ، ولم يشق آخر غباره) (٢) .

ولم تشهد حلقات الدرس في قرطبة عالماً متوقد الخاطر كالرباحي فقد نهج في تعليم العربية نهجاً جديداً لم يألفه سالفوه ، ولم يكن عندهم من العلم والعقل ما يعينهم على نهجه والسير فيه ، فاكتفوا بتلقين تلاميذهم مبادىء اللغة وأوليات النحو (ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها والاعتلال لمسائلها ، ثم كانوا لا ينظرون في امالة ولا ادغام ولا تصريف ولا ابنية ، ولا يجيبون فى شيء منها حتى نهج لهم سبيل النظر ، واعلمهم بما عليه أهل هذا الشأن في المشرق من استقصاء الفن بوجوهه ، واستيفائه على حدوده ، وانهم بذلك استحقوا اسم الرياسة) (٣) :

لم يكن الرباحي اذن كسالفيه ذاكرة تلتقط وذهنا تحتشد فيه الروايات ، بل كان ذا عقل بصير ، وفكر نافذ ، لايفوته شيء من أسرار اللغة ، ولا تلطف عنه دقائقها ، وقد قيل انه قليل النظر في الكتب ، الا انه كثير التفكير فيما يقرأ ، ليستخرج منه الدقائق التي لا تتكشف إلا بعد انعام النظر ، واعمال الفكر (٤) . ولذلك لا أبعد عن الصواب اذا جعلت الرباحي باكورة عهد جديد من عهود الفكر اللغوي الاندلسي انتقل فيه ، من السذاجة والسطحية وقرب التناول للمسائل ، الى العمق والميل نحو اكتناه الغوامض ، وفقه العلل

(١) طبقات الزبيدي : ٣٢٥ وما بعدها .

(٢) و (٣) و (٤) المصدر نفسه والصفحات نفسها .

والوقوف على خفايا اللغة وأسرارها .

ولعل فيما أبنت لك من نهج الرباحي في الدرس ، وطريقته في التفكير ، ما يفسر شغف تلميذه الزبيدي ، بنقـــد المشارقة ، وغربلة كتبهم ، وتسليط الاضواء على ما فيها من ثغرات ، فهو بذلك يتأثر خطى استاذه ، ويسير على هديه ، ويفي لمنهجه الذي بشر به تلاميذه ، وهو منهج قائم على التدبر واعمال الفكر وعدم التسليم بكل مقروء ، حتى يقوم الدليل عليه ، ويتضح وجه الحق فيه .

فبظهور الرباحي تبدأ شخصية الاندلس في البروز ، وتأخـذ في المشاركة في مجال البحث اللغوي ، وتنسلخ من عهد طويل كان الدارسون خلاله يلتهمون ما تقع عليه أبصارهم من آثار المشارقة ، دون تمييز بين غث وسمين ، أو تفريق بين خطأ وصواب ، ومن أمارات هذا الانسياق الاعمى وراء المشارقة أنهم ثاروا بالزبيدي ، واتهموه بالتطاول على مقام الخليل بن احمد ، لانه أقدم على نقـــد كتاب (العين) والتنبيه على ما جاء فيه من أوهام ، ولم يرض لأهل العلم في بلده أن يثقوا بكل ما في الكتاب ، لمجرد أن بعضهم ينسبه للخليل .

ولو أن الزبيدي ، وهو أقدم من ترجم للرباحي ، ووصف منحاه في التفكير ، قرن ما ذكره عنه بنماذج من دراساته ، وطرف من آرائه لتبين لنا بشكل أوضح ، ما لهذا الرجل من منزلة علمية . وقد ذكر ابن خير الكتب التي أخذت عن الرباحي وهي : كتاب سيبويه (١) ، وكتاب المقتضب للمبرد (٢) ، وكتاب الكافي في النحو والمقنع في النحو

(١) فهرست ابن خير : ٣٠٥ .
(٢) نفسه : ٣٠٧ .

لابن النحاس (١) ، وكتاب الانتصار لابن ولاد (٢) ، وكتاب التصاريف للمبرد (٣) ، وكتاب الاخبار للمازني (٤) ، وكتاب أبي الحسن الاخفش في النحو (٥) ، وكتاب المقصور والممدود لابن ولاد ، وكتاب النقائض لابن ولاد أيضاً (٦) ، وكتاب صنعة الكتاب لابن النحاس (٧) .

أبو علي القالي :

وهو اسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان مولى عبدالملك بن مروان (٨) : ولد بقرية مناز جرد من ديار بكر ، وهي من أعمال ارمينية (٩) ، وذلك سنة ٢٨٠ هـ على رواية (١٠) ، وسنة ٢٨٨ هـ على رواية اخرى (١١) .

ولعل الرواية الأولى اصح لأنها رواية الزبيدي عن القالي نفسه : ولا تذكر المصادر شيئاً عن طفولته ، ونشأته الاولى ، وانما تذكر لنا

(١) فهرست ابن خير : ٣٠٩ .

(٢) نفسه : ٣١١ .

(٣) نفسه : ٣١٢ :

(٤) نفسه : ٣١٣ .

(٥) نفسه : ٣٢٤ .

(٦) نفسه : ٣٨٦ .

(٧) نفسه : ٣٨٦ .

(٨) طبقات الزبيدي : ٢٠٤ .

(٩) انباه الرواة : ١ / ٢٠٤ .

(١٠) طبقات الزبيدي : ٢٠٤ .

(١١) بغية الوعاة : ١ / ٤٥٣ :

خبر نزوحه من موطنه الى بغداد سنة ٣٠٣ هـ (١) .

وكانت بغداد في تلك الحقبة حاضرة الفكر ، ومناط آمال الظامئين للمعرفة : وفي الطريق بين ديار بكر وبغداد تقع الموصل ، ويبدو أن مروره بها لم يكن عابراً بل لبث فيها زمناً آخذاً عمن فيها من شيوخ الحديث (٢) . ثم واصل الرحلة فدخل بغداد سنة ٣٠٥هـ (٣) .

ولم يكن القالي في رحلته وحيداً ، بل كان في رفقـــة من أهل قالي قلا ، وهي قرية من قرى منازجرد ، كان لأهلها مكان في قلوب الناس لما لهم من فضل في حراسة الحدود ، وبلاء حسن في النضح عنها ولما رأى أبو علي اكـرام الناس أهل قاليقلا ، وفرط عنايتهم بهم ، انتسب اليها حين دخل بغداد راجيا أن يجلب لنفسه بذلك عناية العلماء به ، وحب العامة له (٤) فثبت عليه اللقب ، ولصقت به النسبة .

وكانت بغداد ، ابان وفود القالي عليها ، تزخر بعلماء اللغة والنحو على اختلاف مناحيهم ، وتباين مذاهبهم ، فلم يشأ أن ينهل علومه من معين واحد ، بل سمت نفسه الى الارتشاف من جميع المصادر بصرية كانت او كوفية ، فأخـذ عن ابن دريد وابن الانباري ونفطويه وابن السراج والزجاج وعلي بن سليمان الاخفش وغيرهم ، وأخذ كتب ابن قتيبة عن ابنه احمد ، كما درس القراءات السبع ، وقراءة أبي عمرو ابن العلاء خاصة على المقرىء أبي بكر بن مجاهد (٥) :

---

(١) طبقات الزبيدي : ٢٠٤ .

(٢) وفيات الاعيان : ١ / ٢٠٥ .

(٣) طبقات الزبيدي : ٢٠٤ .

(٤) نفسه : ٢٠٥ .

(٥) نفسه : ٢٠٤ ، ٢٠٥ :

وظهر له شغف خاص بكتاب سيبويه ، فلزم ابن درستويه ، ودرس (الكتاب) عليه ، ففقه دقائقه وخوافيه ، وثقف العلل المبثوثة في تضاعيفه ، (ومع تأكيد المصادر أنه تعصب للبصريين فانه لم يتردد في أخذ علم الكوفيين) (١) ، أخذه عن أبي عمر محمد بن عبد الواحد المطرز غلام ثعلب ، فقد حدثه عن ثعلب ، كما لقي كوفيين آخرين واخذ عنهم ، وهم الطوسي وأبو بكر بن الانباري ونفطويه .

ولم يكتف بما كان يسمع من الشيوخ ، بل كان يلم بأسواق الوراقين ويقتني الكتب ثم يقرأها على العلماء لتنقيتها وتوثيقها ، ولكن وقته لم يتسع لتوثيق كل ما اقتنى من الكتب ، فـ (كان فيما حمله إلى الاندلس كتب غير مقروءة) (٢) .

ولم يكن مقامه ببغداد مهما طال ، ليجلب له ما يشتهي من مجد باذخ ، وصيت مستفيض ، لكثرة من تضم من اعلام اللغة وأقطاب النحو ممن يصعب عليه البروز بينهم ، فرمى ببصره نحو أفق جديد ، تبرز فيه مواهبه ، وينبه شأنه ، ولم يكن ذلك الافق غير الاندلس ، فعقد العزم على الهجرة اليها عسى أن تقدم له مالم تقدمه بغداد من أوسمة المجد والشهرة .

بدأت رحلته من بغداد الى الاندلس سنة ٣٢٨ هـ ، واستغرقت سنتين ، فدخلها سنة ٣٣٠ هـ (٣) .

وقيل ان الحكم المستنصر قد كتب إلى القالي يستحثه للوفود على

---

(١) البارع : ١٤ رسالة ماجستير مخطوطة .

(٢) المصدر نفسه : ١٥ .

(٣) طبقات الزبيدي : ٢٠٥ .

الاندلس (١) . وقيل ان الناصر هو الذي استدعاه . ولكن بعض الدارسين تشكك بصحة هذا الاستدعاء ، لأن القالي لم يعرف له تأليف واحد قبل دخوله الاندلس يجلب اليه الشهرة ، ويرغب فيه خليفة قرطبة ، كما لم يتصدر حلقة درس في بغداد (٢) . ويذهب المقري إلى ان الناصر لم يستدع القالي لشهرته ، وانما استدعاه لوشيجة الولاء التي كانت تربطه بالبيت الاموي (٣)

ومهما يكن فقد دخل القالي قرطبة في موكب حافل (فتلقاه المستنصر بالجميل ، وحظي عنده ، وقرب منه ، وبالغ في اكرامه) (٤) وكانت في الاندلس نهضة لغوية وأدبية بهرت القالي ، ونالت استحسانه فمن الكتب التي أبدى اعجابه بها كتاب (الدلائل) في شرح الحديث لثابت بن عبد العزيز (٥) . كما كان فيها ـ أي الاندلس ـ عالمان كبيران هما ابن القوطية الذي لم يكتم القالي اعجابه به ، وأبو بكر الزبيدي وكان اماماً في الادب ، ولكنه مال إلى القالي فأخذ عنه وأقر له (٦) :

استوطن القالي قرطبة ، وتصدر فيها للتدريس ، فأقبل الناس على دروسه ، تستحثهم رغبة قوية للاخذ عنه ، والسماع منه ، وتحببه اليهم اخلاق سمحة وطباع رضية ، فلم يظهر لهم منه ادعاء أو تزيد ، بل كان في جميع ما أمله أو كتبه مثالا للعالم الدقيق الذي يعزو كل قول

---

(١) جذوة المقتبس : ١٥٥ .

(٢) البارع : ١٨ .

(٣) نفح الطيب : ٤ / ٧٥ .

(٤) جذوة المقتبس : ١٥٥ :

(٥) طبقات الزبيدي : ٣٠٩ :

(٦) جذوة المقتبس : ١٥٥ ، ١٥٦ .

لقائله ، كما بهرهم منه اطلاع واسع ، ندر مثاله بينهم ، وعز نظيره فيهم ، وقد أنصفه تلميذه الزبيدي حين قال : (كان أحفظ أهل زمانه للغة ، وأرواهم للشعر الجاهلي ، وأحفظهم له) (١) :

فهو يتمتع بذاكرة لاقطة ، وحافظة ضنينة بما تمسك ، ولذا أمل جميع كتبه من حفظه ، قال الزبيدي (وله اوضاع كثيرة أملاها عن ظهر قلب) (٢) وقال في موطن آخر ان له كتباً كثيرة (ارتجل جميعها واملاها عن ظهر قلب كلها) (٣) وكانت كتبه جليلة النفع ، وعلى غاية بعيدة من الاستقصاء والاتقان .

هذا الى أن بعضها تضمن مسائل في اللغة لم يسبق اليها أحد ، فكتاب النوادر كما وصفه الزبيدي (غاية في معناه وهو انفع الكتب لان فيه الخبر الحسن ، والمثل المتصرف ، والشعر الفائت المنتقى في كل معنى وفيه أبواب من اللغة مستقصاة ، ليست توجد في شيء من كتب اللغة بكمال ما هي في هذا الكتاب ، وفيه الابدال والقلب مستقصى وفيه تفسير الاتباع وهو مالم يسبقه إليه أحد ، إلى فوائد كثيرة فيه) (٤) .

واما كتبه الاخرى فلا تقل عن النوادر في قيمتها ، كالممدود والمقصور الذي (لم يوضع له نظير) و (الابل) و (حلى الانسان) و (الخيل وشياتها) وكتاب (فعلت وأفعلت) و (مقاتل الفرسان) و (تفسير القصائد والمعلقات وتفسير اعرابها ومعانيها) وغير ذلك (٥) .

وأما معجمه الموسوم بالبارع فقد استغرق تأليفه زمناً طويلا يقع بين سنتي ٣٣٩ ، ٣٥٥ هـ ، وقد قصد من تأليفه أن يكون اكمل من

---

(١) طبقات الزبيدي : ٢٠٢ .

(٢) و (٣) و (٤) و (٥) المصدر نفسه : ٢٠٣ .

كتاب (العين) واكثر احاطة بمفردات اللغة منه ، فبلغ خمسة آلاف ورقة ، استمد مادته مما حوته كتب اللغة ، ولم يعرف أن (احدا من العلماء المتقدمين والمتأخرين ألف مثله في الاحاطة والاستيعاب) (١) .

وذهب بعض المحدثين الى ان (البارع) ليس الا نسخة مصححة لكتاب العين ، اضيفت إلى مادتها اضافات اقتضاها تأخر الزمن (٢) .

ولم يقتصر أثر القالي في الحركـة اللغوية في الاندلس على مجرد التدريس والتأليف ، بل كان لتلك الثروة التأليفية الضخمة ، والكتب الموثقة المقروءة التي حملها معه (٣) أثر بعيد في تنشيط الدرس اللغوي وبعث الحياة في أوصاله :

لقد أجرى القالي في تلك الربوع بحراً طامياً من المادة اللغوية أقبل الناس على الامتياح منه ، والعب من فيوضه ، فانعكس ذلك في تآليفهم التي استطاعت أن تضاهي كتب المشارقة ، وتقف بمصافها :

ولم يقف تأثيره عند ذلك ، بل تعداه الى التمكين لنحو البصرة من الانتشار في الاندلس ، والظهور على غريمه نحو الكوفة ، ذلك لأن القالي كان قد فقه النحو البصري ، وثقف دقائقه وعلله ، فما أن حل بالاندلس حتى رفـع لواء البصرة واحتضن نحو سيبويه خاصة ، ورد على من خالفه من البصريين (٤) :

---

(١) أنباه الرواة : ١ / ٢٠٦ .

(٢) عبقري من البصرة : ٧٣ و (البارع) لهاشم الطعان ، مخطوط : ٥٣ .

(٣) انظرفهرست ابن خير : صفحات متفرقة ، يسرد فيها الكتب والمتون التي حملها القالي واقرأ الكثير منها .

(٤) جذوة المقتبس : ١٥٦ وانباه الرواة : ١ / ٢٠٥ :

ويبدو لي الزبيدي كان يتأثر استاذه في تقدير كتاب سيبويه والاعلاء من شأنه ، فهو يزرى بكل ما ألف بعده ، ويراه تكراراً لاقواله ، واجتراراً لمسائله . وكان ينعى على النحاة بعد سيبويه انهم أضاعوا أوقاتهم في تسطير أقوال معادة وآراء مكرورة .

وهناك جانب آخر التقى فيه الزبيدي مع استاذه القالي وهو الاهتمام بالعين ، وان كان لكل منهما منحى في هذا الاهتمام ، فقد انصرف القالي إلى وضع (البارع) ليكون أوعب من العين ، واشد استيفاء لمواد اللغة منه ، أما الزبيدى فقد أخذ على عاتقه اختصار (العين) واصلاح مافيه من خلل ، وتنقيته من الاخطاء ، التي تسربت اليه وهو ينتقل بين الوراقين والنساخين ، نحوا من قرن ، قبل أن يقع بأيدي العلماء . توفي القالي بقرطبة سنة ٣٥٦ هـ (١) .

تلاميذ الزبيدي :

١ - ابنه ابو الوليد محمد بن محمد بن الحسن الزبيدي . ذكر الحميدي في جذوة المقتبس أن ابا الوليد هذا قد سمع من أبيه كتاب (مختصر العين) (٢) .

٢ - ابو القاسم ابراهيم بن محمد بن زكرياء المعروف بابن الافليلي : وهو عربي ينحدر من قبيلة قريش ، ويرتقي نسبه الى سعد ابن أبي وقاص (٣) . وأما افليل فهي قرية من قرى الشام (٤) يبدو

(١) جذوة المقتبس : ١٥٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٦ .

(٣) الصلة : ١ / ٩٥ .

(٤) الصلة : ١ / ٩٥ .

ان اسرته نزحت منها إلى الاندلس . تلقى علومه على جماعة من فضلاء الاندلس وعلمائها ، ومنهم أبو بكر الزبيدي (١) ؛ وكان كغيره من أهل العلم متعدد جوانب الثقافة (حافظاً للاشعار واللغة) (٢) و (متصدراً في علم الادب يقرأ عليه ويختلف فيه اليه) (٣) و (ذاكراً للاخبار وايام الناس) كما كان ذا عناية (بكتب جمة كالغريب المصنف والالفاظ وغيرهما) (٤) ولم يغفـــل الحديث بل (لقي جماعة من مشاهير المحدثين) (٥) .

ويبدو ان العلوم اللغوية لم تجفف ذوقه الادبي ، ولم تمل به عن قراءة الشعر ، ونقده نقدا يدل على بصربه ، ونفاذ الى أسراره ومعانيه كما يبدو انه كان من أصحاب المختارات ، فقد جمع (من اشعار أهل بلده قطعة صالحة) (٦) كما كانت له عناية خاصة بشعر أبي تمام والمتنبي وقد وضع كتاباً شرح فيه معاني شعر الاخير (٧) .

روى ابن الافليلي كثيراً من الكتب عن استاذه الزبيدي منها : كتاب ابنية سيبويه للزبيدي (٨) ، وكتاب لحن العامة له أيضاً (٩) ،

(١) الصلة : ١ / ٩٥ .

(٢) نفسه : ١ / ٩٥ .

(٣) جذوة المقتبس : ١٤٢ .

(٤) الصلة : ١ / ٩٥ .

(٥) نفسه : ١ / ٩٥ :

(٦) نفسه : ١ / ٩٥ :

(٧) جذوة المقتبس : ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٨) فهرست ابن خير : ٣٤٥ .

(٩) نفسه ا ٣٤٦ .

وكتاب النوادر للقالي (١) ، وشعر اعشى بكر (٢) ، ونوادر ابن الاعرابي (٣) ، وكتاب الميسر لابن قتيبة (٤) ، ونوادر أبي زياد الكلابي (٥) . وقد ولي ابن الافليلي الوزارة في عهد المستكفي بالله . وتوفي سنة ٤٤١ هـ (٦) .

٣ ـ اسماعيل بن سيدة والد أبي الحسن بن سيدة اللغوي : وهو كفيف من أهل مرسية ، كان نحوياً (من أهل المعرفة والذكاء) ، وولده أعمى أيضاً . أخذ عن الزبيدي (مختصر العين) وتوفي بعد الاربعمائة (٧) .

٤ ـ عبادة بن ماء السماء الأديب : غلب عليه الادب والشعر (وله كتاب أخبار شعراء الاندلس) (٨) . روى عن الزبيدي كثيراً من الكتب : كتاب الواضح في النحو للزبيدي (٩) وكتاب المستدرك من الزيادة في كتاب البارع للقالي على كتاب العين للزبيدي أيضاً (١٠) وكتاب رسالة التقريظ له (١١) ، ومقصورة ابن دريد ، والمفضليات

---

(١) فهرست ابن خير : ٣٢٤ .

(٢) نفسه : ٣٩٢ .

(٣) نفسه : ٣٧٢ .

(٤) نفسه : ٣٧٨ .

(٥) نفسه : ٣٨٠ .

(٦) الصلة : ١ / ٩٥ .

(٧) انظر الصلة : ١ / ١٠٥ وانباه الرواة : ١ / ١٩٩ .

(٨) جذوة المقتبس : ٢٧٤ .

(٩) ابن خير : ٣١١ .

(١٠) ابن خير : ٣٥٠ .

(١١) نفسه : ٣٥١ .

والاصمعيات (١) وجزء فيه الاضداد لثعلب (٢) . كما روى عنه كتب القالي : الابل ونتاجها ، حلي الانسان ، وكتاب الخيل وشياتها ، وكتاب مقاتل الفرسان ، وكتاب تفسير القصائد والمعلقات وتفسير اعرابها ومعانيها (٣) . وتوفي سنة ٤١٩ هـ (٤) .

٥ - محمد بن خزرج بن سلمة : صحب الزبيدي واختص به (٥) وروى عنه كتاب طبقات النحويين واللغويين (٦) . توفي سنة ٤١٩ هـ (٧) .

٦ - حسان بن مالك بن أبي عبدة : وهو (من جلة الادباء وعلمائهم) (٨) روى عن الزبيدي كتابه في الابنية (٩) ، وكتاب فعلت وأفعلت للزجاج (١٠) .

٧ - محمد بن عطاء الله النحوي : غلب عليه النحو ، وكان له بصر به ، أخذ عن الزبيدي وكانت له منزلة عنده فاستأدبه لبنيه . توفي فى احدى غزوات المظفر بن أبي عامر سنة ٣٩٤ هـ او نحوها (١١) .

---

(١) ابن خير : ٣٩٠ ، ٤٠٠ :
(٢) نفسه : ٣٨١ .
(٣) نفسه : ٣٥٥ .
(٤) الصلة : ٢ / ٤٢٦ .
(٥) نفسه : ٢ / ٤٨٥ :
(٦) ابن خير : ٣٥١ .
(٧) الصلة : ٢ / ٤٨٥ .
(٨) نفسه : ١ / ١٥٣ :
(٩) ابن خير : ٣٤٥ .
(١٠) ابن خير : ٣٥٣ :
(١١) الصلة : ٢ / ٤٥٥ .

٨ - يوسف بن ورمز بن خيران السكوني البطليوسي : أخذ بقرطبة عن الزبيدي وابن أبي الحباب وأبي عثمان بن القواز وكان (بارعاً في الآداب والترسيل وعالماً بالعربية حسن الخط) (١) توفي سنة ٤٢٤ (٢) .

بينه وبين معاصريه :

لقد جرت بين الزبيدي وبين بعض معاصريه ، مطارحات شعرية ومناظرات علمية ، كانت اللغة موضوع اكثرها ، فأما المطارحات الشعرية فقد كانت بينه وبين استاذه الرباحي ، وبينه وبين الوزير المصحفي . واما المناظرات فقد جرت بينه وبين المصحفي مرة ، وبينه وبين صاعد البغدادي مرة أخرى .

١ - مع الرباحي :

كان الرباحي مولعاً بالاحاجي ، سريع الاستخراج للالغاز والمعميات فكان ينظم الشعر ويضمنه الغازاً ويبعث به الى تلميذه الزبيدي ممتحناً فطنته على سبيل المداعبة والمفاكهة ، وكان الزبيدي يجيبه بأبيات يودعها حل اللغز ، والمقطوعتان التاليتان من هذا الباب :

كتب الرباحي الى الزبيدي :

اسمعْ وردَّ الجوابَ عما أحاجيك فيه بالمعمَّى
بيتا من الشعر ذا حدود تُدْعَى حروفاً وهُنَّ أسما
فتبديلُهــا سُمٌّ عجيب ما ان يرى تحته مُسَمَّى

---

(١) و (٢) الصلة : ٢ / ٦٣٩ .

وبعــده اسم الرئيس فيها ... اميرها والمطــاع حكمــاً
مكرّر فيــه وهو فرد ... في غيره إذ تخطُّ رَسْماً
والنّسْر يتلوه وهو فيــه ... اقصى حروفِ الذي يُعَمّى
ثم الشقرّاق وابن ماء ... وبالحُبارَى ينمُّ اسْمَــا
والببغــاء والعقاب يهوى ... إثر الحبارى يجــد عزمــا
والديك والصقر والقمارى ... مع الحُبارى فقدْكَ عِلْما
والصّقْر قد علّق الحبارى ... في موطن الحِمام حُمّــا
وبعد ذاك الكَرى الملقّى ... عِقاله اليــوم حيث أمّــا
ثم ابن مــاء وببغاه ... مع القمارِىَّ وهْوَ لَمّــا
ينم الا بلفــظِ اسمٍ ... معــدومِ معنى اذا يسمّــى
وبعــد الببغاء وما قــد ... حواه بيت الكرى وضمّــا
وبعده الغــراب حرفٌ ... والبـاز ثم الظليم ثمّــا
حرف به تمت المعاني ... إسمٌ صحيح وليس جِسْمــا
فهاكها يا فتى المعــاني ... مثل اللآلي نُظِمْن نَظْمــا
وافخرْ باخراجك المُعمّى ... فيها على مُخرِجي المُعَمّى (١)

فأجابه الزبيدي (٢) :

يا ألطف العالمين علمــا ... واعظم الاحلمين حِلْمــا
اغرقْتَني في بحور فكر ... فكدت منها أموت غَمّــا
كلفتَني غامضاً عويصــا ... ارجُم فيه الظنونَ رَجْمــا
بيتا من الشعر ذا رسوم ... لم أكُ منها عَهِدت رَسْما

---

(١) طبقات الزبيدي : ٣٣٧ - ٣٣٨ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٣٨ ،

تصدُّ اذ رُمته بنيل ... حتى اذا ما يئست أومَا
مازلت أسرو السجوف عنه ... كأنني كاشفٌ لظَلْمـا
أقرُبُ من نيله وانأى ... مستبصراً تارة وأعمى
حتى بدا مُشْرِقَ المحيّا ... كالبدر لما اعتلى وتمَّـا
لله من منطق وجيز ... قـد جلَّ قدرا ودقَّ فهمـا
أخلَصْتَ لله فيه قولا ... سلَّمْتَ لله فيه حُكْما
اذ قلتَ قول امرىء حكم ... مراقبٍ للاله علمـاً
الله ربي وليُّ نفسي ... في كل بؤسى وكل نُعْمَى

ولم يكن الزبيدي دائماً بموقف الممتحَن بل ذكر لنا في طبقاته قصة لغز آخر، صنعه لشيخه الرباحي، قال: وضعت له أبياتاً أومأت فيها إلى اسم حددته بوصف مخارج حروفه حداً لا يشرك فيه الحرف غيره، وناولته اياها، فما زاد على التماحها حتى ظهر له الاسم، والابيات:

قل لمن صار مُسَمَّى ... باغنٍ شَفَهيٍّ
بينَ الجهر شـديد ... غير رِخْوٍ نَفَسيٍّ
مشرَبٍ لم يجِـدِ المَنْفَذَ في غير المضيّ
زائد جـاء لمعنى ... ماله حرف بسيٍّ
قبل حرف لَيِّنٍ في الحسّ مهموس قصيٍّ
سادس الستّة من ... مخرجها العدل السطيّ
ان تقف منه فبالنفخ بلا جرْسٍ قويّ
بعده مثلُ الذي ... من قبله سيّا بسيّ
بعده يفضي الى ... حرف شديد قطعيّ

لمَ عندي قَلَقي أُشبعَ جهرا ضَغَطي جدلي (١)

ويظهر ان حل هذا اللغز هو كلمة « محمد » (٢) .

ولم يكن الزبيدي وشيخه الرباحي يتطارحان الاشعار المتضمنة للالغاز والمعميات فقط ، بل كانا يتساجلان في اغراض اخرى ، وكان يشارك الزبيدي في مساجلة الرباحي ، ومناقلته الشعر ، عبد الله بن حمود الزبيدي (٣) ، ويبدو انهما كانا يتوخيان من تلك المساجلة رياضة ملكته على النظم ، وتدريبه على الاحسان فيه ، بعد ان تبينا أنه لا يجيده ، ولا يؤاتيه منه الا ما يرغب عنه ، وحين ساجلاه ، واكثرا من ذلك ، مرن على النظم ، وتمكن منه « فحسن شعره وسلس طبعه » (٤) .

٢ - مع المُصحفي :

هو الوزير الكاتب الاديب ابو الحسن جعفر بن عثمان المصحفي وزر للحكم المستنصر ثم لابنه هشام المؤيد ، ولم يطل زمن وزارته لهشام ، فسرعان ما تسلط الحاجب المنصور على الحكم ، وحجر على الخليفة القاصر هشام ، واستأصل رجاله وفي مقدمتهم المصحفي ، ويبدو

(١) طبقات الزبيدي : [illegible] ٢١٢ - ٢١٤

(٢) لحن العوام : ٢٤ (مقدمة المحقق) .

(٣) هو عبد الله بن حمود الزبيدي الاندلسي : صحب القالي وأخذ عنه ، ورحل الى المشرق فلقي السيرافي ، وأبا علي الفارسي ولم يرجع الى بلده ومات بالعراق : هامش محقق طبقات الزبيدي : [illegible] ٢١٢

(٤) طبقات الزبيدي : [illegible] ٢١٢

ان الزبيدي شغل منصب « صاحب الشرطة » في عهد هشام وفي أيام وزارة المصحفي كما سلف به البيان .

كان الزبيدي - كما سنرى - حاملا لواء تنقية اللغة من اللحن ، متصدياً لتيار العامية ، باذلا قصاراه في صده وحماية العربية منه . لقد كان اللحن المنطوق يصك أذنيه ، وكان اللحن المكتوب يقذى عينيه فينبرى لتصويبهما والتنبيه عليهما ، وان صدرا من العلية والوجهاء ، ولكنه كان يتلطف في ذلك ، ويرد المخطىء الى الصواب بأدب ولباقة وكثير من التواضع ، والقصة الآتية ترينا ذلك بوضوح : كتب الوزير أبوالحسن جعفر بن عثمان المصحفي كتاباً الى الزبيدي ، صاحب الشرطة جاءت فيه كلمة « فاضت نفسه » بالضاد فاجابه الزبيدي بأبيات بين له فيها الخطأ دون تصريح ، وهو (١) :

قل للوزير السنيّ مَحْتِدُهُ   لي ذمة منك أنت حافظُها
عنايةٌ بالعلوم مَفْخَرَةٌ   قد بهظ الأولين باهظها
يُقِرُّ لي عَمْرُها ومَعْمَرُها   فيها ونظّامُها وجاحظُها
قد كان حقا قَبول حُرمتِها   لكنّ صَرف الزمان لافظُها
وفي خطوب الزمان لي عِظَةٌ   لو كان يَثْني النفوسَ واعظُها
ان لم تحافظ عصابة نسبت   اليك قِدْماً فمن يحافظُها
لا تَدَعَنْ حاجتي مُطرحةً   فان نفسي قد فاظ فائظها

ففطن المصحفي الى خطئه ، ولكنه أراد أن يستوثق من الصواب فطلب المزيد من الايضاح ، قائلا :

خفض فواقا فأنت أوحدها   علما ونقّابها وحافظُها
كيف تضيع العلوم في بلد   ابناؤه كلهم يحافظها

---

(١) جذوة المقتبس : ٤٣ وما بعدها .

الفاظهم كلها معطلة ... مالم يعوّل عليك لافظُها
من ذا يساويك ان نطقت وقد ... أقر بالعجز عنك جاحظُها
علم ثنى العالمين عنك كما ... ثُني عن الشمس من يلاحظها
وقد اتتني فُديتَ شاغلةٌ ... للنفس أن قلت فاظ فائظها
فأوضحَنها تفزْ ببادرة ... قد بهظ الأولين باهظُها

فأجابه الزبيدى بأبيات اودعها الشاهد على صحة تصويبه ، وخطأ المصحفي :

أتاني كتاب من كريم مكرّم ... فنفّس عن نفس تكاد تفيظُ
فسر جميعَ الأولياء ورودُه ... وسيء رجالٌ آخرون وغيظوا
لقد حفظ العهد الذي قد اضاعه ... لدىَّ سواه والكريم حفيظ
وباحثتَ عن فاظت وقبلي قالها ... رجال لديهم في العلوم حظُوظ
روى ذاك عن كيسانَ سهلٌ وانشدوا ... مقال ابي الغيّاظ وهو مَغيظٌ
« وسميت غياظا ولست بغائظ ... عدوا ولكن للصديق تغيظ »
« فلا حفظ الرحمن روحك حية ... ولا وهي في الارواح حين تفيظ »

ويبدو أن المصحفي كان كلفا بمناظرة الزبيدي ، ومساءلته كلما ضمهما مجلس ، أو جمعهما محفل ، ولعل بلاط المستنصر كان ميداناً لهذه المناظرات ، فلا شك أنهما كانا يلتقيان فيه كثيراً ، لانهما من بطانة الحكم ورجال دولته ، فالمصحفي وزيره ، والزبيدي صاحبه ومؤدب ولده ، ومفزعه اذا ألمت به رغبة في تأليف كتاب في هذا الموضوع اللغوي أو ذاك .

وقد روى أبو حيان المؤرخ ان المصحفي كان حاضراً ذلك المجلس الذي تلقى فيه الزبيدي الامر بتأديب ولد المستنصر ، وشهد ما جرى

بينه وبين الخليفة من مناقشة ومحاورة علمية تتصل بكتاب « مختصر العين » وسمع عبارت الثناء والاعجاب التي قرظ بها الحكم الكتاب ومؤلفه ، ثم انبرى المصحفي بعد ذلك يناظر الزبيدي ويناقشه في عدد من قضايا اللغة والأدب والشعر ، فسر بهما الخليفة وأنس بما سمع منهما (١) .

٣ ـ مع صاعد البغدادي :

ومن المشارقة الذين يمموا الاندلس ووفدوا عليها ، أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادي اللغوي . دخل قرطبة في عهد الحاجب المنصور ، فلقي لديه الحظوة ، ونال منه الهبات ، وقد أراد المنصور أن يكون صاعد نجم دولته ، كما كان القالي نجماً متلألئاً في دولة الامويين ، الا ان صاعدا لم يكن كفء القالي ولا نظيره ، فسرعان ما استبان الاندلسيون انه رجل وضاع دعي ، لا يتورع عن الكذب ، ولا يحجم عن التزيد والتلفيق ، فاطرحوه ولم يعتدوا بأقواله ورواياته وأصبح عندهم مجرحا متهما في عقله ودينه ، ولم يلق كتابه المعروف بالفصوص الا الزراية والاعراض وقيل انهم طرحوه في النهر ، بعد أن تتبعوه « فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ولا خبر ثبت لديهم » (٢) :

ويبدو ان صاعدا تعرض في مجلس المنصور لسؤال وجهه الزبيدي اليه فعيي بالاجابة عنه ، روى المقري ان « من غريب ماجرى لصاعد ان المنصور جلس يوماً وعنده اعيان مملكته ودولته من أهل العلم كالزبيدي والعاصمي وابن العريف وغيرهم ، فقال لهم المنصور : هذا

---

(١) المقتبس : ١٣٤ .

(٢) نفح الطيب : ٤ / ٧٨ :

الرجل الوافد علينا يزعم أنه متقدم في هذه العلوم واحب أن يمتحن فوجه إليه ، فلما مثل بين يديه والمجلس قد احتفل ، خجل ، فرفع المنصور محله واقبل عليه وسأله عن أبي سعيد السيرافي ، فزعم أنه لقيه وقرأ عليـه كتاب سيبويه فبادره العاصمى عن مسألة من الكتاب فلم يحضره جوابها ، واعتذر بأن النحو ليس جل بضاعته فقال له الزبيدي : فما تحسن أيها الشيخ فقال : حفظ الغريب ، فقال : فما وزن أولق ؟ (١) فضحك صاعد : وقال : أمثلي يسأل عن هذا ، انما يسأل عنه صبيان المكاتب : قال الزبيدي : قد سألناك ولا نشك انك تجهله . فتغير لونه وقال : أفعل وزنه . قال الزبيدي : صـاحبكم ممخرق : فقال له صاعد إخال الشيخ صناعته الابنية . فقال له : أجل . فقال صاعد وبضاعتي انا حفظ الاشعار ورواية الاخبـار وفك المعمى وعلم الموسيقى : : : » (٢) .

شعره :

تذكر كتب التراجم أن الزبيدي كان شاعراً كثير النظم ، ولكنها لا تروى من شعره الا قطعا وأبياتاً قليلة ، يكاد ينتظمها غرض واحد هو الوعظ والارشاد ، وشعره أشبه بكلام الناظمين منه بشعر الشعراء

(١) الأولق : الجنون ووزنه « فَوْعَل » لان الهمزة فيه أصلية والواو زائدة ، فهو مأخوذ من قولهم « ألق فهو مألوق » . قال أبو علي الفارسي : « سأل مروان بن سعيد المهلبي الكسائى في حلقة يونس عن أوْلقَ ؟ فقال الكسائي : افعل . فقال له مروان استحييت الك يا شيخ » : المنصف : ١ / ١١٦ ، ١١٨ .

(٢) نفح الطيب : ٤ / ٧٧ ، ٧٨ :

يغلب عليه الفكر ، وتنعدم فيه العاطفة ، وذلك أمر ينبغي أن نتوقعه في شعر فقيه عالم ينزع الى التعبير المباشر الذي لا رونق فيه ولا رواء ولا صور ولا اخيلة .

ولعل أرق ما روى له من شعر تلك الأبيات التي بعث بها الى جارية له تدعى سلمى ، كان قد تركها في اشبيلية ، وحين اشتد به الحنين اليها ، استأذن الحكم المستنصر في أن يعود الى اشبيلية ليراها فلم يأذن له ، فكتب اليها الأبيات :

ويحك يا سلمَ لا تُراعي — لابدَّ للبين من زَمَاعَ
لا تحسبيني صبرتُ الا — كصبر مَيْتٍ على النزاع
ما خلق الله من عذاب — أشدَّ من وقفة الوداع
ما بينها والحِمام فرقٌ — لولا المناحات والنواعي
أن يفترق شملُنا وَشيكا — من بعد ما كان ذا اجتماع
فكلُّ شَمْلٍ الى افتراقٍ — وكل شَعْبٍ الى انصداعِ
وكل قُربٍ الى بِعادٍ — وكل وَصْلٍ الى انقطاع (١)

وله أبيات شائعة كتبها الى أبي مسلم بن فهد وكان - كما يقول الفتح بن خاقان - « كثير التكبر عظيم التجبر ، متعثراً لسانه مقفراً من المعالم جنانه » .

أبا مسلم ان الفتى بجَنانِه — ومقوله لا بالمراكب واللبس
وليس ثيابُ المرء تغني قُلامة — اذا كان مقصوراً على قِصَرِ النفس
وليس يفيد العلمَ والحلمَ والحِجا — ابا مسلم طول القعود على الكرسي (٢)

(١) جذوة المقتبس : ٤٥ .

(٢) مطمح الانفس : ٦١ ، ٦٢ وكذا جذوه المقتبس : ٤٣ وانباه الرواة ٣ / ١٠٩ وروضات الجنات : ٦٨٦ :

وله في التوجه الى الله وقصر الرجاء عليه لدفع ما ينزل بساحتنا من هم وضر :

اتركِ الهمَّ اذا ما طرَقَكْ ... وكِلِ الهمَّ الى من خلَقَكْ
واذا أمَّلَ قومٌ أحـــدا ... فالى ربك فامددْ عنقك (١)

وله في التذكير بالموت :

لو لم تكن نار ولا جنةٌ ... للمرء الا أنه يُقْبَـــرُ
لكان فيه واعظٌ زاجـــرٌ ... ناهٍ لمن يسمع أو يُبْصِرُ (٢)

وله في تحبيب العلم ، والحث على طلبه :

ما طلبتُ العلومَ الا لأني ... لم ازلْ من فنونها في رياض
ما سواها له بقلبي حـــظٌ ... غيرما كان للعيونِ المِراض (٣)

وخير للمرء أن يغترب طلبا للمال من أن يعيش فقيراً في وطنه :

الفقرُ في اوطاننا غربةٌ ... والمالُ في الغربة اوطانُ
والأرضُ شيءٌ كلُّها واحدٌ ... والناسُ جيرانٌ واخوانُ (٤)

وله في تكذيب منجم :

يقول المنجمُ لي لا تَسِرْ ... فانك ان سرتَ لاقيتَ ضَرّا
فان كان يعـــلم أني أسيرُ ... فقد جاء بالنهي لَغوا وهُجْرا
وان كان يجهلُ سيري فكيف ... يراني اذا سرتُ لاقيتُ شرا (٥)

---

(١) نفح الطيب : ٦ / ٦٦ .
(٢) يتيمة الدهر : ٢ / ٧١ .
(٣) نفح الطيب : ٥ / ٢٤ .
(٤) يتيمة الدهر : ٢ / ٧١ .
(٥) يتيمة الدهر : ٢ / ٧١ .

وفي ذم الناس يقول :

أشعِرَنْ قلبَكَ باســا ليس هـذا الناسُ ناسا
ذهب الابريزُ منهــم فبقَوا بعــدُ نُحاسا
ســامريين يقــولــو ن جميعاً لا مساسا (١)

وله في الغزل :

كيف بالدين القويم الك من أمّ تميم
ولقــد كــان شــفاء من جوى القلب السقيم
يُشرقُ الحسنُ عليهـا في دجى الليل البهيم (٢)

وذكر الثعالبي ان الزبيدي رثى شيخه ابا علي القالي بقصيدة صاغها صوغ فحول العرب فتخير لها الالفاظ الجزلة وضمنها الكثير من من المفردات الغريبة ، وهي قصيدة طويلة لم يرو منها الا أولها :

تالله لا يبقى لصَرف النَّوى ذو جسد في رأسِ نيقٍ مُنيفِ (٣)

وله في الحلم :

اقابلُ بالرفق عنفَ العنيفِ واقنع من صاحبي بالطّفيف
ويلزمُني بِرُ غيرِ الشريف فانسج ذاكَ ببرٍّ الشريف (٤)

ذلك هو كل ما استطعت جمعه من شعر الزبيدي ، وقد جاء مفرقا مبثوثاً في كتب التراجم .

---

(١) نفح الطيب : ٥ / ٢٤ .
(٢) مطمح الانفس : ٦١ وما بعدها .
(٣) يتيمة الدهر : ٢ / ٧١ .
(٤) الديباج المذهب : ٢ / ٢٦٤ .

وفاته :

تذكر جمهرة المصادر أن أبا بكر الزبيدي توفي باشبيلية سنة ٣٧٩ هـ (١) ، وقد حددت بعضها اليوم والشهر وهو يوم الخميس مستهل جمادى الآخرة (٢) . وقد دفن يوم وفاته بعد صلاة الظهر وصلى عليه ابنه أحمد (٣) . وقد اكتفى ابن فرحون فى ديباجه بذكر شهر جمادى غفلا دون تحديد . وذكر الحميدي (٤) انه توفي قريباً من الثمانين وثلاثمائة ، والى ذلك ذهب صاحب كشف الظنون (٥) : وذكر السيوطي فى البغية نقلا عن ابن بشكوال انه توفي في جمادى الأولى سنة ٣٩٩هـ (٦) ولم يرد ذلك في الصلة ولا شك انه محرف :

---

(١) ابن الفرضي : ٢ / ٩٢ ، وفيات الاعيان : ٤ / ٩ ، الوافي بالوفيات : ٢ / ٣٥١ ، بغية الوعاة : ٣٤ ، روضات الجنات : ٦٨٦ ، شذرات الذهب : ٣ / ٩٤ ، الديباج المذهب : ٢ / ٣٦٤ .

(٢) تاريخ ابن الفرضي ، وفيات الأعيان ، بغية الوعاة ، روضات الجنات .

(٣) وفيات الاعيان : ٤ / ٩ .

(٤) جذوة المقتبس : ٤٥ .

(٥) كشف الظنون : ٥ / ١٢٢ .

(٦) البغية : ٣٤ .

الفَصلُ الثّالِث

آثار الزبيدي

للزبيدي مؤلفات كثيرة في النحو واللغة والتراجم وعلوم الدين ، ولكن بعضها فقد ولم يصل الينا . وسأقف في هذا الفصل عند الكتب المفقودة لأجمل القول فيها ، وأشير الى خصائص بعضها على ضوء مابقي منه في بطون المصادر ، وأما تلك التي لا نعرف عنها سوى أسمائها ، فسأكتفي بذكرها فقط والاشارة الى المصادر التي نسبتها الى الزبيدي وما جاء عنها في تلك المصادر .

وقد رأيت أن اتناول في آخر هذا الفصل كتابه المعروف بالطبقات فأتكلم على منهجه وخصائصه ، ومنزلته بين نظائره . وذلك لأنه ليس من كتبه اللغوية أو النحوية التي عقدت لدراستها الباب الثاني من هذه الدراسة .

أولا : الكتب المطبوعة والمخطوطة :

١ ـ لحن العامة « مطبوع » .

٢ ـ الواضح في النحو « مخطوط » .

٣ ـ الابنية « مطبوع » .

٤ ـ مختصر العين « مخطوط » وقد طبعت منه قطعة صغيرة .

٥ ـ طبقات النحويين واللغويين « مطبوع » .

ثانيا : الكتب المفقودة :

١ ـ استدراك الغلط الواقع في كتاب العين (١) .

انفرد السيوطي بالاشارة اليه ، والنقل منه ، ولم تذكره كتب التراجم بين مؤلفات الزبيدي ، وقد خلط (٢) صاحب كشف الظنون بينه وبين كتاب « مختصر العين » فقال عند كلامه على كتاب العين للخليل بن احمد : « واختصره أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي اللغوي المتوفى سنة ٣٧٩ سماه الاستدراك على كتاب العين قال فيه انه لا يصح أنه له ، ولا يثبت عنه ، واكثر الظن فيه أن الخليل سبب أصله ثم هلك قبل اكماله ، فتعاطى اتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه

---

(١) سماه ابن فرحون في الديباج المذهب كتاب « غلط صاحب العين » ٢ / ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٢) وخلط ابو الفضل ابراهيم بينه وبين الاستدراك على سيبويه وهو كتاب الأبنية فقال انه نشر في روما ١٨٩٠ بتحقيق جويدي . « مقدمة كتاب الطبقات » . كما اخطأ مرتضى الزبيدي في تاج العروس حيث قال : « والف الزبيدي كتاباً سماه مختصر العين استدرك فيه الغلط الواقع في كتاب العين وهو مجلد لطيف » ، ويفهم من قوله ان مختصر العين وكتاب الاستدراك كتاب واحد في حين أن كلا منهما كتاب ولعل منشأ الخطأ انه لم يحسن اختصار عبارة السيوطي ، ووقع في هذا الخطأ صديق بن علي القنوجي في كتاب « البلغة في اصول اللغة » وعلي عبد الواحد في فقه اللغة ، ص ١٩١ . (مقدمة تحقيق مختصر العين : ن) .

فكان ذلك سبب الخلل » (١) .

والملاحظ أن هذه العبارة هي عبارة الزبيدي في مقدمته لكتاب استدراك الغلط الواقع في كتاب العين والتي اقتطف السيوطي قدراً كبيراً منها ، كما ان عبارة كشف الظنون تبدو مبتورة وغير مستقيمة ولعل أصلها « وله كتاب آخر سماه الاستدراك على كتاب العين قال فيه . . . الخ » .

وقد نفى بعض المحدثين أن يكون للزبيدي كتاب بهذا الاسم ، ونعت رواية السيوطي بأنها مختلقة من أساسها « شأن غيرها من الروايات التي تذكر من وقت لآخر في المزهر دون تحقيق أو تمحيص » (٢) .

ولا نستطيع أن نبني على انفراد السيوطي بذكر الكتاب انكاراً له أو شكا في وجوده ، فقد تعددت الاشارة اليه في المزهر ، وكثرت نقول السيوطي منه ، حتى أصبح ما نقل من هذا الكتاب مقداراً لا بأس به وكافيا لأن يعطينا فكرة واضحة عن منهج الزبيدي فيه .

دواعي تأليفه :

لقد عني اللغويون على مر العصور بكتاب « العين » واتجهوا إلى درسه ، والتأليف حوله ، تحدوهم أهداف مختلفة فمنهم من هدف الى الرد على الخليل واصلاح مافي كتابه من الغلط ، ومنهم من قصد الدفاع عنه ، ونسبة ما وقع من الخلل في العين الى الذين تعاطوا اتمامه بعده كما عني آخرون باختصار الكتاب .

وكان الزبيدي من أوائل الذين اتجهوا الى اختصاره ، ونقده ،

---

(١) كشف الظنون : ٥ / ١٢٢ .

(٢) المعاجم العربية : ٦٣ .

وتمحيص متنه ، وهو بذلك قد شذ عن علماء اللغة في الاندلس الذين ذهبوا الى أن العين من تأليف الخليل ، فمنعهم اكبارهم للخليل من أن يمسوا الكتاب بنقد أو تجريح ، وذهبوا إلى أبعد من ذلك ، فقد أشار الزبيدي في مقدمة كتابه الى انهم هاجموه وبالغوا في التحامل عليه لأنه لم يشركهم في تقدير جملة العين ، والحقيقة ان الزبيدي لم يعد عن أهل العلم في اكبار الخليل ولكنه كان يرى أن العين ليس من وضعه ، لأنه وجد فيـه من الخلل مالا يمكن ان يصدر عن الخليل ، فأحب أن يثبت ذلك لاهل العلم فى بلده ، ليروا مبلغ خطئهم في تقدير جملة هذا الكتاب وتفصيله ، والاغضـاء عما شانه من اخطاء ، فجرد كتابه في بيان اغلاط العين ، والرد على من نسب اليـه تخطئة الخليل مع أنه نزهه عن نسبة الخطأ اليه ، ونفى عنه مالا يليق به من الاقوال التي وردت في العين ، قال في مقدمة الكتاب : « أوليس من العجب العجيب ، والنادر الغريب ، أن يتوهم علينـا من له مسكة من نظر ، ورمق من فهم ، تخطئة الخليل في شيء من نظره ، والاعتراض عليـه فيما دق أو جل من مذهبه ، والخليل أوحد العصر ، وقريع الدهر ، وجهبذ الأمة ، واستاذ أهل الفطنة ، الذي لم ير نظيره ، ولا عرف في الدنيا عديله » (١) . وقال « ولو أن الطاعن علينا يتصفح صدر كتابنا المختصر من كتاب العين لعلم أننا نزهنا الخليل عن نسبة المحال اليـه ونفينا من القول مالا يليق به ، ولم نعد في ذلك ما كان عليه أهل العلم وحذاق أهل النظر وذلك أننا قلنا في صدر الكتاب ونحن نربأ بالخليل عن نسبة الخلل اليه ، أو التعرض للمقاومة له ، بل نقول ان الكتاب لا يصح له ، ولا يثبت عنه واكثر الظن فيه ان الخليل سبب أصله ،

(١) المزهر : ج ١ ص ٨٠ .

وثقف كلام العرب ، ثم هلك قبل كماله فتعاطى اتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه ، فكان ذلك سبب الخلل الواقـــع فيه ، أو الخطأ الموجود فيه .

هذا لفظنا نصا ، وقد وافقنا بذلك مقالة أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب قبل أن نطالعها أو نسمع بها ، حتى ألفيناها بخط الصولي في ذكر فضائل الخليل . قال الصولي : سمعت أبا العباس ثعلبا يقول : انما وقع الغلط في كتاب العين لأن الخليل رسمه ولم يحشه ولو أن الخليل هو حشاه ، ما بقى فيه شيئاً ، لأن الخليل رجل لم ير مثله » (١) .

ولا يهمنا أن نعرض آراء الدارسين في صحـة نسبة العين للخليل أو عدمها ، فقد كثر الجدل حول هذه المسألة ، وأدلى اللغويون على مر العصور بآرائهم فيها ، حتى جمع السيوطي من تلك الآراء فصلا طويلا في مزهره (٢) . والذي يهمنا هو موقف الزبيدي من ذلك ، ولعل من المناسب ان نجمل الآراء المتضاربة في هـذه المسألة ، والتي تتلخص بما يلي :

١ ـ من العلماء من أنكر صلة الخليل بالعين ، ومن هؤلاء النضر ابن شميل (ت ٢٠٣هـ) وأبو حاتم السجستاني (٢٥٥ هـ) الذي روى عنه القالي انه انكر العين أشد الانكار ، ودفعه بابلغ الدفع (٣) .

٢ ـ ومنهم من رأى ان الخليل عمل الجزء الأول منه ، وحـدد

---

(١) المزهر : ١ / ٨٢ .

(٢) المزهر : ١ / ٧٩ « ذكر قدح الناس في كتاب العين » . وانظر المعجم العربي ، والمعاجم العربية ، ورواية اللغة .

(٣) المزهر : ١ / ٨٤ .

بعضهم هذا الجزء بأنه من أول الكتاب إلى حرف الغين (١) .

٣ - ومنهم من ذهب إلى أن الخليل رسم الكتاب ، ووضع خطة السير فيه ، ولم يحشه ، فتولى حشوه قوم غير اثبات ، ومن القائلين بذلك الزبيدي وثعلب من القدامى ، ويوسف العش وبروكلمان واهلوارت وحسين نصار من المحدثين .

٤ - وطائفة أخرى نسبت الكتاب الى الخليل ورأت أنه من رسمه وحشوه ولم يشركه فيه أحد غيره ، فابن دريد نسبه في أول الجمهرة للخليل ، ووصفه بأنه أتعب من سما لمثله (٢) ، وكذلك فعل ابن فارس وقال عنه انه اشرف الكتب اللغوية واعلاها (٣) ، أما المبرد فكان يرفع من قدره (٤) ، ورواه ابن درستويه ، وانتصر له في الرد على المفضل بن سلمة (٥) ، «ويكاد لا يوجد لابي اسحاق الزجاجي حكاية في اللغة الا منه » (٦) .

ومن المحدثين الذين قالوا بصحة نسبة الكتاب للخليل ، وتصدوا لأدلة المنكرين فابطلوها الدكتور عبد الله درويش ، والمستشرق براونلتش (٧) ، والدكتور مهدي المخزومي ، الذي قال « والرأي الذي نراه هو ان كتاب العين كتاب الخليل في تأسيسه وحشوه ، وان

---

(١) المزهر : ١ / ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) نفسه : ١ / ٩٢ .

(٣) مقاييس اللغة : ١ / ٣ .

(٤) المزهر : ١ / ٨٩ .

(٥) نفسه : ١ / ٨٩ .

(٦) نفسه : ١ / ٨٩ .

(٧) المعاجم العربية : ٦٨ .

ما لاحظه قدماء الدارسين فيه من خلل أو خطأ أو تصحيف كان قد جره عليه تقادم الزمن ، وجهل الوراقين وعدم تصدي الرواة من أصحاب الخليل وتلاميذه لروايته ومناقلته ودراسته » (١) .

واضطرب عدد من قدامى الدارسين في هذه المسألة ، ووقعوا في التناقض ، ومن هؤلاء أبو منصور الازهري الذي أودع مقدمة « التهذيب » أقوالا « متعارضة ينقض بعضها بعضاً في نسبة الكتاب الى الخليل » (٢) فهو مرة ينسبه الى الليث بن المظفر ، ويزعم أنه ألفه ثم نحله الخليل لينفقه باسمه ، ويرغب فيه من حوله ، واخرى يفلت لسانه بما يفيد ان الخليل شرع بالكتاب ولكنه مات قبل أن يتم فأتمه الليث (٣) ، ويعود ثالثة فيقول « ولم أر خلافا بين اللغويين ان التأسيس المجمل في أول كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن احمد وان الليث بن المظفر اكمل الكتاب عليه بعد تلقفه اياه عن فيه » (٤) .

وكان الخليل في مقدمة العين قد وضع تخطيطا يمكن الدارسين من حصر اللغة ، واستيعاب جميع المستعمل من مفرداتها ، بحيث لا يند عنهم منها شيء ، قال الليث : « هذا ما ألفه الخليل بن أحمد البصري رحمة الله عليه من حروف (أ ب ت ث) مع ما تكلمت به فكان مدار كلام العرب ، والفاظهم ، ولا يخرج منها عنه شيء ، وقد أراد ان تعرف به العرب أشعارها وأمثالها ومخاطباتها والا يشذ عنه

---

(١) عبقري : ٧٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٧١ .

(٣) تهذيب اللغة : ١ / ٢٨ .

(٤) نفسه : ١ / ٤١ .

شيء من ذلك » (١) .

غير ان البشتي غلط في فهم ما قال الخليل ، وتوهم ان الخليل لم يف بما شرط على نفسه من حصر اللغة ، والاحاطة بكل ما تكلمت به العرب ، فألف كتاباً سماه التكملة استدرك به على الخليل ما أهمل من كلام العرب ، فتصدى له الازهري ، ورد عليه اعنف الرد فقال : « ولما قرأت هذا الفصل من كتاب البشتي استدللت به على غفلته وقلة فطنته وضعف فهمه واشتففت انه لم يفهم عن الخليل ما أراده ، ولم يفطن للذي قصده وانما أراد الخليل رحمه الله أن حروف (أ ب ت ث) عليها مدار جميع كلام العرب وانه لايخرج شيء منها عنها . فأراد بما ألف منها معرفة جميع ما يتفرع منها إلى آخره ولم يرد انه حصل ما لفظوا به من الالفاظ على اختلافها ولكنه أراد أن ما أسس ورسم بهذه الحروف وما بين من وجوه ثنائيها وثلاثيها ورباعيها وخماسيها في سالمها ومعتلها على ما شرح وجوهها أولا فاولا حتى انتهت الحروف إلى آخرها يعرف به جميع ما هو من الفاظهم إذا تتبع لا انه تتبعه كله فحصله أو استوفاه فاستوعبه من غير ان فاته من الفاظهم لفظة ، ومن معانيهم للفظ الواحد معنى . ولا يجوز أن يخفى على الخليل مع ذكاء فطنته وثقوب فهمه ان رجلا واحداً ليس بنبي ، يوحى إليـــه ، يحيط علمه بجميع لغات العرب والفاظها على كثرتها حتى لا يفوته منهـا شيء ، وكان الخليل أعقل من أن يظن هذا ويقدره وانما معنى جماع كلامه مابينته فتفهمه ولا تغلط عليه » (٢) .

وواضح ان الازهري هنا ينقض رأيه السابق في نسبة الكتاب إلى

---

(١) العين : ٥٢ .

(٢) تهذيب اللغة : ١ / ٥٣ .

الليث ، فيدافع عن الخليل ، وبعده مؤلف العين ، ومسؤولا عما فيه وينصب نفسه لايضاح ما رمى اليه الخليل من تأليفه .

وكان أبو الطيب اللغوى ذا موقف شبيه بموقف الازهري ، إذ لم يكن على رأي ثابت في نسبة العين الى الخليل ، فهو يصرح حينا بان الخليل قد رتب ابواب الكتاب ، وتوفى قبل أن يحشوه (١) ، ويقف حيناً آخر موقف الدفاع عن العين ، فيرد على المفضل بن سلمة ، ويقول في معرض دفاعه ان المفضل « رد أشياء من كتاب العين اكثرها غير مردود » (٢) ٥

رأي الزبيدي :

مر بنا أن الزبيدي كان يرى ان الخليل رسم الكتاب ، وأسسه ووضع خطة السير فيه ، ولكنه لم يحشه ، بل حشاه من لا يقوم في ذلك مقامه ، فكان ذلك سبب الخلل الواقع فيه ، والغلط المبثوث في تضاعيفه ، وبنى الزبيدي رأيه على الأدلة الآتية :

١ ـ الدليل الاول « اختلاف نسخه ، واضطراب رواياته إلى ما وقع فيه من الحكايات عن المتأخرين ، والاستشهاد بالمرذول من أشعار المحدثين » (٣) :

٢ ـ اما الدليل الثاني فهو ان الكتاب لم يظهر الا زمن أبي حاتم المتوفى عام (٢٥٥ ه) ، ولم يعرفه العلماء الذين سبقوه كالنضر بن شميل (٢٠٣ ه) ، ومؤرج السدوسي (١٩٥ ه) ، وأبي الحسن

(١) المزهر : ١ / ٧٨ :

(٢) نفسه : ١ / ٨٧ .

(٣) المزهر : ١ / ٨٣ .

الاخفش (٢١٥ هـ) ، « ولو ان الخليل الف الكتاب لحمله هؤلاء عنه » كما بقي الكتاب مغموراً حتى بعد ظهوره « لم يلتفت أحد من العلماء إليه يومئذ ، ولا استجازوا رواية حرف منه ، ولو صح الكتاب عن الخليل لبدر الاصمعي واليزيدي وابن الاعرابي واشباههم الى تزيين كتبهم ، وتحلية علمهم بالحكاية عن الخليل ، والنقل لعلمه ، وكذلك من بعدهم كأبي حاتم ، وابي عبيد ، ويعقوب وغيرهم من المصنفين ، فما علمنا احداً منهم نقل في كتابه عن الخليل حرفاً » (١) .

وهذان الدليلان يكشفان ان الزبيدي يستغل العنصر التاريخي في الاحتجاج لرأيه ، وهو عنصر أهمله اللغويين المشارقة حين تصدوا لنقد العين ، ويدلان أيضاً « على دقة المنهج النقدي الذي ينهجه الزبيدي ، ويزن به مادة كتاب العين » (٢) .

٣ ـ واتخذ الزبيدي مافي كتاب العين من نحو الكوفة دليلا على عدم تأليف الخليل اياه ، وكان الخليل رأس مدرسة البصرة ، قال الزبيدي : « ومن الدليل على صحة ما ذكرناه أن جميع ما وقع فيه من معاني النحو انما هو على مذهب الكوفيين وبخلاف مذهب البصريين فمن ذلك ما بدىء الكتاب به ، وبني عليه ، من ذكر مخارج الحروف في تقديمها وتأخيرها ، وهو على خلاف ما ذكره سيبويه عن الخليل في كتابه ، وسيبويه حامل علم الخليل ، واوثق الناس في الحكاية عنه ، ولم يكن ليختلف قوله ولا يتناقض مذهبه ، ولسنا نريد تقديم حرف العين خاصة ، للوجه الذي اعتل به ولكن تقديم غير ذلك من الحروف وتأخيرها ، وكذلك ما مضى عليه الكتاب كله من ادخال الرباعي

(١) المزهر : ١ / ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) مختصر العين « الجزء المطبوع » : ى .

المضاعف في باب الثلاثي المضاعف وهومذهب الكوفيين خاصة » (١) .

٤ ـ وهناك دليل رابع يشرحه الزبيدي فيقول : « ولو أن الكتاب للخليل لما اعجزه ولا أشكل عليه ، تثقيف الثنائي الخفيف من الصحيح والمعتل والثنائي المضاعف من المعتل والثلاثي المعتل بعلتين ، ولما جعل ذلك كله في باب سماه « اللفيف » فأدخل بعضه في بعض ، وخلط فيه خلطا لا ينفصل منه شيء عما هو بخلافه ولوضع الثلاثي المعتل على اقسامه الثلاثة ليستبين معتل الياء من معتل الواو والهمزة ولما خلط الرباعي والخماسي من أولهما الى آخرهما » (٢) .

مناقشة الأدلة :

لم تكن هـذه الأدلة مقنعة من يرى من الدارسين المحدثين ، ان الخليل هو مؤلف العين ، ومحرر نصه ، فراحوا يناقشونها ، ويأتون لها بما ينقضها . الدليل الأول : ويقوم على ناحيتين : الاولى مافي العين من حكايات عن المتأخرين ، والثانية ، ما وقع فيـه من الاستشهاد بالمرذول من شعر المحدثين .

ولكن هـذا الدليل بفرعيه لا يكفي لأن ننفي عن الخليل تأليف العين ، فالدكتور حسين نصار يرى أن ورود اسماء رواة معاصرين للخليل ، ورواة متأخرين عنه « لا يعني انكار تأليف الخليل للكتاب جملة ، وانما يعني ان هناك زيادات أدخلت في الكتاب بعد تدوينه ، وليس هذا بالغريب فى الكتب العربية ، ولنضرب المثل بكتاب النوادر لأبي زيد المطبوع في بيروت فهو مليء بالمواد المنسوبة الى غير أبي زيد

(١) المزهر : ١ / ٨٥ .

(٢) نفسه : ١ / ٨٥ .

من تلاميذه وغير تلاميذه ، أو بنوادر الاصمعي التي حدث لها في خزائن آل طاهر ما حدث للعين في خزائنهم ولكن الاصمعي بين ما زيد في نوادره أما الخليل فتوفي قبل ذلك ، يضاف إلى ذلك ان الكتاب تسربت إليه أشياء ليست من الخليل في أثناء تدوينه » (١) .

ويرى الدكتور عبد الله درويش أن الخليل لم يجد غضاضة في أن يقبس من معاصريه كيونس والاصمعي وأبي زيد أو سيبويه ، وهو من تلاميذه ، وهذا أيضاً ما ذهب إليه الاستاذ أحمد أمين ، فقد رأى ان الخليل حشا كتاب العين معتمداً على كتيبات معاصريه أو تلاميذه ، ذلك لأن همه الاكبر كان التنظيم وترتيب الابواب (٢) .

وأما شواهد العين فقد ذهب الدكتور حسين نصار إلى أنها لا يتسرب اليها الطعن ، فهي إما من الشعر القديم المتفق على الاحتجاج به ، وإما من شعر من يستشهد بأقوالهم من المحدثين كبشار ، وإذا كان الزبيدي قد وجد فيه شواهد من مرذول شعر المحدثين ، فهي مما تسرب إلى الكتاب بعد تأليفه (٣) .

الدليل الثاني : ويقوم على أن تلامذة الخليل كالنضر بن شميل واضرابه ، لم يسمعوا به ، ولم يقفوا عليه ، وان أبا حاتم السجستاني ومن سبقه من الدارسين البصريين لم يصححوا نسبته للخليل ، ولم تكن لهم رواية منه .

يخبرنا ياقوت (٤) أن النضر بن شميل سئل عن (العين) فأنكره

---

(١) المعجم العربي : ١ / ٢٦١ .

(٢) المعاجم العربية ، ٧٠ ، ٧١ :

(٣) المعجم العربي : ١ / ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٦١ :

(٤) معجم الادباء : ١٧ / ٥١ .

فقيل له : لعله ألفه بعدك ؟ فقال : أوخرجت من البصرة حتى دفنت الخليل بن أحمد .

ويرى الدكتور المخزومي (١) أن الانتحال باد على هذه الرواية لأمرين :

الأول : ان الكتاب لم يظهر إلا زمن أبي حاتم ، وفي حال رئاسته ، ولم تنعقد له الرئاسة إلا فيما قارب الخمسين والمئتين ، فكيف يصح أن يسأل عنه النضر وقد توفي سنة (٢٠٣ هـ) .

الثاني : أن ياقوتا ذكر بين مصنفات النضر كتاباً عنوانه « المدخل إلى كتاب العين » (٢) وذكره له أيضاً قبله ابن النديم وابن الانباري . وإذا كان للنضر كتاب المدخل إلى كتاب العين ، فلابد أن يكون قد عرف (العين) ووقف عليه . وهذا كله مما يقدح في رواية ياقوت ، ويضعف الثقة بها .

وأما أبو حاتم السجستاني ، فقد روى عنه القالي أنه أنكر العين حين ظهوره ، ودفعه بأبلغ الدفع (٣) ، ويرى الدكتور المخزومي (٤) ان انكار أبي حاتم للكتاب ، وصدوفه عنه ، يتلاءم مع ما عرف به من حب لكل ما هو بصري ، وتحامل على كل ماليس ببصري ، ولما كان كتاب العين قد صنع بخراسان ، ولم يأت أبا حاتم عن رواة بصريين كان طبيعيا أن ينكره ، ويظهر عدم الثقة به . على أن عدم معرفة أبي حاتم للعين لا يعني عدم تأليف الخليل اياه ، لان الخليل قد صنعه

(١) عبقري من البصرة : ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) معجم الادباء : ١٩ / ٢٤٣ .

(٣) المزهر ١ / ٨٣ ، ٨٤ .

(٤) عبقري من البصرة ا ٦٨ .

بخراسان وخص به تلميذه الليث ، ثم تركه مع الليث ، وعاد إلى البصرة فتوفي فيها سنة خمس وسبعين ومائة ، ولم يخرج الكتاب من خراسان الا فيما قارب سنة ٢٥٠ هـ . وكان هذا سبب عـــدم سماع البصريين به :

أما النضر بن شميل فقد ولي قضاء (مرو) ، ومات بخراسان فمن المعقول أن يكون قد وقف على الكتاب هناك ، وألف حوله كتاب « المدخل » الذي ذكره له ابن النديم وابن الانباري وياقوت (١) .

الدليل الثالث :

ويثير فيه الزبيدي أمرين : الأول : ان الترتيب الصوتي للحروف جاء مغايراً في العين لما أثبته سيبويه في كتابه عن الخليل .

الحقيقة أن كتاب سيبويه المطبوع لا يشير إلى أن مؤلفه ينقل ترتيبه الحروف عن الخليل ، مما يدل على انه ترتيبه وليس بترتيب الخليل ، وكان سيبويه وفيا لاشياخه ، أميناً على ما أخذه عنهم ، نسبه اليهم بأمانة ، ورواه عنهم بدقة ، ولو كان ترتيب الحروف في كتـابه هو ترتيب الخليل لعزاه إلى صاحبه ، كما هو دأبه في نسبة جميع أقوال الخليل اليه .

وليس بمستغرب أن يكون لسيبويه رأي آخر غير ما ذهب إليـه استاذه في تحديد مخارج الحروف وأحيازها . وقد علل الدارسون (٢) الاختلاف بين الترتيب الصوتي للحروف عند الخليل وسيبويه بأن كلا

(١) عبقري من البصرة : ٦٩ .

(٢) الخليل بن أحمد الفراهيدي : ١١٠ - ١١١ وانظر العين ؛ ٥٢ وسر صناعة الاعراب : ٧ .

منهما اتبع طريقة خاصة في ذوق الحروف ومعرفة مدارجها ، ونقاط ارتكازها داخل الفم ، فقال : « ومنشأ الخلاف بين الخليل وسيبويه - فيما نرى - هو اصطناع كل منهما مقياساً لتذوق الحروف يختلف عن مقياس صاحبه ، وإذا لاحظنا مقياس كل منهما ، وجدنا ترتيب الحروف بحسبه سليماً .

اما الخليل فقد اصطنع الهمزة المفتوحة ، لأنه جاء عن الليث ان الخليل كان اذا أراد ان يذوق الحرف فتح فاه بألف ثم أظهر الحرف نحو (أب أح أع) .

وأما سيبويه فقد اصطنع الهمزة المكسورة ، ولم يصرح سيبويه بهذا ولكني استنتج ذلك مما ذكره ابن جني « وسبيلك اذا أردت اعتبار صدى الحرف انه تأتي به ساكناً لا متحركاً لان الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره وتجتذبه إلى جهة الحرف التي هي بعضه ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله » .

ومهما يكن ، فان الاختلاف بين الترتيبين ليس بكبير ، وانما هو طفيف ، وإذا علمنا ان الخليل كان أول من تصدى لذوق الحروف ، ومعرفة طبائعها وأحوالها ، وتحديد مخارجها المبثوثة بين اقصى الحلق والشفتين ، أدركنا أن من المعقول أن يطرأ على طريقة الخليل جديد ، ويتناولها من بعده بالاصلاح والتهذيب .

ومن الجدير بالذكر ان الدارسين ارتضوا ترتيب سيبويه ، وأخذوا به ، ورمى بعضهم ترتيب العين بالخطل والاضطراب (١) .

هذا ، وإذا صح أن الزبيدي قد وقف على نسخة من كتاب سيبويه يفصح فيها سيبويه عن أنه ينقل ترتيبه الحروف عن الخليل ، فليس

(١) سر صناعة الاعراب : ٥١ .

يستغرب أن يكون النساخون والوراقون هم المسؤولين عن هذا الترتيب في كتاب العين .

أما الأمر الثاني الذي أثاره الزبيدي في هذا الدليل ، واستند اليه في انكار تأليف الخليل كتاب العين ، هو ما وقع فيه من أنظار تخالف البصريين وتوافق الكوفيين ، ولم يذكر الزبيدي من ذلك إلا مسألة واحدة ، وهي ما ذهب إليه الخليل من ادخال الرباعي المضاعف في باب الثلاثي المضاعف ، وهو مذهب كوفي ، ولكي نرى حظ هذا الدليل من القوة نقول :

كان الخليل يرى ان الكلمة لا تقل عن ثلاثة أحرف « حرف يبتدأ به ، وحرف تحشى به الكلمة وحرف يوقف عليه فهذه ثلاثة أحرف مثل سعد وعمر ونحوهما من الاسماء ، بدىء بالعين ، وحشيت الكلمة بالميم ، ووقف على الراء » (١) ولا تزيد على خمسة « وليس للعرب بناء في الاسماء ولا في الافعال اكثر من خمسة أحرف ، فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل واسم فاعلم انها زائدة على البناء وليست من أصل الكلمة » (٢) .

والبصريون يوافقون الخليل في اكثر ذلك ، ويخالفونه في شيء يسير منه ، وهو بناء الفعل الرباعي ، فسيبويه يرى انه بناء واحد ، قال « وانما بنات الاربعة صنف لا زيادة فيه كما أن بنات الثلاثة صنف لا زيادة فيه ، وأما سفرجل فمن بنات الخمسة وهو صنف من الكلام وهو الثالث وقصته كقصة جعفر » (٣) .

(١) العين : ٥٥ .

(٢) نفسه : ٥٥ .

(٣) الكتاب : ٢ / ٣٥٤ .

أما الخليل فكان يرى ان الرباعي المجرد بناء مستقل ، مثله مثل الفعل الثلاثي ، وهو يختلف عن الرباعي المضاعف الذي كان يرى انه حكاية للاصوات الطبيعية وان كثيراً منه مأخوذ من الثنائي الخفيف بعد تكراره ، قال : « ألا ترى أن الحاكي يحكي صلصلة اللجام فيقول : صلصل اللجام وان شاء قال : صل ، مخففة مرة اكتفاء بها ، وان شاء أعادها مرتين ، أو اكثر من ذلك ، فيقول : صل صل صل ، يتكلف من ذلك ما بداله » (١) وقال : « ولا تكون الحكاية مؤلفة حتى يكون حرف صدرها موافقاً لحرف صـــدر ما ضم اليهـا في عجزها ، فكأنهم ضموا الى ده ، دق فألفوهما » (٢) وذهب أيضاً إلى ان العرب « تشتق في كثير من كلامها ابنية للمضاعف من بناء الثلاثي المثقل بحرفي التضعيف ، ومن الثلاثي المعتل ، ألا ترى انهم يقولون صـــل اللجام يصل صليلا ، فلو حكيت ذلك قلت صل تمد اللام وتثقلها فقد خففتها في الصلصل فالمثقل مد والمضاعف ترجيع وتخفيف ، فلا تنفذ للتصريف حتى تضاعف أو تثقل على ما وصفت لك ، ويجيء منه كثير مختلفا نحو قولك : صر الجندب ، وصرصر الأخطب صرصرة ، فكأنهم توهموا في صوت الجندب مدا ، وفي صوت الأخطب ترجيعاً » (٣) :

فالخليل يرى أن الثلاثي المضعف أصل للرباعي المضاعف ، وان كليهما مرتبط بالثنائي الخفيف ، فهو أصل لهما :

وجاء الكوفيون فوافقوا الخليل في بعض هذا ، وخالفوه في اكثره وافقوه على أن الكلمة لا تبنى على أقل من ثلاثة أحرف ، ولكنهم

(١) العين : ٦٢ .

(٢) نفسه : ٦١ .

(٣) نفسه : ٦٣ :

خالفوه في الرباعي والخماسي فهما عندهم مزيدان (١) ، لان الكلمة لا تزيد عن ثلاثة ، وان ما زاد على الثلاثة فزائد على أصل البناء ، ولذا فقد رأوا أن الرباعي المضاعف هو ثلاثي مزيد ، وان موضع الزيادة منه هو الحرف الثالث ، لان الفعل يبقى محتفظاً بمعناه أو بمعنى قريب منه عند سقوط الحرف الثالث ، فزلزل مشتقة من زل وصرصر من صر ، وهذا هو موضع التقائهم بالخليل ، وموافقتهم اياه أي انهم يوافقونه في ان الثلاثي المضعف هو أصل الرباعي المضاعف ، ويخالفونه في ما عدا ذلك ، فلا يتفقون معه في ان الثنائي الخفيف هو أصل لهما معاً ، كما ان الكوفيين أقاموا رأيهم على الاشتقاق وحده ، وأقامه الخليل على الناحية الصوتية الطبيعية (٢) .

يتضح من هذا العرض ، ان ليس في كتاب (العين) من نحو الكوفة الا قدر ضئيل لا يعدو طرفاً من مسألة ، وهو قدر لا يبيح للزبيدي ان يشكك في بصرية الكتاب ، أو ينفي نسبته للخليل .

ومهما يكن فان موافقة الكوفيين للخليل في طرف من مسألة ليست بالأمر الغريب ، فانهم وافقوه في مسائل أخرى لم ترد في « العين » ذلك لأن مدرسة الكوفة في عهد الخليل كانت ناشئة لم ينهض لها كيان مستقل ، ولم يتضح بعد طابعها الخاص ، وان ما كان فيها من نحو في تلك الحقبة لم يكن الا نحو الخليل وغيره من البصريين الأولين ، انتقل اليها ، اما مع الذين شدوا الرحال من الكوفة إلى البصرة طلبا للعلم ، ثم رجعوا إلى الكوفة ، واما مع الذين هاجروا من البصرة

---

(١) شرح الرضي على الشافية : ١ / ٤٧ .

(٢) المعجم العربي : ١ / ٢١١ .

ليتخذوا من الكوفة دار اقامة » (١) .

لقد وجد الكوفيون أن الدراسة النحوية في البصرة قد نضجت واستوت على سوقها ، وأصبحت علماً له قواعده وأصوله ، فشدوا الرحال إلى البصرة ، ولزموا أساتيذ هذا العلم وشيوخه ، فأخذوا عنهم وأفادوا مما أخذوا ، ثم عادوا لينشروا في مصرهم ما وعوه وتلقوه عن البصريين .

وقد حفظت لنا كتب الطبقات اسماء الكوفيين الأوائل الذين انتجعوا البصرة ، واستقوا نحوهم من معاهدها ، فأبو جعفر الرؤاسي رأس مدرسة الكوفة ، كما يقولون ، لقي أبا عمرو بن العلاء وعيسى ابن عمر وأخذ عنهما (٢) والكسائي لزم الخليل وتلمذ له ، وكانت آثاره في نحوه واضحة (٣) ، وصحب الفراء يونس بن حبيب واكثر من الاخذ عنه (٤) ، كما وقف على كتاب سيبويه ، وكانت معه نسخة منه ، قيل انهم وجدوها تحت وسادته بعد موته (٥) .

كان نحو البصرة النبع الذي صدر عنه الأئمة الكوفيون ، ثم عادوا الى هذا النحو ليراجعوه ، ويعيدوا النظر فيه ، على ضوء ما استقام لهم فيما بعد من نهج جديد ، فكانت النتيجة ان قبلوا بعض ما تلقوه من هذا النحو ، وخالفوا شيوخهم البصريين في بعضه الآخر ، فكان ذلك ايذاناً بقيام مدرستين ، لكل منهما منهج مستقل ، وطابع علمي

(١) مدرسة الكوفة : ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) طبقات الزبيدي : ١٣٥ والبغية : ٣٤ .

(٣) مدرسة الكوفة : ١٣٠ . والبغية : ٣٣٦ .

(١) البغية : ٤١١ .

(٥) نفسه : ٤١١ .

خاص ، وقد قيل ان انفصال المدرستين ، وتباعد اتجاهيهما ، قد تم بعد عهد الخليل مباشرة (١) ، وذهب استاذنا الدكتور المخزومي الى « ان الدراسة النحوية انما انقسمت على نفسها بظهور الكسائي وسيبويه » (٢) .

أخلص من ذلك إلى ان وقوع شيء من آراء الخليل ، أو غيره من البصريين الاوائل ، في نحو الكوفة ، ماهو الا أمر طبيعي ، وان الزبيدي لم يكن على حق حين اتخذ من موافقة « العين » لشيء من نحو الكوفة دليلا على عدم تأليف الخليل اياه .

وعلى أية حال فان كتاب العين لم يسلم من طعن الكوفيين ، وهجومهم عليه بوصفه نتاجاً بصرياً ، فقد اعلن ثعلب عدم ثقته به لما فيه من الخطأ والوهم ، وألف المفضل بن سلمة كتاباً أسماه « الرد على الخليل واصلاح ما في كتاب العين من الغلط والمحال » فدفعه تعصبه على الخليل الى نقد اشياء صحيحة ، ورد أمور اكثرها غير مردود ، كما قال أبو الطيب اللغوي (٣) ، حتى أثار هذا الكتاب ضجة البصريين والبغداديين ، فألفوا الكتب في الرد على المفضل والدفاع عن الخليل :

الدليل الرابع :

ويقوم على أن مؤلف « العين » قد خلط ابنية الافعال ، خلطا لا ينفصل منه شيء عما هو بخلافه . ويتجلى هذا الخلط في باب « اللفيف » الذي ضم انواعا مختلفة من الالفاظ كان يجب على الخليل

---

(١) الاقتراح : ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) مدرسة الكوفة : ٤٠٧ .

(٣) المزهر : ١ / ٨٦ ، ٨٧ .

أن يفصل بعضها عن بعض ، والا يحشرها في هذا الباب .

ففي باب « اللفيف » يعرض الخليل لما يسميه الزبيدي « الثنائي الخفيف المعتل » مثل قولهم « يع » وهو صوت يطلقه الصبيان إذا رمى أحدهم الشيء الى الآخر . ويعرض أيضاً لما يسميه الزبيدي « الثنائي المضاعف المعتل » مثل « عاعي » و « الوعوع » و « اليعياع » ويورد فيه أيضاً « الثنائي المعتل المشدد » مثل « عي » . ويورد الخليل في هذا الباب أيضاً « الثلاثي المعتـــل بحرفين » - وهو ما يسميه الصرفيون باللفيف - سواء أكان الحرفان متصلين مثل « عوى » أم كانا منفصلين مثل « وعى » :

وواضح أن هذه المفردات ليست كلها مما يسلك في باب (اللفيف) وان الزبيدي على حق حين أخـــذ على صاحب (العين) خلط هذه الالفاظ جميعاً في باب واحد هو (اللفيف) . وكان الزبيدى أدق تنظيماً لهذا الباب من صاحب (العين) ، وسيأتي بيان ذلك :

وأشار الزبيدي إلى نوع آخر من الخلط وقع في باب (الثلاثي المعتل) ، فقد كان مؤلف (العين) يخلط الثلاثي المعتل بالياء ، والمعتل بالواو ، والمعتل بالهمزة ، في الموضع الواحد . فيقول مثلا (باب العين والميم : واي) . أما الزبيدي فقد فصل في مختصره معتل الياء من معتل الواو والهمزة وسيأتي بيان ذلك .

وفيما عدا هذين البابين من أبواب (العين) لم يحصل خلط ، وليس بصحيح ما ذكره الزبيدي من أن صاحب (العين) خلط الرباعي بالخماسي ، فقد ذكر الرباعي أولا ثم أعقبه بذكر الخماسي ، كما تمل الزبيدي نفسه .

ولم يكن الدكتور عبد الله درويش دقيقاً حين قال (وإذا قارنا

ما قاله الزبيدي بما هو واقع في كتاب (العين) نجد أنفسنا في حيرة بالغة ، فان العين لم يخلط الثلاثي المعتل باللفيف ، بل أفرد لكل منهما باباً) (١) .

فلم يقل الزبيدي ان (العين) خلط الثلاثي المعتل باللفيف ، بل قال انه خلط أنواع الثلاثي المعتل الثلاثة : ولم يفصل بعضها من بعض ، وقال : ان باب اللفيف ضم أنواعا مختلفة ، كان يجب ألا تسلك جميعها في هذا الباب ، كما بينت . ولكن الدكتور درويش لم ينعم النظر في عبارة الزبيدي ، ولم يوازن بين المختصر وكتاب (العين) ليقف على الابواب التي حصل فيها الخلط .

تلك هي ملاحظ بعض الدارسين المحدثين على الأدلة التي أقام عليها الزبيدي رأيه في عدم صحة نسبة (العين) إلى الخليل . ولم يعدم الزبيدي انصاراً وافقوه على رأيه منهم يوسف العش (٢) الذي عده خير الآراء ، لأنه يتوسط بين رأيين متطرفين : يذهب الأول إلى انكار صلة الخليل بالعين ، ويذهب الثاني إلى أن الخليل هو مؤلفه ، ومحرر نصه ، بينما يتخذ الزبيدي طريقا وسطا فيرى أن الخليل رسم المنهج ووضع أصول الكتاب ، ثم تولى حشوه قوم غير اثبات ، ولكن الزبيدي لا يذكر لنا أسماء أولئك الذين حشوه .

ومن القائلين برأي الزبيدي ، المستشرق الألماني (اهلوارد) مؤلف فهرست المخطوطات العربية في برلين (سنة ١٨٩٤) . ويبدو أن هذا المستشرق بنى رأيه على ظن خاطىء ، فقد وقعت له قطعتان مخطوطتان ، استنتج خطأ انهما من كتاب (العين) وبعد دراسته هاتين

(١) المعاجم العربية : ٦٢ .

(٢) مجلة المجمع العلمي بدمشق : ١٩٤١ :

المخطوطتين ، عثر فيهما على أسماء متأخرة كثعلب والزجاج وابن جني فقرر أن « العين » أكمل بعد عصر الخليل . وقـد رجح الدكتور عبد الله درويش أن تينك القطعتين ، هما جزء من محكم ابن سيدة ، وليسا من العين (١) . وممن ذهب إلى مثل رأي الزبيدي الدكتور حسين نصار (٢) ، وبروكلمان (٣) .

مادة كتاب « استدراك الغلط الواقع في كتاب العين » وخطته :

جمع السيوطي في المزهر ، وفي الفرع الثالث والأربعين ، الخاص بمعرفة التصحيف والتحريف ، كثيراً من المواد التي وقعت مصحفة في كتاب « العين » وكان الزبيدي قد استخرجها ، وأصلحها وأودعها كتابه الموسوم بـ « استدراك الغلـط الواقع في كتاب العين » : كما اقتبس السيوطي كثيراً من مواد كتاب الزبيدي هـذا ، وبثها هنا وهناك في مزهره ،

ومن مجموع ما تناثر من هـذا الكتاب في « المزهر » يبدو أن الزبيدي قد تتبع أبواب « العين » بدقة ، ودون مآخذه على مواد كل باب ،

وكانت طريقته في ذلك أن يذكر اولا نص « العين » ثم يعقب عليه ناقدا ومصححاً فيقول مثلا :

ذكر في باب (همع) الهميع : الموت فصحفه ، والصواب : الهميغ بالغين المعجمة :

(وذكر في باب (قفع) القفاعي من الرجال الاحمر ، وهو

(١) المعاجم العربية : ٦٣ ، ٦٤ :

(٢) المعجم العربي : ١ / ٢٦٥ .

(٣) تاريخ الأدب العربي : ٢ / ١٣٣ .

غلط والصواب نقاعي ، يقال هو أحمر نقاعي للذي يخالط حمرته بياض) (١) .

وقد ينقد مباشرة دون تقديم نص (العين) فيقول : (النارجيل جوز الهند أعجمي على غير ابنية العرب واحسبه من كلمتين) (٢) . ويقول (٣) : (المترس خشبة توضع خلف الباب تسمى الشجار وهي أعجمية) وهو إذ يذكر تصويبه يحتمل وحده مسؤولية الرأي الذي يورده فلا يذكر المرجع الذي يقتبس منه رأيه ، وقد يذكر أحياناً اللغوي الذي يروى عنه كما في قوله (وذكر في باب رغل : رغلها رغلا رضعها في عجلة والصواب بالزاي عن أبي زيد وقــد صحف أبو عبيد هذا الحرف أيضاً . وذكر فى باب رغم : الرغام ما يسيل من الانف وهو بالعين غير المعجمة عن أبي زيد ، وذكر في باب غلم : الغيلم الماء في الآبار وهو بالعين غير المعجمة عن الفراء والآمدي) (٤) .

تلك هي طريقة المؤلف في نقده للمواد ، ونستطيع أن نصف الاسس التي بنى عليها الزبيدي نقده لكتاب العين إلى الانواع الآتية :

١ ـ نقد المواد المصحفة وبيان وجه الصواب فيها ، وقد مرت بنا نماذج من هذا النوع وسنذكر فيما بعد نماذج اخرى .

٢ ـ انكار أوزان وردت فى العين ، ووضع قواعد عامة تتعلق بالابنية وتوضيح ما هو غير وارد منها في الكلام ، من ذلك قوله

---

(١) المزهر : ٢ / ٣٨١ ، ٣٨٢ :

(٢) نفسه : ١ / ٢٨٧ .

(٣) نفسه : ١ / ٢٧٨ .

(٤) نفسه : ٢ / ٣٨٧ :

(ليس في الكلام فيعل ولا فعولن ولا تفعيل بكسر التاء اسماً ولا صفة .

فأما تفعيل جاء اسماً نحو تمتين وتبيين وهو في المصادر كثير ،
قال ولا أعلم شيئاً في الكلام على مثال فعللوة ولا على مثال أفونعل في الافعال .

ولا أعلم في الكلام فعلا على وزن افعأل ولا شيئاً على مثال فعلول ولا فيعلة ولا أعلم اسماً مظهراً على حرف واحد موصولا بهاء التأنيث) (١) :

٣ ـ انكار الفاظ أعجمية وردت في الكتاب كلفظة نارجيل :

٤ ـ نقد أخطاء في الاشتقاق كذكر حرف مزيد في مادة أصلية أو مادة ثلاثية في مادة رباعيـــة ، مثال ذلك قوله (التُّحفة مبدلة من الواو قال ويتوحف . قال الزبيدي : ليست التاء في التُّحفة مبدلة من الواو لوجودها في التصاريف وقوله يتوحف منكر عندي) (٢) .

٥ ـ نقد اخطاء بعض القواعد الواردة في العين مثل قوله (وليس في الكلام نون أصليـــة في صدر كلمة . قال الزبيدي في استدراكه : جاءت كثيراً في صدر الكلمة نحو نَهْشَل ونَهْسَر ونَعْنَع) (٣) .

٦ ـ انكار ما ورد في العين من ألفاظ مولدة (بس بمعنى حسب قال الزبيدي في استدراكه : بس بمعنى حسب غير عربية) (٤) .

---

(١) المزهر : ٢ / ٤٨ لم تشكل هذه الأوزان في المزهر :

(٢) نفسه : ١ / ١١١ .

(٣) نفسه : ٢ / ٧٧ : النهشل : المسن المضطرب : النهسر : الذئب . النعنع : بقلة طيبة الريح .

(٤) نفسه : ١ / ٣٠٩ .

٧ ـ أخذ الزبيدي على مؤلف العين انفراده بكثير من الالفاظ التي لم يعثر الزبيدي عليها في غير العين مثل (التاسُوعاء : اليوم التاسع من المحرم . وقال الزبيدي : لم أسمع بالتاسوعاء وأهل العلم مختلفون في عاشُوراء فمنهم من قال انه اليوم العاشر من المحرم ومنهم من قال انه اليوم التاسع) (١) :

وفات الزبيدي ان الانفراد فى الرواية اللغوية أمر طبيعي ، فقد انفرد كثير من اللغويين باشياء ، وقد ذكر السيوطي فى الفرع الخامس من مزهره ان الانفراد مقبول من أهل الضبط والاتقان كأبي زيد والخليل والاصمعي بشرط الا يخالفه فيه من هو اكثر عدداً منه (٢) :

٢ ـ كتاب (الانتصار على من أخذ عليه فى مختصر العين) (٣) :

انفرد بالاشارة إليه القفطي في كتاب (المحمدون من الشعراء) ويبدو من عنوانه أن الزبيدي جرده فى الرد على الذين تصدوا لنقد كتابه (مختصر العين) :

٣ ـ رسالة الانتصار للخليل فيما رد عليه في العين :

ذكرها القفطي فى إنباه الرواة (٤) ، ويسميها ابن خير (رسالة التقريظ) (٥) :

والحق ان انكار الزبيدي نسبة العين إلى الخليل يجعل من الصعب قبول نسبة هذه الرسالة إليه ، إذ ليس معقولا أن يدافع عن الخليل

(١) المزهر : ١ / ١٣٥ .

(٢) نفسه : ١٢٩ .

(٣) المحمدون من الشعراء : ٢٠٩ .

(٤) إنباه الرواة : ج ٣ ص ١٠٨ :

(٥) فهرست ابن خير : ٣٥١ .

في كتاب لا يرى صحة نسبته اليه ، وقد أخـــذ الزبيدي نفسه بألا يعزو شيئاً مما ورد فى العين الى الخليل توخيا للحـــق ، وقصدا إلى الصدق ، على حد قوله (١) :

ويقول أبو الفضل ابراهيم في حاشية له على إنباه الرواة (٢) : (هو جزء من كتاب مختصر العين ، وسماه السيوطي استدراك الغلط الواقع فى كتاب العين ، ونقل جزءاً منه وعلق عليه) ، وواضح أن فى هذا القول الشيء الكثير من الخطأ ، فهو يجعل مختصر العين واستدراك الغلط اسمين لكتاب واحد ، والواقع انهما كتابان لكل منهما موضوعه كما أن كتاب مختصر العين يخلو من الانتصار للخليل ، هذا إلى أن الامثلة التي نقلها السيوطي من كتـاب الاستدراك هي أمثلة اعتراض على الخليل ، وليس فيها انتصار له أو دفاع عنه أو محاولة التماس تخريج لتلك الاخطاء .

وإذا صح أن الزبيدي انتصر للخليل فى رسالة ، فربما كانت هذه الرسالة هي تلك الكلمة التي كتبها مقدمة لكتابه (استدراك الغلط) والتي أشاد فيها بمنزلة الخليل العلمية ، وقال انها منزلة تمنع من نسبة الخطأ اليـــه ، ثم اقتطعت تلك المقدمـة وسميت انتصاراً للخليل (٣) .

---

(١) المزهر : ١ / ٨٦ .

(٢) وانباه الرواة : ٣ / ١٠٩ . ووقع فى هذا الخطأ محقق كتاب (المحمدون من الشعراء) فقد نقل حاشية أبي الفضل ابراهيم بنصها وأودعها أحد هوامشه على ترجمة الزبيدي ، ص ٢٠٩ .

(٣) مقدمة محقق (مختصر العين) : ص (ل . م) :

ولكن الذي يقدح في هـذا التوجيه أن عنوان هذه الرسالة يوحي بأن الزبيدي حاول فيها أن يتأول أخطاء العين ويلتمس لها التخريجات ، وهو مالم يفعلـــه في هـذه المقدمة ، التي كانت مجرد اطراء للخليل ، وتنزيه له عن أن يقـــع في الخطأ الوارد فى كتاب (العين) (١) :

٤ ـ كتاب (المستدرك من الزيادة في كتـاب البارع لأبي علي البغدادي على كتاب العين للخليل بن أحمد) :

ذكره ابن خير في فهرسته (٢) . ويبدو من عنوان الكتاب ان الزبيدي جمع فيه ما استدركه القالي على كتاب (العين) من الزيادات في معجمه الموسوم بالبارع .

وقد جاء في مقدمة محقق كتاب (مختصر العين) ما يلي : (وفي مكتبة جامع القرويين تحت رقم ٦٤ كتاب عنوانه (المستدرك في اللغة على مختصر العين ومالم يقع في كتـابه استدرك هنا واستخرج من كتاب البارع ومن كتاب العين) . ومفاد هذا العنوان ان الكتاب عبارة عن مادة لغوية لم يتضمنها مختصر العين ، جمعت على حدة ، ونقلت من كتابي (البارع) وكتاب (العين) نفسه ولم يسم مؤلف هذا المستدرك على ظهر الكتاب . غير انه جاء في ديباجته ما يلي :

المستدرك فى اللغة أمر بجمعه وتأليفه الحكم المستنصر : . : عبده محمد بن الحسن الزبيدي فاستخرجه من كتـاب أبي علي اسماعيل بن

---

(١) مقدمة محقق (مختصر العين) : ص (ل . م) .

(٢) ابن خير : الفهرست ، ص ٣٥٠ (ط ٢) بيروت ١٩٦٣ .
ويسميه ابن فرحون في الديباج المذهب : ٢ / ٢٦٣ ، ٢٦٤ (زيادة كتاب العين) .

القاسم البغدادي الموسوم بكتاب (البارع) وضمن هذا الكتاب الزيادة التي في كتاب البارع مما لم يقع فى كتاب العين خاصة .

ووعد أبو بكر الزبيدي في صدر هذا الكتاب أن يحسن الاختصار فلم يف بما وعد بل كرر وطول حتى صار الكتاب اكبر من كتاب الخليل فدعت الضرورة إلى اختصاره ثانية وتحديد الفاظه الزائدة في الأصل . ، الكتاب . ويوقف على ما أغفله الخليل بغاية الايجاز وليخف نسخه وحمله على الباحث عنه ان شاء الله) ،

وهذا الكلام صريح في أمرين :

١ ـ ان الزبيدي استدرك فيه ـ أي مستدركه ـ على كتاب العين نفسه .

٢ ـ ان نسخة القرويين التي بين أيدينا ليست مستدرك الزبيدي ولكنها مختصر منه ولم نستطع أن نعرف مؤلف هذا المختصر .

وبناء على هـذا فان عنوان نسخة القرويين الذي كتب على ظهر هذا المختصر بخط غير خط الكتاب والذي نصه (المستدرك فى اللغة على مختصر العين ومالم يقع فى كتابه استدرك هنا واستخرج من كتاب البارع ومن كتاب العين) نقول : هذا العنوان خطأ لانه لا يطابق ما بداخل الكتاب حسبما دلت عليه الديباجة التي نقلنا نصها .

ولقد حافظ هذا المختصر المجهول الاسم على صيغ تعقيبات الزبيدي وملاحظاته على كلام صاحب العين وكلام القالي فى البارع فاوردها من غير أن يتصرف فيها ، وجاءت دائماً مصدرة بعبارة : قال محمد : وأضاف إلى هذه التعقيبات أحياناً ملاحظته الخاصة ، ولنذكر على سبيل المثال قوله : (قال محمد : ذكر اسماعيل فى هذا الباب كلمة اخترعها

المولدون وليست تصح عن العرب (وعلق عليها هذا المختصر بقوله : (ولم يذكر محمد ما هذه الكلمة) (١) :

يتضح من هذا أن الزبيدي عمد إلى ما استدركه القالي في بارعه من الزيادات (٢) على كتاب العين ، فاستخرجها وأودعها كتاباً أسماه (المستدرك من الزيادة في كتاب البارع . .) ولكن الزبيدى لم يتوخ الايجاز في هذا المستدرك ، بل جاء مطولا مسهباً ، فاختصره أحد اللغويين ، ليسهل نسخه ، ويخف حمله على من يريد .

ويتجلى أيضا من النص السابق ان القالي لم يسلم من اعتراض الزبيدي عليه ، ونقده لرواياته ، كما هي عادته فى مؤلفاته التي يميل فيها إلى النقد والتمحيص ، لا إلى جمع الأقوال ، وتسجيلها فقط .

٥ ـ كتاب (مختصر لحن العامة) :

ذكره إبن خير فى فهرسته (٣) ، وقال عنه : (كتاب مختصر لحن العامة لأبي بكر الزبيدى في جزء واحد حدثني به أيضاً من تقدم ذكره من الشيوخ المتقدم ذكرهم بالاسانيد المتقدمة إلا أني لم أقرأه عليهم ولا سمعته وأنا أحمله عنهم اجازة في جملة ما أجازوه لي رحمهم الله) .

---

(١) نقلت هذا النص الطويل من مقدمة محقق كتاب مختصر العين :

(٢) قال إبن خير فى فهرسته : ٣٥٤ عن البارع (زاد على كتاب الخليل نيفا وأربع مائة ورقة مما وقع فى العين مهملا فأملاه مستعملا وعما قال فيه الخليل فأملى فيه زيادة كثيرة وعما جاء دون شواهد فأمل الشواهد فيه) .

(٣) فهرست ابن خير : ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

٦ ـ كتاب (هتك ستور الملحدين) :

ذكره أكثر الذين ترجموا له ، وهو في الرد على ابن مسرة ، وأهل مقالته (١) . وقال ابن فرحون في الديباج : (وله رد على ابن مسرة) (٢) :

٧ ـ (أخبار الفقهاء المتأخرين من أهل قرطبة) :

ذكره مؤلف هدية العارفين (٣) .

٨ ـ كتاب (الغاية في العروض)

ذكره مؤلف معجم المؤلفين (٤) .

كتاب « طبقات النحويين واللغويين »

جاء في يتيمة الدهر ووفيات الاعيـان وشذرات الذهب ان اسم هذا الكتاب هو (طبقات النحويين واللغويين في الاندلس والمشرق من زمن أبي الاسود الدؤلي إلى زمن أبي عبد الله الرباحي) . ويسمى الكتاب (طبقات النحويين) في مطمح الانفس والوافي بالوفيات وبغية الوعاة ، وجاء عنه في الاخير (وهو مجلد لطيف رأيته بمكة المشرفة وطالعته على هذه الطبقات) . ويسمى (طبقات النحاة) في روضات

(١) وفيات الاعيان : ٤ / ٧ وما بعدها وشذرات الذهب : ٣ / ٩٤ وروضات الجنات : ٦٨٥ وهدية العارفين : ٢ / ٥١ وفيه أنه في الرد على ابن سيدة ، وهو تحريف مسرة .

(٢) الديباج المذهب : ٢ / ٢٦٤ .

(٣) هدية العارفين : ٢ / ٥١ .

(٤) معجم المؤلفين : ٩ .

الجنات وكشف الظنون ، كما يسمى (أخبار النحويين) في جذوة المقتبس وإنباه الرواة ، ويسمى (أخبار النحاة) في (المحمدون من الشعراء) .

وقد قام الاستاذ محمد أبوالفضل ابراهيم بتحقيق الكتاب معتمداً على نسخة محفوظة بدار الكتب برقم ٧٨٦ منقولة عن نسخة مخطوطة بمكتبة نور عثمانية ٣٣٩١ .

وفي المتحف البريطاني نسخة أخرى ثاني : ٦٤٨ : وطبع بمصر سنة ١٩٥٤ . باسم (طبقات النحويين واللغويين) : ونشر كرنكو مختصراً له في مجلة الدروس الشرقية (جـ ٨ ص ١٠٧ - ١٥٦) . وهناك مختصر آخر منه هو (مختصر طبقات النحويين واللغويين) لأبي بكر محمد بن علي الحلبي (١) .

ولعـــل تسميته بطبقات النحويين واللغويين ، هي أدق وأكثر انطباقاً على محتواه ، وأما الاسماء الأخرى فلا تصلح عنواناً له ، إذ ليس هو مقتصراً على أخبار النحاة حتى يسمى (طبقـات النحويين) أو (طبقات النحاة) أو (أخبار النحويين) أو (أخبار النحاة) :

وقد بين الزبيدي في مقدمة الكتاب أنه ألفه استجابة لأمر الحكم المستنصر ، فقال : (فألفت هذا الكتاب على الوجه الذي أمرني به أمير المؤمنين رحمه الله ، وأقمته على الشكل الذي حده ، وأمدني رضي الله عنه في ذلك بعنايته وعلمه ، وأوسعني من روايته وحفظه ، إذ هو البحر الذي لا تعبر أواذيه ، ولا تدرك سواحله ، ولا ينزح غمره ، ولا تنضب مادته) (٢) .

---

(١) تاريخ الأدب العربي : ٢ / ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين : ١٠ .

وفي عبارة (رضي الله عنه) ما يشير إلى ان الكتاب لم ينته تأليفه الا بعد سنة ٣٦٦ ﻫ التي توفى فيها الحكم .

خطة الكتاب :

لقد اتبع المؤلف خطة واضحة ، ومنهجاً دقيقاً ، فقد رتب علماء اللغة والنحو ترتيباً زمنياً ، وسمى علماء كل جيل طبقة ، وعلل بدءه بعلماء البصرة بأن لهم فضل السبق إلى وضع أسس هذين العلمين ، وأن علماء الكوفة تأخروا عنهم فى ذلك (١) .

بدأ الكتاب بنحاة البصرة فجعلهم فى عشر طبقات ، وأورد بعدهم نحاة الكوفة في ست طبقات ، ثم عاد فذكر اللغويين البصريين وجعلهم في سبع طبقات ، وشفعهم بالكوفيين فجعلهم خمس طبقات ومزج بين النحويين واللغويين المصريين في فصل واحد وجعلهم في ثلاث طبقات ، وجاء بعدهم بالنحويين واللغويين القرويين في أربع طبقات ، ثم ختم الكتاب بتراجم النحويين واللغويين الاندلسيين في ست طبقات .

يتناول في كل ترجمة اسم المترجم ونسبه ، وقد يعرض لموضع ولادته ، ثم يذكر نتفا من أخباره ، وما يؤثر عنه من حكايات تتصل بنشاطه العلمي وصلاته مع معاصريه ، كما يورد احياناً شيئاً من آرائه وغالباً مايثبت في آخر الترجمة سنة الوفاة .

والحق ان التراجم تتفاوت في الحجم ، فقد تطول الترجمة فتبلغ بضع صفحات ، وقد تقصر فلا تبلغ السطرين (٢) ، وذلك بالنظر لمنزلة المترجم العلمية ، فهو يسهب في ترجمة أمثال سيبويه والسجستاني والمبرد ، ويقتضب في تراجم آخرين ، ليسوا بنباهة هؤلاء .

---

(١) طبقات النحويين واللغويين : ١٠ .

(٢) نفسه : ٧٨ ترجمة مؤرج السدوسي .

خصائص الكتاب :

١ - لم يسلك أحد ممن ألف في تراجم النحاة واللغويين طريقة الزبيدي في تصنيفه وتبويبه ، فقد فصل بين النحويين واللغويين وجعل لكل منهم بابا ، كما انه صنفهم تبعاً للاقاليم التي عاشوا فيها وجعلهم خمس فئات : فئة البصريين والكوفيين فالمصريين فالقرويين واخيراً فئة الاندلسيين

٢ - رتب علماء كل بلد ترتيباً زمنياً جاعلا اياهم في طبقات تتلاحق ، والطبقة عنده هي مجموعة من العلماء تربطهم المعاصرة ، أو يعيشون في عصر واحد ، وليست الطبقة تعني المنزلة العلميـــة ، كما يتبادر من عنوان الكتاب أو من المفهوم الشائع للطبقة .

وأما عدد علماء الطبقة فقد يقل وقد يكثر ، فقد يقتصر على عالم واحد أو عالمين اثنين ، وقد يتجاوز عددهم الثلاثين من العلماء ،

٣ - لقد فصل الزبيدي علماء النحو وعلماء اللغة بالنسبة لاقليمي البصرة والكوفة ، ولكنه لم يستطع هـذا التمييز بين علماء الأمصار الاخرى ، فقد مزج النحويين واللغويين في مصر وافريقيا والاندلس ، ذلك لانه وجد صعوبة في التزام هذا الفصل ، إذ قل أن نجد في هذه الامصار عالماً انفرد بأحد العلمين ولم تكن له مشاركة في الآخر .

وقد اضطره الفصل بين النحاة واهل اللغة إلى أن يتناول بعض الاعلام مرتين ، مرة في باب النحويين وأخرى في باب اللغويين ، على نحو ما فعل بالنسبة الى أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر وثعلب وسواهم ، كما انه نظم الخليل في سمط النحاة ، ولم يسلكه في عداد اللغويين مع غلبة اللغة عليه .

٤ - والزبيدي يميل إلى الاسهاب ، ويؤثر اطالة الترجمة وسرد

الكثير من أخبار الأعلام وما يتعلق بحيواتهم وأخلاقهم وطباعهم ، وما يتصل بعلاقاتهم بمعاصريهم ، وتظهر قيمة هذا التفصيل إذا وازنا الكتاب بغيره من كتب التراجم التي جاءت مقتضبة لا تتضمن بيانات وافية وأخباراً كافية كأخبار النحويين البصريين للسيرافي ومراتب النحويين للغوي .

٥ - أوضح الزبيدي مناهج البحث لدى من ترجم لهم ، وطرائقهم في الدرس اللغوي والنحوي ، ومواقفهم من الخلاف بين الكوفة والبصرة ، وهذه ميزة تسني شأن الكتاب ، وتعلي قدره ، وتبعده عن أن يكون مجرد كتاب أخباري ، فابو علي القالي أعلم أهل زمانه (بعلل النحو على مذهب البصريين) (١) وابن الوزان النحوى الاندلسي (كان يميل إلى قول أهل البصرة مع علمه بقول الكوفيين وكان يفضل المازني في النحو وابن السكيت في اللغة) (٢) .

وقد يحكم على مؤلفات المترجمين أحكاماً نستشف منها إنعامه النظر فيها ، فهو يصف كتاباً لأحدهم بأنه تكرار لوجوه قيلت ، وحشد لاقاويل سبق إليها ، ويصف بعض النحاة بأنه يزل في أوضاعه ويخطىء في تعاليله لنقص في ثقافته النحوية ، ويقول عن ابن النحاس : (وله كتب في القرآن مفيدة منها كتاب معاني القرآن وكتاب اعراب القرآن ، جلب فيه الاقاويل وحشد الوجوه ولم يذهب مذهب الاختيار والتعليل) (٣) .

ويقول عن ابن الحصار الاندلسي : (وكانت له أوضاع في النحو

(١) طبقات النحويين واللغويين : ٢٠٢ .

(٢) نفسه : ٢٦٩ .

(٣) نفسه : ٢٣٩ .

زل في كثير منها ، وذلك أنه كان قليل الدراسة لكتب النحويين ، تاركاً لمطالعتها ، وكان يعول على قياسه وتعليله فيخطىء في اعتلاله) (١) .

٦ - وميزة أخرى ابتعدت به عن أكثر الكتب المؤلفة في موضوعه هي وقوع كثير من مسائل اللغة فيه ، فلا تكاد تخلو ترجمة لغوي أو نحوي من بعض آراء المترجم في مسائل لغوية ، وقضايا نحوية ، حتى ليظن القارىء أحياناً أنه أمام كتاب في اللغة ، لا كتاب في التراجم والاخبار ، كما تضمن الكتاب طائفة صالحة من المفردات المشروحه ، وقد عزيت تلك الشروح الى أصحابها ، وهو لذلك يعد مرجعاً من مراجع الدرس اللغوي والنحوي ، وهذا نموذج مما وقع فيه من لغة :

(قال المازني وحضرت يوماً آخر واجتمع جماعة نحويي الكوفة ، قال لي الواثق : يا مازني هات مسألة ، قلت : ما تقولون في قول الله تبارك وتعالى (وما كانت امك بغيا) لم لم يقل بغية ، وهي صفة لمؤنث ؟ فأجابوا بجوابات غير مرضية ، فقال لي : هات ، قلت : لو كان بغي على تقدير فعيل بمعنى فاعل للحقتها الهاء مثل كريمة وظريفة وانما تحذف الهاء إذا كانت في معنى مفعولة في نحو امرأة قتيل وكف خضيب ، وبغيّ هاهنا ليس بفعيل انما هو فعول لا تلحقه الهاء في وصف التأنيث نحو امرأة شكور وبئر شَطُون إذا كانت بعيدة الرشاء وتقدير بغيّ بَغُوْي قلبت الواو ياء ثم ادغمت الواو في الياء فصارت ثقيلة نحو سيّد وميّت فاستحسن الجواب) (٢) .

منزلة الكتاب بين نظائره :

ألفت كتب عديدة في تراجم النحويين واللغويين ، وقد سبق

---

(١) طبقات النحويين واللغويين : ٣٣١

(٢) نفسه ١ ٩٤ ، ٩٥ .

بعضها كتاب الزبيدي ، ولكن أكثرها لم يصل الينا ، وما زال بعضها مخطوطاً لم ير النور ، ومن أوائل هذه الكتب ، كتاب (طبقات النحويين البصريين) لابي العباس المبرد ، وكتاب آخر في الموضوع نفسه لأبي العباس ثعلب ، وتتالى المؤلفون على الكتابة في هذا الجانب فكان لابن درستويه كتاب (أخبار النحويين) ولابي سعيد السيرافي كتاب (طبقات النحويين البصريين) أو (أخبار النحويين البصريين) وكتب أخرى (١) .

ويمكن القول : ان كتاب مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوي وكتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (من الكتب الاساسية الرائدة فى تراجم علماء اللغة والنحو ، برغم اعتدال حجميهما ، غير أنهما يختلفان منهجاً وان اتفقا موضوعاً) (٢) فقد آثر الزبيدي في كتابه خطة تفوق في جدواها وأهميتها خطة اللغوي في مراتبه ، ذلك ان هذا الأخير قد افتقر كتابه الى النظام ودقة التبويب ، (فليس الكتاب على حسب الترتيب الزمني ولا الترتيب المعجمي ولا على المدارس ولا الاقاليم) (٣) الا أن المؤلف قد حرص على ذكر مراتب العلماء ومنازلهم من العلم ، (فهو يذكر العالم ثم يذكر تلميذه ، فتلميذ تلميذه من بعده ، ثم يعود مجدداً إلى عالم آخر ليمسك برأس سلسلة جديدة ويمضى في تتبع حلقاتها) (٤) .

أما كتاب الزبيدى فقد امتاز من سائر المصنفات في هذا الموضوع

---

(١) مصادر التراث العربي ـ الدكتور عمر الدقاق : ١٧٠ .

(٢) نفسه : ١٧١ .

(٣) نفسه : ١٧٢ .

(٤) نفسه : ١٧٢ .

بحسن منهجه ودقة تبويبه وقـــد ظل مصدراً أصيلا لتراجم النحـاة واللغويين والمتأدبين من عهد أبي الاسود حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، وقد تجلت أهمية الكتاب بما تضمنه من تراجم عدد وفير من علماء الاندلس منذ فتحها حتى منتصف القرن الرابع ، فكان بذلك مصدراً استقت منه الكتب المؤلفة في تراجم أعيان اللغة والنحو في ذلك الصقع ككتاب ابن الفرضي ، وكتابي الصلة والتكملة .

واذا استثنينا كتاب نزهة الألباء لابن الانباري الذي ظهر بعد قرنين من ظهور كتاب الزبيدي ، فان الكتب التي أرخت لاعلام اللغة والنحو والتي تلت كتاب ابن الانباري ، قد استقت من كتاب الزبيدي ورجعت إليه ككتاب انباه الرواة للقفطي وبغية الوعاة للسيوطي .

البَابُ الثَّانى

دراسة لاثاره

الفصل الأول

الواضح في النحو

نسخ الكتاب :

هكذا أسمته اكثر المصادر (١) ، ويسمى أيضاً (الواضح في العربية) في كل من (وفيات الاعيان) و (شذرات الذهب) و (هدية العارفين) ، كما يسمى (الموضح) في (الوافى بالوفيات) و (روضات الجنات) .

ونميل إلى اختيار (الواضح فى النحو) ، ويرجح لدينا هذا الاختيار اتفاق اكثر المصادر على تسميته بهذا الاسم ، كما أن ابن خير ذكره في فهرسته بين كتب الزبيدي بهذا الاسم أيضاً (٢) .

والكتاب مايزال مخطوطاً ، وتوجد نسخة منه في مكتبة دير الاسكوريال برقم ثانى ١٩٧ ، وفي مدرسة الدراسات العربية في غرناطة نسخة اخرى برقم (؟) ، وبدار الكتب المصرية ميكروفلم منه برقم ٢٢٠ وهو مصور عن الاصل المحفوظ في المكتبة المتوكلية بجامع صنعاء الكبير :

---

(١) جذوة المقتبس ـ نفح الطيب ـ مطمح الانفس ـ معجم الأدباء ـ إنباه الرواة ـ المحمدون من الشعراء ـ الديباج المذهب ـ ـ الاعلام ـ فهرست ابن خير .

(٢) فهرست ابن خير : ٣١١ :

والنسخة التي سأعتمد عليها هي نسخة مصورة عن (الميكروفلم) الذي بدار الكتب وتقع في (١٧٢) ورقة ، يقول في وصفها الاستاذ فؤاد السيد ، هي (نسخة قديمة أثرية بخط مغربي قديم يشبه الخط الكوفي ناقصة من آخرها) (١) .

ولا أدرى ما الذي حمل الاستاذ فؤاد السيد على الاعتقاد بنقص هذه النسخة من آخرها ، والحق أن النسخة كاملة ، تضم بين دفتيها جميع كتاب الزبيدي ، فقد كتب على صفحة العنوان مانصه : (في هذا السفر جميع كتاب الواضح : : :) وتطالعنا بعد صفحة العنوان الصفحة الأولى من الكتاب وفى أولها ما نصه (الحمد لله أولا وأخيراً) وهي ديباجة متعارف عليها في افتتاح الكتب . يليها كلام على أقسام الكلام ، وهو باب درج النحاة على جعله أول مباحثهم ، وأما آخر النسخة فقد جاءت فى آخر سطر منها عبارة (وتم هذا) وليس بعد هذه العبارة مجال للاعتقاد بنقص هذه النسخة .

وقد رد الدكتور رمضان عبد التواب على الاستاذ فؤاد السيد بقوله : (ويبدو أن هذه النسخة كاملة على عكس ماظنه الاستاذ فواد السيد) (٢) .

وأما العنوان الذي تحمله هذه النسخة فهو (الواضح في علم العربية) وهو مالم يرد في أي مصدر أو مرجع ، ولعل الناسخ أو غيره أضاف كلمة (علم) اذ أن تسمية الكتاب بـ (الواضح في العربية) وردت في عدد من المصادر ، كما أن للعربية عدداً من العلوم وليس لها علم واحد .

---

(١) الواضح في العربية : صفحة العنوان .

(٢) لحن العوام : ٣١ ، ٣٢ .

دواعي تأليف الكتاب :

ليس في الكتاب مقدمة نستشف منها دواعي تأليفه ، ولعل في عنوان الكتاب وهو (الواضح في النحو) ما يوحي بهذه الدواعي ، ويومىء إلى رغبة أبي بكر الزبيدي فى أن يضع للشداة في النحو ، كتاباً سهلا ، لا تعقيد فيه ولا تطويل ، بعد أن وجدهم يؤوبون من رحلتهم الشاقة خلال المطولات ، بمعارف نحوية مضطربة ، ولم يكن في البيئات التعليمية بالاندلس يومئذ كتاب يشمل موضوعات النحو كلها ، ويعالجها بايجاز وبساطة ووضوح ، فيغنيهم عن أن يخوضوا لجة كتاب سيبويه ، ويركبوا عبابه ، وهم بعد شداة مبتدئون ، فقد صرف نحاة الاندلس همهم لتأليف الشروح ، ولتأليف الكتب التي تدور حول موضوع واحـــد من النحو ، ككتاب (الممدود والمقصور) وكتاب (الافعال) لابن القوطية .

ولو لم يكن (الواضح) شديد الاقتضاب ، سهل العرض ، قريب الامثله ، لكان واحداً من الكتب النحوية التي أنحى أبو بكر على مؤلفيها باللوم ، ونعى عليهم أنهم لم يأتوا فيها بجديد ، ووصفها بأنها تكرار لكتاب سيبويه ، وكان يرى (الكتاب) مغنياً عن جميع الكتب التي ألفت بعده .

فالكتاب يتلاءم بذلك مع خطة أبي بكر في اختيار موضوعات كتبه ، التي ألفها تلبية لحاجة عصره ، ولافتقار البيئة العلمية إليها ، ولا أشك في أن الكتاب ثمرة اشتغال الزبيدي بالتعليم .

منهج الكتاب :

تبويبه : يخلو الكتاب من المقدمة ، ويفتقر إلى الخاتمة أيضاً ،

وقد ضم بين دفتيه اكثر أبواب النحو ، وعالج عـدداً من موضوعات الصرف ، ذلك لان علم الصرف كان ما يزال فى نشأته ، وكان النحاة الأقدمون يدرجون موضوعاته في النحو ، لان هذين العلمين ولدا توأمين ونشآ متحاضنين ، ولذا جاءت الموضوعات الصرفية مندرجة مع الموضوعات النحوية في كتاب سيبويه ، وظلت كذلك في كتب النحاة مدة طويلة حتى قال ابن جني (انك لاتكاد تجد كتابا في النحو إلا والتصريف في آخره) (١) .

ويبدو أن الصرف لم يستقل عن النحو إلا على يدي أبي عثمان المازني الذي (وضع أول كتاب في التصريف ، دون فيه مباحث العلم وبوبه تبويبا علميا متقناً لفت أنظار من جاء بعده) (٢) :

ثم نهج من جاء بعـــد المازني هذا النهج ، في أفراد الصرف ، ومعالجة قضاياه ، مستقلة عن النحو وموضوعاته ، فألف المبرد كتاباً أسماه (التصريف) وتبعه ابن كيسان (٢٩٩ هـ) وأبو زيد البلخي (٣٢٢ هـ) والفارسي (٣٧٧ هـ) والرماني (٣٨٤ هـ) حتى جاء ابن جني (فألف اضخم الكتب في هذا الباب كالمنصف في شرح تصريف المازني ، والخصائص ، والتصريف الملوكي ، وسرالصناعة . . ثم كثرت التصانيف بعده) (٣) .

وقد تبلورت قواعد هذا العلم ، وتهيأ له الانفصال التام عن النحو وغدا علما مستقر الاصول والقواعد على يدي ابن الحاجب وابن مالك وابن هشام ومن عاصرهم ، فألف ابن الحاجب (الشافية) التي (تعد نهاية المطاف لقواعد واحوال وأحكام عـلم الصرف ، وبذلك حفظت

(١) المنصف : ١ / ٤ .
(٢) أبو عثمان المازني : ١٠٦ .
(٣) نفسه : ١٠٦ :

من قبل طلاب النحو والصرف ، ونالت عناية كبيرة من العلماء فشرحها ابن جماعة ، والحسين الرومي ، والرضي ، وسيد عبد الله نقره كار ، والجاربردي ، وغيرهم من العلماء) (١) .

فلا غرو أن تجيء في كتاب الزبيدي ، موضوعات صرفية ، وهو من النحاة الاوائل الذين رأوا تقارب العلمين ، وارتباطهما في المنهج والهدف فلم يفرقوا بينهما :

وقد أراد أبو بكر ان يلم في كتابه بما يحتاج إليه النشء من أبواب العربية ، فساق فيه أبواباً لا صلة لها بالنحو والصرف كباب (وجوه القوافي) و (باب من الهجاء) وهو مجموعة قواعد في رسم الكلمات أو مايعرف اليوم بـ (الاملاء) .

ولقد اتبع الزبيدي في تبويب الكتاب ، وترتيب موضوعاته نهجاً علميا دقيقاً يبين أن التأليف قد أصاب على يديه شيئاً من التطور والنضج ، فأخـذ بطريقة علمية ما فتىء المؤلفون يتبعونها حتى اليوم ، وهي أن يجعل لكل موضوع يتألف من عدة عناصر ، باباً خاصاً به ، ثم يقسم عناصر (الباب) على (الفصول) حتى يجمع اللفق إلى لفقه ويلحق الفرع بأصله ، ويجمع شتات الموضوع في مكان واحد ،

واليك نماذج من هذا التقسيم : (باب صفة اعراب الكلام) يقول في أوله : (الاعراب يقع في اواخر الاسماء والافعال المعربات وهو على أربعة أضرب ، على الرفع والنصب والخفض والجزم) (٢) .

ثم يتناول بعد ذلك اعراب الاسماء الخمسة على النحو التالي : (فصل : ومن الاسماء أسماء يكون رفعها بواو في آخرها ، كقولك

---

(١) أبو عثمان المازني : ١٠٦ .

(٢) الواضح : ورقة ٢ :

أخوك وأبوك وحموك وفوك وذو مال ، الرفع فيــه بالواو التي في آخره . . .) (١) فاذا انتهى من هذا ، تناول اعراب المثنى فأفرد له فصلا أيضاً ، يقول في أوله : (فصل : وأما رفع الاثنين فبالألف) ثم يعقبه فصل عن جمع المذكر : (فصل : وأما رفع الجميع الذي على حد التثنية فبالواو) (٢)

وبذلك نخالف الاستاذ محمد كامل بركات فيما ذهب إليه : من أن ابن مالك هو أول من استعمل هذا التبويب العلمي في كتابه (تسهيل الفوائد) (٣) ، وقد ساق الاستاذ بركات إلى هذا الزعم جهله بكتاب الزبيدي ، لانه ما يزال غير منشور ، ولا أشك في أن نشره سيحمل بعض الدارسين ، على اعادة النظر في بعض آرائهم ، لانهم سيجدون أنهم تحيفوا أبا بكر حين نسبوا بعض آرائه وابتكاراته إلى نحاة متأخرين .

ولايلتزم الزبيدي بتسمية فروع (الأبواب) فصولا ، وانما يسمي الفصل أحياناً (باب منه آخر) كما نلاحظ ذلك في أكثر الكتاب ومن أمثلة ذلك ما جاء في (باب الابتداء وخبره) فقد أعقب الفصل الثاني منه بفصل أسماه (باب منه آخر) يتعلق الابتداء بالضمير ، ويتكرر هذا الامر في فصل الابتداء بأسماء الاشارة الذي أسماه أيضاً (باب منه آخر) (٤) .

ومهما يكن من فقدان الاطراد في تسمية الزبيدي لفروع الأبواب بالفصول ، وعدوله في أكثر الكتاب عنها إلى تسمية (باب منه آخر)

---

(١) الواضح : ورقة ٢ ،

(٢) نفسه : ورقة ٣ .

(٣) تسهيل الفوائد : ٤٣ ، ٤٤ :

(٤) الواضح : ورقة ١٧ ، ٣٦ .

فانه قد فطن إلى ضرورة تقسيم المباحث النحوية إلى أبواب ، وتبويب الموضوعات داخـــل الباب الواحد ، لئلا تختلط المسائل ، وتشتبك الفروع مع بعضها وتتداخل ، فتضيع الفائدة ، ويصعب على الطلاب تمييز قضية من أخرى :

عرض الموضوعات :

سأقتصر في استعراضي للمباحث النحوية التي تناولها الزبيدي في كتابه (الواضح في النحو) على ذكر عناوين الأبواب ، تاركا الالماع الى مباحث الباب الواحد وعناصره :

باب أقسام الكلام باب صفة اعراب الكلام باب ذكر الافعال باب الافعال التي لا يتعدى فاعلها إلى مفعولين ، باب الفعل الذي يتعدى فاعله الى مفعول واحـد ، باب الافعال التي يتعدى فاعلها الى مفعولين باب المفعول الذي لم يسم فاعله ، باب الخفض ، باب النعوت (١٢ - ١٥) باب العطف (١٥ - ١٦) باب الابتداء وخبره (١٦ - ١٩) باب الحروف الخمسة التي تنصب الاسماء وترفع الاخبار (١٩ - ٢١) باب الافعال التي ترفع الاسماء وتنصب الخبر (٢١ - ٢٢) باب الحروف التي ترفع ما بعدها (٢٢ - ٢٤) باب الافعال المعربة وغير المعربة (٢٤ - ٣٠) باب المصادر (٣٠ - ٣٢) باب الظروف (٣٢ - ٣٣) باب الحال (٣٣ - ٣٥) باب النداء (٣٥ - ٣٨) باب التعجب (٣٨ - ٤١) باب الجمع بالتاء (٤١ - ٤٣) باب البدل (٤٣ - ٤٤) باب الاستثناء (٤٤ - ٤٩) باب ما النافية (٤٩ - ٥٠) باب النفي بـ لا وهو باب التبرية (٥٠ - ٥٢) باب نعم وبئس (٥٢ - ٥٣) باب لو ولولا وحبـــذا (٥٣ - ٥٤) باب العـــدد (٥٤ - ٦٢) باب الشرط وهو باب المجازاة (٦٢ - ٦٤)

باب الأفعال التي تجزم بمعنى المجازاة (٦٤ - ٦٥) (١) باب الجواب بالفاء (٦٥ - ٦٦)(٢) باب من الافعال (٦٦ - ٦٧) (٣) باب الاصل (٦٧ - ٧٠) باب دخول الف الوصل على الأسماء (٧٠ - ٧١) باب الفات القطع (٧١) باب ضمائر الاسماء (٧١-٧٤) باب المعرفة والنكرة (٧٤-٧٦) باب أمس (٧٦- ٧٧) باب حق (٧٧ - ٧٨) باب الاغراء (٧٨ - ٨١) باب من الامر (٨١) باب عسى وكاد (٨١ - ٨٢) باب الأسماء الموصولات (٨٢ - ٨٤) باب من وأى وما (٨٤ - ٨٧) باب من الحكاية (٨٧ - ٩٠) باب من أبواب من وما (٩١ - ٩٢) باب كم (٩٢ - ٩٣) باب المخاطبة (٩٣ - ٩٤) باب الجواب بالهاء (٩٤) باب مالا ينصرف (٩٤ - ١٠٧) باب ما يحكى (١٠٧) باب القسم (١٠٧ - ١٠٩) باب أم و أو (١٠٩) باب أما وإمــا (١٠٩ - ١١٠) باب تقديم الفعل (١١٠ - ١١١) باب مايشتغل عنه الفعل (١١١ - ١١٤) باب اسم الفاعل (١١٤ - ١١٥) باب الصفــة المشبهة باسم الفـاعل (١١٥ - ١١٦) باب المصادر العاملة عمل الافعال (١١٦) باب جمع الفاعلين والمفعولين ، أي التنازع (١١٦ - ١١٨) باب الترخيم في النداء (١١٨ - ١١٩) باب الندبة (١١٩ - ١٢٠) باب الاستغاثة (١٢٠ - ١٢١) باب ويح وويل وويس (١٢١ - ١٢٢) باب الحكاية بعد القول (١٢٢) باب من أبواب ان في العطف والنعوت (١٢٢ - ١٢٣) باب دخول النون الثقيلة (١٢٣ - ١٢٤) باب الجمع (١٢٤ - ١٣٥) باب التصغير (١٣٥ - ١٤١) باب التذكير والتأنيث (١٤١ - ١٤٧)

(١) يعني جزم المضارع الواقع جواباً لطلب ؛

(٢) يعني نصب المضارع الواقع بعد فاء السببية :

(٣) يعني الميزان الصرفي :

باب التضعيف (١٤٧ - ١٤٨) باب أفعال الشك (١٤٨) باب قط (١٤٨) باب تأكيد المضمرات (١٤٨ - ١٤٩) باب ان وأن (١٤٩ - ١٥٠) باب منذ ومذ (١٥٠) باب النسب (١٥٠ - ١٥٣) باب الممدود والمقصور (١٥٣ - ١٥٦) باب الهمز (١٥٦ - ١٥٨) باب الامالة (١٥٨ - ١٥٩) باب ادغام الحروف (١٥٩ - ١٦٢) باب وجوه القوافي (١٦٢ - ١٦٣) باب الوقف على أواخر الاسماء (١٦٣) باب الحروف الزوائد ١٦٣ - ١٦٤) باب أقل أصول ابنية الاسماء (١٦٤ - ١٦٦) باب من تفسير معاني الحروف (١٦٦) باب التصريف (١٦٦ - ١٧١) باب من الهجاء في بنات الياء (١٧١ - ١٧٢) وتمت بهذا ابواب الكتاب .

ويؤخذ على طريقة الزبيدي في تبويب البحوث أنه لم يكن دقيقاً أحياناً في حصر موضوعات الباب الواحد واستقصائها ، بل نراه لا يجمع كل فروع الباب الواحد في موضعها من الكتاب ، وانما يخرج من الباب ما هو داخل فيه ، ومندرج تحته من الموضوعات ليعود اليها بعد ذلك فيعالجها منفردة بعيدة عن الباب الذي كان التقسيم الدقيق يقتضي أن تعالج ضمن مسائله ، وأمثلة هذا كثيرة ، فهو مثلا يعقد بابا للحروف التي تنصب الاسماء وترفع الأخبار في صفحة (١٩) ثم يعود في صفحة (١٢٢) فيتكلم على العطف على اسم ان وعلى نعته ، وكان الواجب الا يترك هذا المبحث قبل استيفائه وبحث ماله مساس به من المسائل : وهو يبحث النداء في صفحة (٣٥) ولكنه يهمل موضوع الترخيم في النداء ويعالجه منفصلا في (ص ١٣٨) ، ولا يبحث كلمة (أمس) مع ما بحث في باب الظرف وانما يعقد لها باباً خاصاً بها في (ص ٧٦) ، وهو إذ يتناول موضوع العطف ، لا يتطرق إلى بحث جميع أدواته بل يهمل أم وأو وإما ثم يعود إلى هذه الحروف

ليعقـــد لها بابين يتكلم في أحدهما على أم وأو ويتكلم في الثاني على أما وإما .

ولا أريد أن أنهي الكلام على تبويب الكتاب ، واسلوب الزبيدي فيه ، قبل أن أشير إلى أنه قـد أخرج من باب الاشتغال اسلوباً درج النحاة على ضمه إليـــه ، وهو الاسم الذي يتلو (إذا) الفجـائية و (ليتما) ، فبحثه في باب الحروف التي ترفع الأسماء والأخبـار ، لان الاسم بعد هذين الحرفين مرفوع علىالابتداء ، ولا مبرر لان يذكره النحاة كابن مالك مثلا فى باب الاشتغال :

وقد اعترض الاشموني على ابن مالك فقال (وان تلا الاسم السابق ما بالابتداء يختص) كاذا الفجائية وليتما (فالرفع التزمه أبداً) على الابتداء وتخرج المسألة عن هذا الباب إلى باب المبتدأ والخبر نحو خرجت فاذا زيد يضربه عمرو وليتما بشر زرته ، فلو نصبت بشراً وزيدا لم يجز لان اذا المفاجأة وليت المقرونة بما لا يليهما فعـل ولا معمول فعـــل ، ومما يختص بالابتداء أيضاً واو الحال في نحو خرجت وزيد يضربه عمرو فلا يجوز وزيدا يضربه عمرو بنصب زيد) (١) .

واذكر بهذه المناسبة أن كتب النحو المدرسية ما فتئت تدرج هذا الاسلوب ضمن باب الاشتغال ، فتكثر به قواعد الموضوع ، مع أن الزبيدي الذي لم يشهد عصور التيسير ، قد يسر على طلابه ، ونزه النحو عن كثير مما يجعله وعر السبيل .

---

(١) الاشموني : ١ / ١٨٨ .

تبرز في الكتاب ظواهر عديدة ، يمكن تفصيلها كما يأتي :

(١) الايجاز :

لاريب في أن الباعث على تأليف الكتاب هو أن يكون في مستوى شداة ، يريدون أن يتعلموا أوليات المسائل ، والاحكام الضرورية في النحو والصرف ، وبذلك ابتعد الزبيدي عما يجعل كتابه وعراً ، فاعتمد فيه على الايجاز ، وابتعد عن التفصيل ، وتعقب الوجوه ، والاتيان بالآراء العديدة في المسألة ، ويتجلى هذا الايجاز حين نوازن بين الموضوع في كتابه وبين الموضوع نفسه في مطولات النحو وكتبه الشهيرة :

وخير مثل على ذلك مبحث (الحال) فقد جاء مقتضباً لا يزيد على ما تذكره الكتب المدرسية عنه فلا يتناول تنكير الحال وتعريفها ، ولا تقديمها وتأخيرها ، ولا جواز حذف عاملها ووجوبه ، أو حذف الحال نفسها ، إلى غير ذلك من فروع الموضوع ومسائله العديدة ، بل كل الذي تناوله من (الحال) انها إخبار عن الحال التي وقع فيها الفعل وانها منصوبة ولا يكون الخبر الا نكرة ولا يكون المخبر عنه إلا معرفة تقول رأيت عبد الله قائماً) (١) :

وقد تأتي الحال من المشار إليه حين نقول (هـذا زيد قائماً) وقد تأتي من الاسم المبتدأ الذي خبره ظرف أوجار ومجرور شريطة أن يكون الكلام تاماً بغير الحال مثل (في الدار زيد قائماً وفي المسجد اخوتك جلوساً) ويقول (ولا يكون النصب حتى يتم الكلام في الظرف

---

(١) الواضح : ورقة ٣٤ .

على ماذكرت لك ألا ترى أنك تقول فى الدار زيد وفي المسجد اخوتك فهو كلام تام فلذلك نصبت ما بعده على الحال فان كانت الظروف ناقصة لا يتم الكلام بها رفعت ما بعدها كقولك فيك زيد راغب وعليك عمرو حريص فزيد ابتداء وراغب خبره وكذلك عليك عمرو حريص ولا يجوز النصب في حريص وراغب لان الكلام غير تام بالظروف ألا ترى أنك لو قلت فيك زيد وعليك عبد الله لم يتم الكلام) (١) .

هذا كل ما ذكره الزبيدي في موضوع (الحال) : ومن أمثلة ايجازه أيضاً (التعجب) فقد اقتضب البحث فيه ، ولم يذكر من شروط الفعل الذي يتعجب منه إلا شرطاً واحدا وهو الا يزيد على ثلاثة أحرف ، فركز في هذه القاعدة الواحدة قاعدتين تعارف النحاة على فصلهما .

وهما ان التعجب لا يكون من الفعل الرباعي فأكثر ، ولا من الفعل الذي يأتي منه الوصف على أفعل فعلاء كحَمِر وسَوِد وحَوِل وعَوِر ، ذلك أن الزبيدي رأى أن سبب امتناع صيغة التعجب من أفعال الالوان والعاهات أنها تزيد في أصلها على ثلاثة أحرف ، يقول (وانما امتنع هذا من الألوان والعاهات لان أفعالها تجيء على أكثر من ثلاثة أحرف مثل أحمرّ وأبيضّ واخضرّ وما جاء من هذا ثلاثياً مثل عمي وعرج وحول فأصله أن يكون على أكثر من ثلاثة أحرف فلذلك امتنع منه ما أفعله) (٢) .

وقد أشار الرضي إلى ذلك بقوله : (الاغلب في الالوان افعلّ

---

(١) الواضح : ورقة ٣٥ .

(٢) نفسه : ورقة ٤٠ .

وافعالّ نحو ارزاقّ واخضارّ وأبيضّ وأحمرّ واصفرّ) (١) .

فالزبيدي جعل للفعل الذي يصاغ منه التعجب ، شرطاً واحداً وهو ألا يزيد على الثلاثي ولم يذكر الشروط الأخرى التي نعرفها والتي أشار اليها ابن مالك بقوله : (٢) .

« وصُغْهُما من ذى ثلاث صُرِّفا قابل فضل غير ذي انتفا
وغير ذي وصف يضاهي أشهلا وغير سالك سبيل فُعِلا »

واستدرك عليه الاشموني فقال (بقي شرط تاسع لم يذكره هنا) (٣) والذي يقرأ هذا الباب في غير كتاب الزبيدي ، يجد تطويلا واستفاضة وخلافاً بين النحاة في بعض مسائله .

وبالرغم من أن الزبيدي عالم بالابنية ، وانه استدرك على سيبويه الشيء الكثير منها ، فقد دعته خطته في الايجاز إلى أن يهمل ذكرعدد كثير من أبنية المصادر ، واكتفي من مصادر الثلاثي بقوله « واعلم أن مصادر الافعال الثلاثية غير المزيدة تأتي مختلفة غير مطردة تكون على فَعْل وعلى فَعَال وعلى فِعَال وعلى فُعُول وفَعَل وغيرها من الابنية » (٤) .

والزبيدي يكتفي بوجه واحد من الحكم النحوي ، وأمثلة ذلك كثيرة في الكتاب ، فهو لم ينو أن يجعل كتابه معرض آراء ، ومشتجر خلاف ، وانما هو يذكر وجها واحداً ، لئلا يرهق قارئه بكثرة الوجوه وتباين الآراء ، كالذي نجده فى الكتب المطولة ، وهو أمر قد يقلل

---

(١) شرح الشافية : ١ / ٧٣ .
(٢) شرح الاشموني : ٢ / ٣٦٥ .
(٣) نفسه : ٢ / ٣٦٧ .
(٤) الواضح : ورقة ٣٠ .

قيمة الكتاب من جهة ، ولكنه يعلي فائدته للمبتدئين من جهة أخرى .

وأود أن أعطي هنا فكرة عن اقتصار الزبيدي على ايراد وجه واحد في المسألة التي يعالجها ، من ذلك أنه يرى أن الحروف (التي ترفع ما بعدها من الاسماء والأخبار وهي انما وكأنما ولعلما وليتما وبينما وبينا واذ وإذا وكيف ومتى واين وهل وبل وحيث وكأن ولكن الخفيفة النون فهذه الحروف يرتفع ما بعدها من الاسماء بالابتداء تقول انما زيد منطلق ، انما تأكيد وصلة للكلام وزيد ابتداء ومنطلق خبر الابتداء . . . وليتما أصحابك جلوس ، وليتما حرف تمن وما بعدها مرفوع بالابتداء والخبر . . وكأن زيد عمرو كأن حرف تشبيه وزيد ابتداء وعمرو خبر الابتداء) (١) .

ومعروف ان ارتفاع الاسم بعد (ليتما) هو وجه ، وان نصبه ورفعه جائزان ، جاء في المغني (وأما قول النابغة : قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا) .

فمن نصب الحمام وهو الارجح عند النحويين في نحو ليتما زيدا قائم ، فما زائدة غير كافة وهذا اسمها ولنا الخبر ، قال سيبويه : وقد كان رؤبة ينشده رفعاً (٢) وجاء فيه أيضاً (وتتصل بـ (لعل) ما فتكفها عن العمل لزوال اختصاصها حينئذ بدليل قوله :

أعد نظرا يا عبد قيس لعلما اضاءت لك النار الحمار المقيدا

وجوز قوم إعمالها حينئذ حملا على (ليت) لاشتراكهما في أنهما يغيران معنى الابتداء وكذا قالوا في كأن) (٣) .

---

(١) الواضح : ورقة ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) المغني : ١ / ٣٠٨ .

(٣) نفسه : ١ / ٢٨٧ .

ولست بصدد احصاء اختيارات الزبيدي ، فلذلك موضعه من هذه الرسالة ، وانما أردت أن أبين أن كتابه لم يكن سجلا لخلاف النحاة وانما كان موجزا لاتطويل فيه ، لئلا يستصعب المبتدئون قراءته ، وينأوا عنه :

(٢) وتبرز في الكتاب ظاهرة أخرى تدل على رغبة الزبيدي في تيسير النحو على الشادين به ، المبتدئين في طلبه ، وتنحية الكثير من عقباته عن طريقهم ، وهذه الظاهرة هي عزوفه عن الاخذ باسلوب التقدير والتأويل في بعض الموضوعات ، ذلك الاسلوب الذي أكثر البصريون من الاعتماد عليه ، والركون إليه ، كلما اصطدمت أصولهم وقوانينهم بالمروي من كلام العرب ، والمأثور من استعمالهم .

والزبيدى وان لم يتحرر من نحو البصريين ، فقد رجّح بعض أقوال الكوفيين ، وأخذ بها ، ولعل شعوره بيسرها على المبتدىء ، هو الذي أغراه بها ، ودفعه إلى مخالفة البصريين فيها ، من ذلك ما ذهب إليه من أن بعض نواصب المضارع تنصبه بنفسها لا بأن مضمرة مقدرة بعدها ، فوافق بذلك الكوفيين : ومن أمثلة عدم أخذه بالتقدير أحياناً ما ذهب إليه من الغاء عمل (كأن) المخففة وارتفاع الاسمين بعدها على أنهما مبتدأ وخبر كما في قولك كأن زيد عمرو .

ونستطيع أن نضيف المثل الآتي لما تقدم من الامثلة التي تنبيء برغبة الزبيدي في حل بعض عقد النحو ، وتذليل طائفة من مصاعبه وخاصة على من كان فى أول مراحل تلقيه والاخذ بأسبابه ، فهو يعرب الاسم الذي يلي (أي) في اسلوب النداء ، وصفاً لها ، مشتقاً كان ذلك الاسم أم جامداً ، ومعلوم أنهم - أي النحاة - يستحسنون اعراب الجامد عطف بيان لا نعتاً :

(٣) ومما يشهد إلى الغاية التعليمية التي كانت تحدو الزبيدى على تأليف كتابه ، هو خلوه من الشواهد النحوية ، فلم يرد منها فيه إلا بيت واحد ، وشطر من بيت ، وذلك لان الشواهد لا تذكر إلا تدليلا على وجه نادر ، أو حكم متنازع فيه ، ولم يضم كتاب الزبيدي شيئاً من ذلك ، بل لم يعرض الا لمسائل أولية ، لا تقتضيه تقويتها بالشواهد والاحتجاج لها بالمرويات .

(٤) ولم أقف في كتاب الواضح على نقل من كتاب ، أو رواية عن نحوى أو لغوي ، وانما كان الزبيدي يدلي بما عنده من قواعد وأحكام ، دون أن يرد الرأي إلى صاحبه ، أو يعزوه إلى من قال به .

ولعل السبب في ذلك هو أن النحو فى هذا الكتاب هو نحو الجمهور ، وليس نحواً خلافياً كثر فيه الجدل ، وانقسم حوله النحاة كما أنه تناول فى كل موضوع أوليات مسائله ، والضروري من أحكامه ولم يتعمق البحث فى معضلاته ، والدقيق العويص من فروعه ، فلم يجد داعياً إلى ذكر آراء النحاة ، وحشد أقاويلهم ، ما دام لم يعرض في كتابه لما نشب حوله الجدل ، واحتربت فيه الآراء .

(٥) سهولة العبارة :

بذل الزبيدى قصارى جهده ، في جعل كتابه واضحاً لا يحتاج إلى الشرح والتفسير (١) ، ولا يجد قارئه عسراً في فهمه والانتفاع به مهما بلغ حظه من النحو ، وقد امتاز بطريقة في تبسيط القاعدة ،

---

(١) جاء في كتاب الصلة) ١ / ٢٥٣ ان ابن وليد النحوى شرع في شرح الواضح الا انه بلغ منه نحو النصف وتوفي قبل اكماله .

دونها ما درجت عليه الكتب المدرسية الحديثة في التسهيل ، فهو يبدأ بوصف اسلوب استعمال القاعدة ثم يورد مثلا واضحاً عليها ويأخذ فى اعرابه اعراباً موجزاً ، ففي مسألة النداء بـ (أي) يقول (إذا ناديت بأى وصلتها بها التنبيه ثم نعتها بنعت لازم لها كالصلة ولا يكون فى النعت غير الرفع تقول يا أيها الرجل ، يا حرف نداء وأي دعاء مفرد وها التنبيه والرجل نعت) (١) .

ويقول في باب الاستثناء : (إذا استثنيت بالا واحداً من جميع أو قليلا من كثير ، وكان الكلام واجباً لا نفي قبله فانصب المستثنى لانه مفعول به تقول جاءني القوم إلا زيداً القوم فاعلون والا حرف معناه الاستثناء زيداً نصب بالاستثناء) (٢) .

ويقول في موضوع نصب المضارع بفاء السببية ويسميه (باب الجواب بالفاء) : (اعلم أن الفاء إذا كانت جوابا للامر والنهي والعرض والتمني والجحود فانها تنصب ما يتصل بها من الافعال التي في أوائلها الزوائد الاربع تقول أزيد في الدارفنأتيه ، الفاء جواب الاستفهام ونأتيه نصب على جواب الاستفهام بالفاء ومثله هل عندك ماء فنشربه وتقول في العرض ألا تأتينا فنحدثك ألا تقعد معنا فنكلمك نصب نحدثك ونكلمك على جواب العرض بالفاء) (٣) .

ويوضح جمع التكسير ايضاحاً كافيا فيقول « اعلم ان الجمع على ضربين جمع التكسير وجمع السلامة ، فجمع التكسير هو الذي يتغير فيه بناء الواحد عما كان قبله من حركة أوسكون كقولك فلس وأفلس

(١) الواضح : ورقة ٣٧ .

(٢) نفسه : ورقة ٤٥ .

(٣) نفسه : ورقة ٦٥ .

وفلوس وكلب وأكلب وكلاب وجمل وأجمال وجمال وحمار وأحمرة وحمر وغلام وغلمة وغلمان وصبي وصبية وصبيان وما أشبه ذلك من الجمع فهو جمع التكسير . ألا ترى أن الفاء في فلس كانت مفتوحة واللام ساكنة فتغير ذلك في أفلس وفلوس فعادت الفاء في أفلس ساكنة واللام مضمومة ، وفي فلوس الفاء مضمومة واللام مثلها وكذلك دخلت الواو بين اللام والسين في فلوس ولم تكن في الواحد وكذلك جمل وجمال الجيم في الواحد مفتوحة وفي الجمع مكسورة » (١) :

بهذا الاسلوب السهل ، وبهذا البسط الوافي ، يتناول الزبيدي موضوعات كتابه ، حتى ليكاد التلميذ المبتدىء يستغني بالكتاب عن الاستاذ ، والواقع انه من الكتب القلائل التي وصلت إلينا بهذا المستوى القريب ، وبهذا الوضوح التام ، بحيث تبدو معه كتب النحو الاخرى ومتونه العويصة ، الغازاً تصدع الرأس ، وتكد العقل :

والاسلوب التعليمي ظاهر في جميع الكتاب ، ولعل خير مثل عليه ما فعلـه المؤلف في التفريق بين « التاء » في جمع المؤنث السالم ، و « التاء » في جمع بعض الكلمات ، كأصوات ، وأبيات ، وأقوات فقد أوضح ذلك بأن « التاء » أصلية في الاسماء : صوت ، قوت ، بيت ، وأما « مسلمات وصالحات ونحوها فالتاء في واحـدها زائدة والدليل على ذلك أنك تقف عليها بالهاء فتقول مسلمه وصالحه وقاعده وليست بتاء أصلية من الاسم نفسه » (٢) :

ويفرق بين (البدل) و (النعت) باسلوب يقربهما من الاذهان فيقول ان البدل تعريف بالشيء وتبيين له ، اما النعت فهو كالحلية

(١) الواضح : ورقة ٤١ ، ٤٢ .

(٢) نفسه : ورقة ٤٣ :

للشيء أو التزيين له ، ولذا فان الاعـــلام مثل زيد وخالد وعمرو لا تصلح للوصف وانما (تكون بدلا مما قبلها من الاسماء والصفات ، ولا تكون نعوتاً لان النعوت صفات وحلى ، فأما البدل فمعناه ان تثبت الشيء وتعرفه وتزيده تبيينا لا ان تحليه (وعلى هـذا يكون (زيد) بدلا في قولك : جاءني عبد الله زيد (١) .

منهج الزبيدي النحوي

لقد سبق القول ان كتاب (الواضح) كتاب تعليمي ، ألفه الزبيدى تلبية لحاجة المبتدئين إلى كتاب سهل ، مختصر ، يعرض عليهم ما تمس حاجتهم إليه من موضوعات عامة ، ومسائل لا غنى لشاد عنها .

لذلك جاء « الواضح » بعيداً مما تعج به كتب النحو ومطولاته من جدل ، واختلاف آراء ، وجري وراء التعليل الفلسفي ، والحجاج المنطقي ، والاكثار من الشواهد التي يؤتى بها لاثبات صورة نادرة من صور التعبير ، أو اسلوب خفي من أساليب القول والأداء .

خلا الكتاب من هذا كله ، وقصره مؤلفه على أيسر موضوعات النحو ، وأمسها بحاجة المتعلم ، وأوفاها بغرضه الذي ينشده من تعلم النحو ودراسته ، فكان حقاً كتاباً نافعا للمبتدئين ، يظهرهم على قواعد العربية العامة ، ويزودهم بثقافة نحوية لا غنى عنها لمن ينشد سلامة القراءة والكتابة .

وكتاب كهذا ، في وضوحه واختصاره ، لا يستطيع الباحث فيه أن يتبين منهج مؤلفه ، ومذهبه النحوي ، ولا يستطيع أن يجتلي منزلته

(١) الواضح : ورقة ٤٤ .

بين النحاة ، وموقفه منهم ، ورأيه في مناهجهم ، وما نشب بينهم من جدل وصراع ، فهو لم يذكر احداً منهم ، ولم يورد نقولا عما وعته كتبهم ، أو جرت به ألسنتهم .

ولذا وجدت الحديث عن منهج الزبيدي صعباً ، لا تسعف به طريقة الكتاب ، ولا تعين عليه طبيعة مادته . ولكني صبرت للكتاب ومضيت أعرض مادته على كتب النحو الاخرى لا تبين الوجهة التي سلكها مؤلفه ، والمنهج الذي التزمه ، واسس نحوه عليه :

ولا تحسب أن للزبيدي (نحواً) انفرد به ، أو آراء اجتهد في التوصل إليها ، فخالف فيها ما عهدناه لسابقيه من آراء : فلم يكن فى كتابه إلا جامعاً ، اختار من موضوعات النحو ، ما تمس إليه حاجة المتعلم ، وترك منها ، ما يرتفع عن هذا المستوى القريب من عويص المسائل ، ودقيق الوجوه . ولكنه كان فى اختياره حراً مستقلا ، لايتقيد بمذهب ، ولا يخضع لسلطان مدرسة ، وانما يتبع ما يهديه اليه عقله وما يطمئن إلى وجه الصواب فيه .

١ ـ المصطلح النحوي :

ازداد النحو العربي نضجاً فى القرنين الثالث والرابع ، فاستقرت قواعده ومصطلحاته ، وكانت مسافة الخلف قد ترامت بين مدرستي الكوفة والبصرة ، فافترقتا كثيراً ، وأصبح من مظاهر اختلافهما ما تستعمله كل منهما من مصطلحات نحوية ، وما تطلقه من ألقاب على الكلمات في تقلبها فى التراكيب ، وتبدل وظائفها في الكلام :

وقد مر بنا أن الزبيدي ، كغيره من أهل صقعه ، وقف على نحو المدرستين ، وعبّ ثقافته من كلا المعينين ، وكان لكتاب سيبويه

خاصة النصيب الاوفى من عنايته ، فكان من أثر ذلك ان ظهرت في نحوه بعض سمات المذهب الكوفي ، وتسربت إليـــه طائفة من آراء الكوفيين ، ولكنها قليلة إذا قيست بما ظهر فيــه من آراء البصريين . وسيأتي بيان ذلك في موضعه ، وأريد هنا أن ألقي الضوء على موقف الزبيدي من المصطلحات النحوية . وأبين ما اختاره منها :

١ ـ القاب الاعراب والبناء :

استعمل الزبيدي مصطلحات (الرفع) و (النصب) و (الخفض) و (الجزم) في حالات الاعراب ، ويظهر هذا في كلامه على (أمس) حيث يقول : (اعلم ان (أمس) إذا كان معرفة فهو (مكسور) في (الرفع) و (النصب) و (الخفض) أبداً كسراً بلا تنوين ، وذلك إذا أردت اليوم الذي قبل يومك بعينه ، تقول ذهب أمس بما فيه ، فأمس في موضع رفع لانه فاعل ولكن لا يظهر فيه الرفع لانه مبني على الكسر وتقول : قصدتك أمس فأمس هنـا فى موضع نصب لانه ظرف فان نعته جرى على موضعه بوجوه الاعراب تقول : مر كما مر أمس الذاهب فالذاهب نعت لأمس ، ورأيته أمس الأقرب الينـــا فأمس ظرف في موضع نصب والاقرب نعت له :

فان ادخلت فيه الالف واللام أو أضفته أو نكرته جرى بوجوه الاعراب تقول : مضى أمسك بما فيه ، وذهب أمسنا ، وانما ظهر الرفع في أمس لاضافتك اياه إلى الكنايتين وتقول رأيته الأمس الاحدث نصبت الامس لانه ظرف والاحـــدث نعت له وظهر النصب في أمس لدخول الالف واللام عليه :

وتقول : كل غد سيصير أمسا نصبت أمساً لانه خبر يصير وظهر فيه النصب

لانه نكرة ولم ترد أمس بعينه) (١) ونلاحظ هنا انه استعمل (الخفض) وهو مصطلح كوفي ، مقابل (الجر) عند البصريين .

وأما (الجزم) وهو المصطلح الرابع للاعراب فيظهر في قوله (وتقول في التمني : ليت زيداً حاضر نحسن إليه ، نحسن : جزم على جواب التمني) (٢) .

واذا كان يستعمل الرفع والنصب والخفض والجزم للاعراب ، فانه يستعمل الضم والفتح والكسر والسكون للبناء ، وقد مر بنا استعماله (الكسر) للبناء ، عند كلامه على (أمس) ، وأما (الضم) فيظهر في كلامه على (المنادى) : (فان كان الاسم المنادى مفرداً ضممته بلا تنوين تقول يا زيد) (٣) .

وقال عن الافعال الماضية انها (مفتوحة الاواخر أبداً كقولك خرج ودخل وضرب وسمع) (٤) يعني أنها مبنية على الفتح . وقال عنها عند اتصالها بضمائر الرفع (فان أخبرت عن نفسك أنك فعلت فعلا فأسكن آخر الفعل الماضي وأدخل كناية المتكلم وهي تاء مضمومة لاصقة بالفعل تقول : خرجت) (٥) ، فالسكون عنده لقب من ألقاب البناء .

الا ان الزبيدي لم يلتزم بالتفريق بين ألقاب البناء وألقاب

---

(١) مخطوطة الواضح : ٧٧ .
(٢) نفسه : ٦٥ .
(٣) نفسه : ٣٦ .
(٤) نفسه : ٣ .
(٥) نفسه : ٤ ، ٥ .

الاعراب ، بل استعمل أحياناً بعضها في محل بعض ، شأنه في ذلك شأن غيره من قدامى النحاة ، الذين عرف عنهم مثل هذا الخلط .

ويبدو أن الزبيدي تابع سيبويه في هذه الناحية ، فأطلق على بعض حالات الاسماء ما أطلقه سيبويه عليها من ألقاب ، كما فعل في بيان حركة اسم (لا) النافية للجنس ، إذ قال عنه انه منصوب بلا تنوين ، مشيراً بذلك إلى أنه مبني على الفتح ، ومتابعاً سيبويه الذي وصفه بهذا الوصف ، فقال عن (لا) (ونصبها لما بعدها كنصب ان لما بعدها ، وترك التنوين لما تعمل فيه لازم) (١) .

وحين أراد الزبيدي أن يبين حركة (قط) قال عنها : انها مرفوعة بغير تنوين ، مشيراً بذلك إلى بنائها على الضم ، وقد تابع سيبويه في هذا أيضاً ، لان الرفع بلا تنوين ، مصطلح استعمله سيبويه مكان البناء على الضم ، جاء ذلك عند كلامه على المنادى المفرد ، حيث قال (٢) : (واعلم أن النداء كل اسم مضاف فيه فهو نصب على اضمار الفعل المتروك اظهاره ، والمفرد رفع وهو في موضع اسم منصوب وزعم الخليل انهم نصبوا المضاف نحو يا عبد الله ويا أخانا والنكرة حين قالوا يا رجلا صالحاً حين طال الكلام كما نصبوا هو قبلك وهو بعدك ورفعوا المفرد كما رفعوا قبلُ وبعدُ وموضعهما واحد وذلك قولك يازيدُ ويا عمرو وتركوا التنوين في المفرد كما تركوه في قبلُ) .

٢ ـ الحال :

يسميها الزبيدي هكذا ، ويسميها (الخبر) ويسميها أيضاً

---

(١) الكتاب : ١ / ٣٤٥ .

(٢) نفسه : ١ / ٣٠٣ .

(مفعولا فيه) ، يقول (إذا أخبرت عن شيء أنه فعل فعلا أو وقع عليه فعل ، أو أخبرت عن استقراره في مكان وتم الكلام بذلك ، ثم أردت أن تخبر بالحال التي وقع فيها الحال ، فانصب ذلك الخبر ، لانه مفعول فيه ، وهو الذى يسمى الحال ، ولا يكون الخبر إلا نكرة ، كما لا يكون المخبر عنه إلا معرفة) (١) .

والزبيدي يتابع البصريين في تلقيب (الحال) بالخبر مرة ، وبالمفعول فيه مرة أخرى ، فسيبويه قد سمى (الحال) خبراً ، فقال (واعلم ان كل شيء كان للنكرة صفة فهو للمعرفة خبر) (٢) والمبرد سمى (الحال) مفعولا فيه أيضاً (٣) .

٣ ـ التوكيد المعنوي :

يسميه الزبيدي (نعتاً) ويقسمه إلى ضربين : نعت الاحاطة ، ونعت التخصيص ، يقول (ونعوت الاحاطة : أجمع وجمعاء ، واكتع وكتعاء وأجمعون وأكتعون وأبصعون وابتعون وجمع وكتع ، وكلهم وكلهن ، وكلاهما وكلتاهما ، وهي تكون نعوتاً للاسماء المضمرة والمظهرة المعروفة تقول: حضر المال أجمع أكتع ، حضر : فعل ماض ، والمال فاعل ، وأجمع نعت ، واكتع نعت) (٤) ويقول في نعوت التخصيص : (وهي نفسه ونفسها وانفسهما وانفسهم وانفسهن وهي تكون نعوتاً للاسماء

---

(١) مخطوطة الواضح : ٣٤ .

(٢) الكتاب : ١ / ٢٢١ .

(٣) المقتضب : ٤ / ٢٩٩ ، ٣٠٠ وانظر مقدمة محقق المقتضب : ١١٧ .

(٤) مخطوطة الواضح : ١٤ .

المعروفة تقول مررت بالرجل نفسه ، مررت : فعل وفاعل ، بالرجل خفض بالباء الزائدة . ونفسه : نعت للرجل) (١) .

والزبيدي تبع سيبويه في هذا ، ففي مواضع كثيرة من كتاب سيبويه كان يسمى التوكيد نعتاً (٢) . وقد سمى المبرد التوكيد المعنوي نعتاً ، فقال : (وكذلك ما نعته بالنفس في المرفوع) (٣) :

ولكن الزبيدي يعود في موضع آخر من الكتاب ، فيعقد بابا يسميه (تأكيد المضمرات) ويعرب فيه لفظ (النفس) توكيداً للضمير المنصوب أو المخفوض الذي قبلها ، يقول (وقد يجوز أن تؤكد بنفسك الضمائر المنصوبة والمخفوضة تقول رأيتك نفسك ومررت بكم أنفسكم ولا تؤكد بها الضمائر المرفوعة اللازقة بالفعل ولا المضمرة فيه إلا على قبح) (٤) :

٤ ـ الضمير :

يسميه (الكناية) ويسمي الضمائر (الاسماء المكنية) فيقول (فاذا أوقعت حروف الخفض على الأسماء المكنيات تركتها على حالها وصارت في موضع خفض ، إلا أن الخفض لا يظهر فيها ، وكذلك سائر الحروف ، تقول : قعدت عندنا ، فالكناية خفض بـ (عند) (٥) :

---

(١) مخطوطة الواضح : ١٥ .

(٢) مقدمة المقتضب : ١١٧ وانظر كتاب سيبويه : ١ / ١٢٥ ، ١٤٠ ، ٢٧٤ ، ٣٧٨ ، ٣٩٥ ، ٢ / ٥ .

(٣) المقتضب : ٣ / ٢١٠ .

(٤) مخطوطة الواضح : ١٤٩ ،

(٥) نفسه : ١١ .

وتسمية الضمير بالكناية تسمية كوفية ، قال الفراء : (وانما دعاهم إلى أن يقولوا اولاك في موضع الرفع لانهم يجدون المكني يستوى لفظـــه فى الخفض والنصب ، فيقال ضربتك ومررت بك ، ويجدونه يستوى أيضاً في الرفع والنصب والخفض فيقال ضربنا ومر بنا ، فيكون الخفض والنصب بالنون ثم يقولون قمنا ففعلنا فيكون الرفع بالنون ، فلما كان ذلك استجازوا أن يكون الكاف في موضع (أنت) رفعا إذ كان اعراب المكني بالدلالات لا بالحركات (١) وقال ثعلب (وإذا صاروا إلى المكني جعلوه بين (ها) و (ذا) فقالوا : ها أنا ذا قائماً) (٢) .

٥ ـ التمييز :

يسميه الزبيدي (التفسير) فيقول فى اعراب (رجلا) من قولك (هؤلاء أحد عشر رجلا) : (ونصبت رجلا على التفسير لانك حين قلت : هؤلاء أحـد عشر ، لم يعرف ما هذا المعدود ، حتى قلت رجلا ففسرت المعدود) (٣) .

و (التفسير) مصطلح كوفي ، والبصريون يسمونه (التمييز) : قال الفراء : (والعرب تقول : كم بيع لك جارية ، فاذا قالوا : كم جارية بيعت لك ، أنثوا والفعل في الوجهين جميعاً لكم ، إلا أن الفعل لما أتى بعد الجارية ذهب به الى التأنيث ، ولو ذكر لكان جواباً لان

---

(١) معـاني القرآن : ٢ / ٨٥ وانظر ص ٨٦ ، ١٠٦ ، ١٨٠ ، ٢١٠ ، ٣٨٦ .

(٢) مجالس ثعلب : ١ / ٤٣ .

(٣) مخطوطة الواضح : ٥٦ .

الجارية مفسرة ليس الفعل لها) (١) .

وقال ابن السكيت (والواحد المفسر منصوب فاذا صرت إلى العشرين وسائر العقود استوى المذكر والمؤنث فقلت : عشرون رجلا وعشرون امرأة ، والمفسر منصوب في ذلك كله . فاذا بلغت المائة كان المفسر مخفوضاً فقلت مائة رجل ومائة امرأة فيستوى في ذلك المذكر والمؤنث وكذلك في الألف) (٢) :

٦ - الفعل المضارع :

يقسم الافعال المضارعة إلى ضربين : الافعال المستقبلة ، والافعال الدائمة . ويسمي حروف المضارعة (الزوائد الاربع) ، فيقول : (اعلم ان الافعال على ثلاثة أضرب : ضرب منها أفعال ماضية ، قد ذهبت ، وتقضت ، وهي مفتوحة الاواخر أبداً كقولك خرج ودخل وسمع وضرب ومكث وتكلم وانطلق واستخرج واستمع وما أشبه ذلك ،

والضرب الثاني أفعال مستقبلة منتظرة لم تقع بعد ، كقولك ، يخرج ويدخل ويضرب ويسمع ويتكلم وينطلق ويستمع ويستخرج وما أشبه هذا .

والضرب الثالث أفعال واقعة في الوقت الذي أنت فيه لم تنقض ولا انقطعت بعد كقولك يصلي ويتكلم ويأكل وما أشبه ذلك ، وهذه الافعال تسمى الدائمة ، ولا تخلو هذه الدائمة ولا المستقبلة من

---

(١) معاني القرآن : ٢ / ٣٤١ وأنظر ص ٣٠٨ :

(٢) اصلاح المنطق : ٢٩٩ .

الزوائد الأربع وهي الهمزة والتاء والنون والياء) (١) .

وتسمية (المضارع) بـ (المستقبل) اصطلاح كوفي أيضاً ، فقد كان الفراء يعبر عن المضارع تارة بالمستقبل وتارة بـ (يفعل) (٢) ؛ واستعمل ابن السكيت (المستقبل) بدل (المضارع) فقال : (واعلم ان كل فعل كان ماضيه على (فعل) مكسور العين ، فان مستقبله يأتي بفتح (العين) نحو : علم يعلم ، وكبر يكبر ، وعجل يعجل) (٣) ؛

ولابد من وقفة قصيرة عند تقسيم الزبيدي للفعل ، وهو تقسيم يوافق تقسيم سيبويه ويخالف عنه ، ويلتقي مع تقسيم الكوفيين ويخالف عنه أيضاً ، فقد قسم سيبويه الفعل بقوله (واما الفعل فأمثلة أخذت من الفاظ أحداث الاسماء وبنيت لما مضى ، ولما يكون ولم يقع وما هو كائن لم ينقطع . فأما بناء مامضى فذهب وسمع ومكث وحمد . وأما بناء مالم يقع فانه قولك آمراً : اذهب واقتل واضرب ، ومخبراً يقتل ويذهب ويضرب ، ويقتل ويضرب ، وكذلك بناء مالم ينقطع وهو كائن إذا أخبرت) (٤) ؛

والزبيدى كسيبويه يخصص بناء (فعل) للاحداث التي ذهبت وتقضت ، وبناء (يفعل) لنوعين من الاحداث : أحداث لم تقع بعد وسماها الافعال المستقبلة ، واحداث تقع في زمن التكلم (الحاضر) ولكنها تمتد خلاله بعض الوقت قبل أن تنقضي وتدخل في حيز المضي كقولك لمن يكون فى اثناء تأدية الصلاة : يصلي ، ولمن يتكلم مسترسلا

---

(١) مخطوطة الواضح : ٣ .

(٢) الفراء ومذهبه في النحو واللغة : ٤٤٠ ؛

(٣) اصلاح المنطق : ٢١٦ ؛

(٤) الكتاب : ١ / ٢ ؛

في كلامه : يتكلم ، وقد سمى هذا النوع من المضارع (الفعل الدائم) وسماه سيبويه (الكائن الذي لم ينقطع) .

ولعل الزبيدي أدق تعبيراً ، وأوضح تمثيلا من سيبويه ، وهما جميعا لم يستعملا (الحال) أو (الحاضر) الذي استعمله النحاة ، وخصوا بناء (يفعل) بالدلالة عليه في احدى حاليه .

ولعل تحاشي الزبيدي وسيبويه قبله ، هذه الكلمة نابع من شعورهما بغموضها وعدم افادتها زمناً محدداً (١) .

وأخرج الزبيدي بناء (فعل الامر) من أقسام الفعل ، وعده لاحقاً بالفعل المضارع فخالف بذلك سيبويه والبصريين ، ووافق الكوفيين وخالف هؤلاء باستعمال (الفعل الدائم) فقد عبر به عن نوع من المضارع ، كما تقدم ، أما الكوفيون فقد أطلقوه على اسم الفاعل إذا كان عاملا ، فالفراء (يفرق بين اسم الفاعل إذا كان عاملا فيطلق عليه الفعل الدائم ، وأحياناً يطلق عليه الفعل فقط ، وبين اسم الفاعل إذا كان غير عامل فانه يدخله في باب الاسماء ، ويطلق عليه الاسم فقط) (٢) .

٧ - « لا » النافية للجنس :

يسميها الزبيدي « لا » التبرية ، فيقول : (لا رجل في الدار لا : حرف تبرية . ورجل : نصب بالتبرية . وفي الدار : مجرور فيه

---

(١) فقه اللغة المقارن : ٥٣ .

(٢) الفراء ومذهبه في النحو واللغة : ٤٥٠ ، ٤٥١ :

خبر التبرية) (١) :

و (التبرية) مما استعمله الكوفيون ، قال ثعلب ، تعقيباً على قول الشاعر :

فكيف بليلة لا نوم فيها ولا قمـــر لساريها منير

(جعل لا (التبرية) بمعنى غير) (٢) .

٨ ـ المفعول المطلق :

يسميه (المفعول) فيقول : (أعلم ان المصادر إذا أتت على أفعالها ، مضمرة كانت أو مظهرة ، فهي منصوبة ابداً على أنها مفعولة ألا ترى انك إذا قلت : ضربت ضرباً ، وقعدت قعوداً ، فانت فعلت الضرب والقعود) (٣) :

والزبيدي أكثر توفيقاً من النحاة حين سماه (المفعول) ، لان كلمـــة (مفعول) معناها (المجعول أو المعمول أو المحدث) (٤) ، واذا قلنا : خرجنا خروجاً ، فالمعمول أو المفعول هو الخروج .

ولكن شغف النحاة بالشكليات ، جعلهم يلحقون به كلمة (مطلق) ليلفتوا إلى انه يختلف عن غيره من المفاعيل ، فهو مطلق عما لحقها من قيود الـ (به ، فيه ، له ، معه) .

ولعـل خلوه من هـذه القيود (معناه انه هو المفعول الحقيقي ،

(١) مخطوطة الواضح : ٥٠ :

(٢) مجالس ثعلب : ١ / ١٣١ .

(٣) مخطوطة الواضح : ٣٠ .

(٤) دراسات في فلسفة النحو والصرف والرسم : ٥٣ :

وهو تصريح من النحاة بهذه المفعولية الحقيقية) (١) .

ويرى المرحوم الدكتور مصطفى جواد ، أن القاب المفاعيل - عدا المطلق - مختصرة ، وأن الاصل فيها أن تكون على النحو الآتي :

١ - المفعول به فعل ، فاذا قلنا : أكلنا الطعام ، فالطعام مفعول به فعل هو « الاكل » .

٢ - المفعول فيه فعل ، فاذا قلنا : جلسنا بجلس والدنا ، فمجلس مفعول فيه فعل هو « الجلوس) .

٣ - المفعول لاجله فعل ، فاذا قلنا : صلنا ابتغاء لمرضاة الله ، فالابتغاء مفعول لاجله فعل ، هو التصلية :

٤ - المفعول معـــه فعل ، فاذا قلنا : ذهبنا وزيداً إلى دارنا ، فزيداً مفعول معه فعل ، هو (الذهاب) والمفعول المطلق ليس به ولا فيه ولا معه ولا له فعل ، وانما هو الفعل نفسه ، فاذا قلنا : خرجنا خروجاً ، فالفعل الذي فعلناه هو الخروج) (٢) .

٩ - نائب الفاعل :

يسميه الزبيدي « المفعول الذي لم يسم فاعلـــه » فيقول « اذا أوقعت الفعل على مفعول ، ولم تذكر الفاعل ، فارفع المفعول ، واقمه مقام فاعله في اعرابه ، تقول : ضُرِب زيد ، ضرب : فعل ماض ، وزيد مرفوع ، لانه مفعول لم يسم فاعله ، فقام مقام الفاعل » (٣) .

(١) دراسات في فلسفة النحو والصرف والرسم : ٤٥ :

(٢) نفسه : ٤٥ .

(٣) مخطوطة الواضح : ٨ :

والكوفيون يسمون الفعل المبني للمجهول « مالم يسم فاعله » (١).
قال الفراء : « مالم يسم فاعله اذا خلا باسم رفعه » (٢) وعبر الفراء أيضاً عن « نائب الفاعل » بعبارة « مالم يسم فاعله » ، جاء ذلك حين عرض لقوله تعالى « لا يُهْدَى من يضل » وأراد اعراب « من » فقال « ومن قال (يُهْدَى) كانت - يعني (من) - رفعا اذ لم يسم فاعلها » (٣) .

١٠ - الشرط :

يسميه الزبيدي « الشرط » ويسميه « المجازاة » ، والتسمية الأولى اكثر ، يقول « باب الشرط ، وهو باب المجازاة ، وهي تجزم الافعال التي في اوائلها الزوائد الاربع ، وتجزم أجوبتها ، وعوامل المجازاة تكون حروفاً وأسماء وظروفاً فمن الحروف : إنْ وإمّا ، وهي أم المجازاة . ومن الاسماء : من وما ومهما وأي وأيما ، ومن الظروف أين وأينما ومتى وأنى وحيثما واذ ما ، تقول في الحروف : ان تكرمني أكرمك ، ان : حرف شرط وتكرم جزم بالشرط ، واكرمك جزم على جواب الشرط » (٤) : والجزاء مصطلح بصري ، وهو في كتاب سيبويه بمعنى الشرط (٥) .

(١) الفراء ومذهبه في النحو واللغة : ٤٤٢ .
(٢) معاني القرآن : ٢ / ٢١٠ :
(٣) نفسه : ٢ / ٩٩ .
(٤) مخطوطة الواضح : ٦٢ .
(٥) الكتاب : ١ / ٤٣١ .

١١ - همزات الوصل والقطع والاستفهام :

يسميها الزبيدي « ألفات الوصل » و « ألفات القطع » و « ألف الاستفهام » ، فيقول : (اعلم ان جميع الأسماء التي لحقتها ألفات الوصل اذا ادخلت عليها ألفات الاستفهام حذفتها ، وثبتت ألف الاستفهام ، تقول أبنك خير أم زيد ؟ أسمك أحسن أم اسم زيد) (١) ويقول (فاما ألفات القطع فما خلا ما ذكرنا وأشباهه . مما ألفه أصل من الكلمة ، كقولك أب وأخ . . .) (٢) :

والزبيدي يتابع البصريين في ذلك ، فالمبرد يقول عن همزة الاستفهام « ألف الاستفهام » (٣) ويقول (باب ألفات الوصل والقطع) (٤) ونجد سيبويه يطلق على الهمزة ألفا (٥) .

١٢ - النفي :

والجحود عنده يساوي النفي ، يقول (اعلم أن الفاء إذا كانت جواباً للامر والنهي والعرض والتمني والجحود ، فانها تنصب ما يتصل بها من الافعال التي في أوائلها الزوائد الاربع) (٦) ويقول (وتقول

(١) مخطوطة الواضح : ٧٠ .
(٢) نفسه : ٧١ :
(٣) المقتضب : ٢ / ٣٦٢ .
(٤) نفسه : ٢ / ٨٧ .
(٥) الكتاب : ٢ / ١٢٢ ، ٣٤٤ .
(٦) مخطوطة الواضح : ٦٥ :

في الجحود لا مال له فيعطيك ، لا حرف تبرية ، ومعناه الجحود ، ومال نصب بالتبرية ، ويعطيك نصب على جواب الجحود بالفاء ، ومثله ما أنت منا فننصرك ، وليس أحد في الدار فيكلمك) (١) : على أنه يستعمل مصطلح (النفي) أيضاً ، فقد عقد باباً سماه (باب ما النافية) وأعرب (ما) في نحو (ما زيد إلا قائم) بأنها حرف نفي (٢) :

والجحود مصطلح كوفي ، استعمله الفراء (٣) ، وابن السكيت (٤) وغيرهما وهو عندهم بمعنى (النفي) :

وتقابلنا في الكتاب مصطلحات أخرى ، خلا ما ذكرنا ، فهو يسمي نوني التوكيد « النون الثقيلة) و (النون الخفيفة) ويسمي (المركب المزجي) الاسمين اللذين جعلا بمنزلة اسم واحد كحضرموت وبعلبك ويسمى (اسم المفعول) تارة بـ (المفعول) واخرى بـ (المفعول به) ويسمى (المؤنث الحقيقي) : المؤنث من الحيوان ، و (المؤنث المجازي) المؤنث من الموات : ويسمى (المنادى) المدعو .

٢ ـ مزج النحو باللغة :

وقد ترددت في الكتاب ظاهرة ايراد اللغات المختلفة في الكلمة ذلك لأن الزبيدي امام واسع الحفظ ، ولغوي وعى صدره من اللغة

(١) مخطوطة الواضح : ٦٦ .

(٢) نفسه : ٤٩ .

(٣) معاني القرآن : ٢ / ٤٩ ، ٧٨ ، ٨٤ .

(٤) اصلاح المنطق : ٣٨٣ .

وغريبها ، ما بوأه مرتبة الامامة في عصره ، ولعل جانب اللغة من ثقافته هو الاظهر والاشهر ، فقد نالت اللغة اهتمامه ، وحظيت بنصيب أوفى من جهده ، فتعددت فيها كتبه ، بينما لم ينل النحو إلا النزر من عنايته ، ولم يترك لنا فيه غير كتابه (الواضح) ، وقد دفعـــه ميله اللغوي أحياناً إلى النص على ما في الكلمة من جوه في نطقها ، من ذلك :

هلم :

يقول فيها : « فاما هلمّ ، فللعرب فيها لغتان ، أما أهل الحجاز فيقولون للواحـد هلم ، وكـذلك يقولون للاثنين والجمع والواحدة والاثنتين والنسوة .

وأما بنوتميم فيجعلونها فعلا صحيحاً فيقولون للواحد هلم وللاثنين هلما وللجماعة هلموا وللمرأة هلمي وللنسوة هلممن لان المعنى عندهم ألممن والهاء زائدة) (١) .

هاك :

يقول : تقول للرجل هاك ، وهي بمعنى خذ ، وللرجلين والمرأتين هاكما ، وللقوم هاكم وللنسوة هاكن : ومن العرب من يقول هاءَ للرجل وللمرأة هاءَ وللرجلين والمرأتين هاءَيا وللقوم هاؤُم وللنسوة هاؤُنّ .

ولغة أخرى تقول للرجل هاءَ وللمرأة هاءَى وللاثنين وللاثنتين هاءَيا ، وللجماعة هاؤوا وللنسوة هائينَ ، وتقول للرجل هات كذا أي ناولني كـذا وللمرأة هاتي وللرجلين والمرأتين هاتيا وللقوم هاتوا

(١) مخطوطة الواضح : ٧٩ .

وللنسوة هاتين ، وتقول ما أدري ما أُهانيك أي ما أناولك) (١) .

ما الاستفهامية :

يقول : « فاذا اتصلت ما التي للاستفهام بشيء من حروف الخفض قبلها ، حذفت الالف منها استخفافاً تقول لمَ أقبلت ، فما في موضع خفض باللام الزائدة ، وحذفت ألفها لما أعلمتك ، والمعنى لأي شيء أقبلت ، ومثله فيمَ أتيت ، وعلامَ تكلمت . . . وكذا تفعل بما اذا كانت بمعنى أي شيء ، وان كنت غير مستفهم تقول : سل عم أحببت وأدعُ بما (كذا) أردت وظن فيم شئت اذا أردت معنى أي شيء فان أردت بما معنى الذى أتممت ألفها تقول سل عما أردت اذا اردت سل عن الذي اردت وكذلك تكلم فيما أحببت ، الا شئت خاصة ، فان من العرب من ينقص الالف في المعنيين جميعاً تقول : ادع بم شئت وسل عم شئت ، ومنهم من لا ينقصها ، إذا كانت بمعنى الذي وهو القياس) (٢) .

أيمن :

يقول : « تحذف الالف والنون استخفافاً وتبقى الياء وبعدها الميم . فيحدث لها الف وصل مفتوحة ليصل إلى النطق بها تقول ايم الله لأفعلن ، وان شئت كسرت الالف فقلت : ايم فان أدخلت لام

---

(١) مخطوطة الواضح : ٨١ .

(٢) نفسه : ٨٦ ، ٨٧ .

التأكيد عليها سقطت الالف فقلت لَيَمُ الله ، وترد النون ان شئت أيضاً مع لام التأكيد فتقول (لَيَمُنُ الله) لأفعلن ، وقد تحذف حروف الكلمة الا الميم تقول (مُ اللهِ لقد فعلت) (١) .

قاما أخواك :

يقول : « اعلم أن من العرب من تقول : قاما أخواك ، وجاؤوا قومك ، وقامتا المرأتان ، فيلحق الفعل المقدم علامة للاثنين والجمع كما الحقوا علامة التأنيث حين قالوا قامت المرأة ولاحظ لهذه العلامات في الاعراب على ما قدمت ذكره ، وذلك قليل فى كلامهم ، ومنهم أيضاً من يقول : قام المرأة ، وجاء جاريتك فيكتفي بعلامة المؤنث عن علامة التأنيث في الفعل ، كما اكتفى بالتثنية والجميع عن علامتهما في الفعل ، وهذا في المؤنث من الحيوان قليل ردىء ، فأما المؤنث من الموات فاسقاط التاء في فعله كثير كقولك : أضاء الشمس ، واتقد النار والاكثر أن تقول : أضاءت واتقدت) (٢) :

الترخيم في النداء :

يقول الزبيدى : (اعلم أن الترخيم فى النداء انما يكون في الاسماء الاعلام غير المضافة التي على أربعة أحرف فصاعداً ، فاذا رخمت اسماً من هذا النحو فاحذف آخر حرف منه ودع ما قبل الحرف على ما كان

---

(١) مخطوطة الواضح : ١٠٨ .

(٢) نفسه : ١١١ .

عليه قبل أن ترخمه تقول في حارث يا حارِ وفي مالك يا مالِ وفي جعفر يا جَعفَ وفى هرقل يا هِرَق ومن العرب من يضم آخر الاسم ويجعله كاسم لم يحذف منه شيء وهو أقل الوجهين فيقول يا حارُ ويا مالُ ويا جَعفُ ويا هِرَقُ) (١) .

وقد جاء (باب التذكير والتأنيث) حافلا باللغات ، وما بينها من خلاف ، فقد سجل الزبيدي فيه كثيراً من الاسماء التي نطقت بالتذكير والتأنيث ، او نطقت بوجه واحد ، مثل قوله (وما كان من الجمع الذي بينه وبين واحده الهاء فهو مذكر نحو البسر والشعير والتمر والدخن لأن واحده بسرة وشعيرة وتمرة وبرة وكذلك الحمام والنعام والبشام لأن واحده حمامة ونعامة وبشامة وقد يأتي من هذا أشياء استعملت العرب فيه التأنيث والتذكير نحو البقر والنخل . ومن ذلك مالم تستعمله العرب إلا مؤنثاً مثل النحل والام جمع الامة وهو قليل) (٢) .

ومن ذلك قوله (باب منه يقال بالهاء وغيرالهاء ، تقول : منزل ومنزلة ، ومكان ومكانة ، ودار ودارة ، واهل واهلة ، ورداء ورداءة وازار وازارة ، وسَل وسلة ، وكَوّ وكَوّة وحُق وحقة ، وفُوق وفُوقة لفُوق السهم ، وخمر وخمرة وفي عينيه بَياض وبياضة) (٣) .

ومن هذا الباب ما أورده من الفاظ تكون للمذكر والمؤنث والواحد والجمع مثل (البشر) تقول هذا بشر ، وهذه بشر ، وهؤلاء بشر .

---

(١) مخطوطة الواضح : ١١٨ ، ١١٩ ؛

(٢) نفسه : ١٤٣ .

(٣) نفسه : ١٤٣ .

وهناك الفاظ تكون للمذكر والمؤنث مثل (انسان) و (بعير) و (الزوج) و (الفرس) . ومما لحقته (الهـاء) ويكون للمؤنث والمذكر (الحية) و (الحمامة) و (البطة) .

ثم أورد الفاظاً تذكر وتؤنث ، والتأنيث فيها حسن مثل (اللسان) و (المتن) و (القفا) و (الاضحى) و (السلطان) و (الحال) و (الحانوت) .

وأورد الفاظاً أخرى تؤنث وتذكر ، والتأنيث أحسن ، مثـــل (الذراع) و (السلم) و (السوق) و (درع الحديد) و (حروف المعجم) .

وأما الالفاظ التي تذكر وتؤنث والتذكير أحسن : (الروح) و (العنق) و (الضرس) و (الطريق) و (السلاح) (١) : وفي الكتاب امثلة أخرى يفيد منها دارسو اللهجات ، امسك عن ذكرها ، خوف الاطالة ، وخشية الاملال :

٣ ـ السماع والقياس :

ليس في كتاب (الواضح) ما نستدل به في وضوح على موقف الزبيدي من هذين الدليلين من أدلة الصناعة النحوية ، وليس فيه ما يجلو طريقته في جمهور ما ذهب اليه واختاره من الأحكام والآراء لأن خطة الكتاب ، والغاية منه ، أن يكون موجزاً يضم الوجوه التي استحسنها ، واستصفاها ، دون تعليل للاختيار والاستحسان في قالب تلك الوجوه ، ودون ان يكشف طريقة أصحاب الرأي في استنباطهم

(١) مخطوطة الواضح : ١٤٤ :

أياه ، أهم بنوه على الكثير الذائع ، أم استمدوه من لغة قليلة ، وكلام نادر مهجور .

ولكن الذي ينعم النظر في كتاب الزبيدي ، ويتملى الوجوه التي حظيت بترجيحه ، لا يشق عليه ان يتبين أن الرجل كان يقفو خطى البصريين ، وينهج سبيلهم فى السماع والقياس :

ولذا يحسن بي أن القي شيئاً من ضوء على ما امتازت به مدرسة البصرة في السماع والقياس ، قبل أن استنبط من كتاب الزبيدي ، موقفه من هذين الدليلين اللذين استند النحاة اليهما ، وصدروا عنهما في ما بنوا من قواعد ، وأرسوا من أحكام .

أما السماع ، فهو تحرى كلام العرب الفصيح ونقله (النقل الصحيح الخارج عن حد القلة إلى حد الكثرة) (١) . وكان السماع الينبوع الذي استقيت منه قواعد العربية ، والاساس الذي قامت عليه أصولها وأحكامها ، فقد كان النحاة الاوائل ينتجعون البوادي ، ويقصدون أخبية العرب ومضاربهم ، يشافهونهم ، ويقيدون في دفاترهم والواحهم ما يسمعونه منهم ، أو ينصرفون عنهم وقد وعت صدورهم ما أخذوه وسمعوه . ذلك لانهم أدركوا أن لا سبيل إلى معرفة العربية والوقوف على أسرارها ، بغير معرفة كلام العرب ، واستقصائه ، والاحاطة به .

وقد حفظت لنا كتب الطبقات والتراجم ، أخبار هذه الرحلات العلمية إلى البادية ، فالكسائى حين قدم البصرة ، ولازم الخليل ، سأله وقد بهره علمه الجم ، من أين أخذت علمك ؟ فأجابه الخليل : من بوادي الحجاز ونجد وتهامة : فما كان من الكسائي الا أن رحل إلى

(١) الأغراب في جدل الأعراب : ٤٥ .

الجزيرة ، وأخذ يضرب في فيافيها ، يلقى الاعراب ، ويستقي اللغة منهم ، حتى أنفد خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة ، عدا ما اختزنه صدره ، ووعته ذاكرته (١) :

وقال أبو عمرو بن العلاء ، فيما روى الاصمعي عنه : « ماسمع حماد الرواية حرفاً قط الا سمعته » (٢) . والاصمعي سمع من العرب واستكثر من السماع ، حتى قال له بعضهم : أنت حتف الكلمة الشرود وقال له آخر ، وقد رآه يكتب كل شيء :

ما أنت الا الحفظة تكتب لفظ اللفظة (٣)

وأبو زيد الانصاري (كثير الرواية عن الاعراب ، كثير النقل) (٤) .

ولم تكن البادية وحدها موطن السماع ، ومجال الالتقاء بالاعراب والاخذ عنهم ، بل كانت البصرة وسوقها المربد ، موطنين آخرين من مواطن السماع والمشافهة ، يأتي اليهما الاعراب ، يقضون حاجهم ، ويمتارون ما يفتقرون اليه من البضائع ، فيتملق بهم طلاب اللغة ، ويلتفون حولهم ، يلتقطون من أفواههم اللفظ الغريب ، والكلام الصحيح .

غير أن البصريين (في أخذهم عن العرب لم يكونوا يجمعون كل ما يصادفهم في رحلتهم ، أو ينقل لهم عن العرب ، بل كانوا لايعتدون الا ما يطمئنون اليه ، ويستوثقون منه) (٥) : وكانوا قد أبعدوا من

---

(١) بغية الوعاة : ٣٣٦ .

(٢) طبقات الزبيدي : ٣١ :

(٣) أخبار النحويين البصريين : ٦٦ ، ٦٧ :

(٤) طبقات الزبيدي : ١٨٢ :

(٥) مدرسة البصرة : ٢٣٧ .

مجال دراستهم الكثير من المنقول والمسموع ، ولم يعتدوا إلا بلغات قبائل معدودة ، كانت قد استوطنت كبد الصحراء ، وابتعدت عن الحضر والارياف ، فلم تتأثر لهجاتها بلغات الحضر ، وبلغات من يخالطهم أو يفد عليهم من الاجانب والاعجام :

لقد ضيق البصريون على أنفسهم دائرة السماع ، وقصروه على قبائل معينة كانت محط ثقتهم ، لانها كانت بعيدة عن مظنة الخطأ والفساد اللذين يجلبهما الاتصال بالاعاجم ، بالرحلة أو بالجوار ه

ويوضح ذلك ما نقله السيوطي عن أبي نصر الفارابي ، في أول كتابه المسمى بالالفاظ والحروف (كانت قريش أجود العرب انتقاء للافصح من الالفاظ ، واسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً وأبينها ابانة عما في النفس ، والذين عنهم نقلت اللغة العربية ، وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد ، فان هؤلاء هم الذين عنهم اكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف ثم هذيل وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ، وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الامم الذين حولهم) (١) .

أما الكوفيون فقد كانوا أسلس خطة ، وأبعد عن التشدد في السماع واكثر احتراما لما يردهم ، وينقل لهم من كلام العرب : (لم يمنعهم أن يقفوا عندما يروى لهم من نصوص ، يستوثقون منه ويتبينون صحته ويكثر سماعهم لامثاله ، حتى يصبح جديرا بالاخذ ، موضعاً للاعتبار) (٢)

---

(١) الاقتراح : ١٩ .

(٢) مدرسة البصرة : ١٤٥ ، ١٤٦ .

بل (قبلوا كل ما جاء من العرب ، واعتدوا به ، وجعلوه أصلا من أصولهم التي يرجعون اليها ويقيسون عليها) (١) .

أما القياس « فهو حمل غير المنقول على المنقول ، إذا كان في معناه ، وهو معظم أدلة النحو ، والمعول في غالب مسائله عليه ، ولهذا قيل في حده : إنه علم بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب » (٢) .

وللقياس أركان أربعة ، وهي أصل وفرع وحكم وعلة : « أما الاصل فهو المقيس عليه ، والفرع هو المقيس ، والحكم هو ما يسري على المقيس ، والعلة هي ما رآه النحاة من أسباب استحق بها المقيس حكم المقيس عليه » (٣) :

نظر النحاة البصريون في كلام العرب ، فوجدوا ان ما وافق القياس منه ، وفشا في الاستعمال هو الغاية التي ليس فوقها غاية ، ونقيض هذا الضرب هو ما خالف القياس وكان شاذاً في الاستعمال ، فقد طرحوه وعدوه مرذولا ، كدخول اللام في خبر (لكن) : لكنني من حبها لعميد . فاذا خالف السماع الكثير القياس ، تركوا القياس ورجحوا جانب السماع عليه ، إذ لا خير في قياس لا يسانده سماع ، ولا تؤيده المرويات الكثيرة :

من ذلك انهم عدوا « ما » عاملة على لغة أهل الحجاز ، لأن هذه اللغة أسير وأذيع ، ولم يقولوا باهمالها الموافق للقياس ، لانه لغة قليلة ، ووجه القياس في اهمالها ، أن الحرف عندهم لا يعمل إذا

---

(١) مدرسة البصرة : ١٤٥ .

(٢) الاقتراح : ٣٢ .

(٣) القواعد النحوية : ٢٢١ ، ٢٢١ :

لم يكن مختصاً (١) :

وقد تأتي كلمات معدودة ثبتت روايتها ، وسلم طريقها ، الا أنها تخالف القياس ، فيحفظونها ويأبون القياس عليها ، وذلك نحو : استحوذ واستنوق ، فهذا وان كان مخالفاً للقياس ، فقد ورد عنهم هكذا ، فلا يرد ، ولكن لا يقاس عليه غيره ، فلا يقال : استقوم في استقام ، ولا استبيع في استباع (٢) .

« وليس من شروط المقيس عليه الكثرة فقد يقاس على القليل كما في النسب الى شَنُوأة ، فيقال شنئي ، فيقاس عليه ركوبة وحلوبة » (٣) وقال الرضي : « وأما فَعُول وفَعُولة فسيبويه يجريهما مجرى فعيل وفعيلة في حذف حرف اللين في المؤنث دون المذكر قياساً مطردا تشبيهاً لواو المد بيائه لتساويهما في المد وفى المحل ، أعني كونهما بعد العين ولهذا يكونان ردفا في قصيدة واحدة ، كما تقول مثلا في قافية غفور وفي الأخرى كبير . وقال المبرد : شَنَئِيٌّ في شنوأة شاذ لا يجوز القياس عليه » (٤) :

ويمنعون القياس على ماهو أكثر من شنئي ، إذا كان ضعيفاً في القياس كقولهم : قرشيٌّ وثقفيٌّ وسلمي في النسب الى قريش وثقيف وسليم فهذا وان كان أكثر من شنئي ، ضعيف فى القياس عند سيبويه لا يجوز القياس عليه فلا يقال فى سعيد سعدى ولا في كريم كرمي » (٥) .

---

(١) الانصاف : ١ / ١٠٧ (مسألة ١٩) .

(٢) الخصائص : ١ / ١١٧ .

(٣) القواعد النحوية : ٢٢٥ :

(٤) شرح الرضي على الشافية : ٢ / ٢٣ :

(٥) القواعد النحوية : ٢٢٥ وانظر مدرسة البصرة : ٢٤٩ :

وضع البصريون أقيستهم ، مستمدين اياها من الكثير الذائع ، صادرين فيها عن الفصيح الشائع من كلام العرب ، فاذا واجهتهم مرويات ثبت لديهم نقلها ، ولكنها تند عن قواعدهم ، ولا تساير أقيستهم ، فانهم يلجأون إلى تأويلها تأويلا يجعلها توافق مذهبهم ، فان أعجزهم التأويل ، وصفوها بالشذوذ ، أو رموا قائليها من العرب بالخطأ .

قال المرحوم الاستاذ طه الراوي « ان أجلى ما يمتاز به مذهب البصرية ابتناء قواعده على الاغلب الشائع من كلام العرب ، وتحكيم المقاييس العقلية في الكثير من شؤونه ، واذا اصطدم أصل من أصوله بسماع غير مشهور فزع الى التأويل والتوجيه ، ورمى المسموع بالشذوذ أو الندور بل التخطئة أحياناً .

أما مذهب الكوفيين فلواؤه بيد السماع لا يخفر له ذمة ، ولا ينقض له عهداً ، ويهون على الكوفي نقض أصل من أصوله ، ونسف قاعدة من قواعده ولا يهون عليه اطراح المسموع على الاكثر » (١) .

وقال الاستاذ عبد الحميد حسن حين عرض لمدرسة البصرة ، ان البصريين « يقفون عند الشواهد الموثوق بصحتها الكثيرة النظائر ، ولذا كانت اقيستهم وقواعدهم أقرب الى الصحة ، وكانوا يؤولون ماورد مخالفاً للقواعد ويحكمون بأنه شاذ أو مصنوع ، ولذا كثر عندهم ما قل عند الكوفيين من التأويل والحكم بالشذوذ والضرورات .

والكوفيون أسلس خطة في النهج العلمي . . . فهم يعتمدون على الشعر المصنوع والمنسوب لغير قائله دون أن يهتموا بالتمحيص ، ويكتفون بالشاهد الواحد فيبنون عليه حكمهم ويستنبطون القاعدة ، بل انهم

(١) نظرات في اللغة والنحو : ١١ ؛

يرخصون بالقياس النظري على مقتضى الرأي اذا أعوزتهم الشواهد ، فيصلون إلى القاعدة دون اعتماد على شاهد » (١) :

ذلك هو مجمل موقف البصريين من السماع والقياس . فما موقف أبي بكر الزبيدي منهما ؟

لقد أخذ الزبيدي بآراء البصريين التي استندوا فيها إلى الاستعمال الكثير ، وطرح من كتابه ما يقابلها من آراء الكوفيين التي يبدو أنها قامت على مرويات قليلة ، واستمدت من شواهد لا تبلغ في كثرتها واستفاضتها ما بلغته شواهد البصريين ، وفي ترجيح الزبيدي هذه الآراء وضربه صفحاً عما يخالفها ، دليل على أنه لا يطمئن إلا لما كثر في كلام العرب ، ونطق به جل الناس ، فهو وحده صالح لأن تبنى عليه القواعد ، وتستنبط منه الاحكام .

يذهب الزبيدي ، مع البصريين ، الى أنه لا يجوز العطف على الضمير المخفوض إلا بتكرير الخافض ، اسما كان أم حرفاً ، فيقول (فأما الضمير المخفوض فلا يصح العطف عليه للزوقه بالاسم أوالحرف فلا يجوز أن تقول : مررت بك وزيد ، ولكن تقول : مررت بك وبزيد ، ولا هذا غلامك وعبد الله ، ولكن هذا غلامك وغلام عبد الله وكذلك لا تعطفه على المظهر الا بتكرير الخافض وذلك مررت بزيد وبك لأن المضمر المخفوض لا يقوم بنفسه » (٢) :

وقد ذهب الكوفيون ، ويونس والاخفش من البصريين ، الى أن تكرير الخافض في المعطوف على الضمير غير لازم ، وقد بنوا ذلك على

---

(١) القواعد النحوية : ٧٥ ط ٢ ٥

(٢) مخطوطة الواضح : ١٤٩ .

وروده في التنزيل العزيز ، وفي بعض المنظوم والمنثور ، ومن شواهدهم على هذا قول الشاعر :

فاذهبْ فما بك والايامِ من عَجَبِ (١)

وواضح أن الزبيدي ، يساير الكثير من كلام العرب ، ويصحح من القواعد ما اتفق عليه ، إذ ان العطف على الضمير المخفوض دون تكرير الخافض لم يرد إلا في شواهد قليلة ، عمد اليها البصريون فأولوها ، ودليل قلتها قول ابن الانباري في آخر المسألة : (ثم لو حمل ما أنشده من الابيات علي ما ادعوه ، لكان من الشاذ الذي لا يقاس عليه) (٢) .

فالزبيدي لا يحفل بكل مسموع ، ولا يعتد بكل مروي ، بل يؤثر من الاحكام ما سانده الاستعمال الكثير ، وأيدته الشواهد الغزيرة فهو لا يجيز رفع المستثنى المقدم ، مع أنه ورد مرفوعاً في بعض كلامهم ، وقد أجاز ذلك قوم منهم سيبويه ، لأن يونس قد سمع : (مالي الا أبوك ناصر) ، يقول الزبيدي : (واعلم ان المستثنى كله إذا كان مقدماً فهو منصوب ، تقول : ماجاءني إلا زيداً أحد ، وما قام الا أباك بشر ، وما رأيت الا أباك مخلوقاً ، تنصب زيداً وأباك بالاستثناء المتقدم ، ولا يجوز البدل لأنه لا يكون البدل قبل المبدل منه) (٣) وكان الذين أجازوا الرفع ، قالوا بأن ما بعد (الا) يعرب معمولا لما قبلها ، وما بعده يكون بدلا منه ، بدل كل من كل (٤) :

---

(١) الاشموني : ٤ / ٥٣٥ ، ٥٣٦ .

(٢) الانصاف : ٢٧٩ (المسألة ٦٥) .

(٣) مخطوطة الواضح : ٤٨ ، ٤٩ .

(٤) أوضح المسالك : ٢ / ٦٦ هامش .

أرأيت كيف طبق القياس ، وأخـــذ به ، غير معتد بما رواه يونس عن العرب ، لأن ما رواه يونس قليل ، غير مطرد في استعمالهم .

ومن أمثلة قياسه على الكثير المشهور ، وعـدم تسليمه بالمسموع القليل ، ولو كان رواته ومجيزوه أعلام البصرة ، وأئمة النحو فيهـا ، قوله في بحث التحـذير : (ولا يجوز أن تقول اياك زيداً ، لانك لا تحذف واو العطف ، ألا ترى انك لا تقول ضربت زيداً عمرا حتى تقول وعمرا) (١) .

وقـد روى في طبقاته أن يونس أجاز ذلك (قال ابن سلام : قلت ليونس : اياك زيداً) تجيزها ؟ قال : أجاز ابن أبي اسحاق للمفضل بن عبد الرحمن :

اياك اياك المــــراءَ فانه   الى الشر دَعَّاءٌ وللشر جالب) (٢)

وجاء في تضاعيف كتابه عبارات ، يمكن الاستدلال بهـا على مذهبه في القياس ، وهو مذهب قائم على أن القياس لا يكون الا على ما كثر ، واستفاضت شواهده وأمثلته ، من ذلك قوله في باب جمع الجمع (اعلم انهم يجمعون الجمع ... نحو قولهم : وَطْب وأَوْطُب ثم يجمعون أوطبا فيقولون أوَاطِب وكذلك سقاء وأسقية وأساق... وطرقات وجمالات وبيوتات ، وليس كل جمع يجمع على هذا وانما يحفظ ذلك ولا يقاس) (٣) . وقوله في باب تخفيف الهمز (واعلم ان من العرب من يقلب الهمزة ياء فيقول : قريت وأخطيت وتوضيت

---

(١) مخطوطة الواضح : ٨٠ .

(٢) طبقات الزبيدي : ٥٠ ؛

(٣) مخطوطة الواضح : ١٣٤ ؛

وذلك قليل لا يقاس عليه) (١) .

ولا يجد الزبيدي أحياناً ما يعلل به اختيار هذا الوجه أو ذاك الا كثرة من تكلم به من العرب ، فهو لا يرتضي ما كان لغة القلة ، ولا تطمئن نفسه لما هجرته الكثرة ، وجفت عنه ألسنة معظم القبائل .

أما الوجـه الذي يطرد في الاستعمال ، فينعته بالحسن ويسمه بالجودة ، ويحظى منه بالترجيح ، من ذلك انه يرجح ألا تلحق ألف الندبة صفـــة اسم المندوب فلا يقال (وازيد الظريفاه) بل يقال (وازيد الظريف) ثم يقول (ومن النحويين من يلحق الالف والهاء فيقول وازيد الظريفاه .

وقال غيره لو جاز هـذا لقلت واعمرو أنت الفارس البطلاه ، والأول أكثر وأحسن) (٢) . وفي باب الاشتغال يذهب الى أنه يجوز نصب الاسم المشغول عنه فتقول : زيداً كلمته ، الا أن رفعه أكثر وأجود (٣) .

غير أني رأيت الزبيدي لا يلتزم أحياناً بأفشى الوجهين وانما يأخذ بأقلهما شيوعاً ، وذلك اذا بدا له في ذلك الوجه سبب آخر يدعوه لترجيحه ، غير كثرة من تكلم به من العرب ، ويظهر هذا في اختياره النصب بحاشا ، مع أن الجر بها هو ما عليه أكثر العرب . قال الاشموني (الجر بحاشا هو الكثير الراجح ، ولذلك التزم سيبويه وأكثر البصريين حرفيتها ولم يجيزوا النصب ، ولكن الصحيح جوازه ، فقد ثبت بنقل

---

(١) مخطوطة الواضح : ١٥٨ .

(٢) المصدر نفسه : ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه : ١١٢ .

أبي زيد وأبي عمرو الشيباني والاخفش وابن خروف وأجازه المازني والمبرد والزجاج ومنه قوله :

حاشا قريشا فان الله فضلهم على البرية بالاسلام والدين) (١)

وقد اختار الزبيدي النصب (بحاشا) و (خلا) لأنه يرى أنهما فعلان بدليل تصرفهما ومجيء المضارع منهما ، تقول : (حاش يحاشي) و (خلا يخلو) .

ويبدو لي أن الزبيدي لا يجيز ما ورد في القراءات من أوجه تشذ عن الكثير المطرد ، شأنه في ذلك شأن البصريين الذين تأولوا بعض تلك الأوجه ، ورفضوا بعضها الآخر ، وتجرأوا على القول بخطأ من قرأ بها ، من ذلك أنه اختار أن يكون المستثنى منه بدلا من المستثنى ، إذا كان الكلام منفياً ، والمستثنى منه موجود ، مثل قولك (ما قام أحد إلا زيد) و (ما مررت بأحد الا زيد) ، في حين أن بعضهم أجاز نصب المستثنى في مثل هذه التراكيب ، معتمداً على قراءة من قرأ (ما فعلوه الا قليلا منهم) و (لا يلتفت منكم أحد الا امرأتك) بالنصب (٢) :

ويتحرى الزبيدى ما وافق القياس ، فيأخذ به ، ويرجحه على ما سواه ، من ذلك أنه يرجح صرف أسماء القبائل التي غلب عليها التذكير نحو قريش ومَعَدّ وثقيف ، فيقول (فاعلم ان قياس هذا الباب ما قدمنا ذكره من أسماء المؤنث والمذكر فاذا أردت بالاسم القبيلة ، تركت صرفه ، لأن القبيلة مؤنث ، وان أردت الحي صرفته

---

(١) الاشموني : ١ / ٢٣٩ :

(٢) نفسه : ١ / ٢٢٩ .

ان لم يكن له مانع من الصرف غيره ، تقول هـذا رجل من تميم ، ورأيت نق من أســـد وآخر من سلول : ومراد أفضل من جذام ، صرفت هذه الاسماء كلها لانك أردت بها الحي أو اسم الاب المنتسب اليه ، فان أردت القبيلة تركت الصرف ، فقلت : هـذه تميم ، ومررت بجذام وجاءتني مراد .

ومن هذه القبائل مايكون التذكير اغلب عليه نحوقريش ومعد وثقيف وكذلك كل ما لا يقال فيه بنو فلان ألا ترى انك لا تقول بنو قريش ولا بنو ثقيف لأن الاسماء واقعة على الحي ، وقـد يجوز أن تعني بهـا القبيلة فلا تصرف ، والاول أقيس) (١) وأجاز سيبويه ترك صرف نحو قريش ومعـــد وثقيف ووصفه بأنه حسن لوروده فى بعض المروي من الشعر ، مثل :

غلب المساميحَ الوليدُ سماحةً وكَفَى قريشَ المعضلاتِ وسادَها

و

علم القبائلُ من معَدَّ وغيرهـا أن الجوادَ محمدُ بنُ عُطارِدِ (٢)

أرأيت كيف يفضل الزبيدي الوجـه الموافق للقياس ، ويضعف ما خالفه بما يمكن أن يكون قد دفعت اليه ضرورة الشعر ، وما تقتضيه قوالبه وأوزانه ، ولا شك في أن قائلي هذين البيتين ، لو ملكا حرية القول ، لكان لهما عما ارتكباه مندوحة ، ولصرفا قريشا ومعـــدا ، ولكن الشعر ، وما يستدعيه الوزن حال دون ذلك ، وصرفهما عما عليه أكثر العرب .

---

(١) مخطوطة الواضح : ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) الكتاب : ٢ / ٢٦ ، ٢٧ .

ويعتمد الزبيدي على القياس ، فيأتي بصيغ ومفردات لم تحفظها العربية ، أو لم تلك مما تكلمت به العرب ، فتصغير الخماسي الصحيح وتكسيره مستكرهان ، ولم يأت عنهم أنهم كسّروا خماسياً أو صغروه ، ذلك لانك تحتاج في تصغيره أو تكسيره الى حذف حرف أصلي منه ، ولكن الزبيدي يقيس تصغير الخماسي على الرباعي ، وان لم يبن ذلك على مسموع ، يقول : فان كان الاسم خماسياً صحيحاً حذفت آخر حرف منه ، وصغرته تصغير الرباعي تقول في (فرزدق) (فريزد) وفي (سفرجل) (سفيرج) وفي (جحمرش) (جحيمر) وانما حذفت آخر الاسم لأن التصغير لا يجاوز أربعة أحرف) (١) .

وقال الرضي (وتكسير الخماسي مستكره كتصغيره بحذف خامسه ، أقول : انما استكره تصغير الخماسي وتكسيره لانك تحتاج فيهما إلى حذف حرف أصلي منه ولا شك في كراهته ، فلا تصغره العرب ولا تكسره في سعة كلامهم ، لكن إذا سئلوا : كيف قياس كلامكم لو صغرتموه ، او كسرتموه ؟ قالوا : كذا وكذا . ولك زيادة ياء العوض كما في التصغير) (٢) .

ومن أمثلة اعتماده على القياس في بناء مفردات وصيغ لم تأت في كلام العرب ما جاء في كتابه (الابنية) من قياسه جمعاً على جمع فقد أخذ على سيبويه أنه جعل بناء (فَعَايل) للاسماء فقط ومثل له بعثاير وحثايل ، وكان قد ذكر أن (فِعْيَل من أبنية الصفات ، ومثل لها بـ (طِرْيَم) ، وهي صفة ، وهذا يعني أن جمعها يجب أن يكون (طرايم) قياساً على جمع نظائرها كِعْثْيَر وحِثْيَل ، وعلى هذا

(١) مخطوطة الواضح : ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٢) شرح الرضي على الشافية : ٢ / ١٩٢ ، ١٩٣ .

يكون (فَعَايِل) من أوزان الاسماء والصفات ، قال الزبيدى ينقل عن سيبويه ، ويرد عليه : (وعلى فعايل فالاسم العشاير والحثايل جمع عثير وحثيل ولم يأت صفة . قال أبو بكر : قد ذكر - يعني سيبويه - في باب زيادة الياء ، رجل طِرْيَم ، فيجب أن يكون جمعه طرايم مكسرا صفة) (١) :

ومن ذلك أيضاً أن سيبويه ذهب الى أن (فَعَاوِيل) ليس من ابنية الاسماء وكان قد ذكر في مكان آخر ان عِصْواد وقِرْواش اسمان وهما على وزن (فِعْوَال) وهـذا يعني ان جمعهما يجب أن يكون عصاويد وقراويش على وزن (فَعَاوِيل) قياسا على قِرْواح وجِلْواخ ويجمعان على قراويح وجلاويخ ، قال الزبيدى ينقل عن سيبويه ويرد عليه : (قال سيبويه وعلى فعاويل فالصفة قراويح وجلاويخ ولا نعلمه جاء اسما . قال أبو بكر : قد ذكر في هذا الباب أن عصواد وقرواش اسمان فيجب أن يجمعا على عصاويد وقراويش) (٢)

ومن ذلك أيضاً أن سيبويه كان يذهب الى أن (تَفَاعِيل) وردت اسما ، مثل تماثيل وتجافيف ، ولم تأت وصفا .

أما الزبيدي فقد روى عن الكسائي أن وزن (تِفْعَال) ورد وصفا مثل تلقامة وتلعابة ، ثم رأى ان جمعهما لابد ان يكون على تلاقيم وتلاعيب ، وان لم يسمعا ، قياسا على تمثال تماثيل وعلى هذا فقد ذهب الى ان (تفاعيل) من ابنية الصفات أيضاً (٣) :

---

(١) الاستدراك : ١١ .

(٢) نفسه : ١٢ .

(٣) نفسه : ١٢ .

ذلك هو موقف الزبيدي من السماع والقياس ، فهو ينهج فيهما نهجا بصريا ، فلا يقبل من وجوه القول ، وصور التعبير ، الا ساندها النقل الكثير ، وأيدتها الشواهد الوفيرة ، فهودائما يتحرى تلك الوجوه ويضفي عليها الوجاهة ، وينعتها بالجودة ، هذا اذا ذكر معها مايخالفها من أوجه ، وكثيراً ما يكتفي بذكر الحكم الذي يطرد في الكلام ، مهملا ماقد يكون هناك من وجوه أخرى بناها النحاة على ما وقع اليهم من شواهد قليلة .

٤ ـ العلة عند الزبيدي :

سلفت الاشارة الى ان الذي حدا الزبيدي على تأليف (الواضح) هو أن يكون كتاباً تعليمياً ، سهل العرض ، لا تطويل فيه ولا تعقيد ولذا خـــلا الكتاب مما يشوك طريق القارىء ، أو يسير به في سبيل وعرة ، ومما أضفى على الكتاب طابع السهولة ، ونأى به عن التعقيد ندرة ظاهرة التعليل التي أولع النحاة بها ، وصارت معلما اساسيا من معالم منهجهم في البحث ، واسلوبهم في التأليف ، فكانوا لا يطلقون الحكم الا مشفوعاً بعلة تؤيده وتثبته ، وقد ظهر من النحاة من كانت العلة عنده (رديف الحكم النحوي ، لا تفارقه ، ولا ينبغي لهـا في اعتقاده ان تفارقه كما هو الأمر عند أبي العباس المبرد) (١) ، ولذا لم يبق حكم نحوي ، ولا ظاهرة اعرابية غير معللة تعليلا عقلياً .

وقـد تفاوتت هذه العلل قوة وضعفاً ، وقرباً وعمقاً ، باختلاف ملكات النحاة الذهنيـــة ، وباختلاف الثقافة التي صبغت عقلياتهم ،

---

(١) العلة النحوية : ٦٧ .

وغلبت على منهجهم في البحث والتفكير (اذ من الطبيعي أن يتأثر كل منهم بالطابع الذي غلب عليه من فنون العلم ، فيظهر هذا الطابع جلياً في علله ، واسلوب عرضها ، والحجاج لها ، ولا شك أن عالماً كالفراء عرف بميله الى الاعتزال وشهر بالفلسفة ، لن تخلو علله من هذا الطابع الفلسفي) (١) .

وكان للغرض الذي تساق العلل من أجله ، أثر واضح في نوعها وحظها من القرب والعمق ، والسهولة والصعوبة ، فهناك علة هينة سهلة يتوصل بها الى تعليم كلام العرب وخصائصه ، واساس هذا النوع من العلة ، محاكاة كلام العرب والنسج على منواله والاقتصار على وصفه وتسمى العلة التعليمية ، ففي قولنا (جاء الحق) تكون كلمة (الحق) فاعلا لانها دلت على من وقع منه الفعل ، وهي العلة التي من أجلها حكمنا عليها بأنها فاعل ، والفاعلية هي علة رفع هذه الكلمة :

ولم يكتف النحاة بهذه العلل القريبة ، بل راحوا يغوصون على علل أبعد ، واكثر تعقيداً ، نشم منها رائحة العلوم العقلية التي راجت في ذلك العصر ، كالفقه والفلسفة وعلم الكلام ، وصار كل عالم نحوي يستعير تعليلاته وحججه والفاظه من العلم الذي اختص فيه ، أوغلب عليـــه ، فجاءت العلل النحوية ضروباً والوانا ، بعضها لا يمت إلى اللغة بسبب .

ولم تعـد العلة لغرض تعليمي ، بل سلكوا فيها مسلكاً فلسفيا (فنشأ ضرب من العلة ، وهو العلة الجدلية النظرية) وصار النحاة يبحثون عن (علة العلة) « ففي قولنا (ان الحق واضح) يثيرون عددا من الاسئلة : لماذا نصبت (ان) كلمة الحق ؟ الجواب : لمشابهتها

---

(١) العلة النحوية : ٦٦ .

هي واخواتها للفعل المتعدى الى مفعول ، ويكون المنصوب بها مشبهـا بالمفعول ، ثم يسوقون سؤالا آخر : من أي جهة شابهت هذه الحروف الافعال ، وبأي الافعال شبهت ؟ أبالماضي أم بالمستقبل أم بالحال ؟ الى غير ذلك مما يدخل فى البحث الجدلي النظري » (١) .

وبذلك فقد جف النحو ، وعصف النحاة بنضرته وبريقه ، وصار الى البحث الفلسفي أقرب منه الى البحث اللغوي ، وقد تبارى النحاة في الغوص على علل أمتن من علل الفقهاء ، وأوفر حظا من القوة والوثاقة وذلك ليزيلوا ما سبق الى الانفس ، ووقر فى الاذهان ، من أن حجج النحاة وتعاليلهم واهية ضعيفة . ونالت علل النحاة تقدير ابن جني ، وحظيت باحترامه ، فرفعها فوق علل الفقهاء ، وقرنها بعلل الفلاسفة ، فقال : (اعلم أن علل جـل النحويين واعني بذلك حذاقهم المتقنين ، لا الفافهم المستضعفين ، أقرب الى علل المتكلمين منها الى علل المتفقهين وذلك انهم انما يحيلون على الحس ، ويحتجون فيه بثقل الحال أوخفتها على النفس) (٢) وقال : (ولست تجد شيئاً مما علل به القوم وجوه الاعراب الا والنفس تقبله ، والحس منطو على الاعتراف به ألا ترى أن عوارض ما يوجـد في هذه اللغة شيء سبق وقت الشرع ، وفزع في التحاكم فيه الى بديهة الطبع ، فجميع علل النحو اذن مواطئة للطباع وعلل الفقه لا ينقاد جميعها هذا الانقياد) (٣) .

وكان ابن جني ظاهر الاهتمام بالعلة ، فقـد دافع عنها في بابين من أبواب كتاب (الخصائص) الأول (باب في الرد على من اعتقد

(١) القواعد النحوية : ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٢) الخصائص : ١ / ٤٨ .

(٣) نفسه : ١ / ٥١ .

فساد علل النحويين لضعفه هو في نفسه عن أحكام العلة) والثاني (هذا موضع ربما أوهم فساد العلة وهو مع التأمل ضد ذلك) .

ويدافع السيوطي عن العلل النحوية ، ويغلظ القول للذين يرمونها بالضعف فيقول (اذا استقريت اصول هذه الصناعة ، علمت أنها في غاية الوثاقة ، واذا تأملت عللها عرفت انها غير مدخولة ، ولا متسمح فيها ، واما ما ذهب اليه غفلة العوام من ان علل النحو تكون واهية ومتمحلة ، واستدلالهم على ذلك بأنها ابداً تكون هي تابعة للوجود ، لا الوجود تابعا لها ، فبمعزل عن الحق) (١) .

وأما الزبيدي فقد تحامى في كتابه تعليل الأحكام ، والاحتجاج لها ، ذلك لانه قصد في تآليفه المبتدئين ، فتعمد السهولة ، وابتعد عما يجعل مباحثه وعرة .

ولكن الكتاب مع ذلك ، لم يخل من عدد نزر من التعليلات القريبة التي أسلفنا أنها من العلل التعليمية ، لانها تهدف الى ايضاح الحكم ، ولا تقصد لذاتها ، أو رغبة في اظهار مقدرة على استنباطها ، كما كان شأن النحاة المشارقة في عصره ، فقد كانوا مفتونين بالعلة ، يرون تصيدها أمارة الحذق ، وشارة النبوغ ، وكانوا يأتون بها ليزيدوا الناس اعجاباً بهم ، والتفافا حولهم ، وقصة اعجاب (الزجاج) بعلل (المبرد) وانتقاله الى حلقته من حلقة ثعلب قصة معروفة .

فما ورد من علل عند الزبيدي ، كان سهلا ، يشبه ما كان معروفاً من علل عند النحاة الاوائل كالخليل وسيبويه وغيرهما من نحاة المئة الثانية ، الذين خلت تعليلاتهم الى حد كبير من الصبغة الفلسفية ، وجاء اكثرها مرتكزاً الى حمل النظير على نظيره ، وقياس الشبه بشبيهه

---

(١) الاقتراح : ٤٥ .

أو قائماً على مراعاة ما يتطلبه الاستعمال من خفة ، واقتصاد في النطق .

لقد فسر النحاة الاوائل كثيراً من الظواهر اللغوية والنحوية ، في ضوء ما للعرب من حس لغوي ، وما تتميز به العربية من نهج في بناء المفردات ، وتأليف التراكيب ، فكانوا يقولون ان العرب لم تتكلم بهذا لأنه ثقيل ، ونطقت بذاك لخفته ، وعذوبة وقعه .

ولم تخرج تعليلات الزبيدي القليلة عن هذا الحد ، فقد كان بعضها قائماً على أن القياس يقتضي هذا الحكم ، أو ان الفرار من الثقل يوجب ذلك .

وسأسوق هنا ما جاء مبثوثاً في ثنايا كتابه من علل تعليمية سهلة ليست من طراز ما يسمى بالعلل الثواني والثوالث ، فمن أمثلة تعليله بطلب الخفة ، والفرار من الثقل ، قوله في علة عدم صرف الأسماء الأعجمية التي تزيد حروفها على ثلاثة أحرف (فان زادت الأسماء على ثلاثة أحرف لم تنصرف فى المعرفة ، وانصرفت فى النكرة ، وذلك نحواسماعيل وابراهيم واسحاق ويعقوب وموسى وهارون وجبريل وفرعون وهامان وقارون وما أشبهها من الاسماء الاعجمية ، تقول : مررت باسحاق ابن يعقوب ورأيت اسماعيل ، وقرأت سورة ابراهيم وجاءني هارون بن يونس ، تركت صرف هذه الأسماء لانها اسماء أعجمية فثقل صرفها فى كلام العرب) (١) .

ومن ذلك قوله (اعلم ان كل اسمين جعلا بمنزلة اسم واحد ، وسمي بهما شيء بعينه فانك تفتح آخر الاسم الأول منهما وتجرى آخر الثاني مجرى مالا ينصرف ، وذلك مثل حضرموت وبعلبك ومعديكرب وبلال آباد ورام هرمز تقول : هذه بعلبك ومررت ببعلبك

(١) مخطوطة الواضح : ١٠٢ .

ودخلت بلال آباد وجاءني رجل من حضرموت ، فاما معديكرب فان الياء فيه ساكنة لانهم استثقلوا تحريكها تقول : هـذا معد يكرب ورأيت معديكرب ومررت بمعديكرب) (١) :

وقد يعلل الوجـه الذي يذهب إليه ، بأنه المنقاد للقياس ، كما أسلفنا من ترجيحه صرف قريش وثقيف لأن صرفهما أقيس . وقـد يستند في الحكم الى كثرة المسموع في بابه ، يقول مثلا : (فأما المؤنث من الموات فاسقاط التاء في فعله كثير كقولك أضاء الشمس واتقد النار والاكثر أن تقول أضاءت واتقدت) (٢) .

ويستند إلى الكثرة أيضاً في قوله : (فان شغلت الفعـل بضمير الاسم المتقدم قلت زيد ضربته وعمرو لقيته واخوك شتمته ترفع الاسماء بالابتداء وخبر الابتداء في الأفعال التي بعد الاسماء وانما رفعتها لانك شغلت الفعل العامل فيها بسببها فرفعتهـا بالابتداء ومن العرب من يقول زيدا ضربته وعمرا كلمته . . . والأول اكثر وأجود) (٣) .

وعلل بالتوهم عـدم صرف (أشياء) ، لانها عنده على وزن (أفعال) ، قال (وما جاء به على مثال أفعال مما ليست ألفـه الف تأنيث فهو مصروف بوجوه الاعراب نحو افياء واحياء وابنـاء ، تقول مررت بابنـاء لك وقعدت تحت افياء ظليلة ، الا ان العرب تركت صرف حرف واحد من هـذا الباب وهو (أشياء) توهمت ألفه ألف تأنيث فلم تصرفه ، تقول ؛ بعثت باشياء حسان ، ورأيت منك أشياء

(١) مخطوطة الواضح : ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢) نفسه : ١١١ .

(٣) نفسه : ١١١ ، ١١٢ .

أعجبتني ، وكان حق هذا أن ينصرف ، لان (أشياء) افعال ، وهي جمع (شيء) مثل (أحياء) جمع (حي) و (افياء) جمع فيء وقد قال قوم ان ألفها ألف تأنيث واعتلوا في ذلك بعلل ذكروها (١) وسيأتي الكلام على هذه الكلمة ، عند بحث موقفه من المسائل الخلافية .

وقد وردت تعليلات أخرى تبعد قليلا عن روح اللغة ، وتقترب من العلل المصطبغة بالفلسفة وان لم تك موغلة في ذلك أو بالغة شأو العلل التي استنبطها نحاة المشرق في القرن الرابع ، ومن هذه التعليلات قوله في علة ترك صرف الاسم المعدول عن أصله (فاما جُمَع وكُتَع فانهما معدولتان عن جُمْع وكُتْع كما جمعت حمراء على حُمْر وخضراء على خُضْر فلما عدلت عن هذا الوجه صارت فى بابها كعُمَر وزُفَر حين عدلا عن عامر وزافر تقول مررت بالنسوة جُمَعَ كُتَعَ ، وكل ماذكرنا من هذا الباب اذا كان نكرة فهو مصروف تقول مررت بعمر وعمر آخر وكذلك ان صغرت هذه الاسماء صرفتها تقول مررت بعمير وجاءني زفير لانك لما صغرتها زالت علة العدول عنها :

فأما أُخَرُ جمع أخرى فلا تصرف في النكرة تقول مررت بجوار لك أُخَرَ وذلك لانها خالفت اخواتها مثل الصُغَر والكُبَر وما أشبهها من بابهما لا يكون الا معرفة واما أُخَر فقد تكون معرفة ونكرة فاشبهت المعدول لخروجها على أصلها) (٢) .

فهذه علة غاص العقل عليها ، وأعمل الفكر فى إستنباطها ، ولم تكن قائمة على ماتقوم عليه العلل القريبة السهلة من الاحتكام إلى الذوق في

---

(١) مخطوطة الواضح : ٩٧ .

(١) نفسه : ١٠٣ :

استخفاف أسلوب واستثقال سواه ، أو لأن الكثير المسموع هو الذي يملي هذا الوجه ويدعو إلى اطراح غيره .

ومن العلل العقلية قوله في تعليل إسقاط التاء من الفعل المؤنث الحقيقي عند بعض العرب « ومنهم أيضاً من يقول قام المرأة وجاء جاريتك فيكتفي بعلامة المؤنث عن علامة التأنيث في الفعل كما إكتفى بالتثنية والجمع عن علامتهما في الفعل وهذا في المؤنث من الحيوان قليل ردىء . . . » (١) .

ومن ذلك أيضاً قوله : « وإنما إمتنع إسقاط التاء من فعل المؤنث إذا ثنيت لأن التثنية أبداً مبنية على الواحد غير مغيرة للفظه فلم يجز قام المرأتان كما لم يجز قام المرأة ألا ترى إنك تقول رجل ورجلان وإمرأة وامرأتان وأما الجميع فقد يخالف الواحد في بنائه ويتغير عن حاله تقول رجل ورجال وغلام وغلمان » (٢) .

ذلك هو اتجاه الزبيدي فى التعليل وقد قلت التعليلات في كتابه قلة ملحوظة ، فهي لا تكاد تتجاوز ما ذكرت ، فلم يكن يميل الى ذكر العلة بل كان يكتفي بتقرير الحكم مجرداً من تعليله . ولا غرو فقد توخى أن يجعل كتابه في مستوى شداة لم تستحصد ملكاتهم ، ولم يبلغوا الشأو الذي يهيئهم لفهم النحو المتكىء على التعليل الفلسفي ، ولذا نحى الزبيدي العلل عن طريقهم ، حتى قيل في الكتاب انه « مفيد جداً » (٣) .

---

(١) مخطوطة الواضح : ١١١ .

(٢) نفسه : ١١١ .

(٣) شذرات الذهب : ٣ / ٩٤ .

٥ ـ موقفه من الخلاف :

حين استوطن العرب الاندلس بعـــد فتحها ، ولوا وجوههم شطر المشرق ، وقد كان مهبط العلماء والباحثين ، وموطن علوم شتى ، كان النحو واللغة أبرزها ، فلم يعد لأهل الاندلس بد من الرحلة الى المشرق لينهلوا من منابع العلم ، ويقتبسوا من الأئمة والشيوخ ، أو ليتوغلوا في بوادي الجزيرة ، فيلقوا الاعراب الاقحاح ، ويأخذوا عنهم .

وقد نشطت الرحلة الى المشرق منذ بداية القرن الثالث واصبحت ضرورة لازمة ، فتوافد الاندلسيون على حواضر العلم كالبصرة والكوفة وبغداد ، تحدوهم رغبات متباينة ، فمنهم من يؤثر الحديث وروايته ومنهم من يطلب الفقه ، ومنهم من تستأثر اللغة بميله ، وقـد يجمع بعضهم عدداً من هذه الفروع في تحصيله .

وكان الراحلون يؤوبون الى الاندلس بعـــد أن تطول اقامتهم في المشرق أو تقصر ، وقد حملوا معهم كتب المشارقة في اللغة والنحو ، بصريين وكوفيين ، وقد ذكر الزبيدي بعض اولئك الراحلين ، وذكر من أخذوا عنهم من الشيوخ والعلماء ، ومن أقدمهم جودى النحوى ، وقد لقي الكسائي والفراء (١) ، والغازي بن قيس وقد أدرك الاصمعي ونظراءه (٢) ، ومحمـد بن عبد الله بن سوار الذي لقي أبا حاتم والرياشي (٣) ، وقاسم بن اصبغ وقد لقي ابن قتيبة والمبرد وثعلبا (٤)

(١) طبقات الزبيدي : ٢٧٨ :

(٢) نفسه : ٢٧٧ :

(٣) نفسه : ٢٨٢ :

(٤) تاريخ ابن الفرضي : ١ / ٤٠٦ وما بعدها .

ومحمد بن عبد الله الذي تلمذ لأبي حاتم الرياشي (١) ، ومحمد بن عبد السلام الخشني وقد لقي المازني وأبا حاتم والرياشي (٢) ، والافشنيق الذي لقي أبا جعفر الدينوري والمازني وانتسخ عن الاول كتاب سيبويه وأخذه عن الثاني (٣) ، وأما منذر بن سعيد البلوطي فقد لقي ابن ولاد بمصر (٤) وروى عنه كتاب العين .

والذي يلاحظ العلماء الذين أخذ عنهم هؤلاء الراحلون ، يجد أنهم علماء المدرستين : البصرة والكوفة ، عدا ابن ولاد الذي يعد مصرياً ، والدينوري الذي قضى أكثر حياته في مصر .

ومن ذلك نرى أن الاندلسيين كانوا حملة علم المدرستين ، فقد تلمذوا لأعلامهما ، ونشروا فى الاندلس آراء زعيميهما الكبيرين سيبويه والكسائي ، فكان جودى النحوي أول من أدخل كتاب الكسائي ، ووضع « البغل » مؤلفاً في شرحه ، كما أن الافشنيق عاد إلى الاندلس بكتاب سيبويه ، بعد أن انتسخه عن نسخة أبي جعفر الدينورى ، وأخذه عن المازني ، وأما أبووهب بن عبد الرؤوف فقد طالع كتاب سيبويه ونظر فيه (٥) وكان الرباحي يتعاطى تدريسه .

والواقع أن تلامذة مدرسة البصرة كانوا ظاهرين على نظرائهم ، كما كان لكتاب سيبويه المكانة المقدسة بينهم ، فجدوا ، وتحملوا المشاق

---

(١) طبقات الزبيدي : ٢٨٩ .

(٢) نفسه : ٢٩٠ .

(٣) نفسه : ٣٠٥ .

(٤) نفسه : ٣١٩ .

(٥) نفسه : ٣٢١ .

والاخطار في ارتحالهم للمشرق للحصول على صورة منه (١) ، وقد كانوا كلفين به ، يتنافسون في فقه مسائله واستظهاره ، ويعقدون الحلقات للتناظر فيه ، ويؤلفون الكتب في شرحه والتعليق عليه ، وكان منهم من يختمه مرة كل خمسة عشر يوماً (٢) ، وأشار الزبيدي نفسه إلى مبلغ حرص أهل بلده على كتاب سيبويه ، ومدى اهتمامهم به ، حيث كان شغل بعضهم الشاغل ، فلا يكادون يفارقونه في حال صحة أو سقم (٣) ، بل كان الزبيدي نفسه معجبا بالكتاب ، يرمقـه بعين الاجلال والاكبار ، ويرى أن كل أوضاع النحاة بعده تكرار له ، واجترار لمسائله .

ولعل مما هيأ لمدرسة البصرة أن تكون اظهر من غريمتها في الاندلس وأوفر تلامذة وأتباعاً ، هو وفود القالي الذي كان بصرياً ، فمكن لآراء البصريين في تلك البيئة ، وأتاح لها أن تذيع ، ويبدو أنه كان يحتج لهذه الآراء وينافح عنها وينتصر لها .

أخلص من هذا إلى أن علماء الاندلس قـد عكفوا على كتب المدرستين ، فدرسوها ، واختاروا منها ، ولكنهم كانوا إلى المذهب البصري اميل (٤) ، ولم يكن منهم في عصر الزبيدي من عرف بمشايعة احدى المدرستين أو التعصب لها ، وانما كان منهجهم الاختيار من المذهبين ، وان كان اختيارهم من المذهب البصري أكثر من اختيارهم من المذهب الكوفي ، ولعل الاختيار من المدرستين ومزج المذهبين مع

(١) نشأة النحو : ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) الصلة : ١ / ٢٥٣ :

(٣) طبقات الزبيدي : ٣٢٤ :

(٤) من تاريخ النحو : ٩٧ .

اعطاء البصرة شيئاً من التفضيل والتقدير ، لم يكن سمة المنهج النحوي في الاندلس في عصر الزبيدي فقط ، بل ظل اساس منهجهم في جميع العصور .

لئن غلب النحو البصري على مؤلفات النحو في الاندلس في سائر العصور ، لم تغب عن مؤلفاتهم بعض مظاهر من النحو الكوفي ، اذ انهم خرجوا بعض مسائل النحو على هذا المذهب ، ورجحوا أقوال الكوفيين في مسائل أخرى .

وكان الزبيدي أقـــدم النحاة الاندلسيين الذين ألفوا في النحو كتاباً يجمع مسائله ، ويخوض في الكثير من أبوابه ، ولذا فان لكتابه قيمة كبيرة في تاريخ النحو في ذلك الصقع ، إذ أن جنوحه الى القياس على الكثير المتواتر ومذهبه في الاختيار من المدرستين مـع ميل واضح الى النحو البصري ، قـــد طبع النحو الاندلسي بطابع واضح ، ظل متوارثاً ، يسود مؤلفات القوم هناك ، حتى عصر ابن مالك وأبي حيان من بعده وهما اللذان وضح عندهما هذا الاتجاه الذي ينزع الى الاختيار من المدرستين .

فالزبيدي رأس المذهب الاندلسي في النحو ، ورائد كبير نهج النحاة بعده سبيله ، فلم يتقيد بأقوال البصريين ، ولم يلغ عقله بازائها بل رجح عليها أقوال الكوفيين في بعض المسائل حين رأى الرواية الموثوقة تؤيدهم ، وتعزز آراءهم ، ولم يمنعه اعجابه بسيبويه ، واكباره لكتابه ، من ان يخالفه ، ويزن آراءه بميزان النقد ويؤلف في الاستدراك عليه ونقده ، والنص على مواطن سهوه وغلطه وتناقضه . وهكذا بدأت شخصية الاندلس تتألق وتظهر على يدي الزبيدي ، وبات لمؤلفات اللغة والنحو طابعها الذي يتميز بالاجتهاد والأخذ من المذهبين .

ما وافق فيه الكوفيين

آ ـ أي :

تأتي بمعنى الاسم الموصول « الذي » فتكون مبنية نحو « لننزعن من كل شيعة أيُّهم أشد » والتقدير الذي هو أشد ، وقد ذهب إلى ذلك سيبويه ، وخالفه الكوفيون وجماعة من البصريين (لأنهم يرون أن أيا الموصولة معربة دائماً كالشرطية والاستفهامية) . قال الزجاج : (ما تبين لي أن سيبويه غلط الا في موضعين ، هذا أحدهما ، فانه يسلم أنها تعرب اذا أفردت فكيف يقول ببنائها اذا اضيفت ؟ وقال الجرمي : خرجت من البصرة ، فلم اسمع منذ فارقت الخندق إلى مكة احدا ، يقول لأضربن أيُّهم قائم بالضم) (١) .

وذهب الزبيدي في هذه المسألة الى قول الكوفيين فقال ان (أى) معربة دائما موصولة او شرطية او استفهامية (فقس مسايل (أى) و (ما) على ما أوضحت لك في مسائل « من » واحملها على ذلك في الخبر والاستفهام والجزاء الا أن أيا معربة و (من) و (ما) فيه معربتين) (٢) .

(١) المغني : ١ / ٧٧ .

(٢) مخطوطة الواضح : ٨٦ .

ب ـ إنْ المخففة :

ذهب الزبيدى إلى عــدم اعمال (إنْ) « المخففة من الثقيلة بشرط أن يلزم لام التوكيد خبرها » يقول (وتقول ان زيد لمنطلق ، إنْ حرف تأكيد ، زيد ابتداء ، ومنطلق خــبر الابتداء ، واللام لام التوكيد ، وهي لازمة لخبر ان اذا خففت ، ان رفعت مابعدها ، ومثله أن أبوك لقاعد) (١) .

وهو بذلك يوافق الكوفيين الذين ذهبوا (إلى أن (إنْ) المخففة من الثقيلة لا تعمل النصب في الاسم) (٢) فخالفوا البصريين الذين يذهبون (الى أنها تعمل) (٣) .

ج ـ فعل الأمر مبني أم معرب ؟ :

يذهب الزبيدي إلى أن الأمر فعل معرب ، وان السكون في آخره علامة جزم لا حركة بنـاء ، يقول (ومما يجزم الافعال أيضاً الامر والنهي تقول في الامر اذا خاطبت مذكراً (اسمع) اسمع ، جزم بالامر وفيه ضمير الفاعل المخاطب ، كأنه قال : اسمع أنت ، ومثله : انطلق واخرج ، تكلم ، اضرب زيداً : اضرب جزم بالأمر ، وزيداً مفعول به ، والفاعل مضمر في اضرب كأنه قال : اضرب انت

---

(١) مخطوطة الواضح : ٢٣ .

(٢) الانصاف : ١ / ١٢٣ .

(٣) نفسه : ١ / ١٢٣ .

زيداً) (١) .

وأما اذا اردت أمر الغائب قلت (ليقم زيد ، يقم جزم بالأمر وزيد فاعل) : والزبيدي هنا يختار رأي الكوفيين الذين يقولون (ان فعل الأمر للمواجه المعرى من حروف المضارعة نحو افعل معرب مجزوم) أما البصريون فقد ذهبوا (الى أنه مبني على السكون) (٢) :

د ـ حاشى : حرف أم فعل :

وهذه مسألة من المسائل الخلافية أيضاً ، فقد (ذهب الكوفيون الىأن حاشى فيالاستثناء فعل ماض ، وذهب بعضهم الىأنه فعل استعمل استعمال الادوات ، وذهب البصريون الى انه حرف جر ، وذهب أبوالعباس المبرد الى انه يكون فعلا ويكون حرفاً) (٣) . واحتج الكوفيون لرأيهم بأن قالوا (الدليل على أنه فعل أنه يتصرف ، والدليل على أنه يتصرف قول النابغة :

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه وما أحاشي من الاقوام من احد) (٤)

واحتج البصريون على حرفيته بعدم دخول (ما) عليه (فلا يقال ما حاشى زيدا كما يقال ما خلا زيدا وما عدا عمرا) (٥) فالتزم لذلك سيبويه واكثر البصريين حرفيتها ولم يجيزوا النصب (٦) :

---

(١) مخطوطة الواضح : ٢٧ .

(٢) الانصاف : ٢ / ٣٠٣ .

(٣) نفسه : ١ / ١٧٨ .

(٤) نفسه ١ / ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٥) نفسه : ١ / ١٧٩ .

(٦) الاشموني : ١ / ٢٣٩

أما الزبيدي فقد عرض كلا القولين ، ولكنه رجح قول الكوفيين واستحسن النصب بحاشى ، واعتل بعلتهم ، فقد رأى ان حاشى اقرب الى الفعلية بدليل تصرفها (والنصب في خلا وحاشى أحسن لأن الفعل أملأ لهما ألا ترى انك تقول : حاشى يحاشي ، وخلا يخلو) (١) .

هـ - نواصب المضارع :

ذهب الزبيدي الى ان الحروف (حتى ، الفاء ، لام التعليل ، ولام الجحود) تنصب المضارع من غير تقدير (أن) بعدها ، وذلك رأى الكوفيين (٢) ، اما البصريون فقد ذهبوا الى ان الفعل بعدها منصوب بتقدير أن :

واما (فاء) السببية فيرى الزبيدي أنها تنصب الفعل بنفسها ، وهو رأى بعض الكوفيين ايضاً (٣) ، ويرى البصريون ان الفعل بعدها ينتصب باضمار أن .

و - وزن (اشياء) :

وجد النحاة (أشياء) ممنوعة من الصرف لغير علة ، فاختلفوا فيها ، فذهب الخليل وسيبويه ، وتابعهما البصريون ، الى أن وزنها (لَفْعَاء) والاصل فيها (شيئاء) على وزن (فَعْلاء) كحمراء

(١) مخطوطة الواضح : ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) مخطوطة الواضح : ٢٩ والاشموني : ٣ / ٥٦٠ .

(٣) الاشموني : ٣ / ٥٦٥ ومخطوطة الواضح : ٦٥ .

والالف فيها على هذا للتأنيث ، وذلك سبب عدم صرفها و (شيئاء) كـ (طرفاء) اسم مفرد معناه الجمع وليس بجمع .

وقد عرض لـ (شيئاء) قلب ، ذلك لانهم استثقلوا اجتماع همزتين ، بينهما حاجز ضعيف ، وهو (الألف) ، فقدموا (الهمزة) التي هي (لام) الكلمة ، على (الشين) التي هي (فاؤها) ، فصار وزنها (لفعاء) .

ومما استدلوا به على أن (أشياء) : (لفعاء) واصلها (شيئاء) (فعلاء) انها سمعت مجموعة على (اشاوى) كما يجمع (صحراء) على (صَحَارَى) واصلها (اشايا) فابدلوا من (الياء) (واوا) كما ابدلوا في قولهم (جبيت الخراج جباوة ، وأتيته أتوة والاصل فيه جباية وأتية) (١) .

وذهب فريق من الكوفيين ، وعلى رأسهم الكسائي ، الى أن (أشياء) (افعَال)) جمع (شيء) و (شيء) على وزن (فَعْل) ، و (فَعْل) يجمع فى المعتل (العين) على (أفْعَال) نحو (بيت وأبيات) و (سيف وأسياف) . الا انها منعت الصرف تشبيها لها بما في آخره همزة التأنيث .

واستدلوا على ان (اشياء) جمع وليس بمفرد كطرفاء ، بقولهم ثلاثة اشياء ، والثلاثة وما بعدها الى العشرة يضاف الى الجمع ، لا الى المفرد ، ولو كانت كطرفاء مؤنثة ، لما جاز التذكير ، وكان يجب أن يقال ثلاث أشياء (٢) .

---

(١) الانصاف : المسألة (١١٨) وانظر المقتضب : ١ / ٣٠ ، ٣١ والمنصف : ٢ / ٩٤ وما بعدها والممتع : ٢ / ٥١٣ وغير ذلك .

(٢) الانصاف : (المسألة ١١٨) .

وذهب الزبيدي مذهب الكسائي هذا ، فقال (ومما جاء على مثال (افعال) مما ليست ألفه الف تأنيث فهو مصروف بوجوه الاعراب نحو افياء واحياء وابناء تقول : مررت بابناء لك ، وقعدت تحت افياء ظليلة الا ان العرب تركت صرف حرف واحد من هذا الباب وهو (اشياء) توهمت (الفه) الف تأنيث فلم تصرفه تقول : بعثت بأشياء حسانٍ ورأيت منك اشياءَ اعجبتني وكان حق هذا ان ينصرف لأن (اشياء) افعال وهي جمع (شيء)) (١) .

وللفراء مذهب آخر في (اشياء) ، فهي عنده (افْعَاء) واصلها (اشيئاء) على وزن (افْعِلاء) فحذفت الهمزة التي هي (لام) وانفتحت الياء لاجل الالف (٢) .

ز ـ الرباعي المضاف :

يرى الكوفيون ان (زلزل) و (صرصر) ونحوهما من الرباعي المضعف ، ليست افعالا رباعية ، وانما هي من الثلاثي المضعف ، ويذهبون الى انها مشتقة من (زلّ) و (صرّ) فكرهوا اتصال التضعيف فحالوا بينه بحرف مثل (فاء) الفعل ، فقالوا (زلزل) و (صرصر) ، وهما لذلك على وزن (فَعْفَلَ) .

أما البصريون فيرون ان هذه الافعال هي من الرباعي المجرد ووزنها هو (فَعْلَلَ) ، وذلك لأنه لا يفصل بين الحرفين المكررين

(١) مخطوطة الواضح : ٩٧ .

(٢) الممتع : ٢ / ٥١٣ .

بحرف اصلي (١) ،

وقد أخذ الزبيدي بمقالة الكوفيين ، وذهب مذهبهم ، فقال (الكوفيون ومن نحا نحوهم من البغداديين يجعلون هذا - يعني كفكفت وزلزلت - من الثلاثي ، وأصله عندهم كففت وزللت ، فكرهوا اتصال الضعيف فحالوا بينه بحرف مثل (فاء) الفعل وقولهم عندي أولى بالصواب لاطراد مقالتهم ، وصحة الاشتقاق لمذهبهم .

ألا ترى ان قولك (كفكفت) في معنى (كففت) و (حلحلت) في معنى (حللت)) (٢) .

ح - أيْمُن :

ذهب الكوفيون الى أن قولهم في القسم (أيمن الله) جمع يمين وذهب البصريون إلى أنه ليس جمع (يمين) ، وانه اسم مفرد مشتق من (اليُمْن) .

واستدل الكوفيون على رأيهم بأن (أيمن) على وزن (أفعُل) وهو وزن يختص به الجمع ، وقد وردت (أيمن) جمعاً لـ (يمين) في الشعر الذي يحتج به . واما الهمزة في (ايمن) فهي همزة وصل وقد وصلت استخفافاً لكثرة الاستعمال .

واحتج البصريون لرأيهم فقالوا : (انما قلنا انه مفرد وليس بجمع (يمين) لأنه لو كان جمع (يمين) اوجب أن تكون همزته همزة قطع ، فلما وجب ان تكون همزته همزة وصل دل على أنه ليس بجمع

---

(١) شرح الرضي على الشافية : ٢ / ٣٦٧ والاستدراك : ٤٠ .

(٢) الاستدراك : ٤٠ ولحن العوام ١٣٧ :

(يمين) ، واستدلوا على رأيهم ايضاً بقولهم (مُ الله) بدلا من (ايمن الله) (ولو كان جمعاً لما جاز حذف جميع حروفه الا حرفاً واحداً ، إذ لانظير له في كلامهم) (١) .

واختار الزبيدي رأى الكوفيين فقال (ومما يقسم به قولهم (ايمن الله) لأفعلن ، فأيمن ابتداء ، والخبر مضمر كأنه قال ايمن الله قسمي ، وهي جمع يمين) (٢) .

تلك هي مسائل اختلف فيها البصريون والكوفيون ، وقد رأينا الزبيدى فيها بجانب الكوفيين ، يؤيدهم ، ويأخذ بمقالتهم ، ولم يرد فى كتابه من الآراء الكوفية غير ما ذكرته وهي - وان كانت قليلة - تؤيد جمعه بين المذهبين ، واختياره منهما :

وقد وردت فى كتابه مسائل خلافية اخرى ، مال فيها إلى رأي البصريين ، وهي اكثر من تلك التي وافق فيها نحاة الكوفة .

---

(١) الانصاف : (المسألة ٥٩) .

(٢) مخطوطة الواضح : ١٠٨ .

٦ - اثر كتاب سيبويه فى « الواضح »

لقي كتاب سيبويه عناية كبيرة من الدارسين في الاندلس ، وحظي منهم باهتمام زائد ، فأقبلوا عليه ، يتدارسونه ، ويعقدون الحلقات للتناظر فيه ، والنفاذ إلى اسراره ، وكان منهم من لا يفارقه في حالة صحته او سقمه .

وكان ابو بكر الزبيدي مثل قومه في شغفه بالكتاب ، وعكوفه على مدارسته ، وقد عبر عن فرط اعجابه به ، وقَدْرِه مؤلفَه بقوله (اما بعد فاني رأيت علماء النحو في زماننا هذا ، وما قاربه ، قد اكثروا التأليف فيه ، واطالوا القول على معانيه ، فأملوا الناظرين ، وأتعبوا الطالبين ، بتكرار معان قد بينت ، وركوب أساليب قد نهجت ، فلم يخل اكثرهم بغير اعادة ما تقدم إليه ، والتكثير فيما سبق إلى القول عليه ، وقد كان ينبغي لمن هم بذلك منهم أن يتصفح كتاب عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه ، فينظر الى مبادىء كتابه ، وعنوانات أبوابه ولطائف معانيه ، ودقائق حجاجه ، إلى الايجاز في قوله ، والايعاب لمراده ، فيزجره ذلك ان كان ذا حجى ، عن تكلف مالا حاجة إليه ويمنعه الاعتناء بمالا معول عليه) (١) .

وإذا كان هذا رأى الزبيدي فى كتاب سيبويه ، فقد كان طبيعياً أن يرجع إليه ، ويتأثر به ، شأنه في ذلك شأن غيره من النحاة .

ويتضح مدى تأثر كتاب الزبيدي بكتاب سيبويه في ناحيتين :

١ - التبويب : اتبع الزبيدي طريقة سيبويه في معالجة كثير من موضوعات كتابه وجاراه في تبويبها ، وتجزئة كل منها الى مباحث ،

---

(١) الاستدراك : ١ .

ثم توزيع تلك المباحث على الفصول ، على نحو ما فعل سيبويه حين عرض لتلك الموضوعات ، فجزأها الى مباحث ، ثم عرض لكل مبحث في باب خاص .

ويظهر ذلك في أبواب كثيرة من كتاب الزبيدي ، كباب (النداء) و (الاستثناء) و (لا) النافية للجنس ، و (الممنوع من الصرف) و (الادغام) .

وتقابلك في كتاب الزبيدي أبواب . تجـد لها نظائر في كتاب سيبويه ، كباب (حتى) وباب (أم وأو) وباب (الفـاء) وباب (كم) وباب (ويح وويل وويس) وباب (الحكاية) .

ومما يدل على تأثر الزبيدي بكتـاب سيبويه ، أنه ضمن آخر كتابه فصولا موجزة عقدها لأبنية الاسماء ، وما يعرض لها من الزيادة وهذه من مباحث (الكتاب) وموضوعاته .

كما ان الزبيدي اتبع طريقة سيبويه في معالجة موضوع (الادغام) فمهد له بكلام على مخارج الحروف ، واحيازها ، وصفاتهـا ، ناقلا ذلك بايجاز عن كتاب سيبويه ، أو عن الكتب التي تأثرت به ، ونقلت منه .

٢ ـ كثرة ما ضمه كتـاب الزبيدي من آراء سيبويه ، ومن تبعه من جمهور البصريين ، بل ان الكتاب في جملته يمثل نحو البصريين ، ويذهب مذاهبهم ، وليس فيه من نحو الكوفة غير تلك المسائل القليلة التي ابنتها ، ونصصت عليها .

والذي يوازن بين موضوعات الزبيدي كالنداء والاستثناء ولا النافية للجنس ، وأفعال الشك من حيث الالغاء والاعمال ، والممنوع من الصرف ، و (حتى) وغيرها ، وبين ما جاء عن هـذه الموضوعات في

كتاب سيبويه يدرك ان الزبيدي كان يسير فى ركب (الكتاب) ، ويقفو خطى مؤلفه ، سواء أكان ذلك في الآراء ، أم فى تنظيم الموضوع وتجزئته إلى عناصره ، ويدرك ايضاً ان الزبيدي كان يذلل صعاب كتاب سيبويه ، ويقربه من المبتدئين ، ويحذف منه مالا يتفق مع مداركهم .

ملاحظات عامة

١ ـ لم يكن الزبيدي دقيقاً فى كلامه على مصدر (فَعِل ـ يفعَل) المنقوص ، وكان كلامه بحاجة الى قيود تهب له الدقة ، وتخرج منه ما ليس مندرجاً تحته . قال الزبيدي (وما كان من المنقوص مصدراً لفعِل ـ يفعَل ، فهو مقصور ، كالعمَى والعشَى لأن فعله عَمِي يعمَى عمى ، وعَشِيَ يعشَى عشى) (١) .

وليس المصدر من كل منقوص على وزن (فَعِل ـ يفعَل) يجيء مقصوراً ، وقد كان ابن الحاجب أدق فى كلامه حين قال (والمصدر من فعل فهو أفعل أو فعلان أو فعل كالعشى والطوى والصدى) (٢) فاحترز بقيد ، وهو ان يجيء الوصف من هذا الفعل على احد ثلاثة اوجه هي افعل ، وفعلان ، وفَعِل ، ومالم يجيء منه الوصف على ذلك ، فان مصدره لا يكون مقصوراً ، مثل (فني يفنى) ومصدره (فناء) .

واعترض الرضي على ابن الحاجب فقال (وليس كل مصدر من فعل الناقص الذي نعته على أحد الثلاثة الاوجه بمقصور ألا ترى

(١) مخطوطة الواضح : ١٥٤ :

(٢) شرح الشافية : ٢ / ٣٢٥ .

الى قولهم خزى يخزى خزياً فهو خزيان وروى يروى ريا فهو ريان) (١).

٢ - ذهب الزبيدي في باب (الممنوع من الصرف) إلى أن ما سمي به من الافعال ، وكان له نظير في الاسماء لم يمنع من الصرف نحو رجل سميته بـ (ضَرَبَ) و (خَرَجَ) فان الاسماء ماهو على وزن (فَعَلَ) مثل حَجَرَ وجمل :

وأمـا اذا لم يكن له نظير في الاسماء فانه يمنع من الصرف ، بحو رجل سميته بضُرِب وقُتِل (٢) .

وقد ناقض الزبيدي نفسه ، حين ذهب هنـــا ، أنه ليس في الاسماء ما هو على مثال (فُعِل) ، ففي كتابه (ابنيـــة الاسماء والأفعال) أن من الاسماء ماهو على وزن (فُعِل) كالدُئِل ورُئِم (٣) .

٣ - يرى أن كلا من الحروف (الباء واللام والكاف) هو حرف جر زائد ، فيقول (وحدثت بالخبر عن أبيك : حدثت : فعل وفاعل . بالخبر : خفض بالباء الزائدة . وعن : حرف يخفض . وابيك خفض بمن) . ويقول (ونقول : جلست للقوم : القوم : خفض باللام الزائدة . وصرت كأبيك : أبيك خفض بالكاف الزائدة) (٤) .

والحرف الزائد هو حرف طارىء ، بوسع المتكلم الاستغناء عنه ، واسقاطه ، ان لم يرد توكيد كلامه ، واكسابه فضل قوة ، ولا تزاد هذه الأحرف (اعني الباء والكاف) إلا فى مواضع ذكرها النحاة ،

(١) شرح الشافية : ٢ / ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٢) مخطوطة الواضح : ١٠٧ .

(٣) الاستدراك : ٦ .

(٤) مخطوطة الواضح : ١٠ .

ومثلوا لها ، وليست الأمثلة التي ذكرها الزبيدي ، مما يمثل به لزيادة هذه الاحرف :

جاء في المغني أن للكاف (خمسة معان . . . والخامس التوكيد وهي الزائدة ، نحو : ليس كمثله شيء) (١) .

وجاء عن الباء (انها) حرف جر لاربعة عشر معنى . . . الرابع عشر : التوكيد وهي الزائدة ، وزيادتها في ستة مواضع) (٢) .

فزيادة الحرف اذن تأتي لمعنى هو التوكيد ، وقد شذ مجيء (الباء) زائدة لغير التوكيد في نحو (افعل به) فقد زيدت هنا في الفاعل ليصير على صورة المفعول به (كأمرر بزيد) ، لقبح اسناد صيغة الامر الى الاسم الظاهر (٣) .

وإذا كان الامر كذلك فلا وجه لذهاب الزبيدي إلى أن (الباء) و (اللام) و (الكاف) هي حروف زائدة مطلقاً ، حيث وردت ، وفي أي موضع جاءت ، كما يفهم من قوله .

٤ ـ والزبيدي لا يقول بتعدى الفعل الى ثلاثة مفاعيل ، فهو يرى أن الفعل يتعدى الى مفعول والى مفعولين ، وإلى الظرف والجار والمجرور ، أو إلى المصدر ، ولا يذكر شيئاً عن الافعال التي تنصب ثلاثة مفاعيل .

ولعله فى ذلك يشير إلى عدم قناعته بتعدى الفعل إلى ثلاثة مفاعيل ، وهي مسألة لم يقبلها بعض الباحثين ، ووقف منها موقف الشك .

---

(١) المغني : ١ / ١٧٩ .

(٢) نفسه : ١ / ١٠٦ .

(٣) الاشموني : ٢ / ٣٦٩ .

قال استاذنا الدكتور ابراهيم السامرائي : (والذي أراه أن الاصل في الفعل لازم ، ثم يصار من اللزوم إلى التعدي ، وذلك بحذف حرف الجر ، وقولهم منصوب بنزع الخافض ، شيء يؤيد هذا ، نحو قوله تعالى (واختار موسى قومَه سبعين رجلا) ومثل هذا نستطيع أن نقول : ان المفعول الأول لـ (اعطى) بتقدير حرف ، ثم سقط الحرف في الاستعمال فانتصب فان قولنا : (اعطيت زيدا درهما) يعني (اعطيت درهما الى زيد) .

وعلى هذا فلا يمكن أن تكون قوة الفعل ناصبة لثلاثة مفاعيل ذلك اننا وجدنا الفعـــل (اعطى) ينصب المفعولين على النحو الذي شرحناه ، فكيف يتسع الفعل للمفاعيل الثلاثة .

واكبر الظن أن قولهم : أعلمت عمراً زيدا منطلقاً من الأمثلة التي صنعها النحويون ، ولم نجد (أعْلَمَ) واخواته تنصب ثلاثة مفاعيل في نصوص فصيحة معروفة) (١) .

٥ - نهج الزبيدي في كتابه نهجاً تعليمياً ، فكان يعرب الامثلة التي يأتي بها لايضاح القواعد ، وكان قلما يترك اعرابها ، ولكن اعرابه كان موجزاً وجازة مخلة ، وقد وقع في الذي حذر ابن هشام المعربين الوقوع فيـــه ، وذلك في باب (التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين) .

وسأعرض هنا أمثلة من اعراب الزبيدي ، واشفعها بالردود التي أثارها ابن هشام على مثل ذلك الاعراب :

نائب الفاعل : يقول الزبيدي في اعرابه (تقول : ضُرِبَ زيد ضُرِب : فعلماض ، وزيد : مرفوع لانه مفعول لم يسم فاعله ، فقام

---

(١) النحو العربي : ٩٠ .

مقام الفاعل) (١) ، وقد حذر ابن هشام من هذه العبارة لأنها تصدق على المنصوب فى نحو (أعطيَ زيد ديناراً) فهو مفعول لم يسم فاعله أيضاً ، ويرى أن عبارة (نائب فاعل) لا تصدق الا على المرفوع في مثل هذه التراكيب ، كما يؤمن معها اللبس) (٢) .

الجر بالاضافة :

يذهب الزبيدي الى أن الخفض يكون بالحروف والظروف والاسماء وان الاسماء التي تلي هذه الكلمات تكون مخفوضة بها لا بالاضافة ، تقول : (جلست أمام بكر) فبكر خفضت بالظرف قبلها ، وتقول (أبصرت مثل أبيك) فأبيك خفضت بمثل .

أما ابن هشام فيرى ان الاسم يجر بالاضافة في نحو (جلست أمام زيد) ويقول (قولهم في نحو جلست أمام زيد أن زيداً مخفوض بالظرف والصواب أن يقال مخفوض بالاضافة فانه لا مدخل فى الخفض لخصوصية كون المضاف ظرفاً) (٣) :

المضارع المجزوم في جواب الطلب :

على الرغم من أن الزبيدى يذهب إلى أن عامل الجزم فيه هو شرط مقدر تضمنه الطلب السابق عليه فانه يقول في اعراب (نكلمْك)

(١) مخطوطة الواضح : ٨

(١) المغني : ٢ / ٦٦٤ .

(٣) نفسه : ٢ / ٦٦٤ .

في نحو (اجلس معنا نكلمْك) أنه جواب الأمر ، ويرى ابن هشام ان الصحيح أن يقال (انه جواب لشرط مقـــدر) ويعلل اختيار المعربين لعبارة الزبيدي بأنهم أرادوا تقريب المسافة على المتعلمين (١) .

الموصول الحرفى :

يذهب ابن هشام في اعراب نحو (أعجبني أن قمت) إلى أن (الموصول وصلته في موضع كذا لأن الموصول حرف فلا اعراب له لا لفظاً ولا محلا) (٢) .

وأما الزبيدي فانه يعرب الموصول الحرفي اعرابه الأسماء وينعته بالفاعلية أو المفعولية أو الابتداء ، يقول (واعلم أن أنْ الخفيفة المفتوحة الأول توصل بالفعل فيكون مجراها مع صلتها مجرى الاسم التام تقول : أردت أن تقوم ، فأنْ اسم فى موضع نصب لانها مفعول به ، وتقوم من صلة أن ، وهو مع الصلة اسم تام كأنه قال أردت قيامك ، وكذلك تقول : أن تقعد خير لك ، فان اسم مبتدأ ، وتقعد من صلته ، كأنك قلت القعود خير لك ، فقس على هذا) (٣) .

الفاء الواقعة في جواب الشرط :

يذهب الزبيدي إلى أنَّ جواب (المجازاة) أو الشرط لايكون إلا بالفعل اوبالفاء ، كقولك : إن تأتني فأنا شاكر ، فالفاء جواب الشرط

---

(١) المغني : ٢ / ٦٥٣ .

(٢) نفسه : ٢ / ٤١٠ .

(٣) مخطوطة الواضح : ٨٤ .

وأنا ابتداء وشاكر خبر الابتداء (١) .

ويحذر ابن هشام من اعراب الفاء على هـذا النحو ، ويرى ان الفاء ليست جواب الشرط ، وانما هي داخلة عليـه ، أو رابطة له ، وأما الجواب فهو الجملة (٢) :

نعت اسم الاشارة :

جاء في شرح الاشموني على الألفية (من الاسماء ما ينعت وينعت به كاسم الاشارة نحو مررت بزيد هذا ، وبهذ العالم ، ونعته مصحوب أل خاصة فان كان جامداً محضاً نحو بهذا الرجل ، فهو عطف بيان على الاصح) (٣) .

وأما الزبيدي فقـــد ذهب إلى أن اسم الاشارة ينعت بالجامد ولذلك فقد اعرب (كيف ذلك الرجلُ) بقوله (كيف سؤال عن حال ، وذا اسم مشار إليـــه وهو مرفوع بالابتداء وخبره في كيف ، والكاف علامة المخاطب ، ولاحظ لهـا من الاعراب ، والرجل نعت لذا) (٤) . وقد مر بنا أنه اعرب (الرجل) نعتاً لـ (اى) المناداة في قولك (يا أيُّها الرجلُ) .

---

(١) مخطوطة الواضح : ٦٣ .

(٢) المغني : ٢ / ٦٥٢ .

(٣) الاشموني : ٢ / ٤٠٢ .

(٤) مخطوطة الواضح : ٩٣ .

ياء المخاطبة :

يذهب الزبيدي إلى أن (ياء المخاطبة) مجرد علامة تأنيث وليست ضميراً يعرب فاعلا . فيقول (وتقول للمرأة اضربي عمرا : اضربي جزم بالأمر وجزمه بطرح النون من تضربين والياء علامة التأنيث وعمرا مفعول به وفى أضربي ضمير الفاعلة كأنه قال اضربي أنت عمرا) (١) .

٦ - وقد وقعت في الكتاب آراء يبدو أنه سبق المغاربة والاندلسيين إلى اختيارها ، اذ لم تأت عن غيره ممن تقدمه من الاندلسيين . بدليل أن الباحثين عزوها إلى نحاة متأخرين عنه ، وكان الانصاف أن تنسب اليه ، فهو أول من قال بها في الاندلس ، ولكن شهرة الزبيدى في اللغة قد طغت على شهرته فى النحو ، وكتبه اللغوية المتعددة أخملت الكتاب الوحيد الذي تركه فيه ، فما عرفه الا القليلون ولم يشر اليه النحاة بعده ، وقد أحصى ابن خير عدد الذين عرفوا (الواضح) ودرسوه فكانوا قليلين اذا قيسوا بالذين اهتموا بكتاب (لحن العامة) أو (مختصر العين) وغيرهما ، وليس لدينا ما نثبت به أن الذين قالوا ببعض اختياراته النحوية قد أخذوها عنه ولم ينسبوها اليه ، فقد يكون الأمر كذلك ، وقد يكون من باب توارد الخواطر ، ولكن في النفس ميلا للقول الأول ، لأن الذين قالوا بتلك الآراء أندلسيون . وأما ما ورد فى كتب النحو منسوباً لغير أبي بكر ممن تأخر عنه فهو :

---

(١) مخطوطة الواضح : ٢٨ .

الرفع بـ (حتى) :

ذهب الزبيدي إلى أن (حتى) قد تنصب الافعال المستقبلة من وجهين : أحدهما أن تكون بمعنى الغاية وتؤول بمعنى (إلى أن) في مثل قولك (سرت حتى أدخلَ الدار) والثاني أن تأتي بمعنى (كي) فتفيد التعليل . وقد ترفع المضارع بعدها من وجهين أيضاً (فأما أحد وجهي الرفع فقولك : سرت حتى أدخلُ الدار ، فحتى هنا عاطفة مثل الفاء لأنك تريد سرت فدخلت الدار أي كان مني سير فدخول متصل ومثله خرجت حتى أكلم زيداً

والوجه الثاني من الرفع أن تقول سرت حتى أدخلُ الدار أي سرت فأنا الآن في حال دخول وذلك اذا لم ترد اتصال الدخول بالسير فقس على هذا) (١) .

نلاحظ من ذلك أن الزبيدي عطف الجمل بـ (حتى) وقد ذهب ابن هشام إلى أن حتى (لا تعطف الجمل ذلك لأن شرط معطوفها أن يكون جزءا مما قبله أو كجزء منه ، وذلك لا يتأتى إلا في المفردات (يريد الاسماء)) (٢) .

ثم ينسب ابن هشام رأى الزبيدي في عطف (حتى) للجمل الى ابن السيد البطليوسي ، فقال : (وزعم ابن السيد في قول امرىء القيس :

سريت بهم حتى تكلُّ مطيهم وحتى الجياد ما يُقَدْنَ بأرسان

---

(١) مخطوطة الواضح : ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) المغني : ١ / ١٢٧ .

فيمن رفع (تكل) أن جملة تكل مطيهم معطوفة بحق على سريت بهم) (١) ، وكان الحق أن يعزى الرأي للزبيدي فهو سابق لابن السيد ولكن جهل ابن هشام بكتابه وعدم اطلاعه عليه ، دفعه إلى ذلك .

انتصاب (غير) في الاستثناء :

يفهم من كلام ابن هشام على انتصاب (غير) في الاستثناء عن تمام الكلام أن ابن عصفور أول من اختاره من نحاة المغرب وفات ابن هشام - بسبب جهله بكتاب الواضح - أن الزبيدي قد اختاره قبل ابن عصفور ، يقول ابن هشام : (وانتصاب غير في الاستثناء عن تمام الكلام عند المغاربة كانتصاب الاسم بعد الا عندهم واختاره ابن عصفور ، وعلى الحالية عند الفارسي واختاره ابن مالك ، وعلى التشبيه بظرف المكان عند جماعة واختاره ابن الباذش) (٢) .

أما الزبيدي فيقول : (فأما غير اذا استثنيت بها فانك تخفض أيضاً ما بعدها ولكنك تعربها اعراب الاسم الذي يكون بعد (إلا) في الاستثناء ، تقول جاء أصحابُك غيرَ زيد . . . تنصب غير بالاستثناء كما نصبت الاسم الذي بعد (الا) في قولك : جاء أصحابك إلا زيداً) (٣) .

---

(١) المغني : ١ / ١٢٧ .
(٢) نفسه : ١ / ١٥٩ .
(٣) مخطوطة الواضح : ٤٧ .

الفصل الثاني

كتاب « ابنية الاسماء والافعال »

الأبنية جمع بناء ، والمراد به هيأة الكلمة أو صيغتها التي وضعت عليها ، والتي يمكن أن يشاركها فيها غيرها . وهذه الهيأة هو ماتشترك فيه الكلمات من حيث عدد الحروف ، وترتيبها ، وحركاتها وسكناتها ، وما فيها من الحروف الاصلية والزائدة ، كل في موضعه . فكلمة (رجل) مثلا على هيأة يمكن أن يشاركها فيها غيرها مثل (عَضُد) و(سَبُع) والفعل (كَرُم) ، فكلها على ثلاثة أحرف أصليـــة أولها مفتوح وثانيها مضموم . وتسمى هذه الهيأة (بناء) أو (بنية) أو (وزنا) أو (زنة) (١) .

والأبنية تشمل الأسماء المتمكنة ، والافعال المتصرفة ، ولا تدخل فيها الحروف ، لأنها قوالب ثابتة ، لا يدخلها التغير ، ولا يعرض لهـا التصريف ، ولا تخضع لبناء خاص ، وكذا الافعال الجامدة ، وما أشبه الحروف من الأسماء العريقة في البنــاء كالضمائر وأسماء الاشارة ، والأسماء الموصولة ، وأسماء الشرط ، والاستفهام ، وأسماء الأفعال (٢) .

---

(١) أبنية الصرف (خديجة الحديثي) : ١٧ ، وشرح الرضي على الشافية : ١ / ٢ .

(٢) تصريف الاسماء : ٤ .

وأبنية الاسماء والافعال من الموضوعات التي تدرس في علم الصرف ذلك لأن ميدان هذا العلم هو الاسماء المتمكنة ، والأفعال المتصرفة ، يبحثها من حيث تغير صياغتها ، واختلاف هيئاتها لافادة المعاني المختلفة ومن حيث مايعرض لها من صحة واعلال ، وحذف وزيادة ، وابدال وقلب وادغام ونحوها .

ولما كان الصرف يبحث في الكلمه المفردة ، وما يتعاور بناءها من الطوارىء ، فقد كان المعقول أن تقدم المعرفة به ، والتفقه فيه ، على تعلم النحو ودراسته ، لأن النحو يبحث في الكلمة بعد أن تتآخى مع غيرها في تركيب ، وتتآلف مع سواها في جملة ، فيراقب ما يعرض لها بسبب هذا التآلف من تغيير يتصل بحركة آخرها أو بتقديمها وتأخيرها ، حذفها أو ذكرها ، اضمارها أو التصريح بها ، إلى غير ذلك من أحوال انصرف علم النحو الى الكشف عنها ، ووضع ضوابطها .

وقد تنبه الدارسون القدامى الى ضرورة تقديم الصرف على النحو إلا ان الذي حال دون ذلك ، صعوبة علم الصرف ولطفه ، ومشقة الالمام به على المبتدئين ، قال ابن عصفور (وقد كان ينبغي أن يقدم علم التصريف على غيره من علوم العربية ، إذ هو معرفة ذوات الكلم في أنفسها من غير تركيب ، ومعرفة الشيء في نفسه قبل أن يتركب ينبغي أن تكون مقدمة على معرفة أحواله التي تكون له بعد التركيب ، الا أنه أخر للطفه ، ودقته) (١) .

من هذا العرض الموجز ، لطبيعة علم الصرف ، ووظيفته ، يتضح لنا ان كتاب الزبيدي الموسوم بـ (أبنية الأسماء والأفعال) هو كتاب يتنازعه طابعان : الأول صرفي ، والثاني لغوي .

---

(١) الممتع : ١ / ٣٠ ، ٣١ وانظر المنصف : ١ / ٤ ، ٥ :

فهو صرفي لاشتماله على مباحث صرفية خالصة ، هي الكلام على أقل اصول الاسماء واكثر اصولها ، وأقل أصول الافعال واكثر أصولها والكلام على الحروف الزوائد ، ومواضعها ، وخصائصها ، كما تظهر فيه العناية بالاشتقاق ، والاستدلال به لمعرفة الزائد من حروف المفردات ، وهذا كله مما يتناوله الصرفيون ، ويعرضون له في كتبهم .

فالتجرد والزيادة موضوع يحتل من علم الصرف مكاناً بارزاً ، حتى قال الزجاجي : ان (أول علم التصريف هو معرفة الحروف الزوائد) (١) . وقال ابن عصفور (لا يوصل إلى معرفة الزيادة والوزن الا من علم التصريف) (٢) .

والكتاب لغوي ، أومعجمي إن شئت الدقة ، لأن فيه من النوادر وتفسير الغريب ، والاستشهاد على ذلك بالنصوص وأقوال الرواة ، ما يجعله قمينا بأن يسلك في عداد الآثار اللغوية .

وقد أنزل بعض الباحثين (٣) كتب (الأبنية) منزلة المعجمات ، وضمها الى كتب اللغة ، واعل مافيها من النوادر والغريب ، هو الذي حمله على أن ينظر إليها هذه النظرة .

لم يبتعد كتاب (أبنية الأسماء والأفعال) عن كتب اللغة ، ولم يفقد صلته بها ، على الرغم من أن موضوعه صرفي ، يهدف الى أن يقفنا على حقيقة المفردة ، من حيث التجرد والزيادة ، لأن مافيه من النوادر ، ومعاني الغريب ، والشواهد وأقوال اللغويين ، قد حفظ

---

(١) الجمل : ٣٦٦ .

(٢) الممتع : ١ / ٣٩ .

(٣) المعجم العربي : ١ / ١٥٥ وما بعدها :

عليه تلك الصلة :

وقبل أن اعرض للكتاب بالدرس ، لابد من أن أعطي القارىء فكرة واضحة عن الحروف الأصليـــة ، وحروف الزيادة ، وأهمية (الميزان الصرفي) في بيان هذه الحروف ، والكشف عن مواقعها من الكلمة .

— ١ —

الميزان الصرفى

ينظر علماء الصرف إلى الكلمة من جهة حروفها التي تتألف منها ليعرفوا الأصلي منها والزائد ، وليعرفوا ما يعرض لهذه الحروف من قلب وحذف وابدال وادغام واعلال ، كما ينظرون إلى الكلمة من جهة هيأة الحروف فيها ، ليضبطوا صورتها على النحو الذي تكلمت به العرب وقد دفعهم ذلك إلى اتخاذ ميزان يقابلون به الكلمة ، ويعرضونها عليه ليعرفوا ما طرأ عليها ، من زيادة ونقص ، أو عرض لها من تغيير في ترتيب الحروف أو حركاتها ، وسموا ذلك الميزان (الميزان الصرفي) .

لقد شبهوا الصرفي بالصائغ لأن كلا منهما يصوغ من الاصل الواحد أشياء مختلفة (ولذلك احتاج الصرفي في عمله الى ميزان يعرف به عدد حروف الكلمة وترتيبها وما فيها من أصول وزوائد وحركات وسكنات وما طرأ عليها من تغيير كما احتاج الصائغ إلى ميزان يعرف به مقدار ما يصوغه) (١) .

نظر الصرفيون إلى الكلمات التي يتناولها بحثهم ، وهي الاسماء المعربة والافعال المتصرفة ، فوجدوها لا يقل عدد الحروف الاصول في احداها عن ثلاثة أحرف ـ وما قل منها عن ذلك تأولوه والتمسوا له علة ـ ولا تزيد عن خمسة أحرف ، فوضعوا ميزانهم على ثلاثة أحرف ، لأن الكلمات الثلاثية الاصول هى الاكثر والأفشى فى الكلام

---

(١) أبنية الصرف : ٨٧ :

ولأنهم لو جعلوه رباعياً أو خماسياً ، لاضطروا إلى الحذف منه عند وزن كلمة رباعية أو ثلاثية ، ولذلك نراهم قد آثروا أن يجعلوه ثلاثياً وأن يزيدوا عليه إذا وزنوا رباعيا أو خماسياً على أن يجعلوه على خمسة أحرف ثم ينقصوا منه اذا وزنوا رباعياً أو ثلاثياً .

وأما أحرف هذا الميزان فهي (ف ع ل) ، وقد قيل في سبب اختيار هذه الاحرف ، انها تمثل مخارج الحروف كلها ، وجملة مخارجها ثلاثة : هي الحلق واللسان والشفتان ، فالفاء تمثل الاحرف الشفوية والعين تمثل احرف الحلق ، واللام تمثل الأحرف اللسانية (١) ، كما قيل (ان الفعل أعم الاحداث ، اذ يصدق على كل حدث أنه فعل) (٢) .

وقد سموا الحرف المقابل للفاء ، وهو الحرف الاول من الكلمة المجردة (فاء الكلمة) والحرف المقابل للعين (عين الكلمة) والحرف المقابل اللام (لام الكلمة) ، وراعوا أن يتشكل الميزان بالشكل الذي عليه الكلمة ، وتأخذ حروفه حركات الحروف المقابلة لها في الكلمة ، كما التزموا أن يحذفوا من الميزان الاحرف المقابلة لتلك التي يعرض لها حذف في اللفظة ، ويجعلوا ترتيب حروفه مساوقا لترتيب حروف الكلمة الموزونة :

فاذا أردنا أن نزن كلمة من ثلاثة أحرف أصول ، اسما كانت أم فعلا ، قابلنا الاول بالفاء ، والثاني بالعين ، والثالث باللام ، وتشكل بعد ذلك أحرف الميزان بحركات أحرف الكلمة الموزونة ، عدا الحرف

---

(١) أبنية الصرف : ٨٨ .

(٢) نفسه : ٨٨ .

الأخير فانه لا يحرك لانه محل الاعراب أو البناء (١) ، فنقول إن وزن كَتَبَ ودَرَسَ ، وجَمَلَ وحَمَلَ (فَعَلَ) ووزن فَهِمَ وعَلِمَ وفَخِذ وكَبِد (فَعِل) ووزن كَرُمَ وحَسُنَ وظَرُفَ ورَجُل وسَبُع (فَعُل) ووزن : (شَمْس) و (وَصْف) و (صَمْغ) : (فَعْل) ووزن (عِلْم) و (شِعْر) و (ذِئْب) : (فِعْل) . ووزن (جُنْد) و (سُكْر) : (فُعْل) . وهكذا في كل ثلاثي مجرد.

وإذا كانت الكلمة من أربعة أحرف اصول ، اسما كانت أم فعلا ، زيدت (لام) ثانية على حروف (فعل) في أخرها ، فقيل : (فعلل) فتكون الفاء مقابل الحرف الأول ، والعين مقابل الحرف الثاني ، واللام الاولى مقابل الحرف الثالث ، واللام الثانية مقابل الحرف الرابع ، ثم نشكل أحرف الميزان بحركات الاحرف المقابلة لها في الكلمة الموزونة ، عدا الحرف الاخير فانه يترك بلا شكل ، لانه محل الاعراب أو البناء .

فنقول ان وزن (دَحْرَج) و (جَعْفَر) : (فَعْلَل) . ووزن (بُرْثُن) و (حُبْرُج) : (فُعْلُل) ، ووزن (زِبْرِج) (حِدْرِج) : (فِعْلِل) ، ووزن (دِرْهَم) : (فِعْلَل) ، وهكذا في بقية الكلمات الرباعية المجردة .

وإذا أردنا أن نزن كلمة خماسية مجردة ، ولا تكون إلا اسماً ، زدنا (لاما) ثالثة على حروف (فعلل) في آخر الميزان فتصير (فعللل) وتكون (الفاء) مقابل الحرف الأول ، و (العين) مقابل الحرف الثاني ، و (اللام الأولى) مقابل الحرف الثالث ، و (اللام) الثانية مقابل الحرف الرابع ، و (اللام) الثالثة مقابل الحرف الخامس

---

(١) شرح الرضي على الشافية : ١ / ٢ .

ونشكل كل حرف بحركة الحرف المقابل له من أحرف الكلمة الموزونة أوسكونه ، ونترك الحرف الاخير بلا شكل ، فيكون وزن (جَحْمَرِش) و (صَهْصَلِق) : (فَعْلَلِل) ووزن (سَفَرْجَل) و (فَرَزْدَق) : (فَعَلَّل) ، ووزن (قُذَعْمِل) : (فُعَلِّل) ، ووزن (قِرْطَعْب) (فِعْلَلّ)

أما الكلمة المزيدة ، فهي التي زيد على حروفها الاصلية ، حرف أو اكثر ، والزيادة نوعان : زيادة بتضعيف حرف أو اكثر من أحرف الكلمة الاصلية ، وزيادة بحرف أو أكثر من حروف (سألتمونيها) ،

ومن أمثلة النوع الاول ، ما ضعفت (عينه) من غير فاصل نحو (سُلَّم) و (تُبَّع) و (هَذَّب) و (قَطَّع) . وقــد تكرر (العين) بفاصل مثل : (عَثَوْثَل) و (سَجَنْجَل) و (اخلَوْلَق) و (اعشَوْشَب) .

ومن أمثلة تكرير (اللام) : (خِدَبّ) و (قِرْشَبّ) وفي الفعل (احمرّ) و (جَلْبَب) و (اقْعَنْسَسَ) ، وقد تضعف (اللام) مع الفصل ، ولا يكون ذلك الا في الاسماء ، نحو (صَمَحْمَح) و (حَنْدَقُوق) . وتكرر (اللام) و (العين) في الاسماء فقط ، (مَرْمَرِيس) و (غَشَمْشَم) ، أو تكرر (الفاء) و (العين) في الاسماء أيضاً نحو (مَرْمَرِيس) و (مَرْمَرِيت) (١) .

ومن أمثلة النوع الثاني (٢) : ما زيد بالهمزة نحو (أفْكَل) و (أحمر) و (أكرم) و (أذهب) و (إبن) و (اضرب) و (شَأمَل) و (شمأل) و (جُرَائِض) و (ضهياء) و (حمراء)

(١) المنصف : ١ / ١٢ ، ١٣ .

(٢) الاستدراك : ٤ ، ٥ .

و (نفساء) ونحو ذلك .

واللام نحو (عَبْدَل) و (ذلك) وتزاد مع (همزة) الوصل في (القوم) و (العبد) ونحوهما .

والياء نحو (يَرْمَع) و (يَعسُوب) و (يضرب) و (ضَيْغَم) و (بيطرت) و (عِثْيَر) و (سعيد) و (حِذْرِيَه) و (قِطْمِير) و (جَعْبَيْت) و (قَلْسَيْت) و (سُلَحْفِيَة) و (بِلَهْنِية) و (تقلسيت) و (اسلَنْقَيْت) وفي كل اسم صغرته أو نسبت اليه نحو (جُعَيْفِر) و (تميمي) .

والواو ، وهي لا تلحق أولا البتة ، وتلحق ثانية في (كوثر) و (حوقلت) وثالثة في (جدول) و (عجوز) وفي (جَهْوَرْت) ورابعة في (عُرْقُوة) و (بُهْلُول) وفي (قَلَنْسُوَة) ونحو ذلك ،

والميم نحو (مسلم) و (مَنْسَج) و (مدحرج) و (تمدرعت) و (دُمَلِص) و (ودُلَمِص) و (زُرْقُم) و (دُلامِص) :

والتاء نحو (تَنْضُب) و (تنفل) و (تضرب) و (تِجفاف) و (تَرْعِيَّة) و (تَذْنُوب) و (تكلمت) و (متكلم) و (اخت) و (بنت) و (استمعت) و (سَنْبَتَة) و (كلمة) و (قَحْطَبَة) و (عفريت) و (عنكبوت) وتلحق مع الالف في جمع المؤنث السالم نحو (ثمرات) و (مسلمات) .

والنون نحو (نرجس) و (نضرب) و (جُنْدَب) و (عنصر) و (ألَنْدَد) و (عَقَنْجَج) و (ضَيْفَن) و (عِرَضْنَة) و (سِرْحان) و (زعفران) و (عَبَوْثَران) و (تفعلين) و (اضربنّ) و (اضربن) والتنوين زيادة تلحق الاسماء المتمكنة .

والسين تزاد في (استفعل) نحو (استخرج) .

والالف لا تزاد أولا لسكونها ، وتزاد ثانية فاكثر نحو (قاتل) و (قاتلت) و (عُذَافِر) و (حبلى) و (انطلاق) و (اشهيباب) .

والهاء نحو (ارمِهْ و (اقتدِهْ) و (يازيداه) .

والزيادة في هذه الامثلة ، قد تمت بحروف معينة جمعها المازني بقولهم (اليــوم تنساه) وجمعها غيره بقولهم (هويت السمان) أو (سألتمونيها) وجمعها اخرون فى (أمان وتسهيل) .

كتاب الزبيدي

— ٢ —

أ - تعريف به وبمنهجه :

نسخ الكتاب :

اختلفت المصادر في تسمية هذا الكتاب . نذكر باسم (الابنية) في كل من (جذوة المقتبس) و (بغية الملتمس) و (انباه الرواة) و (البلغة) . ويسمى (أبنية سيبويه) في كل من (معجم الادباء) و (الوافي بالوفيات) و (بغية الوعاة) و (وروضات الجنات) . كما يسمى (أبنية سيبويه وشرحها والزيادة عليها) في (المحمدون من الشعراء) . ويسمى (الابنية في النحو) في (يتيمة الدهر) و (وفيات الاعيان) و (شذرات الذهب) و (كشف الظنون) . وجاء عنه في (يتيمة الدهر) و (وفيات الاعيان) و (شذرات الذهب) : (ليس لاحد مثله) . كما قال عنه صاحب (كشف الظنون) (هذا الكتاب من نوادر الدهر) .

وأما الزبيدي فقد ذكر كتابه هذا مرتين في (لحن العامة) ، أسماه في الاولى (أبنية الاسماء والافعال) ، وفي الثانية (الابنية) وقد نشره المستشرق جويدي في روما عام ١٨٩٠ بعنوان (الاستدراك على سيبويه في كتاب الابنية والزيادات على ما أورده فيه مهذباً) . واحتفظ بروكلمان بهذا العنوان نفسه .

والذي يغلب عندي أن يكون عنوانه (أبنية الاسماء والافعال) ويرجح لدى هذه التسمية ، أن الزبيدي جعل كتابه فى بابين كبيرين يسبقهما تمهيد ضروري . فأما التمهيد فهو كلام على اقل اصول الاسماء واكثر أصولها ، يقفوه كلام مثله على أقل أصول الافعال وأكثر اصولها ويعقب ذلك كلام موجز على الحروف ، وما يكون منها للزيادة ، وللبدل واما البابان الرئيسان : فالاول لابنية الاسماء ، والثاني لابنية الافعال .

وأما تسميته بـ (الابنية) فغير دقيقة ، لان (الابنية) اسم عام تندرج تحته أنواع أخرى غير أبنية الاسماء والافعال كأبنية المصادر وأسماء الفاعلين والمفعولين وأسماء الآلة والاسماء المصغرة والجموع . ولم يعرض الزبيدي في كتابه الا لما ذكره سيبويه من أبنية الاسماء والافعال ، وكانت هذه الناحية مثاراً لاعتراض الزبيدي على سيبويه ، لانه وجد سيبويه لم يلتزم دائماً بذكر أبنية المصادر واسماء الفاعلين والمفعولين مع ما يذكر من أبنية الاسماء ، وانما كان يذكر هـذا تارة ويغفل ذكره تارة أخرى : فالكتاب اذن في أوزان الاسماء والافعال في حالي تجردها وزيادتها . وأما اوزان الصفات فقد جاءت مع اوزان الاسماء ، ولم يفصل سيبويه والزبيدي بعده بين النوعين .

وإذا شئت أن تستفتي مقدمة الكتاب عن عنوانه ، فانها تفتيك بمثل ما رجحته وذهبت اليه . قال الزبيدي (وقد كنت أيام مطالعتي هذا الكتاب ـ يعني كتاب سيبويه ـ كلفا بما تضمنه من أبنية الاسماء والافعال ، التي هي زمام الكلام ، والسور المضروب دونه ، والحـــد المنتهي إليه . فاستخرجتها يومئذ مختصرة منه ، ليقرب حفظها لمن آثر أن يقف على معرفة البناء العربي من الدخيل) (١) .

---

(١) الاستدراك : ١ .

وأما النسخ الخطية للكتاب فهي فاتيكان ثالث ٥٢٦ وجاريت ٢٤٥ ومنه مختصر لعمر بن احمد بن خليفـــة الحلبي السعدي في المتحف البريطاني ثاني : ١٢٨ .

دواعي تأليفه :

كان كتاب (الطبقات) تحقيقاً لرغبة الحكم المستنصر ، فهو الذي أوعز بتأليفه ، وكان (لحن العامة) أثراً من آثار تشجيع هذا الخليفة ، للتأليف ورعايته للحركة العلمية ، أما كتاب (أبنيه الاسماء والافعال) فلم يكن تأليفة استجابة للخليفة ، أو التماسا للحظوة عنده ، وانما كان نتيجة لكلف الزبيدي بموضوع الابنية ، وهو كلف يعود إلى أيام الطلب المبكر للعلم ، حين كان يلازم كتاب سيبويه ويدمن القراءة فيه .

ويبدو أن اكثر ما جذبه من موضوعات الكتاب ، هو ما يتعلق بأبنية الاسماء والافعال ، فاستخرجها يومئذ مختصرة ، لتكون في متناول من يشاء حفظها ، أو يرغب في معرفة البناء العربي ، وتمييزه عما دس فيه ، أو أقحم عليه من أبنية مصنوعة ، وأخرى دخيلة : ثم عاد إلى أبنية سيبويه ، مستدركا وناقداً ومفسراً ما فيها من غريب .

ان الحاجة الماسة إلى كتاب مستقل في (أبنية الاسماء والافعال) يجمعها ويستقصيها ، ويشرح غريبها ، قد دفعت أبا بكر إلى تأليف هذا الكتاب ، بعد ان وجد الناس عيالا في هذا الموضوع على كتاب سيبويه على الرغم مما يشوب الابنية فيه من نقص وتناقض وخطأ .

وقـد صرح الزبيدي فى مقدمـة الكتاب بهذا الدافع الى تأليفه فقال : (وكان جلة المشايخ من أهل النحو ، فيما روينا عنهم ، يزعمون

أن ما ألفه سيبويه منها - أي الأبنية - يستوفي جميع أبنية الكلام ، ما خلا ثلاثة أبنية ، شذت عن جميعه ، فاستقصيت البحث عن ذلك وانعمت النظر فيه ، فألفيت نحو الثمانين بناء ، لم يذكرها سيبويه ، في ابنيته ، ولا دل عليها أحد من النحويين بعده) (١) .

فهو يعيب أبنية سيبويه بالنقص ، ويدعي السبق الى الاستدراك عليه ويزعم أن النحويين كانوا يرون أن كتاب سيبويه قد وعى جميع أبنية الكلام ، ولم يشذ منها عنه سوى ثلاثة ، وواضح أنه يعني بهؤلاء النحاة شيوخه من أهل الاندلس ، ذلك لان نحاة المشرق سبقوه الى الاستدراك فقد ذكر ابن جني في (الخصائص) أن ابا بكر بن دريد زاد عددا من الأبنية ، وأن ابن السراج زاد اثنين وعشرين مثالا (٢) ، وذكر السيوطي ان الجرمي وابن خالويه وابن السراج ، كانوا من الاوائل الذين أنعموا النظر في أبنية سيبويه ، واستبان لهم نقصها ، فاضافوا اليها ما هداهم اليه البحث والاستقراء (٣) .

أحصى ابن جني ثلاثة وستين بناء ، استدركها النحاة المشارقة على سيبويه ، وظل باب الاستدراك مفتوحاً ، على توالي العصور ، حتى تضخم المقدار المستدرك ، فبلغت أبنـــية الاسماء (١٢١٠) بناء في كتاب ابن القطاع ، بعد أن كانت في كتاب سيبويه (٣٠٨) بناء (٤) .

استدرك الزبيدي واحداً وثمانين وزناً ، كان ابن جني قد ذكر (٢٥) منها ضمن الأبنية التي استدركها نحاة المشرق ، ويبدو من

---

(١) الاستدراك : ١ .

(٢) الخصائص : ٣ / ١٨٥ وما بعدها والمزهر : ٢ / ٤ .

(٣) المزهر : ٢ / ٤ .

(٤) نفسه : ٢ / ٤ .

ذلك أن الزبيدي انفرد باستدراك (٥٦) بنـــاء ، الا انه لم ينفرد باستدراك هذا العـدد كله ، فقــد صرح السيوطي بنسبة بعض هذه الابنية إلى غير الزبيدي من اللغويين ،

فالزبيدي لم يطلع على جميع ما استدركـه نحاة المشرق ، وآية ذلك أنه لم يوافقهم إلا في (خمسة وعشرين) بنـاء ، وفاتته الاشارة إلى الاوزان الاخرى ، وعددها (٣٨) .

وهذا يكشف لنا صعوبة هذا الموضوع ، ووعورة السبيل إليـه ، وأنه لا يستطيع أحد ، مهما أوتي من علم باللغة ، أن يزعم الاحاطة بجميع الهيئات والاوضاع التي جاءت عليها المفردات العربية ، اسماء كانت أم أفعالا ، لان اللغة واسعة ، والاحاطة بها ممتنعة .

أما سيبويه فلم يكن دقيقاً حين كان يقرر أن ما ذكره هو كـل ما ورد عن العرب ، وان بناء كـذا لم يأت منه غير لفظ كذا ، أو لم يأت منه لفظ ، أو ورد منه اسم ولم ترد صفة ، ونحو ذلك ، فقـد أثبت البحث بعده ورود ما زعم أنه لم يرد .

وليس العلم بمفردات اللغة وحده ، بكاف من يتصدى لحصر أبنية الكلمات وتسجيل أوضاعها التي صيغت عليهـا ، بل لابد له من معرفة دقيقة بالاشتقاق ليهتدى إلى الاصول والزوائد ، ويضع في ضوء هذه المعرفة أوزان المفردات وصيغها .

وقد رويت أخبار كثيرة تفيد جهل عـــدد من متقدمي النحويين واللغويين باشتقاق وأوزان بعض الكلمات ، من ذلك ما حكي عن أبى عبيدة من أنه أخطأ في اشتقاق (مندوحة) بمعنى متسع ، فذهب إلى انها من (انداح) وان (النون) فيها زائدة ، والصواب انهـا

مشتقة من (الندح) وهو جانب الجبل وطرفه ، وهو أوسع جوانبه ووزنها على ذلك (مفعولة) ولو كانت (النون) زائدة لكانت (مَنْفُعْلَة) وهو بناء لم يثبت في كلامهم (١) .

ونحو من هذا ، (ما يحكي عن أبي العباس ثعلب من انه جعل (أُسْكُفّة الباب) من استكف أي اجتمع وذلك فاسد لأن (استكف) استفعل ، و (سينه) زائدة و (أسكفة) : (أُفْعُلَّة) و (سينه) أصلية . إذ لو كانت زائدة لكان وزنه (أُسْفُعْلَة) وذلك بناء غير موجود في أبنية كلامهم) (٢) .

ورويت سقطات أخرى عن جلة العلماء ، وهي تدل على غموض اشتقاق بعض المفردات ، وخفاء الزوائد والاصول فيها ، مما يؤدى إلى الخطأ في تقدير أوزانها ...

واهمال سيبويه هذا العدد الكبير من الابنية التي استدركت عليه يمكن تفسيره بأمور منها عدم وقوفه على أمثلة بعض تلك الأبنية ، وعدم وثوقه بمن تكلم ببعضها الآخر ، ومخالفته غيره في اشتقاق القسم الثالث ، وسنفصل ذلك في موضعه من هذا الفصل ، ان شاء الله .

وقبل أن اترك دواعي تأليف الكتاب لابد من الوقوف عند ما ذهب إليه السيد البير مطلق من أن الدافع الاول لاستدراك الزبيدي على سيبويه كان اظهار العلم ، والادلال بالمعرفة (٣) .

ومن عجب أن يكون تنبيه العالم إلى سهو من قبله ، ادلالا بعلم وتظاهراً بمعرفة ، ولو كان ذلك كذلك لانقطع العلم ، وبطل التفكير

(١) الممتع : ١ / ٢٩ .
(٢) نفسه : ١ / ٣٠ .
(٣) الحركة اللغوية : ١٣٨ :

ولتقنع الخلف بما انتهى إليه السلف ، وباتوا يتوارثونه ، دون تمحيص له ، أو زيادة عليه :

وقد أحس أبو بكر أن قد تحوم حوله شبهة التعالي على سيبويه فاحتاط لها ، ودرأها عن نفسه بقوله في المقدمة : (ولعل عاقلا يتوهم أنا ادعينا مداناة سيبويه في علمه أو موازاته في نفاذه وفهمه ، بما زدنا عليه من الابنية التي أغفل ذكرها ، ولما دللنا عليه من تناقض بعض قوله أو بمعارضتنا له في اليسير من معانيه فيخالنا افكا ، ويظن بنا عجزاً ، وأنى لنا بما توهمه ، وانما تكلمنا على اصوله ، وعارضنا بعض قوله ببعضه ، ورددنا عليه من علمه ، والاحاطه على البشر ممتنعة والعصمة عنهم مرتفعة) (١) .

فلم يكن الزبيدي المتواضع مدلا بعلم ، أو مباهياً بتفوق على سيبويه . وانما كان يجله ، ويستكثر على نفسه مداناته في النفاذ والفهم ويلتمس له العذر فيما أغفله أو اخطأ فيه ، ولكن اكباره لسيبويه لم يمنعه من أن يدل على ما ظهر له من نقص في كتابه ، وقد كانت آراء سيبويه نفسها حجة بيد الزبيدي ، يعتمد عليها أحيانا في تخطئته والرد عليه .

ويحلو للسيد مطلق أن يجعل من منهج الزبيدي العلمي الدقيق في معالجة الأبنية دليلا على ما يخالجه - أي الزبيدي - من رغبة في ابراز نقص سيبويه ، والاشعار بالتفوق عليه ، فيقول (كان حريصاً على ذكر ما أورده سيبويه ثم اتباعه بما لم يذكره مما يشير الى رغبة المقابلة وابراز النقص) (٢) .

---

(١) الاستدراك : ٢ .

(٢) الحركة اللغوية : ١٣٨ .

وفات السيد مطلق أن المنهج العلمي الذي التزمه الزبيدي في جميع الكتاب قد دعاه إلى ذلك ، فالكتاب كما أسلفنا ليس مجرد استدراك حتى يقتصر على ذكر المواد التي أهملها سيبويه جهلا بها أو سهواً عنها وانما كانت الغاية منه حصر أبنية الكلام جميعها ، وهذا يقتضي أن يذكرها على سبيل الاحاطة ، فيبدأ بما سبق ان قرره سيبويه منها ، ثم يتبعه بما لم يذكره :

منهج الكتاب :

تميز الكتاب بمنهج واضح ، وخطة دقيقة ، وقد حدد الزبيدى في مقدمة الكتاب معالم هذه الخطة فقال : (فرأيت أن افرد في الابنية كتاباً أخص ذكرها فيه ، وأبدأ بما يجب أن يكون صدراً لها ، ومدخلا اليها ، مما يشاكلها وينتظم بها ، بل هو أصل لها وهي فرع منه ، مبنية عليه ، وذلك بأن ابتدىء بذكر أقل اصول الاسماء والافعال والحروف وأكثرأصولها غير مزيدة وأقصى ما تنتهي إليه بالزيادة ونذكر حروف الزيادة والبدل ثم نعقب من بعد بأبنية الاسماء والأفعال على حسب ما ذكرها سيبويه بناء بناء ، ونعدما نورد منها فى كل باب ، حتى نأتي احاطة العدد على جميع أبنية الاسماء والافعال ، ونذكر بإثر كل باب منها ما أغفل سيبويه من أصول الابنية فيه وما حظر عليه من أمثلة النعوت أو الاسماء وندل في خلال ذلك على ما اختلف فيه قوله وما نقض به أصله ، ثم نشرح بعد كل باب منه ما وقع من غريب الأبنية شرحاً مختصراً كافيا وان كان أهل اللغة قد تحاموا شرحها ، وتفادوا من تفسير غريبها ، وشهدوا لسيبويه بالتقدم في علم اللغة بما

أثبته في كتابه منها حين أيقنوا أنه لم يمن بنقلها إلا بعـــد احاطته بعلمها وتفسير مشكل غريبها ، وقد ارجأنا شرح حروف يسيرة لم ينته الينا علمها فأتيتا بها في أواخر الابواب ولم نيأس بعد من ادراكها عند استقصاء البحث عنها ان شاء الله تعالى) (١) .

تلك هي الخطة التي رسمها المؤلف لبحثه ، وقد سار عليها حتى نهاية الكتاب فالكتاب يشتمل على تمهيد سماه الزبيدى في المقدمة (مدخلا إلى الموضوع) أو (صدرا له) وقد تضمن التمهيد الموضوعات الآتية (باب ذكر أقل أصول الاسماء واكثر أصولها ، وباب ذكر أقل اصول الافعال واكثر اصولها ، وباب الحروف ، وباب الحروف الزوائد وهي عشرة ، وباب حروف البدل وهي اثنـا عشر) .

والواقع أن الزبيدي لم يقسم كتابه إلى تمهيد وإلى موضوع أساسي ولكنه قد أشار في المقدمة إلى أن الابواب التي تسبق (باب ذكـر أبنية الأسماء) انما هي بمثابة المدخل إلى موضوع الأبنية ، وكل من باب أبنية الأسماء وباب أبنية الأفعال يتفرع إلى أبواب ثانوية تليها أبواب فرعية ، وبذلك فان المؤلف لا يتبع نظام الباب والفصل ، بل يطلق كلمة (باب) على عنوان كل موضوع ، فقـد يستعملها ليجمع تحتها أبنية الأسماء جميعها فيقول (باب ذكر أبنية الاسماء) وقـد يستعملها ليدرج تحتها أبنيـة الثلاثي المزيد بالتـاء فقط فيقول (باب لحاق التاء) ، فالبابان الرئيسان هما :

---

(١) الاستدراك : ٢ .

أولا : باب ذكر أبنية الأسماء

١ - باب البناء الثلاثي غير المزيد

آ - ذكر لحاق الزوائد في البناء الثلاثي :

باب لحاق الهمزة - باب لحاق الألف - باب لحاق الياء - باب لحاق النون .

باب لحاق التاء - باب لحاق الميم - باب لحاق الواو .

ب - باب الزيادة من موضع التضعيف فى العين واللام :

ج - باب الزيادة من موضع العين واللام اذا ضوعفتا .

٢ - باب البناء الرباعي غير المزيد .

آ - باب لحاق الزوائد للرباعي :

باب لحاق الواو - باب لحاق الياء - باب لحاق الألف - باب لحاق النون - .

ب - باب التضعيف فى الرباعي .

٣ - باب أبنية الصفات والأسماء الخماسية .

آ - باب لحاق الزوائد بالخماسي .

ب - باب ماأعربت العرب من الأسماء الأعجمية .

ثانياً : ذكر أبنية الأفعال :

١ ـ باب لحاق الزوائد للفعل الثلاثي .

٢ ـ باب ما تسكن أوائله من الأفعال المزيدة .

٣ ـ باب ما لحق من الافعال الثلاثية بالرباعية .

٤ ـ باب الافعال الرباعية .

٥ ـ باب لحاق الزوائد بالرباعي .

وجاء في آخر الكتاب أن المؤلف أحصى فيه جميع أبنية الأفعال وقد بلغت أربعة وثلاثين مثالا ، وأما أبنية الاسماء فقد اعترف بأنه لم يستطع حصرها ، قال : (فهذا جميع أبنية الأفعال ، وقد تقدمت أبنية الأسماء ، فما جاوز هذا فليس من كلام العرب ، إلا أن يشذ اليسير من أبنية الاسماء خاصة ، إذ أن الاحاطة ممتنعة فيها ، فاما الافعال فمحصور جميعها ان شاء الله) (١) .

ولكن الزبيدي لم يند عنه من أبنية الاسماء عدد يسير كما توهم فقد بلغ مجموع ما أحصى ابن القطاع منها (١٢١٠) بناء على ماذكر السيوطي في المزهر وكل باب من هذه الأبواب ـ ولفظة باب عنده تقترن بعنوان كل موضوع كما لاحظنا ـ يشتمل على ما يلي :

١ ـ ما أورده سيبويه مع بيان الخطأ واظهار التناقض ان وجدا ،

٢ ـ الزيادة التي يوردها الزبيدي .

٣ ـ تفسير ما وقع في الباب من كلمات غريبة .

---

(١) الاستدراك : ٤٠ .

فالمنهج دقيق ومحكم ، ولا وجـه لاعتراض السيد البهر مطلق على ايراد (باب ما اعربت العرب من الاسماء الاعجمية) بعد (باب لحاق الزوائد للخماسي) ، ولا أدري كيف ظن السيد مطلق أن الزبيدي عاقب بين البابين لعـــلاقة بدت له بينهما ، يقول (فباب ما أعربت العرب من الأسماء الاعجمية لا يختص بأبنية الاسم الخماسي ، ولكن الزبيدي ألحقه بهذا الباب) (١) .

والحقيقة ان الزبيدي أورد الباب المذكور بعـد أن انتهت أبنية الاسماء في الكلام العربي الاصيل ، ولم يورده على أنه لاحق بالخماسي كما توهم السيد مطلق ، وقد أشار الزبيدي نفسه إلى سبب ايراد هـذا الباب إثر أبنية الاسماء كلها لا الخماسي منها فقط ، بقوله : (وانما ذكرنا هذا الباب بأثر أبنية الاسماء ليستدل به على ماغير من الاعجمي وألحق بأبنيتهم أو غير ولم يلحق أو ترك على حاله لئلا يجد أحد شيئاً من الاعجمية فيظن أنه قد أغفل ذكره في الكلام العربي) (٢) :

وكان سيبويه نفسه قـد عرض لما في كلام العـــرب من أسماء أعجمية بعد فراغه من الكلام على أبنية الاسماء وآخرها بناء الخماسي .

ب - جهود الزبيدي في الكتاب :

وبعد أن عرضت لمنهج الكتاب ، أريد أن أتبين جهود الزبيدي فيه ، واعرض لموقفه من سيبويه ، وأفصّل الكلام على المسائل التي خالفه فيها ، فهو لم يجعل كتابه مقتصراً على استدراك ما فات سيبويه من أوزان الاسماء والافعال ، بل عمد الى تجلية أخطائه ، وتحري

(١) الحركة اللغوية : ١٤٠ .

(٢) الاستدراك : ٣٨ :

سقطاته في موضوع الأبنية ، وتفسير ما أورده من كلمات مهجورة ، وألفاظ غريبة .

ولم يقف الزبيدي عند هذا الحد من نقد سيبويه ، وتتبع النقص في كتابه ، بل تعداه الى امور اخرى ، لا شأن لسيبويه بوقوعها في كتابه كالتنبيه على عبث النساخ به ، والنص على ما اعترى بعض كلماته من تصحيف وتحريف ، كما أشار إلى اختلاف النسخ المتداولة من الكتاب في عصره :

ويمكن اجمال جهود الزبيدي بما يلي :

١ ـ تلخيص أبنية سيبويه ، واتباعها بما لم يذكره من الأبنية :
٢ ـ بيان ما وقع فيه سيبويه من أخطاء تتعلق ببعض الأبنية :
٣ ـ اظهار تناقض سيبويه في أبنية أخرى :
٤ ـ بيان خلل المنهج الذي أتبعه سيبويه في التبويب .
٥ ـ الكشف عن عبث النساخ بالكتاب والنص على الاختلاف الواقع بين النسخ المتداولة منه .
٦ ـ شرح ما وقع فيه من غريب الكلمات .

وسأتناول هذه الامور بشيء من البسط والتفصيل :

١ ـ الزيادات التي استدركها :

لقد أحصى الزبيدي الأبنية التي أهملها سيبويه ، فوجدها تبلغ واحداً وثمانين وزنا ، فكان تلافي هذا النقص ، وسد هذه الثغرة ، أهم دوافع تأليف الكتاب ، وبهذا أصبح من خطة الزبيدي أن

يورد الأبنية التي ذكرها سيبويه ، ثم يتبعها بما لم يذكره منها ، وسأورد فيما يأتي من هذا البحث ، جميع تلك الزيادات ، وأعرض لموقف اللغويين منها .

٢ - أخطاء سيبويه :

وقد نبه الزبيدي على أخطاء سيبويه ، وعارضه في طائفة من آرائه ، من ذلك :

أ - قد يرى سيبويه أن يكون الوزن للاسماء ، فيخالفه الزبيدي ويورده للصفات أيضاً ، وأمثلة ذلك كثيرة ، منها أن سيبويه يرى أن بناء تَفَاعِل للاسم مثل التناضب والتتافل ، ولم يأت وصف منه ، فخالفه الزبيدي فقال « قد جاء ناقة تِحلْبة والجمع تَحَالِب » (١) . ومن ذلك (وعلى فُعَالى فالاسم حُبارَى وسُمانَى ولُبادَى ، ولم يأت وصفا الا في الجمع نحو كسالى وسكارى ، قال ابوبكر : قد جاء فُعَالى صفة للواحد قالوا جمل عُلادَى) (٢) ومنه (وعلى فِعْلَى نحو معزى وذفرى ولم يأت وصفا ، قال أبو بكر : قد جاء كِيصى منون للذي ينزل وحده وقد كاص طعامه اذا أكله وحده) (٣) .

ب - وقد يذهب سيبويه الى أن الكلمة من الاسماء ، فيرى الزبيدي أنها من الصفات ، من ذلك الخَيْسُمان (والخيسمان الضخم وذكره سيبويه في الاسماء) . ومنه (والأُدابِر الذي لا يرجع الى

(١) الاستدراك : ١٢ ، ٢٣

(٢) نفسه : ١٢ :

(٣) نفسه : ١٢ .

موعظة أحد ، وذكره سيبويه في الأسماء) (١) .

ج - وقد يورد سيبويه الكلمة على أنها من الصفات ، فيرى الزبيدي أنها من الأسماء ، كالخِنَّوْص الذي هو ولد الخنزير ، وقد جاء به سيبويه في الصفات (٢) ، ويرى الزبيدي ان الحَنْدَقُوق بقلة وذهب سيبويه الى أنها صفة (٣) ، ومن ذلك كلمة عِزْوِيت التي ذكرها سيبويه في الصفات ، فنقل الزبيدي عن ابن دريد أنها اسم لموضع (٤) .

ومن ذلك أيضاً كلمة (حَوْمَل) التي ذكرها سيبويه في الصفات فقال الزبيدى (وحومل اسم موضع وذكره سيبويه صفة ، ولا أعلمه في الصفات إلا أن يكون مشتقاً من الحمل) (٥) .

وذهب سيبويه الى أن (كَنَهْوَر) صفة ، فقال الزبيدي في شرح هذه الكلمة (والكنهور قطع من السحاب كالجبال واحدته كنهورة ، فعلى هذا يكون اسماً لا صفة) (٦) .

د - وقد يرى سيبويه أن الوزن للصفات ، ولم يأت منه اسم ، فيرى الزبيدي أنه من أبنية الاسماء أيضاً (وعلى تِفْعَلَة فالصفة تحلبة قال أبو بكر : قد جاء تِفْعَل اسما قالوا تِتْفَل لولد الثعلب

---

(١) الاستدراك : ١٨ ، ١٩ ، ٩ .

(٢) نفسه : ٢٥ .

(٣) نفسه : ٣١ .

(٤) نفسه : ٢٢ .

(٥) نفسه : ٢٥ .

(٦) نفسه : ٣٠ .

عن الكسائي) (١) .

هـ - ويذهب سيبويه إلى أن الهاء لازمة البناء من الأبنية ، فيخالفه الزبيدي ويورد البناء مستعملا بهاء وبدونها ، قال ينقل عن سيبويه ويرد عليه : (وعلى فَعَالِيَة فالاسم الكراهية والرفاهية والصفة عباقية وحزابية والهاء لازمة لفَعَالِيَة ، قال أبوبكر : قد جاءَ رجل حَزَاب وحزابية وزوار وزوارية بالهاء وبحذفها) (٢) .

و - وقد يخطىء سيبويه في وزن الكلمة ، فهو يجعل (فِعَلّ) وزن (مِجَنّ) ويرى الزبيدي أن (مِجَنّ مِفْعَل) من الجُنَّة وليس بِفِعَلّ) (٣) .

ز - وقد يمنع سيبويه مجيء وزن على صورة معينة فيخالفه الزبيدي ويروى ما يثبت مجيئه على تلك الصورة ، من ذلك (ولم يأت المضاعف مكسور الأول إلا في المصدر نحو الزلزال والقلقال : قال أبو بكر : قد جاء اسما غير مصدر ، قالوا : الدئداء والدأداء لآخر الشهر) (٤) .

ح - وذهب سيبويه إلى أن نون (فَعْلان) في نحو غضبان وعطشان بدل من الهمزة ، فرد عليه الزبيدي بقوله (ليست النون هاهنا ببدل من همزة ولا هذا بموضع همز وقد ذكر في باب مايجرى ومالا يجرى ان نون غضبان وعطشان شبهت بهمزة حمراء لأنها بازائها

---

(١) الاستدراك : ٢٣ .

(٢) نفسه : ١٢ .

(٣) نفسه : ٢٦ :

(٤) الاستدراك : ٣٢ .

في الوزن وهي زائدة كما هي زائدة ، قال : جعلوها ، يعني النون ، حيث جاءت بعد ألف كألف حمراء لأنها على مثالها في عدة الحروف والتحرك والسكون ولذلك امتنع غضبان من الصرف في النكرة ، وهذا قوله وهو يدل على انها ليست ببدل من همزة مع أن الهمزة لم تكن معهودة هناك ولا متوهمة فتكون النون بدلا منها . ولكن النون تكون بدلا من الهمزة في صنعاء وبَهْراء إذا نسبت إليهما فقلت صنعاني) (١) .

ط ـ ويوضح الزبيدي الشرط في ابدال حرف من حرف ، ثم ينفذ من ذلك الى تخطئة سيبويه الذي ذهب الى أن الياء فى (مسلمين) بدل من الف في (مسلمان) والياء في (مسلمين) بدل من واو (مسلمون) ، قال الزبيدي : (ولو أن قائلا قال إن شريطة البدل أن يكون الحرف أصلا ثم يبدل منه حرف آخر داخل عليه ليس بأصل إما لعلة تضطر الى ذلك فيطرد كقيل وميزان ورمى ونحو ذلك واما لغير علة فيحفظ ولا يقاس كفم واصيلال ، وليست التاء في مسلمين ببدل من ألف مسلمان ، ولا ياء مسلمين ببدل من واو مسلمون كما زعم سيبويه ، لانه ليس منها شيء بأصل لازم لاسم هو أولى به من غيره ، وانما هي أدلة على اعراب الاسم ، لكان قد ذهب في ذلك مذهباً) (٢) .

ى ـ وكان سيبويه قد ذكر أن « سُلَحْفِيَة » و « سُحَفْنِيَة » على مثال « فُعَلِيَة » من الرباعي المزيد بـ « الياء » ، فرد عليه الزبيدي بقوله : « ورجل سُحَفْنِية محلوق الرأس ، يقال سحفه اذا حلقه وهو على هذا التفسير (فُعَلْنِيَه) ـ يعني من الثلاثي المزيد ـ وقد

(١) الاستدراك : ٥ .

(٢) نفسه : ٦ .

ذكره سيبويه على (فُعَلِيَّة) (١) .

وقد فرق السيوطي بين اللفظين فجعل « سلحفية » على « فُعَلِيَّة » وجعل « سحفنية » على « فُعَلْنِيَّة » ، فوافق بذلك الزبيدي ، دون أن يشير اليه (٢) .

٣ ـ تناقض سيبويه :

وقد عثر الزبيدي على تناقض في بعض آراء سيبويه ، ووجد أنه ينقض هنا ما كان قد أبرمه هناك ، فدل على تناقضه ، وأشار إلى اختلاف رأيه في الكلمة الواحدة ، من ذلك أنه يذكر في موطن من كتابه أن (ملاكيت) جمع (ملكوت) ، من الاسماء ، ثم يعود في موطن آخر فيذكرها في الصفات ، قال الزبيدى ينقل عن سيبويه ويرد عليه (فَعَالِيت فالصفة عفاريت . قال أبو بكر : قد ذكر في كتابه في باب التصغير ملاكيت جمع ملكوت وهو اسم) (٣) .

ويذهب سيبويه فى موضع من كتابه إلى أن نون (خَنْشَلِيل) أصل غير مزيدة وانها رباعية على مثال (فَعْلَلِيل) ويعود فينقض قوله ويرى أن خنشليل على وزن فَنْعَلِيل والنون فيها مزيدة (٤) .

ومن ذلك قال الزبيدي وهو ينقل عن سيبويه ويرد عليه : « وعلى مِفْعِل فالاسم منخر فأما مِغِير ومِنْتِن فهما من أغار وأنتن ولكن

(١) الاستدراك : ٣١ .

(٢) المزهر : ٢ / ٣١ .

(٣) الاستدراك : ١٢ .

(٤) نفسه : ٢٠ .

كسروا الكسرة التاء والغين . قال أبو بكر : قـد قال في باب علم ما تجعله زائداً ان مرعزى هي مَفْعِلا ولكن الميم كسرت كما كسرت ميم مِنْخِر الكسرة ما بعدها ، فمنخر على هذا القول كمفعِل ومِنْتِن وقد جعله هاهنا أصلا على خلاف ما ذكره هناك) (١) .

ومنه (وعلى فَعَوْعَل فالاسم عَثَوْثَل وقَطَوْطَى وغَدَوْدَن : قال أبو بكر : قد قال في غير هـذا الموضع ان قطوطى وشجوجى على زنة فَعَلْعَل) (٢) .

وفي بناء الرباعي غير المزيد قال سيبويه ان (دِلْقِم) بناء غير مزيد على وزن فِعْلِل وكان قد ذهب في باب زيادة الميم على الثلاثي إلى أن (دلقم) (فِعْلِم) قال الزبيدي : (وعلى فِعْلِل فالاسم زبرج وزئبر وحفرد والصفة دلقم وعنفص وخرمل وزهلق : قال أبو بكر: قد قال في باب زيادة الميم على الثلاثة ان دلقما فِعْلِم والميم زائدة وجعلها هاهنا أصلا على فِعْلِل) (٣) .

ومن المواطن التي ناقض سيبويه فيها نفسه قوله ان (هَمَّرِش) على وزن (فَعَّلِل) فجعله من الرباعي المزيد بتضعيف (العين) ، غير أنه كان قـد ذكر أن (هَمَّرِش) هي (هَنْمَرِش) فادغمت النون في الميم ، وهو لهذا خماسي مجرد وزنه (فَعْلَلِل) مثـل (قَهْبَلِس) (٤) .

---

(١) الاستدراك : ٢٤ .

(٢) نفسه : ٢٥ .

(٣) نفسه : ٢٨ .

(٤) نفسه : ٣٥ .

٤ - تبويب سيبويه للابنية :

لقد لاحظ الزبيدي أن سيبويه يذكر أبنية المصادر والاسماء المشتقة مع أبنية الأسماء والصفات حينا ، ويهمل ذكرها والاشارة اليها حينا آخر ، فعاب عليه اضطرابه ، وتردده بين الذكر وعدمه وكان المفروض أن يكون أدق ، فيلتزم باضافة هذه إلى تلك أو يعد المصادر والاسماء المشتقة أبنية أتت على أفعالها ولا وجه لذكرها .

يقول الزبيدي : (ذكر سيبويه في أبنية الاسماء والصفات ضارب وحابس ومضروب ومجاهد ومسافر وذكر إعطاء وإسلام ، فان كان هذا لازماً ذكره في الأبنية فقد كان ينبغي أن يذكر في باب لحاق النون منطلق ونحوه ، في باب التاء معترف ومتكلم ، ويذكر الافتعال والانفعال والاستفعال كالاستماع والانطلاق والاستخراج كما ذكر الاسلام والاعطاء وان كان ذا لا يلزم ذكره لانها أبنية من الصفات والمصادر أتت على أفعالها فلا وجه لذكرها) (١) .

ويعترض على ذكر سيبويه وزن (تَفْعِيل) في باب لحاق التاء ، ويرى أن يذكر في باب زيادة الياء : (وعلى تَفْعِيل فالاسم التمتين والتنبيت . قال أبو بكر : كان ينبغي أن يقع التمتين والتنبيت في باب الياء كما وقع عِزْويت ، وعفريت) (٢) .

ولا يوافق على أن يذكر سيبويه وزن (فُعَامِل) في باب لحاق الميم ويرى أن موضع هذا البناء هو باب لحاق الألف (وعلى فُعَامِل قالوا : دُلامِص ، قال أبو بكر : كان ينبغي الا يقع دلامص

(١) الاستدراك : ١١ .

(٢) نفسه : ٢٣ .

هاهنا وأن يأتي في باب لحاق الألف كما جاء في ذلك الباب جميع الزوائد ما خلا زيادة الهمزة مما فيه الألف الزائدة مثل عِرَضْنَى والحَوْزَلَى والضَّيْمُرَان والفِرناس ونحو ذلك) (١) .

٥ ـ شرح الغريب :

ان من خطة الزبيدي أن يشرح في آخر كل باب ما وقع فيه من الألفاظ الغريبة ، وقد التزم بذلك حتى آخر كتابه ، ولا مرية في أن اقدامه على شرح الأبنية الغريبة هو آية على تمكنه من الغريب ، ودليل على غزارة علمه باللغة وكثرة محفوظه منها ، ولم يكتم الزبيدي فخره بهذا العمل بل أدل به ، وغمز سيبويه ومن بعده من أئمة اللغة واتهمهم بالعجز عن شرحها ، وعجب من ثقة اللغويين بسيبويه حين أيقنوا أنه لم يذكر تلك الألفاظ إلا وهو محيط بمعانيها . وكأني بالزبيدي يرد عليهم بقوله ما قيمة معرفته بتلك المعاني ما دام قد أخذها بأكفانه :

(ثم نشرح بعد كل باب منه ما وقع من غريب الأبنية شرحاً مختصراً كافيا ، وان كان أهل اللغة قد تحاموا شرحها ، وتفادوا من تفسير غريبها ، وشهدوا لسيبويه بالتقدم في علم اللغة بما أثبته في كتابه منها ، حين أيقنوا أنه لم يمن بنقلها إلا بعد احاطته بعلمها وتفسير مشكل غريبها) (٢) .

وقد اعترف بأنه لم يستطع تفسير بعض الكلمات ، فقال : (وقد أرجأنا منها شرح حروف يسيرة لم ينته إلينا علمها فأتينا بها

(١) الاستدراك : ٢٤ .

(٢) نفسه : ٢ :

في أواخر الأبواب ولم نيأس بعد من ادراكها عند استقصاء البحث عنها ان شاء الله تعالى) (١) .

فتفسير الغريب في آخر كل باب عمل قيم ، قـــد أعلى قيمة الكتاب وزاد في نفعه .

وقد اختلفت طريقته في الشرح ، فهو حينا يختصره ويقتصره على ذكر معنى المفردة دون أن يدعمه بالشاهد ، وحينا يطيله ويستطرد فيه فيذكر المأثور من معاني الكلمة ويستشهد على صحة ما يذكر بالشعر ، فمن أمثلة الشرح المختصر قوله : (الكاهل : فرع الكتف ، والغارب مثله) (٢) وقوله (الجَمَاد الارض التي لم تمطر) (٣) وقوله (الماء الحاطُوم المرى ، والفاتُور الفاتر) (٤) .

ومن أمثلة اطالته الشرح ، وبسطه الكلام على المفردة ، والاتيان بجميع معانيها ، والتعرض لاشتقاقها قوله (والناموس جبرئيل (ع) ، من نمس بالكلام إذا أخفاه ، والناموس بيت الصائد يخفي نفسه فيه والناموس دويّبة أغيبر كهيئة الذرة تلطع الناس عن أبي حاتم) (٥) .

وقوله : (والقاصِعاء من جِحَرة اليربوع وقال أبو حاتم يقال قصع اليربوع وهو أن يحفر جُحْره فاذا فرغ ودخل فيه سد فم الجحر بتراب يجيء به من داخل لئلا يدخل عليه فيسمى ذلك الجحر القاصعاء وقال الاصمعي كل ساد مقصّع ويقال للجرح اذا شرق بالدم قصع بالدم ،

---

(١) الاستدراك : ٢ .

(٢) نفسه : ١٥ .

(٣) نفسه : ١٥ .

(٤) نفسه : ١٥ :

(٥) نفسه : ١٥ .

وقصع البعير بجرّته اذا ملأ فمه جَرَّة) (١) :

ويستشهد أحياناً بالشعر على صحة المعنى الذي يذكره للكلمة ، ولكنه لا يزيد على البيت ، وقد يجتزىء أحياناً بشطر من بيت تفاديا للاطالة :

(هو في كوفان أي أمر شديد عن أبي عمرو ، وقال :

فما أُضَحِي وما أمسيت الا وانّي منكُمُ في كَوَّفَانِ) (٢)

وقال (والسَبُعَان موضع وانشد لتميم بن أبي :

ألا يادِيار الحيِّ بالسَبُعَان أمَلّ عليها بالبِلى المَلَوانِ) (٣)

وقال (والعِصْواد مستدار القوم في حرب أو خصومة وأنشد لأبي زيد :

وتساقى الابطالُ بالأَسَل الحتفَ وظَلَّ الكُماةُ في عِصْواد

والعَصْوَدَة اختلاط الأصوات في حرب أو شر عن أبي زيد ويقال : العِصْواد القليلة اللحم من النساء وأنشد :

يا مي ذات الخال والمعضاد فَدَتْك كلُّ رَعْبَل عِصْواد) (٤)

وقد يورد شطرا من بيت اثباتا لصحة المعنى الذي يذكره للكلمة كقوله (والقُعْدُد أيضاً اللئيم وأنشد :

. . . . . . لئيمٌ مآثُرُه قُعْدُدُ) (٥)

---

(١) الاستدراك : ١٥ :

(٢) نفسه : ١٤ .

(٣) نفسه : ١٨ .

(٤) نفسه : ١٨ :

(٥) نفسه : ١٦ .

وقوله : (والغيلم المرأة الحسناء وأنشد للهذلي :

. . . . . . تُغيب الى صوته الغَيْلَمُ) (١)

وقوله : (والغيَاطِل جمع غَيْطَل وهو الملتف من الشجر وقال أبو عمرو : الغيطلة الأجمة وأصل ذا من الالتفاف ولذلك قيل للظلمة الملتجة غيطلة وأنشد :

. . . . . . والليلُ مُختلِطُ الغيَاطِلِ ألْيَلُ) (٢)

وقوله : (وسِنْداد اسم موضع قال الأسود :

. . . . . . والقصرِ ذي الشرفاتِ من سِنْداد) (٣)

وقد استشهد الزبيدي بالحديث الشريف مرة واحدة في شرح كلمة (اهجيرى) قال : (والاهجيرى) كلام الرجل يردده ودأبه ، في الحديث كانت اهجيرى أبي بكر رضي الله عنه لا اله إلا الله) (٤) .

ويذكر اسم اللغوي الذي يروى عنه معنى الكلمة ، ولكنه لايذكر الكتب التي يقتبس منها نقوله ورواياته ، ولا ندري أكانت مصادره شفوية ام كتباً . من ذلك قوله (والإجفيل الظليم يجفل من كل شيء ، وقال يعقوب : الاجفيل الذي يهرب من كل شيء فرَقا) (٥) وقوله (والأُفنُون العجوز عن أبي عبيدة ، وأنشد لابن أحمر الباهلي :

شيخٌ شآم وأُفنُونٌ يمانية) (٦) .

---

(١) الاستدراك : ١٦ .

(٢) نفسه : ١٦ .

(٣) نفسه : ١٧ .

(٤) نفسه : ١٠ .

(٥) نفسه : ٩ .

(٦) نفسه : ٩ .

وقوله (وقال النضر بن شميل : يقال ناقة اسْحَوف الأحاليل إذا كانت عظيمة الضرع واسعة الاحاليل) (١) و (رجل عُمَدّان أي طويل عن ابن دريد) (٢) وقوله (٣) : (وحكى اللحياني امرأة جُلُبَّانة وجِرِبَّانة حمقاء) .

وقد لا يذكر اسم اللغوي الذي ينقل عنه معنى المفردة ، ويترك الرواية غير معزوة لأحد كقوله (وقد سمعت بعض اللغويين يذكر أن الفرازين ضرب من الدواب واحدها فِرْزَان) (٤) وقوله : (والبلاليق وجمع بلوقة وهي ما استوى من الارض ، وقال بعض اللغويين هي الارض التي لا شيء فيها) (٥) . وقوله (وقد سمعنا ان الفردوس الكرم وخضرته) (٦) . وقوله (وقد سمعت أن القَفَعْدَد نبت) (٧) . وقوله (وقد سمعت ان العَرَطْلِيل الطويل وهو صحيح في الكلام لان العرطل الطويل ، قال الراجز :

وكاهل ضخم وهادٍ عَرْطَل) (٨) .

---

(١) الاستدراك : ٩ .

(٢) نفسه : ١٩ .

(٣) نفسه : ١٩ .

(٤) نفسه : ١٩ ، ٢٠ .

(٥) نفسه : ١٥ :

(٦) نفسه ا ٣٠ .

(٧) نفسه : ٣٦ .

(٨) نفسه : ٣٢ .

والواقع أن الزبيدي تحمل وحده مسؤولية شروح معظم الكلمات فلم يعزها لأحد ، ولم يروها عن لغوي ، ذلك لانه لغوي مشهود له برسوخ القدم في اللغة ، موثوق فيه بما يروى منها ، بل كان فى المغرب بمنزلة ابن دريد في المشرق .

وتبرز شخصيته بوضوح في اثناء تفسير الأبنية الغريبة ، فكثيراً ما يرفض تفسير بعض اللغويين لكلمة من الكلمات لأنه يراه عاماً يشوبه الغموض ولا يبرز المعنى الدقيق للكلمة ، بل يراه أشبه بالهروب من تحديد معنى واضح لها ، انظر قوله : (وأما الهَيَرُدَّان فذكر ابن دريد انه اسم ، وهـذا غير مقنع لانه لم يزد على ما قاله سيبويه من أنه اسم) (١) .

وقد يروى للكلمة معنيين فيرجح أحدهما على الآخر (وحملاق العين ما ولي الجمجمة من الحدقة ويقال حملق الرجـل إذا فتح عينيه ونظر نظراً شديداً .

ويقال الحملاق باطن الجفن ، وقـد حملق إذا قلب جفنه وهو أصح من القول الأول) (٢) .

وأما الكلمات التى لم ينته اليـــه علم معانيها ، فهي قليلة ، وقد اجتهد في تفسير بعضها ، ولم يكتف باعلان انبهام معناها ، واستغلاقه عليه ، واتبع في معالجتها طريقة تنبىء بسعة محفوظه ، لكأن صدره مأوى الاوابد ، ومعقل الكلمات الشوارد ، فهو يقف عند الكلمة التي لم يلف لها معنى ، ليدقق في حروفها ، ويلاحظ ما اذا كان أحدها مبدلا من حرف آخر قريب من مخرجه ، فتكون في الكلمة لغتان . شاعت

---

(١) الاستدراك : ٢٠

(٢) نفسه : ٣٣ :

احداهما ، وندر استعمال الاخرى ، انظر قوله في كلمة (ارفلة) : (ولا نعلم ارفلَّة وقد روى الحرف بعض اللغويين عن سيبويه ارْفَنَّة بالنون ، وقال هو اسم رجل ، واللام قريبة من النون ، وقالوا ثوب رِفنّ ورفلّ ولعلّك ولعنّك ، فان كانت الروايتان صحيحتين فهي لغة إرْفَنَّة وإرْفَلَّة) (١) .

وقال في شرح كلمة (هُمَارِيَة) : (ولم نلف تفسير الفرازين وهمارية . . .) ثم قال : (وأما الهُبَارِيَة بالباء فهي الريح الغَبِرَة الكثيرة التراب وزعم النضر بن شميل أن الهُبَارِية والهُبْرِية والأُبرِية التي تكون في الرأس والميم والباء متقاربتا المخرج فأحسبهما لغتين هُمَارِية وهُبَارِية كما قالوا طين لازب ولازم وموماة وبَوْبَاة وما اسمك وبا اسمك وروى أبو علي هُبَارِية بالباء) (٢) .

وقال في شرح كلمة (جعنبار) : (ولم نلف تفسير جِعِنْبار . . . ويمكن أن يكون الجِعِنْبار لغة في الجِحِنْبار لتقارب مخرج الحاء والعين ولا يبعد ان يكون القصير لان اشتقاقه واشتقاق الجمبريّة واحد وهي المرأة القصيرة) (٣) .

وهكذا فالزبيدي لا يتراجع امام الكلمة الغريبة ، بل يجتهد في ازاحة غموضها بموازنة صورتها بصورة كلمة قريبة منها ، فيهتدى بذلك إلى معنى لها ، وإن كان لا يقطع به ، ويمكن أن نضيف المثل الآتي لما سبق : (والقِهْقَمّ الذي يبتلع كل شيء ، ووقع في الكتاب

---

(١) الاستدراك : ١٠ .

(٢) نفسه : ١٩ ، ٢٠ :

(٣) نفسه : ٣٤ :

القهقب بالباء وقد ذكرنا أن الميم تبدل من الباء كثيراً) (١) فالزبيدي يتحمل مسؤولية البت في أن القهقب لغة فى القهقم ، مؤيداً رأيه بالقوانين الصوتية التي تحكم اختلاف اللهجات .

وقد رد غرابة بعض الكلمات إلى تغير صورتها ، بعد عبث النساخ بحروفها ، ولاشك أن الكلمة بعد التحريف تعود غريبة غير مفهومة الدلالة ، وقد اجتهد في اعادة بعض الكلمات الى صورتها الأصلية ، كما يجتهد المحققون اليوم في اقامة كلمة تبدلت صورتها في ضوء التشابه بين شكلها الأصلي والشكل الذي آلت إليه بعد التحريف ، مثال ذلك (ولم نلف تفسير خُنُبْعَثَة . . . وحكى بعضهم امرأة جنبقثة بالجيم والقاف وهي العظيمة وهي نحو صورة خُنُبْعَثَة) (٢) .

وهناك مفردات اكتفى الزبيدي باعلان غرابتها ، وصرح بأنه لا يملك لها تفسيراً ، وقد بحثت عنها فى بعض المظان ، فوجدت أن بعضها مشروح ، وبعضها الآخر مغفل .

فمن الكلمات التي لم يشرحها الزبيدي ، وشرحها المتأخرون :

كلمة (حِفْرِد) ، جاء في القاموس : (الحفرد كزبرج حب الجوهر ونبت) ، وكلمة (المنجنون) ، قال الفيروزآبادي : (المنجنون الدولاب يستقى عليه ، أو المحالة يسنى عليها ، والدهر) ، وكلمة (جِدَبّ) ، التي شرحها الفيروز آبادي بقوله : (وجِدَبّ كهجف اسم للجدب) ، وكلمة (عُنُبَّب) وهي (واد باليمن ومن السيل مقدمه) كما جاء في القاموس . وكلمة (الحِنْبَتْر) التي شرحها الفيروزآبادي بقوله (الحنبتر كجردحل الشدة) . وكلمة (البُلَعْبِيس)

(١) الاستدراك : ٣٦ .

(٢) نفسه : ٣٥ :

وهي (الأعاجيب) كما قال صاحب القاموس : و (الصُّمْرُر) وهو (ما جمد من اللثا والصمغ الطويل الدقيق الملتوي وشيء غليظ يابس فيه رخاوة وبلل يخرج من الاحليل وأول ما يحلب من اللباد وحمل شجرة يكون مثل الابهل والفلفل ونحوه مما فيه صلابة أوالصمغ عامة) كما قال صاحب القاموس :

أما الكلمات التي أنكرها الزبيدي ، وعجز عن شرحها ، واغفلها ابن منظور والفيروز آبادي فهي (همارية) و (حُوَمّان) و (الهَيْرُدان) و (خُبَعْبِيل) و (خُنْبُعْثَة) و (حَفَيْفَل)

٦ ـ التنبيه على ما أصاب (الكتاب) من تحريف وتصحيف :

وقد أشار الزبيدى إلى ما أصاب كتاب سيبويه من أخطاء ألحقها به ناسخوه ، وأشار إلى الاختلاف بين النسخ المتداولة في عصره ، وحاول أن يصحح تلك الاخطاء ، من ذلك أن بناء (مَفْعِلى) (ذكر مرتين في باب لحاق الألف ، وتكررت في المرتين كلمة (مرعزى) كمثل عليه ، في حين أن بناء (مَفْعِلاء) لم يذكر في الباب ، قال الزبيدي (١) : (وعلى مَفْعِلىً فالاسم مرعزى ، قال أبو بكر : هكذا وقع هذا الحرف وأنا أحسبه مرعزاء على مثال مَفْعِلاء لأن مرعزى قد تكرر في هذا الباب وقد أثبت ذكر مرعزاء في باب مايجعله زائداً) .

وفي باب لحاق الواو للرباعي تكررت كلمة (منجنون) مرتين وقد كان وزنها فَعْللوُن مرة وفَنْعَلُون مرة أخرى ، فأنكر الزبيدي

(١) الاستدراك : ١٤ .

كلمة منجنون واحتج بأنها لم تقع في النسخة التي رواها القالي (ولم نلف تفسير منجنون ولم يقع في رواية اسماعيل) (١) :

وقد وردت فى الكتاب كلمة (صِنْغ) بالغين المعجمة ، فأنكرها الزبيدي وقال (٢) : (ووقع فى الرواية صِنْغ بالغين المعجمة ، ولا أعرف الا الصِنْع بالعين غير معجمة وكذلك رواية اسماعيل بالعين غير معجمة . قال الاصمعي يقال رجل صنع اليدين وأنشد :

صنع اليدين بحيثُ يُكوَى الأَصْيَدُ

قال فاذا أفردوا قالوا رجل صَنَع محركا مفتوح الصاد)

ومن الاشارة الى اختلاف النسخ المتداولة من كتاب سيبويه قوله (٣) : (وعلى إفْعَلْ فالاسم إصبع وابرم وابين واشفى وانقحة لم يقع ابرم وابين في رواية البغدادي) :

ومن ذلك أن بناء (فَعْلَلَى) تكرر مرتين ففي الأولى (وعلى فَعْلَلَى فالاسم جحجبي وقرقرى وقهقرى وفرتنى ولم يأت صفة) (٤) . وفي الثانية (وعلى فَعْلَلَى فالاسم الهرندى) (٥) وقد رأى أن تكرر (فَعْلَلَى) غير صحيح ، وان (فَعْلَلَى) الثانية لابد أن تكون محرفة عن (فِعْلَلَى) وهو وزن مستعمل في الكلام ولم يذكر في الباب

---

(١) الاستدراك : ٣١ .

(٢) نفسه : ٧ .

(٣) نفسه : ٧ .

(٤) نفسه : ٣٢ ، ٣٣ .

(٥) نفسه : ٣٣ .

ثم أنكر كلمة (الهرندي) ورأى أنها مصحفة من (الهِرْبَذَى) وهو نوع من المشي . قال الزبيدي : (ولم نألف تفسير .. وهرندى) ثم قال (فأما الهرندى فاحسبه وقع غير صحيح وأراه الهِرْبَذَى ، وهي مشية الهرابذة ، لان (فِعْلَلَى) لم يقع في هذا الباب ، وقد جاءت في الكلام) (١) .

وقد نبه الى أن كلمة (شِنَّغْم) التي وقعت في نسخة (الكتاب) التي بيديه ، مصحفة من (شِنغْم) : وشنغم اتباع ، يقال رغما شنغما ، والرواية في الكتاب بالعين غير المعجمة) (٢) .

ج - مصادر الكتاب

١ - الاعتماد على الرواة واللغويين :

امتاز الزبيدي بالامانة العلمية ، والحرص على نسبة كل قول إلى صاحبه ، ولذا كان كتابه هذا سجلا حفل بالكثير من الاقوال والروايات وترددت فيه أسماء كثير من اللغويين البصريين والكوفيين .

فاما البصريون فهم : الاصمعي ، أبو عمرو بن العلاء ، النضر ابن شميل ، أبو عبيدة ، ابو زيد ، قطرب ، الاخفش ، أبو نصر ، أبو حاتم السجستاني ، ابن دريد ، ابن قتيبة ، المبرد ، المازني ، القالي .

واما الكوفيون فهم : الكسائي ، الفراء ، ثعلب ، ابن السكيت

---

(١) الاستدراك : ٣٤ .

(٢) نفسه : ٣٥ .

ابن الاعرابي ، ابن الانباري ، اللحياني . وتتردد عنده عبارة (وزعم) أو (قال بعض اللغويين) أو (حكي) أو (سمعت) . وهـذا وان يقدح في الدقة ، كان عملا شائعاً آنذاك .

ونلاحظ أن حظ علماء البصرة من الاستشهاد بأقوالهم ، والاعتماد على رواياتهم ، أكثر من حظ علماء الكوفة ، وهذا يؤيد ما نذهب إليه من ان الزبيدي كان يجنح الى المذهب البصري ، ويكثر من الاعتماد عليه ، ولكنه قد يأخذ بأقوال الكوفيين ، ويعتمد عليها أحياناً .

وقد نال (أبوزيد) أوفى نصيب من الاستشهاد بأقواله ، اذ ورد ذكره أربع عشرة مرة ، ونال أبو عمرو بن العلاء نصيبا وافيا ولكن اسمه أقل ترددا في الكتاب من اسم (أبي زيد) ، فقـد ورد ذكره عشر مرات ، ويليه الاصمعي وابن دريد ، حيث ورد اسم كل منهما تسع مرات ، ويليهما أبو حاتم وأبو عبيدة والقالي فقد ورد ذكر كل منهم ثماني مرات .

وأما ابن قتيبة فقد ورد اسمه خمس مرات ، ويليه المبرد وأبونصر ورد اسماهما أربع مرات ، واستشهد ثلاث مرات ، بأقوال المازني ومرتين بأقوال قطرب .

وأما من استشهد بأقوالهم مرة واحـدة فقط فهم الخليل وسعيد الاخفش ، والتوزى .

وأما علماء الكوفة فقد نال منهم يعقوب أوفى نصيب من الاستشهاد بأقواله ، إذ ورد ذكره احدى عشرة مرة ، ويليه ابن الاعرابي فقد ورد اسمه ست مرات ، ويليه الكسائي والفراء ، فقد ورد اسم كل منهما ثلاث مرات ، واستشهد مرة واحـــدة بأقوال ثعلب وأبي عبيد والطوسي ، والاموي وترددت عبارة (قال الكوفيون) مرتين .

٢ ـ الشواهد :

لقد كان من خطة الزبيدي في كتابه ، أن يشرح ما يقع له من المفردات الغريبة النادرة التي أغفل سيبويه شرحها ، وقد شرح تلك المفردات فاحتاج في أثناء الشرح الى الاستشهاد بالشعر ليعزز به المعنى الذي يحدده للكلمة ، وقد لاحظنا في غير هذا الموضع ، أنه كان يتوخى من الشاهد التدليل على صحة ما يذكر للفظة من معنى ، ولذا قد آثر ألا يستطرد في اثناء الاستشهاد فيأتي بما لا حاجة به من أبيات تسبق موطن الشاهد أو تتلوه ، بل اجتزأ احياناً بشطر من بيت وجده يفي بغرضه ، وقد بلغ مجموع الاشطر التي استشهد بها (٢٧) شطرا ، وحملته الرغبة في ألا يذكر من الشعر الا ماهو في حاجة اليه ، على أن يستشهد مرة ببعض بيت ، أي بكلمة من آخر الصدر ، وبالعجز

وأما عدد الابيات الكاملة التي استشهد بها خلال شرح المفردات فهو سبعة وأربعون بيتاً ، وقد بلغ بذلك مجموع شواهده الشعرية أربعة وسبعين شاهداً ، بضمنها الاشطر .

ولم تكن جميع هذه الشواهد منسوبة لقائليها ، بل ترك طائفة كبيرة منها دون عزو أو نسبة ، وقد بلغ مجموع الشواهد المجهول قائلوها ثمانية وثلاثين شاهداً ، ولكنه روى بعضها عن لغويين ثقات ، يطمأن إلى ما يرونه ، ويعتد به ، كأبي عمرو وابن دريد والاصمعي ، وهذا الامر جائز في الاستشهاد ، فقد منع بعضهم الاحتجاج بشعر لا يعرف قائله ، خشية أن يكون لمولد أو محدث لا يوخذ بكلامه ، وقبل آخرون الشاهد المجهول قائله إذا كان الذي يرويه ثقة لا ترد

له رواية (١) .

وأما الشعراء الذين استشهد بهم ، وصرح بأسمائهم فهم :

سحيم بن وثيل ـ ذو الرمة ، ابن أحمر الباهلي ، طفيل . الطرماح ، زيد الخيل ، ابن مقبل ، أبو العيال الهذلي ، أبو النجم العجلي ، سحيم ، الاسود ، تميم بن أبي ، أبو زبيد ، حميد بن ثور رؤبة ، ابن حلزة ، كثير ، العجاج ، الحارث آكل المرار ، ساعدة .

واحتج بحديث واحد كما تقدم ، ولم يستشهد بشيء من النثر . ولابد من ملاحظة تشدده فى السماع ، فالذي يتضح من أسماء الشعراء الذين احتج بأقوالهم أنه لا يأخذ إلا بأقوال المجمع على الاستشهاد بهم من الشعراء ، وأعني بهؤلاء الجاهليين ، والمخضرمين ، والاسلاميين الذين كانت أشعارهم أساساً هاما بنيت عليه قوانين العربية ، واستنبطت منه مادة المعجمات .

فهو كغيره من اللغويين الذين تولوا شروح المفردات ، وتجلية معاني الكلمات ، لم يستشهد في أثناء الشرح والتفسير بشيء من شعر المحدثين أو المولدين ، الذين طرحت أقوالهم ، وتجافى أهل اللغة عن الاحتجاج بها ، لأنهم لم يعدوا المولدين عرب فطرة وسليقة ، بل عدوهم عرباً اكتسبوا العربية بالدراسة والتعلم .

د ـ شخصية الزبيدي العلمية :

لقد مر بنا أن كتاب سيبويه ، كان قد بلغ منزلة عالية عند اللغويين فى الاندلس ، وانهم كانوا يرون الاحاطة به ، والوقوف على

---

(١) الاقتراح : ٢٦ وخزانة الادب : ١ / ٨ .

مسائله ، غاية ما يطمع به دارس العربية ، كما مر بنا أنهم تنافسوا في استظهاره ، وعقدوا المجالس للتناظر فيه ، والزبيدي لم يشذ عن أهل بلده في احترام الكتاب ، وتوقير مؤلفه ، فقد أسلفنا أنه كان يستصغر جهود النحاة بعد سيبويه : ويرى أن كل أوضاعهم تكرار لكتابه لم يأتوا فيها بجديد ، ولم يزيدوا على أن راحوا يلوكون آراء سيبويه وأقواله .

تلك هي منزلة كتاب سيبويه في الاندلس ، ولا شك أن فكرة التصدي له ، والكشف عما فيه من عثرات وسقطات ، كانت فكرة لا تطوف إلا بنفس رجل توطدت قدمه في اللغة ، وبلغ من الاحاطة بمتنها وغريبها منزلة استطاع معها ان يتهدى إلى أخطاء سيبويه ومواطن سهوه ، ويتنبه إليها ، وهكذا كان أبو بكر الزبيدى ، فقد أثبت في هذا الكتاب أنه اللغوي الذي يستطيع أن يتعقب سيبويه ، ويقارعه ويفند طائفة من أقواله ، ويبدي الحجة على ذلك ، كما أثبت لأهل المشرق أن الاندلس قد شبت عن الطوق ، واشتد منها الساعد ، ولم تعد مجرد تلميذة تأخذ من غير ان يكون لها موقف من الذي تأخذه ، أو رأي فيه .

لم تظهر فى هذا الكتاب شخصية الزبيدي العلمية وحدها ، بما تتميز به من احاطة باللغة ، وارتواء حتى التضلع من شواردها ، بل ظهرت فيه أيضاً شخصية الاندلس التي لم يكن لها قبل الزبيدي ظل واضح في علوم العربية ، ولم يظهر فيها من الكتب ما يلفت نظر المشارقة أو يستحق منهم أن يعنوا به ، أو يقفوا عليه ، فقد كان قائلهم يقول إذا رأى كتاباً أندلسياً : هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ولا أظن كتاب الزبيدي هذا مما تصدق عليه هذه العبارة .

صحيح أن بعض استدراكات أبي بكر على سيبويه هي مما اهتدى إليه النحاة المشارقة كما مر ، ولكن كثيراً منها كانت أصيلة ، لم يسبقه أحد إلى التنبيه عليها .

والذي تجدر الاشارة اليه أن الزبيدي لم يبد في كتابه ، وقد أسكره الانتصار على سيبويه ، وزهاه الوقوف منه موقف المناظر المحاجج فلم تند عنه عبارة تشي بطعن على سيبويه ، أو انتقاص من قدره وعلمه بل انه في صدر كتابه ، قد أشاد بمنزلة سيبويه ، واعتذر عنه مما وقع في كتابه من السهو والغلط ، فدل بذلك على خلق علمي رفيع .

والذي ألاحظه هو أن الزبيدي كان يناقش سيبويه في بعض الظواهر اللغوية نقاشاً علمياً ، تعضده الأدلة ، وتدعمه الحجج ، فهو لا يكتفي بتخطئة سيبويه ، بل يحاول تفنيده بأدلة لا سبيل الى نكرانها أو دفعها .

من ذلك أنه يقرر أن شرط ابدال حرف من حرف أن يكون الحرف أصلا ثم يبدل منه حرف اخر ليس بأصل ، اما لعلة تضطر لذلك فيكون مطرداً مثل قيل وميزان ، وإما لغير علة كفم واصيلال ونحو هذا يحفظ ولا يقاس عليه .

وبعد أن أوضح الابدال على هـــذا النحو ، توصل إلى أن ياء (مسلمين) ليست بدلا من ألف (مسلمان) كما أن ياء (مسلمين) ليست بدلا من واو (مسلمون) كما يزعم سيبويه لأنه ليس من هذه الحروف ماهو أصل لازم للاسم وانما هي أدلة على اعراب الاسم (١) .

ويذهب سيبويه إلى أن (أَفْعُـل) لم يأت في الاسماء ولا في الصفات إلا جمعاً مكسراً نحو أكلب وأعبد ، فيتصدى له الزبيدي ،

---

(١) الاستدراك : ٦ .

ويرد عليه ، فيقول : بأن (أفْعُل) جاء للواحد ، فقد قالوا : أذرح وأسنمة لموضعين ، ثم يستبق من قد يرد عليه فيقول (وان قال قائل ان أذرح وأسنمة جمع لا يعرف واحده سمي به المكان ، فذلك غير ممكن في أسنمة لأن أفْعُلَة بالهاء لم تأت جمعا لشيء البتة) (١) .

وغني عن البيان ، ماني عبارة الزبيدي هذه من دلالة واضحة على تمكنه من اللغة ، ودقة استقصائه لمفرداتها ، فلو لم يكن محيطاً بأبنية الكلام ، عارفاً أساليب العرب في تأليف الالفاظ ، لما قطع بأن ليس في الجمع شيء على وزن أفْعُلَة .

وينفي سيبويه مجيء المضاعف مكسور الأول في غير المصادر نحو الزِلزال والقِلقال وغيرهما ، فيفند الزبيدي رأيه ، ويرد عليه رداً يدعمه الدليل ، وتنهض به الحجة ، فيقول : (قد جاء اسما غير مصدر قالوا الدِئداء والدَأداء لآخر الشهر ، ولا سبيل إلى أن تكون الهمزة الواقعة بعد الالف منقلبة عن واو أوياء فيكون كعلباء لأنك تقول دأداء فلو كانت الهمزة منقلبة عن ياء أو واولكان فعلالا من غير المضاعف ، وهذا لا يكون عندهم سوى ما ذكرنا من قولهم خزعال ، وانما جاء عن الكوفيين ، فالهمزتان اذن أصليتان في دئداء ودأداء) (٢) .

فالزبيدي حر الرأي ، مستقل الفكر ، لا يقفو غيره من اللغويين الا اذا ترجح عنده ما يذهبون اليه ، واستبان له وجه الحق فيه ، يدلك على ذلك ، فوق ما تقدم من أمثلة ، أن بعض اللغويين زعم أن الفعل على وزن (افعَنلَى يفعَنْلي) يكون متعدياً واستشهد بقول الشاعر :

قدجعل النعاس يَغْرَنْديني   أدفعُه عني ويَسْرَنْديني

---

(١) الاستدراك : ٧ .

(٢) نفسه : ٣٢ .

وذهب الزبيدي إلى أن الفعل من هذا الوزن يكون لازماً ، وعلق على الشاهد بقوله : (وهـذا عندي محال ، واحسب البيتين مصنوعين) (١) .

وفي الكتاب أمثلة أخرى تشهد بنزوع الزبيدي إلى الاستقلال في الرأي ، ونقد اللغويين ، والاعتراض عليهم ، والقدح في مروياتهم حيناً ، وتخطئتهم حيناً آخر ، بل الكتاب كله شاهد على ما أريد اثباته من بروز شخصية الزبيدي فيه ، لأنه مؤلف في نقد سيبويه ، وجرد عثراته وتقصي سقطاته ، ولا شيء أدعى إلى بروز الشخصية من النقد .

هـ ـ مناقشة ما استدركه الزبيدي على سيبويه

ابن جني والأبنية المستدركة على سيبويه :

عقد ابن جني في كتابه (الخصائص) باباً سماه (باب القول على فوائت الكتاب) وقد استهله بمقدمة ، تضمنت دفاعاً حاراً عن سيبويه ، وهجوماً عنيفاً على الذين عابوا أبنيته بالنقص وزادوا عليه أبنية ، زعموا أنه لم يهتد إليها ، ولما كان العدد الذي جمعه ابن جني من أصول الابنية المستدركة لا يتعدى الثلاثة والستين بناء فقد رأى ان احاطة سيبويه بجميع أبنية الكلام ، ما خلا هذا العدد الضئيل ، لدليل على فضله ، واحاطته بهذه اللغة الفائضة المنتشرة ، وكان خليقاً بالذين تتبعوه بهذه الاضافات القليلة ـ ان كانوا يريدون الغض من قدره ـ أن يقدروا وعورة الطريق الذي سلكه ، وصعوبة الأمر الذي تكلفه ، فينشروا عن غمزه

---

(١) الاستدراك : ٣٩ .

والحط من رتبته .

ثم صنف ابن جني الأبنية المستدركة على سيبويه الى أضرب ، فقال : « وعلى الجملة فان هذه الفوائت عند اكثر الناس ، اذا فحص عن حالها ، وتؤملت حق تأملها ، فانها ، الا مالا بال له ، ساقطة عن صاحب الكتاب ، وذلك انها على أضرب ، فمنها ماليس قائله فصيحا عنده ، ومنها مالم يسمع الا في الشعر ، والشعر موضع اضطرار وموقف اعتذار ، وكثيراً ما يحرف فيه الكلم عن أبنيته وتحال فيه المثل عن أوضاع صيغها لأجله » (ومنها ماهو لازم له ، وعلى أنا قد قلنا في ذلك . ودللنا به ، على أنه من مناقب هذا الرجل ، ومحاسنه أن يستدرك عليه من هذه اللغة الفائضة السائرة المنتشرة ، ما هذا قدره ، وهذه حال محصوله) (١) :

فابن جني اذن ، يرى أن الابنية المستدركة لا تعد فائتة سيبويه ماعدا بعضها ، وهو قليل ليس له بال ، وان سيبويه - في رأي ابن جني - قد تعمد اهمالها ، وقصد إلى تنزيه كتابه عنها .

وسأعرض هنا لآراء ابن جني في الأبنية التي كان أبو بكر الزبيدي وافق اهل المشرق في استدراكها ، وسأضرب صفحاً عن مناقشته للابنية التي لم تكن مما استدركه الزبيدي .

ولم يقف ابن جني على ما استدركه الزبيدي من الأبنية ، ولذا إنه لم يشر الى شيء منها ، واكتفى بنقل ما استدركه نحاة المشرق وحدهم . وقد وهمت الدكتورة خديجة الحديثي حين ذهبت إلى أن الزبيدي استدرك بناء (يفاعلات) ومثل له بـ (يَنَابِعات) فردعليه ابن جني بقوله (وأما يَنَابِعات فما أظرف أبا بكر أن أورده على أنه

(١) الخصائص : ٣ / ١٨٨ ، ١٨٩ .

أحـــد الفوائت ، الا يعلم أن سيبويه قد قال : ويكون على يَفَاعِل نحو اليَحَامد واليرامع . فأما لحاق علم التأنيث والجمع فزائد على المثال وغير محتسب به فيه) (١) . قصد ابن جني أبا بكر بن السراج بقوله (ما أظرف أبا بكر) ، وقـــد نبه محقق (الخصائص) على ذلك ، فأصاب ، لأن الزبيدي لم يستدرك هذا الوزن .

ابن عصفور والأبنية المستدركة :

ألف ابن عصفور كتاباً في التصريف أسماه (الممتع) ، فتعقب في باب أبنية الاسماء منه ما استدركه العلماء على سيبويه ، وحاول أن يدفع هذا الاستدراك ويثبت خطله ، ويجد لسيبويه المسوغ في اهمال ما أهمل من أبنية ومفردات .

لقد التزم ابن عصفور بأبنية سيبويه وأعرض عن الكثير مما زاده النحاة عليها وكان بذلك - على ما يبدو - مدفوعاً بما يكنه لسيبويه من عاطفة حارة منعته من الاعتراف بقصوره والتسليم بما عد فائتا اياه . ولا غرو في أن ينافح ابن عصفور عن سيبويه ، ويلتزم بأقواله ، فقد كان كتابه النبع القراح ، الذي نهل منه ابن عصفور ثقافته النحوية ، حتى أصبح اماما فيه ، يرجع اليه في فهم أسراره ، واستكناه غوامضه .

عرض ابن عصفور لجميع ما عـد فائتا لسيبويه حتى عصره ، فاجتمع له مقدار ضخم من الأبنيـــة المستدركة ، اجتهد في دفعها ، والانتصار لسيبويه في اهمالها ، وسأعرض هنا لرأى ابن جني وابن عصفور فيما استدركه الزبيدي من الأبنية .

---

(١) الخصائص : ٣ / ١٩٨ .

١ - ذهب سيبويه إلى أن في الثلاثي المجرد عشرة أبنية ، فاستدرك عليه الزبيدي فقال (وذكر أبو حاتم عن الاخفش انه قد جاء في كلامهم فُعِل قالوا الدُئِل لدويبة) ثم قال (وزعم غيره أنه يقال للاست رُئِم على مثال فُعِل) .

قال ابن عصفور (فاما دُئِل ورُئِم فلا حجة فيهما لاحتمال أن يكونا منقولين من دُئِلَ ورُئِمَ اللذين هما فعلان مبنيان للمفعول إلى الاسماء ، لأنه يقال دأل ورَئِمَ فاذا بنيا للمفعول قيل دُئِلَ ورُئِمَ ، وقد ينقل الفعل الى الاسم في حال التنكير ، ألا ترى أنهم قالوا اليَنْجَلِب للخَرَز الذي يُجلب الانسان به إلى أمر ، فيكون دُئِل ورُئِم من هذا القبيل ، فلم يبق للثلاثي من الأصول إلا عشرة أبنية) (١) .

٢ - قال الزبيدى ينقل عن سيبويه ويرد عليه : (وعلى فِعَل فالاسم ضلع وصغر ولم يأت صفة الا فى قولهم قوم عِدى ، ولم يكسر على عدى واحد ، قال أبو بكر : قد جاء صفة غير عِدّى قالوا مكان سِوّى أي مُستو وسَبْى طِيَبَة وماء رِوّى وماء صِرّى .

قال ابن عصفور : (فاما سِوّى من قوله تعالى (مكانا سِوّى) فهو اسم في الاصل للشيء المستوى وُصف به ، بدليل انه لو كان صفة أصلية لتمكن في الوصفية فكان يذكر مع المذكر ويؤنث مع المؤنث ، إذ حق الصفة أن تطابق الموصوف . ومما يدلك على انها اذا لم تطابق موصوفها جرت مجرى الاسماء ، جمعهم رَبْعَة : رَبَعَات بفتح العين

---

(١) الممتع : ١ / ٦١ .

كجَفَنَات والصفة المحضة لا يكون فيها الا اسكان العين ، وأنت لا تقول إلا (بُقْعَة سِوًى) فدل ذلك على أنه ليس بصفة في الاصل) (١) .

وما ذكره الزبيدي من صفات على زنة فِعَل : كسَبْي طِيَبَة ، وماء رِوًى ، وماء صِرًى ، قال ابن عصفور فيها : لا حجة في شيء من ذلك على اثبات فِعَل في الصفات لأن جميع ذلك لايطابق موصوفه اما طِيَبَة فانه مؤنث اللفظ وهو تابع لمذكر ، وأما رِوًى وصِرًى ، فيوصف بهما الجمع والمفرد على صورة واحدة فيقال : مياه صِرًى ومياه رِوًى ، وقد تقدم أن الصفة إذا كانت كذلك كانت محكوماً لها بحكم الاسماء) (٢) .

٣ ـ ذهب سيبويه إلى أن (فِعِل) هو من أوزان الاسماء ولم يجيء منه غير (ابل) ، فاستدرك الزبيدي قائلا : (قال الأخفش امرأة بِلِز وحِبِرة للصفرة على الاسنان) ثم قال (قد ذكر ابوالعباس محمد بن يزيد أنه يقال اِطِل على فِعِل للكشح . وزعم غيره أن ذلك لم يأت إلا في ضرورة الشعر وان المعروف اطْل ساكن الطاء ، فلما احتاج الشاعر إلى تحريكها حركها بحركة ما قبلها على نحو قول الهذلي : ضربا أليماً بسبت يلعج الجِلِدا . يعني الجلد . وكان ابو العباس من العلم بمكان لا يجهل معه هذا . وقد حكى بعض اللغويين : اتان إبِد للوحشية) (٣) .

---

(١) الممتع : ١ / ٦٣ ، ٦٤ والاستدراك : ٦ .

(٢) الممتع : ١ / ٦٤ ، ٦٥ .

(٣) الاستدراك : ٦ .

وقال ابن عصفور : (فاما إطِل فلا حجة فيه لأن المشهور فيه اطل بسكون الطاء . فـ (اطِل) يمكن أن يكون مما اتبعت الطاء فيه الهمزة للضرورة ، لأنه لايحفظ الا في الشعر نحو قوله : له إطِلا ظبي وساقا نعامة (البيت) من رواية من رواه كذلك وكذلك حبِرة الافصح والمشهور فيها انما هو حبْرَة وحبِرَة ضعيف ، وكذلك بِلِز لاحجة فيه لان الاشهر فيه بِلِزّ بالتشديد فيمكن أن يكون بِلِز مخففاً منه) (١) .

الثلاثي المزيد

المزيد من حرف واحد :

١ ـ استدرك الزبيدي في باب الاسم الثلاثي المزيد بهمزة ، بناء (أُفْعُل) ومثل له بقولهم (شحم أُمْهُج) أي ذو ودك ، وجعل هذا البناء من ابنية الصفات ، وكان سيبويه قد جاء به للاسماء فقط (٢) .

احتج ابن جني لسيبويه في اهمال هذا البناء بأمرين : الاول أن (أمهج) قد يكون مقصوراً من (أُمْهُوج) ، قال (قد وجدت بخط ابي علي ـ يعني الفارسي ـ عن الفراء : لبن أُمْهُوج ، فيكون أُمْهُج هذا مقصوراً منه لضرورة الشعر وانشد ابو زيد :

يطعمها اللحم وشحما أُمْهُجا

ولم نسمعه فى النثر أُمْهُجا) . ثم قال (وكنت قلت لأبي علي رحمه الله وقت القراءة ان يكون أُمْهُج محذوفاً من أمهوج فقبل ذلك

(١) الممتع : ١ / ٦٥ ، ٦٦

(٢) الاستدراك : ٧ :

ولم يأبه) (١) .

واذا كان هذا اللفظ مقصوراً من (أُمْهُوج) فلا يعد أصلا ، وقد ذكر سيبويه أصله (أُفْعُول) فى الصفات ومثل له بأُمْلُود وأُسْكُوب وأُفْنُون فلا داعي لذكره .

الثاني : وقد يكون أُمْهُج فى الاصل اسما لا صفة الا انه وصف به لما فيه من معنى الصفاء ، كما يوصف بالاسماء الضامنة لمعاني الاوصاف (٢) . وذهب ابن عصفور مذهب ابن جني في دفع هذا البناء عن أن يكون من أبنية الصفات (٣) .

٢ - وفي هذا الباب نفسه قال الزبيدي : (قال سيبويه : ولم يأت (أَفْعُل) فى الاسماء والصفات الا أن يكسر عليه الاسم للجمع نحو أكلب وأعبد . قال أبو بكر قد جاء أفعل للواحد ، قالوا أُسنُمَة ، وأَذْرُح لموضعين . فان قال قائل ان أذرح جمع لا يعرف واحده سمي به المكان ، فذلك غير ممكن له في (أسنمة) لأن أفعُلَة لم تأت جمعا لشيء البتة . وقد حكي أصبُع وأَبْلُمَة أيضا) (٤) .

وأنكر ابن عصفور أن يكون شيء من ذلك فائتاً سيبويه ، فقال (فأما أذرح وأسنمة فعلمان ، فلا يثبت بهما بناء ، لان العلم أكثر مايجيء منقولا بل من الناس من أنكر أن يجيء مرتجلا ، فاذا كان العلم كما وصف ، احتملا أن يكونا منقولين من الفعل فيكون أذرح فعلا في الأصل ثم سمي به . وكذلك (أسنمة) كأنه (أسنم) في

(١) الخصائص : ٣ / ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٢) نفسه : ٣ / ١٩٥ .

(٣) الممتع : ١ / ٧٣ ، ٧٤ .

(٤) الاستدراك : ٧ .

الأصل ثم سمي به ، فان قلت لو كان منقولا من الفعل لما دخلت عليه تاء التأنيث لان التاء لا تدخل على الفعل المضارع :

فالجواب أنه لما انتقل من الفعلية إلى الاسمية ساغ دخول تاء التأنيث عليه والدليل على ذلك قولهم (اليَنْجَلِبَة) في اسم الخَرَزَة لانها يجلب بها الغائب وهي فعل في الأصل لانها على وزن الفعل المختص ، لكن لما انتقلت إلى الاسمية ساغ دخول التاء عليها .

وحكى الزبيدي (أُصْبُع) و (أُنْمُلَة) (١) بضم الهمزة ، فيمكن أن يكون الفتح تخفيفا كما قالوا في (بُرْقُع) (بُرقَع) بالتخفيف) (٢) .

٣ ـ قال الزبيدي : (قال سيبويه : وليس في الكلام إفعُل . قال أبو بكر : ذكر ابن الانباري أنه يقال إصْبُع بكسر الهمزة وضم الباء لغة وابلُمَة) (٣) :

قال ابن جني (ووجدت بخط أبي علي : قال الفراء : لايلتفت الى ما رواه البصريون من قولهم إصْبُع فانا بحثنا عنها فلم نجدها : وقد حكيت أيضاً زِئْبُر وضِئْبُل وخِرْفُع وجميع ذلك شاذ لايلتفت إلى مثله لضعفه في القياس وقلته في الاستعمال ووجه ضعف قياسه خروجك من كسر الى ضم بناء لازماً وليس بينهما إلا ساكن) (٤) :

وقال ابن عصفور : (وزعم الزبيدي أن أبا بكر بن الانباري حكى اصبعا بكسر الهمزة وضم الباء على وزن افعُل . لكن أكثر أهل

(١) جاء في الاستدراك (أبلمة) .

(٢) الممتع : ١ / ٧٥ ، ٧٦ .

(٣) الاستدراك : ٧ .

(٤) الخصائص : ٣ / ٢١٢ .

اللغة على انها ليست من كلام الفصحاء) ثم أورد قول الفراء الذى أورده ابن جني (١) .

٤ ـ وفي الاسم الثلاثي المزيد بالتاء أغفل سيبويه أن يكون (تِفْعَل) من أبنية الاسماء وذكر أنه من الصفات فقط ، فقال الزبيدي (قد جاء تِفْعَل اسماً . قالوا تِتْفَل اولد الثعلب عن الكسائي) (٢) فأقر ابن عصفور ذلك بقوله (وحكى الكسائي أن (تتفلا) لغة في (التَتْفُل) ولا يحفظ غيره اسماً) (٣) .

٥ ـ ذهب سيبويه الى أن (ليس في الكلام مَفْعُل بغير هاء) (٤) فقال الزبيدى : (قد روى الكوفيون مَفْعُلا بغير هاء ، قالوا مَكْرُم ومَعُون ومَقْبُر) (٥) .

أما ابن عصفور فقد التزم بمذهب سيبويه ورأى أن (مَفْعُل) لا تجيء الا اسما والهاء لازمة له نحو مزرعة ومقبرة (ولا يستعمل بغير هاء الا أن يجمع بحذف الهاء) (٦) بمعنى أن ماذكره الزبيدي من كلمات هي جمع حذفت التاء منه ، ثم قال ابن عصفور (وزعم السيرافي ان ذلك مما رخم ضرورة وأنه يريد معونة ومكرمة والوجه ما ذكرناه أولا لأنه اذا أمكن ألا يحمل على الضرورة كان أولى) (٧) .

---

(١) الممتع : ١ / ٧٦ .
(٢) الاستدراك : ٣٣ .
(٣) الممتع : ١ / ٧٧ .
(٤) و (٥) الاستدراك : ٢٤ .
(٦) الممتع : ١ / ٧٨ .
(٧) نفسه : ١ / ٧٩ .

٦ ـ وفي باب لحاق اليـــاء للاسم الثلاثي قال الزبيدي (قال سيبويه تلحق أولا فيكون الاسم على يَفْعَـل فالاسم اليرمع واليلمق ولا نعلمه وصفا قال أبو بكر : قد جاء صفة قالوا : ناقة يَعْمَلَة ورجل يَلْمَع) (١) .

فقال ابن عصفور مانعاً مجيء (يَفْعَل) للصفة (فأمـا قولهم جمل يعمل وناقة يعملة ورجل يَلْمَع ، فمن قبيل ما وصف فيه بالاسم . ولذلك لم يمتنع الصرف . ولو كان صفة في الأصل لوجب منع صرفه لوزن الفعل والوصف) (٢) .

٧ ـ وفي باب لحاق النون للاسم الثلاثي استدرك الزبيدي بناء (نِفْعِل) ومثل له بقولهم (رجـــل نِفْرِج الذي ينكشف فرجه ونفرجة أيضاً عن أبي زيد) (٣) وذهب ابن عصفور الى أن (نِفْرِج) على وزن (فِعْلِل) وليست النون زائدة فيها (٤) .

٨ ـ وفي باب لحاق الياء الاسم الثلاثي استدرك الزبيدي بنـاء (فِعَيْلَة) ممثلا له بقولهم (قـــدر وأيَّة للبعيدة القعر عن أبي زيد) (٥) فقال ابن عصفور (٦) : (فأما قولهم قـــدر وأية فـ (فِعَلَّة) وليس (فِعَيْلَة) لأن ذلك بناء غير موجود) .

---

(١) الاستدراك : ٢٠ .

(٢) الممتع : ١ / ٨٠ .

(٣) الاستدراك : ٢٢ .

(٤) الممتع : ١ / ٨٠ .

(٥) الاستدراك : ٢١ :

(٦) الممتع : ١ / ٨٧ .

٩ - وفي باب زيادة الثلاثي من موضع التضعيف في العين واللام استدرك الزبيدي بناء (فِعلَل) و(فِعْلِل) (قالوا: رماد رمدد ورمدد(١)، قال ابن عصفور (فاما قولهم رماد رمدد فينبغي أن يكون مما فتح تخفيفا لأنهم قالوا رمدد فيكون كبرقَع لأن الاصل برقع بضم القاف لكنه فتح تخفيفاً وقد تقدم ذلك . وانما لم يثبت بهذا فِعْلَل لأنه لا يحفظ الا فيما سمع فيه فِعْلِل بالكسر . ولو كان بناء أصلا لجاء حيث لم يجيء معه فِعْلِل ، وهو مع ذلك قليل) (٢) .

١٠ - وفي باب زيادة الالف على الاسم الثلاثي قال الزبيدي ناقلا عن سيبويه ومستدركا عليه : (وعلى فِعْلَى نحو معزى وذفرى ولم يأت وصفاً .

قال ابو بكر : قد جاء كِيصى قال احمد بن يحيى ثعلب : يقال رجل كيصى منون للذي ينزل وحده ، وقد كاص طعامه اذا اكله وحده ، وقال بعضهم كِيصَى فُعْلى ولكنها كسرت كما كسرت بيض) (٣) فقال ابن عصفور (فاما قولهم رجل كيصى فهو اسم وصف به . . . ومما يدل على أنه ليس بصفة في الاصل استعمالهم له جارياً على المؤنث بغير هاء فيقولون امرأة كيصى ، وقد تقدم ان الصفة اذا كانت غير مطابقة للموصوف حكم لها بحكم الاسماء) (٤) .

١١ - ذهب سيبويه الى ان (فِنْعَل) من أوزان الاسماء ، فاستدرك الزبيدي عليه مجيئه للصفة أيضاً ، قالوا لحية كِنْثَأة وقد

(١) الاستدراك : ٢٥ :

(٢) الممتع : ١ / ٨٧ ، ٨٨ .

(٣) الاستدراك : ١٢ .

(٤) الممتع : ١ / ٨٨ .

كثأت لحيته عن أبي عبيدة) (١) :

قال ابن عصفور (واما قولهم لحية كنثأة فيمكن ان تكون نونه اصلية اذ ليست في موضع زيادتها وتكون من معنى كَثَأت لحيته وان كانت اصولهما مختلفة فيكون كنثأة من كثأت كَسِبِط من سِبَطْر . والذي حمل على ذلك انه لا يحفظ من (فِنْعَل) صفة) (٢) .

وقد ذهب المازني وابن جني الى ان النون فى هـذا البناء زائدة لانه ماخوذ من كثأت لحيته اذا عظمت (٣) .

١٢ ـ وفي باب زيادة الهمزة استدرك الزبيدي وزن (فُعْأَل) قالوا ضنأك للعظيمة من النون : أما ابن عصفور فلم يقر هذه الزيادة وذهب إلى أن ضُنْأك على وزن (فُنْعَل) كـ (عُنْظَب) وليس (بفُعْأل) وان كان في معنى (ضناك) لأن فُعْألا لم يثبت في الاسماء وقد يكون اللفظان في معنى واحد والاصول مختلفة نحو سَبِط وسِبَطْر فحمله على هذا أولى من اثبات بناء لم يستقر في كلامهم) (٤) .

١٣ ـ وأقر ابن عصفور بناء (فَعْلَم) ومنه (جَذْعَم) الغلام الجذع و (شَدْقَم) وهو الأشدق وقد استدركه الزبيدي في باب زيادة الميم على الاسم الثلاثي (٥) .

---

(١) الاستدراك : ٢٢ .

(٢) الممتع : ١ / ٨٢ .

(٣) المنصف : ١ / ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٤) الممتع : ١ / ٨٥ .

(٥) الاستدراك : ٢٤ والممتع : ١ / ٩٠ .

المزيد فيه حرفان :

١ - واستدرك الزبيدي بناء (نَفَنْوَعِل) ومثل له بقولهم (جرو نَخْنُورِش) اذا خرش وخدش (١) . فقال ابن عصفور في باب الاسم الثلاثي المزيد بحرفين « وأما نخورش فـ (فَعَلَّلِل) كـ (جَحَنْمَرِش) والواو أصلية في بنات الخمسة . وهذا أولى من ادعاء بناء لم يستقر في كلامهم » (٢) .

٢ - استدرك الزبيدي بناء (تُفَاعِل) ومثل له بقولهم (جمل ترامز) الذي اذا مضغ رأيت دماغه يرتفع وينزل (٣) .

وكان ابن السراج قد استدرك هذا البناء على سيبويه ، فرد عليه ابن جني بقوله (وأما تُماضِر وتُرامِز فذهب أبو بكر الى ان التاء فيهما زائدة ، ولا وجه لذلك لانها في موضع عين (عُذَافِر) فهذا يقضي بكونها أصلا ، وليس معنا اشتقاق يقطع بزيادتها) (٤) واذا كانت (التاء) من (ترامز) أصلية بمنزلة (عين) (عذافر) فهي اذن على وزن (فُعَالِل) الذي ذكره سيبويه فقال (فُعَالِل) فالصفة عذافر) (٥) والى مثل هذا ذهب ابن عصفور (٦) :

(١) الاستدراك : ٢٢ .

(٢) الممتع : ١ / ٩٤ .

(٣) الاستدراك : ١٤ .

(٤) الخصائص : ٣ / ١٦٧ .

(٥) الاستدراك : ٣٢ .

(٦) الممتع : ١ / ٩٦ .

٣ ـ قال الزبيدي ينقل عن سيبويه ويرد عليه (وعلى فِعّال نحو قثاء وحناء وكذاب اسم ولم يأت صفة . قال أبو بكر : قد جاء رجل دِنّامة للقصير ودِنّابة) (١) وذهب ابن عصفور مذهب سيبويه فقال (فأما قولهم رجل دنابة فهو من الوصف بالاسم ، إذ لم يطابق موصوفه) (٢) .

٤ ـ قال الزبيدي ينقل عن سيبويه ويستدرك عليه (وعلى فُعَالَى فالاسم حُبَارَى وسُمَانَى ولُبَادَى ولم يأت وصفاً ، الا في الجمع نحو كسالى وسكارى .

قال أبو بكر : قد جاء فُعَالَى صفة للواحد ، قالوا جمل عُلادَى) (٣) وقد اجتهد ابن عصفور في دفع هذا المثال عن أن يكون مفرداً ، وذهب الى أن (علادى) هو على غير قياس (عَلَنْدَى) ثم وصف به المفرد ، وان كان جمعا ، وذلك من باب التعظيم كما قالوا للضبع حَضَاجِر (٤) (جمع حَضْجَر : العظيم البطن) .

٥ ـ ذهب سيبويه الى أن الهاء لازمة لبناء (فَعَالِيَة) مثل كراهية ورفاهية من الاسماء وحزابية وعباقية من الصفات (٥) ، فاستدرك عليه الزبيدي بقوله (جاء رجل حَزَاب وحَزَابِيَة وزَوَارٍ وزَوَارية بالهاء وبحذفها وهو القصير الغليظ) (٦) . فقال ابن عصفور

(١) الاستدراك : ١٣ .
(٢) الممتع : ١ / ٩٩ .
(٣) الاستدراك : ١٢ .
(٤) الممتع : ١ / ١٠٢ .
(٥) و (٦) الاستدراك : ١٢ .

مدافعاً عن رأي سيبويه (فأما قولهم حزاب فيمكن أن يكون جمع حزابية ويكون من الجمع الذي بينه وبين واحده حذف الهاء نحو شجرة وشجر ووصف به المفرد تعظيما كما قالوا ضبع حضاجر ، وانما يلزم الهاء المفرد) (١) .

٦ ـ واستدرك الزبيدي بناء (نِفْعَال) ومثل له بقولهم (رجل نِفْرَاج للذي يتكشف فرجه عن أبي زيد) (٢) . فأبطل ابن عصفور هذا الاستدراك بقوله (وأما نفراج ف‍ (فِعْلال) ك‍ (سِرْداح) وليس ب‍ نِفْعَال) (٣) .

٧ ـ واستدرك الزبيدي بناء (تِفْعَال) في أبنية الصفات ومثل له بقولهم (رجل تِلِقَّامة وتِقْوَالة عن الكسائي وتبذارة يبذر ماله عن أبي زيد وترعاية) (٤) .

فأنكر ابن جني أن تكون (تلقامة) و (تقوالة) و (تبذارة) من أبنية الصفات ، ورأى أنها ليست متمكنة من الوصف ، لعدم مطابقتها الموصوف .

وأما (تِرْعَاية) فذهب إلى أن أصلها (تِرْعِيَّة) ثم أبدلت الياء الأولى ألفا ، وكان سيبويه قد ذكر (تِرْعِيَّة) في أبنية الصفات فلا وجه لأن يعدها النحاة فائتة الكتاب (٥) . وأخذ ابن عصفور

---

(١) الممتع : ١ / ١٠٥ .

(٢) الاستدراك : ١٤ .

(٣) الممتع : ١ / ١٠٩ .

(٤) الاستدراك : ١١ .

(٥) الخصائص : ٣ / ١٨٩ ، ٢٠٠ .

برأي ابن جني في هذه الالفاظ (١) .

٨ - واستدرك الزبيدي بناء (إفْعِلَّة) قالوا : رجل إكْبِرَّة قومه اذا كان أقعدهم في النسب (٢) :

وذهب ابن عصفور الى أنه (ليس فيه دليل على اثبات (إفْعِلَّة) لأن الناس قد حكوا هو إكْبِرَة قومه بالتخفيف فيمكن أن يكون مشددا منه . . . لا سيما والأشهر إكْبِرَة) (٣) :

٩ - واستدرك الزبيدي بناء (يَفْعَلّ) ومثل له بقولهم (حجر يهيّر للصُلب (٤) فقال ابن عصفور مبطلا هذا الوزن : (وأما قولهم حجر يَهْيَرّ فيمكن أن يكون أصله يهير خفيفا على وزن يَفْعَل كيرمع ثم شدد على حد قولهم في جعفر جعفرّ ، وهذا أولى من اثبات بناء لم يوجد في كلامهم وهو يَفْعَلّ) (٥) ،

١٠ - ووافق ابن عصفور الزبيدي ، وان لم يصرح بالاخذ عنه ، على أن (فَعَايِل) تأتي صفة لأن (طِرْيَم) وهي صفة تجمع على (طرايم) قياساً على (عَثَايِر) و (حَثَايِل) وهما جمع (عِثْيَر) و (حِثْيَل) (٦) :

١١ - واستدرك الزبيدي بنـــاء (فُنَاعِل) لأنهم قالوا حمار

---

(١) الممتنع : ١ / ١٠٨ ، ١٠٩ :

(٢) الاستدراك : ٨ :

(٣) الممتع : ١ / ١١١ .

(٤) الاستدراك : ١١ .

(٥) الممتع : ١ / ١١١ .

(٦) الاستدراك : ١١ .

كُنَادِر وكُدُرّ وكُنْدُر للغليظ عن أبي حاتم (١) :

ولم يقر ابن عصفور هذا البناء وذهب الى أن (كنادر) على وزن (فُعَالِل) مثل (عُذَافِر) فيكون موافقا لكُدُرّ في المعنى مخالفاً له في الاصول كسَبِط وسِبَطْر وهذا أولى من اثبات (فُنَاعِل) لانه لم يستقر في كلامهم) (٢) .

١٢ - وذهب إلى أن (فِعْلان) من أوزان الأسماء ، ولم يأت في الصفات ماهو على هذا الوزن ، فاستدرك الزبيدي قائلا : (قد جاء صفة قالوا رجل عِلْيَان وناقة عليان أي طويلة) (٣) .

وأما ابن عصفور فذهب الى أن (عليان) اسم وصف به ، مستدلا على هذا بأنهم قالوا : ناقة عليان ، ولم يطابقوا بين الصفة والموصوف من حيث التأنيث ثم قال (ومذهبنا ان الصفة اذا كانت كذلك حكم لها بحكم الاسماء) (٤) .

١٣ - استدرك الزبيدي بناء (فَعْلُون) وأتى بزيتون مثلا عليه ثم روى أن بعض اللغويين زعم انه مأخوذ من أرض (زَتِنَة) أي ذات زيتون ، وان كان هذا صحيحاً فالبناء (فَيْعُول) ، الا ان الزبيدي عاد فرجح القول الأول ، قال (والاشبه أن يكون اشتقاق الزيتون والزيت واحداً) (٥) .

---

(١) الأستدراك : ١٤ .
(٢) الممتع : ١ / ١١٤ .
(٣) الاستدراك : ١٨ .
(٤) الممتع : ١ / ١٢٣ :
(٥) الاستدراك : ٢٢ .

ووافق ابن جني من عد هـذا البناء فائتا ، فقال (وأما زيتون فأمره واضح وانه فَعْلُون ، ومثال فائت ، والعجب انه في القرآن وعلى أفواه الناس للاستعمال :

وقد كان بعضهم تجشم أن أخذه من (الزَتْن) وان كان اصلا مماتا ، فجعله (فَيْعُولا) وصاحب هذا القول ابن كيسان او ابن دريد ، أحد الرجلين) (١) .

أما ابن عصفور فأنكر أن يكون (الزيتون) على (فَعْلُون) ، وقال (وأما زيتون) فـ (فَيْعُول) كـ (قيصوم) وليست النون زائدة بدليل قولهم الزيت لانهم قالوا أرض زتنة أي فيها زيتون ، فنون زيتون على هذا أصلية ، وأيضاً فانه لو جعلت النون زائدة لكان وزن الكلمة فعلونا وذلك بناء لم يستقر في كلامهم) (٢) .

١٤ ـ واستدرك الزبيدي بناء (فَعْلَوَى) ومثـل له بقولهم (الهرنوى) وهو نبت . فقال ابن عصفور : (فأما الهرنوى اسم نبت فانه فَعْلَلَى ، كالقهقري والواو أصل في بنات الأربعة مثلها في وَرَنْتَل شذوذا ، وهو أولى من جعلها زائدة فتكون الكلمة (فَعْلَوَى) لان ذلك بناء لم يثبت في كلامهم .

وأصالة الواو في بنات الاربعة قد وجدت في المضعف باطراد وفي غير المضعف قليلا . فجعل الواو أصلا أولى لذلك) (٣) :

١٥ ـ واستدرك الزبيدي بناء (فِعَلْنَاة) ومثل له بـ (خِلَفْنَاة)

---

(١) الخصائص : ٣ / ٢٠٣ .

(٢) الممتع : ١ / ١٢٥ .

(٣) الاستدراك : ١٤ والممتع : ١ / ١٢٤ .

للخلاف (١) . فقال ابن عصفور : (الا أنه ليس ببناء أصلي لأنهم قد قالوا خِلَفْنَة فيمكن أن يكون هذا مشبهاً منه . وهو أولى من اثبات بناء لم يستقر) (٢) .

١٦ ـ واستدرك الزبيدى بناء (فِنْعَوْلَة) ومثل له بـ (حِنْدَوْرَة) للحدقة .

أما ابن عصفور فقال (فأما قولهم حندورة للحدقة فهو من باب (قِرْطَعْب) والواو أصل في بنات الأربعة من غير المضاعف وان كان ذلك قليلا وهذا أولى من جعلها زائدة من معنى قولهم (حَدَرَة) فيكون وزن الكلمة فِنْعَوْلَة فان ذلك بناء لم يستقر في كلامهم) (٣) .

١٧ ـ واستدرك الزبيدي (فُنْعُول) (ومثل له بـ (عُنْظُوب) وهو ضرب من الجراد : فقال ابن عصفور : ان بناء فنعول بناء غير أصلي ، والواو فيه الشياع ، لان سيبويه حكى عنظبا (٤) .

١٨ ـ واستدرك الزبيدى بناء (مَفْعَلّ) ، فقد قالوا (مَكْوَرّ) للعظيم الروثة ، فأقر ابن عصفور هذا الوزن (٥) :

١٩ ـ واستدرك الزبيدي بناء (فَعَوْلَى) لانهم قالوا (عَدَوْلَى) وهو اسم لموضع . فقال ابن عصفور : (فأما عدولى اسم لواد بالبحرين فليس بـ (فَعَوْلَى) وكذلك القَهَوْبَاة حكاهما أبو عبيدة انما هما

---

(١) الاستدراك : ١٥ والممتع : ١ / ١٢٦ .

(٢) الاستدراك : ١٥ والممتع : ١ / ١٢٦ .

(٣) الاستدراك : ٢٢ والممتع : ١ / ١٠٠ .

(٤) الاستدراك : ٢٢ والممتع : ١ / ١٠١ .

(٥) الاستدراك : ٢٤ والممتع : ١ / ١١٠ .

(فَعَوْلَل) كفدوكس ، وحرف العلة أصل في بنات الاربعة نحو ورنتل لانك ان لم تفعـــل ذلك وجعلت الالف زائدة أدى الى بنـاء غير موجود) (١) :

٢٠ - واستدرك الزبيدي (فُعْنُول) ومثل له بذُرنُوح ، وقـد أورده في باب زيادة النون على الاسم الثلاثي ، فأنكـر ابن عصفور ذلك وذهب إلى أن النون ليست زائدة وان هـذا الاسم رباعي مزيد بواو ووزنه (فُعْلُول) (٢) .

٢١ - وأقر ابن عصفور وزن (فُعَانِل) الذي كان مما استدركه الزبيدي ومثل له بقُرانِس وهو الرجل الشديد الماضي (٣) ،

٢٢ - واقر أيضاً بناء (فَعْلُوَّة) الذي استدركه الزبيدى ومثل له بجبروة للتجبر (٤) (٥) .

٢٣ - وزاد الزبيدي بنـاء (فِنْعِيلَة) لانهم قالوا (حنديرة للحدقة . ومنه قالوا عين حَدْرَة وفِنْطِيَة لانف الخنزير ولكل انف عظيم) (٥) .

---

(١) الاستدراك : ١٤ والممتع : ١ / ١٠٣ .

(٢) الاستدراك : ٢٢ والممتع : ١ / ١٠٣ .

(٣) الاستدراك : ١٤ والممتع : ١ / ١١٧ .

(٤) الاستدراك : ٢٥ والممتع : ١ / ١٢٦ .

(٥) هكذا جاءت في الاستدراك . وضبطها ابن جني في الخصائص ٣ / ٢٠٦ : فَعَلُوَّة (جَبَرُوَّة) وكذا ضبطها ابن عصفور : وقال انها مثال فائت .

(٥) الاستدراك : ٢١ .

وأما ابن عصفور فذهب الى أن (حنديرة) رباعي مزيد بياء ، وهي على ذلك من وزن (فِعْلِيل) كقنديل وليست بفِنْعِيلَة من لفظ حَدْرَة لما في ذلك من اثبات بناء لم يوجد) (١) :

٢٤ - وزاد الزبيدي بناء (فَعَنَّل) فقد قالوا (رجل زَوَنَّك) للقصير عن يعقوب ، وصرف له فعلا زاك يزوك زوكانا . واعترف ابن جني بأن هذا اللفظ فائت :

اما ابن عصفور فقد ذهب الى أن (زونك) هو (فَعَلَّل) كعَدَبَّس والواو أصل في بنات الأربعة مثلها في وَرَنْتَل وهذا اولى من اثبات بناء لم يستقر في كلامهم وهو فَعَنَّل) (٢) .

٢٥ - واقر ابن عصفور بناءي (فُعْلُنَّة) و (فِعْلِنَّة) وهما مما استدركه الزبيدي ، ومثل لهما بقولهم (امرأة سَمْعُنَّة ونُظْرُنَّة للكثيرة النظر والاستماع كما قالوا سِمْعِنَّة ونِظْرِنَّة (٣) .

المزيد فيه ثلاثة أحرف :

١ - استدرك الزبيدى بناءين هما (افَنْعُول) و (يَفَنْعُول) ومثل للاول بقولهم (ألَنْجُوج) للعود . وللثاني بقولهم (يَلَنْجُوج) للعود أيضاً (٤) .

---

(١) الممتع : ١ / ١٠٠ .

(٢) الاستدراك : ٢٢ والممتع : ١ / ١٢١ ، ١٢٢ .

(٣) الاستدراك : ٢٢ والممتع : ١ / ١٢٦ :

(٤) الاستدراك : ٨ ، ٢١ .

وأبطل ابن عصفور هذين الوزنين فقال (فأما النجوج ويلنجوج فلا دليل فيهما على اثبات أفَنْعُول ولا يَفَنْعُول لانه قد نقل أنهما أعجميان) (١) :

٢ ـ واستدرك الزبيدي بناء (مُفْوَعَلّ) ومثل له بقولهم : مُهْوَانّ للمكان البعيد (٢) .

تردد ابن جني في هذا البناء بين قولين :

الأول : ان الواو فيه زائدة، وهو بهذا يتفق مع الذين عدوا هذا البناء فائتا ، ويرى أن (مهوأن) على وزن (مفوعل)، وليست الواو فيها أصلية ، لانها لا تكون أصلا في ذوات الأربعة الا عن تضعيف أما (ورنتل) فشاذ .

أما القول الثاني فهو نقيض هذا تماماً ، فبعد الرأي السابق عاد ابن جني ليحتج لسيبويه في اغفال هذا البناء ، ويلتمس له عذراً ، الا ان التكلف باد عليه ، فيقول (وقد يجوز من وجه آخر أن يكون واو (مَهْوَانّ) أصلا ، وذلك بأن يكون سيبويه قد سأل جماعة من الفصحاء عن تحقير مهوأن على الترخيم فحذفوا الميم واحدى النونين ولم يحذفوا الواو البتة مع حذفهم واو (كوثر) على الترخيم في قولهم (كُثَيْر) وحذفهم واو (جدول) في قولهم (جُدَيْل) وامتنعوا من حذف واو (مُهْوَانّ) فقطع سيبويه بأنها أصل فلم يذكره .

واذا كان هذا جائزاً ، وعلى مذهب احسان الظن به سائغاً ، كان فيه نصرة وتجميل لأثره ، فاعرفه ، فتكون الواو مثلها في (ورنتل) وكذلك يمكن أن يحتج بنحو هذا في قُرانِس وكُنادر فتكون النون

(١) الممتع : ١ / ١٢٧ .

(٢) الاستدراك : ٢٥ .

فيهما أصلا) (١) .

أما ابن عصفور فقد قال (وأما قولهم مهوأن فزعم السيرافي انه على وزن مُطْمَأَنّ ، وهذا باطل لانه ليس بجار على فعل ، اذ لايحفظ (أهوأنّ) . لكنه ان ثبت كان على وزن (مُفْوَعَلّ) .

وما رد به ابن جني مذهب السيرافي من كون الواو لا تكون أصلا فى بنات الأربعة غير التضعيف ، لا يلزم ، اذ قد جاءت أصلا في (وَرَنْتَل) وليس بمضعف ، فان قيل ان اصالتهما فى غير المضعف لا ترتكب الا لموجب ، قيل : الموجب هنا انه ليس من أبنية كلامهم (مُفْوَعَلّ) ، ولكن الذي منع من ذالك ما ذكرناه ، وهو بناء قليل لم يحفظ منه الا هذا) (٢) . فابن عصفور قد اعترف بأن هذا البناء مما فات سيبويه ، وان تردد في هذا الاعتراف .

٣ ـ واستدرك الزبيدي وزن (فِعِّيَلاء) لانهم قالوا الفِخِّيَراء والخِصِّيَصاء من الفخر والاختصاص (٣) . أما ابن عصفور فقد اعترف بأنه من فوائت الكتاب ، الا أنه قال (وان كان مد المقصور شاذاً عندنا لاينقاس في الضرائر ولا غيرها (٤) .

٤ ـ واستدرك الزبيدي بناء (تِفِعَّالَة) ومثل له بقولهم (تِلِقَّاعَة) للرجل الكثير اللقع وتِلِعَّابَة للرجل الكثير اللعب ، تِكِلَّامَة للكثير الكلام جيده عن الفراء) (٥) .

---

(١) الخصائص : ٣ / ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٢) الممتع : ١ / ١٢٨ .

(٣) الاستدراك : ١٤ .

(٤) الممتع : ١ / ١٢٨ .

(٥) الاستدراك : ١٤ .

وذهب ابن جني الى أن بناء (تِفِعِّالَة) مذكور في كتاب سيبويه ، ولكن في أبنية المصادر ، حيث ذكرهناك (تَفَعَّلت تِفِعِّالا) نحو تحملت تِحِمِّالا ومثله تقربت تِقِرّابا ، ولا شك أن البناء يصير (تِحِمِّالَة) ان اراد المتكلم الواحدة (أي اسم المرة) .

واذا كان سيبويه قد ذكر بناء (تِفِعِّال) فكأنه قد ذكره بالهاء أيضاً ، لان الهاء زائدة أبداً ، وفي تقدير الانفصال في الغالب .

كما أن هـذا البناء من أبنية المصادر وليس من أبنية الصفات ، ذلك أن هذا الوزن موضوع للمرة ، فلا يمكن أن يدل على الوصف بالكثرة ، فلا يجوز أن تقول رجـل تلقامة للكثير اللقم ، لأن تلقامة اسم مرة (والمرة الواحدة هي أقل القليل من ذلك الفعل ، فلا يجوز أن يريد معنى غاية الكثرة ، فيأتي لذلك بلفظ غاية القلة) (١) وان اجاز أن يوصف بالمصادر نحو قوله تعالى (ان أصبح ماؤكم غوراً) أو نحو قولنا (هذا رجل زور) فلا يجوز أن نقول (زيد اقبالة أو ادبارة) قياساً على (زيد اقبال وادبار) وأضـاف ابن جني (فعلى هذا لا يجوز أن يكون قولهم تِلِقّامَة على حد قولك هذا رجل صَوْم لكن الهاء فيه كالهاء في علّامة ونسّابة للمبالغة .

وإذا كان كذلك فانه قـد كاد يفارق مذهب الصفة ألا ترى من شروط الصفة ان تطابق موصوفها فى تذكيره وتأنيثه ، فوصف المذكر بالمؤنث ووصف المؤنث بالمذكر ليس متمكناً في الوصف تمكن وصف المؤنث بالمؤنث والمذكر بالمذكر ، فقولك هذا رجـــل عليم أمكن في الوصف من قولك هذا رجل علّامَة كما أن قولك مررت بامرأة كافرة أمكن في الوصف من قولك مررت بامرأة كفور .

(١) الخصائص : ٣ / ١٨٩ .

وإذا كان كذلك جرى تلقامة من قولك مررت برجل تلقامة نحواً من مجرى مررت بنسوة أربع في أن أربعاً ليس بوصف متمكن ولذلك صرفته وإن كان صفة على وصف أفعل ، فكان تلقامة بعد ذلك كله اسماً لا صفة ، وإذا كان اسماً أو كالاسم سقط الاعتذار منه ، لأن سيبويه قد ذكر في المصادر تَفَعَّلْت تِفِعَّالا ، فاذا ذكره أغنى عن ذكره فى الأبنية ولم يجز لقائله أن يذكره مثالا معتمدا عليه) (١) .

وذهب ابن عصفور الى أن هذه الأبنية هي مصادر ، دخلتها التاء للمبالغة ، فقال (لأن تلقاعا وتلماءا مصدران فوصف بهما ودخلت التاء للمبالغة وكذلك رجل تِلِقَّاعَة وتِكِلاَّمة) (٢) .

٥ ـ وقال الزبيدي ينقل عن سيبويه ويستدرك عليه : (قال سيبويه : وعلى فَعَاوِيل فالصفة قرواح وجلاويخ لانعلمه جاء اسما . قال ابو بكر : قد ذكر فى هذا الباب ان عِصْواد وقِرْواش اسمان فيجب أن يجمعا على عصاويد وقراويش) (٣) . فارتضى ذلك ابن عصفور وذهب الى أن (فَعَاوِيل) يجيء اسما بالقياس ، لأن عصوادا اسم وقياس تكسيره عصاويد (٤) . ولكن ابن عصفور لايذكر أنه أفاد هذا من الزبيدي :

٦ ـ واستدرك الزبيدي بناء (أفْعُلاء) لانهم قالوا أرْبُعَاء لعود من عيدان الأخبية واستدرك أيضاً (أُفْعُلاء) فقد قالوا الأُرْبُعَاء

---

(١) الخصائص : ٣ / ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) الممتع : ١ / ١٣٠ .

(٣) الاستدراك : ١٢ .

(٤) الممتع : ١ / ١٣٠ .

اسم لموضع (١) :

فأنكر ابن عصفور ذلك قائلا : فأما أَرْبُعَاء فظاهره أنه أَفْعُلاء ، وقد يمكن عندي أن يكون فَعْلُلاء كعَقْرُباء ، ولا تجعل الهمزة زائدة ، وان كانت في موضع تكثر فيه زيادتها ، لئلا يكون في ذلك اثبات بناء لم يوجد ، وكذلك أُرْبُعَاء كـ (قُرْفُصَاء) (٢) .

٧ ـ واستدرك الزبيدي بناء (نِفْعِلاء) ومثل له بقولهم (نِفْرِجَاء) للرجل الذي يتكشف فرجه (٣) . أما ابن عصفور فلم يعترف بهذا البناء ، وجعل (نفرجاء) على وزن (فِعْلِلاء) (٤) .

٨ ـ واستدرك الزبيدى (مُفْعُلان) لأنهم قالوا مُسْحُلان اسم لموضع ، وشاب مسحلان صفة ، أي حسن القوام (٥) . وذهب ابن عصفور إلى أن (مُسْحُلان) هو (فُعْلُلان) كعقربان ، وليست الميم زائدة ، وان كانت في محل زيادتها ، لأن القول بزيادتها يؤدى إلى أن يكون وزن الكلمة (مُفْعُلان) وذلك بناء لم يستقر في كلامهم . (٦) .

٩ ـ واستدرك الزبيدي وزن (فَعَّلان) فقد قالوا : هم في كَوْفَان أي أمر شديد (٧) .

---

(١) الاستدراك : ٨ .

(٢) الممتع ؛ ١ / ١٣٤ .

(٣) الاستدراك ؛ ١٤ .

(٤) الممتع : ١ / ١٣٦ :

(٥) الاستدراك ؛ ١٤ .

(٦) الممتع ؛ ١ / ١٤١ .

(٧) الاستدراك : ١٤ :

فقال ابن عصفور (فأما قولهم : هم في كوفان فليس فيه دليل على اثبات فعَلّان لاحتمال ان يكون (فَوْعَلان) كـ (حَوْفَزان) (١) .

١٠ - واستدرك الزبيدي بناءين هما (فِيعِلاء) ومثل له بقولهم (الدِيكِساء) للقطعة من النعم ، و (فَيْعَلاء) لانهم قالوا (الدَيْكَساء) لغة أخرى (٢) .

أما ابن عصفور فقد ذهب إلى أن (الدِيكِساء) و (الدَيكَساء) هما فِعْلِلاء وفَعْلَلاء ، والاسمان عنده من بنات الاربعة ، والياء أصل فيهما . لأن ذلك في رأيه خير من أن يكون وزنهما فِيعِلاء وفَيْعَلاء فيؤدى ذلك إلى اثبات بناءين لم يستقرا في كلامهم (٣) .

١١ - وأقر ابن عصفور وزن (تَفَعْلاء) الذي استدركه الزبيدى ومثل له بقولهم (يمشي التَركَضاء) وهي مشية تبختر (٤) .

١٢ - واقر ابن عصفور وزن (فَعْلُولَى) الذي استدركه الزبيدى ومثل له بقولهم أمرهم فَوْضُوضَى أى يتفاوضون فيه (٥) :

١٣ - واستدرك الزبيدى بناء (أفْعُلاوَى) ومثل له بقولهم : قعد الأُربُعَاوى اذا قعد متربعاً (٦) . فاعترف ابن جني وابن عصفور بأن هذا اللفظ مما فات سيبويه (٧) :

---

(١) الممتع : ١ / ١٤١ :

(٢) الاستدراك : ١٥ .

(٣) الممتع : ١ / ١٣٦ .

(٤) الاستدراك : ١٥ والممتع : ١ / ١٣٣ :

(٥) الاستدراك : ١٤ والممتع : ١ / ١٣٥ .

(٦) الاستدراك : ٨ والممتع : ١ / ١٤٤ والخصائص : ٣ / ٢١٤

(٧) الممتع : ١ / ١٤٤ والخصائص : ٣ / ٢١٤ :

١٤ ـ أقر ابن عصفور وزن (فُعْلايَا) وهو ما استدركه الزبيدي ومثل له بقولهم (بُرَحَايا) وهو اسم لموضع (١) .

١٥ ـ وأقر ابن عصفور وزن (فُعُلاَّن) وهو مما استدركه الزبيدي ومثل له بقولهم : قُمُدَّان للطويل ، وامرأة قُمُدَّانة (٢) .

١٦ ـ وأقر وزن (أفْعَالّ) الذي استدركه الزبيدي ومثل له بنحو (أسْحَارّ) وهي بقلة حارة (٣) :

١٧ ـ وأقر أيضاً بناء (فَاعَوْلَى) وجاء منه (بادَوْلَى) وقد استدركه الزبيدي (٤) .

١٨ ـ وأقر بناء (فِعَالاء) نحو قِصَاصاء (القصاص) وقد استدركه الزبيدى عن أبي زيد (٥) .

١٩ ـ استدرك الزبيدى بناء (فِعِلِّين) ومثل له بقولهم (رجل كِفِرِّين عِفِرِّين للخبيث) (٦) .

وقد ذهب ابن جني الى أن هذا المثال مما وزنه (فِعِلّ) كطِمِرّ وحِبِرّ وقد ذكر سيبويه هذا الوزن ، وأما هنا فهو يلحق بجمع المذكر السالم ، والياء فيه علامة جر ، ولم يسمع هذا المثال الا في موضع الجر ، وهو قولهم : ليث عِفِرِّين فيجب أن يقال فيه في الرفع

(١) الاستدراك : ١٤ والممتع : ١ / ١٣٢ .
(٢) الاستدراك : ١٤ والممتع : ١ / ١٣٦ .
(٣) الاستدراك : ٨ والممتع : ١ / ١٣٩ .
(٤) الاستدراك : ١٤ والممتع : ١ / ١٢٧ .
(٥) الاستدراك : ١٤ والممتع ١ / ١٣٥ .
(٦) الاستدراك : ٢١ .

هـذا عِفِرُّون ، ولو سمع بالياء في موضع الرفع لكان أشبه بأن يكون فيه النظر ، فأما وهو في موضع الجر فلا يستنكر فيه الياء (١) .

ويبدو من العبارة التي مثل بها الزبيدي أن الكلمتين ليستا مجرورتين ، بل هما مرفوعتان لأنهما نعت لما قبلهما ، وعلى ذلك فالياء فيهما ليست علامة اعراب كما ظن ابن جني ، كما ان الكلمتين ليستا من جمع المذكر السالم ، وقد ذهب ابن عصفور فيهمار مذهبا آخر ، فقال (فأما عفرين فهو جمع في الاصل لـ (عِفِرّ) على وزن طِمِرّ وسمي بالجمع ، وجعل الاعراب في النون ، وهـذا أولى من أن يكون اسما مفرداً في الاصل على وزن فِعِلِّين لأنه بناء لم يستقر فى المفردات وكذلك كِفِرِّين (٢) :

٢٠ - وزاد الزبيدى بناء (فَعَالِين) على أبنية الثلاثي المزيد بياء ، لانهم قالوا ، اتيتك كَراهِين أن تغضب . فذهب ابن عصفور الى أن قولهم أتيتك كراهين أن تغضب يمكن أن يكون جمع كُرْهَان كغفران وان لم ينطق به . ونظيره من الجموع التي لم ينطق لها بواحد عَبادِيد وشَماطِيط (٣) .

٢١ - وزاد الزبيدي بناء (فَوْعَلِيل) ومثل له بقولهم حمامة ذات صَوْقَرِير في صوتها ، وجعل هذا البناء من الثلاثي المزيد بياء ، اما ابن عصفور فقال : (وأما قولهم حمامة ذات صوقرير فَفَعْلَلِيل كعَرْطَلِيل والواو أصل في بنات الاربعة وهذا اولى من جعلها زائدة فتكون الكلمة

(١) الخصائص : ٣ / ١٩٩ .

(٢) الممتع : ١ / ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٣) الاستدراك : ٢١ والممتع : ١ / ١٣٩ ، ١٤٠ .

على وزن فَوْعَلِيل لأن في ذلك اثبات بناء لم يوجد في كلامهم) (١) .

٢٢ ـ واستدرك الزبيدى بناء (مَفْعَلِين لانهم قالوا رجلٌ مَقْتَوِين ، للخادم ، اما ابن عصفور فقال : (فأما قولهم رجل مقتوين فانه جمع مَقْتَوِيّ على حذف ياءي النسب والاصل مَقْتَوِيُّون فحذفت ياءآ النسب كما حذفتا من الأَعْجَمِين والأَشْعَرِين والاشقرين ووصف المفرد بالجمع تعظيماً كما قالوا ضبع حَضَاجِر وثوب أكياش وجعل الاعراب فى النون على حد قولهم (عِفِرِّين) وقد تفعل العرب ذلك بالجمع من غير أن تسمي به ، وعلى ذلك قوله :

ولقد ولدت بنين صدقٍ سادةً ولأنت بعد الله كنت السيدا

فجعل الاعراب في (نون) (بنين) وحذف التنوين للاضافة (٢).

٢٣ ـ واستدرك الزبيدي (يَفَنْنَعُول) ومثل له بقولهم (يَلَنْجُوج) للعود فقال ابن عصفور : (فأما أَلَنْجُوج ويَلَنْجُوج فلا دليل فيهما على اثبات أفَنْعُول ولا يَفَنْعُول لانه قد نقل أنهما أعجميان) (٣) .

المزيد فيه أربعة أحرف :

استدرك الزبيدي بناء (فَعَلُولاء) ومثل له بقولهم (هم في مَعْكُوكَاء وبَعْكُوكَاء للجلبة والشر) (٤) أما ابن عصفور فذهب إلى أنهما على زنة مَفْعُولاء وليس (فَعَلُولاء) (٥) .

(١) الاستدراك : ٢١ والممتع : ١ / ١٤١ :

(٢) الاستدراك : ٢١ والممتع ١ / ١٤٣

(٣) الاستدراك : ٢١ والممتع : ١ / ١٢٧ ،

(٤) الاستدارك ا ١٤ .

(٥) الممتع : ١ / ١٤٤ .

واستدرك الزبيدي وزن (فُعَّيْلاء) ومثل له بقولهم : هو عالم بدُخَّيْلاَئِك أي باطن أمرك ، فأقر ابن عصفور هذا البناء (١) .

الرباعي المجرد :

وفي باب الرباعي المجرد استدرك الزبيدي بناء (فُعْلَل) ومثل له بـ(جُؤْذَر) و (بُرْقَع) و (طُحْلَب) وبناء (فَعْلِل) ومثاله (طَحْرِبَة) وبناء (فُعَلّ) ومثاله (الفُتَكْرِين) .

وكان سيبويه قد ذكر أن الرباعي المجرد يجيء على خمسة أبنية للاسماء والصفات ، وبذا اصبح العدد ثمانية أبنية مع ما استدركه الزبيدي (٢) .

أما ابن عصفور فقد أقر بناء (فَعْلِل) وما مثل به عليه ، ولم يقر البناءين الآخرين فقال (اما جُخْدَب وبُرْقَع وجُؤْذَر فلا حجة فيها لأنه يقال جُخْدُب وبُرْقُع وجُؤْذُر بالضم فيمكن أن يكون الفتح تخفيفاً . فانما يكون ثبت (فُعْلَل) بأن يوجد ولا يجوز معه (فُعْلُل) بالضم ، فان لم يوجد الفتح الا مع الضم دليل على ان ليس ببناء أصلي . وأيضاً فان جؤذرا أعجمي فلا حجة فيه .

وأما الفُتَكْرِين بضم الفاء على ما حكاه يعقوب فلا حجة فيه على اثبات (فُعَلّ) نحو جُعَفْر وكأنه فُتَكْر ثم جمع الا أن يحفظ بالواو والنون في الرفع والياء والنون في النصب والجر فيقال الفُتَكْرون والفُتَكْرين والمسموع من هذا انما هو بالياء فيمكن أن

(١) الاستدراك : ١٤ والممتع : ١ / ١٣٥ .

(٢) الاستدراك : ٢٨ .

يكون قُتَكْرِين اسماً مفرداً كـ (قُذَعْمِيل) (١) : وذهب ابن جني قبله الى أن جؤذرا أعجمي (٢) :

الرباعي المزيد فيه حرف واحد :

١ - استدرك الزبيدي بناء (فِعَّلِل) ومثل له بـ (صِنَّبِر) (٣) . وذهب ابن جني الى أن أصله (صِنَّبْر) ولكن ضرورة القافية ، قد ألجأت طرفة الى تحريك الباء بالكسر ، وأما (صِنَّبْر) وهو الاصل فقد ذكره سيبويه في موضعه ، ولا عبرة بما جاء محرفاً عن أصله ، لضرورة شعرية . ويبدو من كلام ابن جني أن الكلمة لم ترد الا في شعر لطرفة ، هو :

في جفان تعتري نادينا وسديف حين هاج الصِنَّبِر

قال ابن جني : (يريد الصِنَّبْر فاحتاج للقافية إلى تحريك الباء فتطرق الى ذلك بنقل حركة الاعراب اليها تشبيها بباب قولهم هذا بَكُر ومررت ببَكِر وكان يجب على هذا أن يضم الباء فيقول صِنَّبُر لأن الراء مضمومة الا أنه تصورمعنى اضافة الظرف الى الفعل فصار الى أنه كأنه قال حين هيج الصنّبر فلما احتاج الى حركة الباء تصور معنى الجر فكسر الباء وكأنه قد نقل الكسرة عن الراء اليها ولولا ما أوردته في هذا لكان الضم مكان الكسر ، وهذا أقرب مأخذاً من أن نقول انه

---

(١) الممتع : ١ / ٦٧ .
(٢) المنصف : ١ / ١٣٨ .
(٢) الاستدراك : ٣٥ .

حرف القافية للضرورة) (١) .

وأما ابن عصفور فقد وهم ، فعده مما استدرك في أبنية الخماسي وذهب في دفعه مذهباً آخر فقال (وزاد بعض النحويين في أبنية الخماسي (فِعَلِّيل) نحو (صِنَبِّر) والصحيح انه لم يجيء في أبنية كلامهم الا في الشعر نحو قوله :

في جفان نعترى نادينا   من سديف حين هاج الصِنَّبِر

وهذا يجوز أن يكون لما سكن الراء للوقف كسر لالتقاء الساكنين نحو قولهم ضَرَبْتِهْ وقتَلْتِهْ) (٢) .

٢ - واستدرك الزبيدي بناء (فَعَلْلُول) ومثل له بزَرْنُوق لعمود البئر الذي عليه البكرة ، وصَعْفُوق وهي قرية باليمامة (٣) :

قال ابن جني (٤) عن هذين المثالين : (وأما صَعْفُوق فقيل انه أعجمي ، وهم خول باليمامة) . وقال (وحكى أبو زيد زَرْنُوق بفتح الزاي ، فهذا فَعْلُول ، وهو غريب . . . وقد تقدم في أول هذا الباب وصف حاله ، ووضوح العذر في الاخلال به) . وذهب ابن عصفور الى أن (زرنوق) فتحت الزاي فيها تخفيفاً من الضم ، فقد سمع فيها الضم ، وأما صَعْفُوق فقيل انه أعجمي (٥) .

٣ - وأقر ابن عصفور وزن (فِعْلُول) وهو مما استدركه الزبيدي

---

(١) الخصائص : ١ / ٢٨١ وانظر ٣ / ٢٠٠ .

(٢) الممتع : ١ / ٧١ .

(٣) الاستدراك : ٣٠ .

(٤) الخصائص : ٣ / ٢١٥ .

(٥) الممتع : ١ / ١٤٩ ، ١٥٠ .

ومثل له بفِلَنْطُوس (١) .

٤ - واقر بناء (فَوْعَلِل) الذي استدركه الزبيدي ومثل له بدَوْدَمِس وهي حية (٢) .

٥ - واستدرك الزبيدي بناء (فُعَلاَّة) ومثل له بقولهم (سُلَحْفَاة) وجعله من الرباعي المزيد بألف (٣) . وأنكر ابن عصفور هذا البناء فقال (واما سُلَحْفَاة فليس فيه دليل على اثبات فُعَلاَّة بل بل فُعَلِّيَة في الاصل ثم قلبوا الكسرة فتحة والياء ألفاً وهي لغة فاشية في طيىء يقولون في رُضي رُضَى وفي بَقي بقَى) (٤) .

واستدرك الزبيدي بناء (فَيْعَلُلٌ) وجعله من الرباعي المزيد بياء ، ومثل له بقولهم هَيْدَكُرٌ وهي المرأة الكثيرة اللحم (٥) .

وذهب ابن جني الى أن (الهيدكر) مقصور من (الهيدكور) ، قال (فقال أبوعلي : سألت محمد بن الحسن عن الهيدكر فقال لا أعرفه وأعرف الهيدكور) (٦) . والى مثل هذا ذهب ابن عصفور فقال (فأما هَيْدَكُر فهو مقصور من هيدكور وليس بِبناء أصلي ، فوزنه على هذا فَيْعَلُول كَ خَيْسَفُوج) (٧) .

---

(١) الاستدراك : ٢٥ والممتع : ١ / ١٥٠ .

(٢) الاستدراك : ٣٠ والممتع : ١ / ١٤٦ .

(٣) الاستدراك : ٣٣ .

(٤) الممتع : ١ / ١٥٣ .

(٥) الاستدراك : ٣١ .

(٦) الخصائص : ٣ / ٢٠٢ .

(٧) الممتع : ١ / ١٤٦ .

٧ ـ استدرك الزبيدى بناء (فَنْعَلِيل) واستدل عليه بقولهم عجوز خَنْضَرِف (أى قد خُضْرِف جلدها اذا استرخى) (١) .

ولم يقر ابن عصفور هذا البناء ، وذهب الى أن (خنضرف) خماسي ، فَعْلَلِيل كجَحْمَرِش . وخَنْضَرِف مأخوذ من (خُضْرِف) الا انه غير موافق له في الاصول (٢) .

٨ ـ واستدرك الزبيدي بناء (فَنَعْلَل) في أبنية الرباعي المزيد بنون ، لانهم قالوا عجوز (شَهْبَرَة) و (شَنَهْبَرَة) (٣) .

أما ابن عصفور فذهب الى أن (شَنَهْبَرَة) من الخماسي ، ووزنها (فَعَلَّلَة) كسَفَرجلة . وهي وان كانت مأخوذة من (شَهْبَرَة) الا ان الاصول غير متفقة كسَبِط وسِبَطْر (٤) .

الرباعي المزيد بحرفين :

وستدرك الزبيدى في باب لحاق الألف أبنيـــة الرباعي ، بناء (فَنَعْلَلَى) ومثل له بقولهم شَفَنْتَرَى . اسم رجل . أما ابن عصفور فقد تردد في هـــذا الوزن بين قولين : فأما شَفَنْتَرَى اسم رجل فـ (فَعَلَّلَى) كقَبَعْثَرى وليست النون زائدة وان كانت في محل زيادتها لان جعلها زائدة يؤدى الى اثبات بناء لم يوجد لانه يكون وزنها اذ ذاك (فَعَنْلَلَى) وان كان بناء لم يستقر في غير هذا الموضع

(١) الاستدراك : ٣٤ .

(٢) الممتع ١ / ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٣) الاستدراك : ٣٤ .

(٤) الممتع : ١ / ١٤٧ .

لانك ان جعلت النون أصلية أخرجتها عما استقر فيها ألا ترى ان النون اذا كانت ساكنة ثالثة وبعدها حرفان ولم تك مدغمة لم تلف الا زائدة فيما عرف اشتقاقه أو تصريفه . فلذلك كان القولان فيها سائغين عندي) (١) .

واستدرك الزبيدي أيضاً في الباب نفسه وزن (فِعْلِلّى) ومثل له بـ (شِفْصِلّى) وهو حمل بعض الشجر ينفلق عن مثل القطن وله حب كالسمسم :

وتردد ابن عصفور في اثبات هذا الوزن ، وبدأ وكأنه غير مطمئن لتكلم العرب بهذا اللفظ ، قال (وأما شِفْصِلّى) فان ثبت كان فيه دليل على اثبات فِعْلِلّى من كلامهم) (٢) .

وأقر ابن عصفور بناءي (فَعَنْلِيل) ومنه (شَمَنْصِير) اسم مكان ، و (فُعَلّيل) ومنه (قُشَعْرِيرة) و (السُمَّنْجِيج) وهو ما حقن في السقاء من اللبن . وكان الزبيدي قد استدركها في باب زيادة الياء للاسم الرباعي .

قال ابن عصفور عن الاسم الاول (لم يجيء غيره ولا اتحقق أنه عربي) (٣) وكان ابن جني يقول (٤) (واما شمنصير ففائت أيضاً ان كان عربياً) ويقول (وقد يجوز أن يكون محرفاً من شَمَنْصِر لضرورة الوزن) .

---

(١) الاستدراك : ٢٣ والممتع : ١ / ١٥٥ ، ١٥٦ :

(٢) الاستدراك : ٢٣ والممتع . ١ / ١٦١ :

(٣) الاستدراك : ٣١ والممتع : ١ / ١٥٥ ، ١٦١ ،

(٤) الخصائص : ٣ / ٢٠٥ .

الخماسي المجرد :

ذهب سيبويه إلى أن (الخماسي المجرد) جاء على أربعة أبنية ، الا أن الزبيدي استدرك بناء خامسا هو (فُعْلَلِل) ومثل له بـ (هُنْدَلِع) اسم بقلة .

وذهب ابن جني الى ان النون فيها زائدة ووزنها على ذلك (فُنْعَلِل) (١) . والى مثل هذا ذهب ابن عصفور فقال : (وزاد بعضهم (فُعْلَلِلا) ولم يحفظ منه غيره .

وهذا عندى انما ينبغي أن يحمل على أنه (فُنْعَلِل) والنون زائدة . ويحكم عليها بالزيادة ـ وان لم تكن في موضع زيادتها ـ لأنه لم يتقرر فُعْلَلِل في أبنية الخماسي ، فيحكم من أجل ذلك على النون بالزيادة فان قيل ولم يثبت في مزيد الرباعي (فُنْعَلِل) قيل له هو على كل حال ليس له نظير فدخوله في الباب الاوسع أولى ، وهو على كل حال ليس له نظير فدخوله في الباب الاوسع أولى ، وهو المزيد لأن أبنية المزيد أكثر من أبنية المجرد من الزيادة) (٢) :

الخماسي المزيد :

ذهب سيبويه الى أن الخماسي المزيد يجيء على خمسة أبنية ، فزاد الزبيدى ثلاثة أخرى ، هي :

---

(١) الخصائص : ٣ / ٢٠٣ :

(٢) الاستدراك : ٣٦ والممتع : ١ / ٧١ ، ٧٢ .

١ ـ فَعَلْلُول : ومثل له بقولهم (سَمَرْطُول) للرجل الطويل أما ابن عصفور فقد دفع أن يكون هذا الوزن أصيلا ، لأنه لم يسمع قط في نثر ، وانما سمع بالشعر ، وللشعر قوالبه التي تدفع الشعراء الى تنكب المألوف من الكلام ، والى تحريف الأبنية عما هي عليه ، واستدل على هذا بقول الشاعر :

بِسَبَحْلِ الدَّفَّين عَيْسَجُورِ

وانما هو (سِبَحْل) مثل (قِمَطْر) الا أن الشاعر اضطر الى تحريف هذه اللفظة ليسلم له الوزن ، وكذلك (سَمَرْطُول) يمكن أن يكون محرفاً من (سَمَرْطُول) كعَضْرَفُوط ، وهـذا الاخير على وزن (فَعْلَلُول) وقد ذكره سيبويه (١) . وكان ابن جني قد ذهب الى هذا في الخصائص .

٢ ـ فُعْلَالِل : ومثل له بقولهم (دُرْدَاقِس) لعظم في القفا و (خُزْرانِق) لضرب من النبات و (الخُدْرانِق) وهو الوبر القديم وقيل الخرق البالية .

أما ابن عصفور فقال : (فأما دُرْدَاقِس فـلا يتحقق كونها من كلاب العرب . قال الاصمعي : أظنها رومية . فلا ينبغي أن يثبت بها فُعْلَالِل . وكذلك (خُزْرانِق) أصله فارسي ، فلا حجة فيه) .

والى مثل هذا ذهب ابن جني أيضاً ، فقال (ان نون الخزرانق

(١) الاستدراك : ٣٧ والممتع : ١ / ١٦٤ ، ١٦٥ والخصائص : ٣ / ٢٠٧ ، وسبحل الدفين : عظيمة الجانبين . والعيسجور : الناقة القوية .

يجب أن تكون أصلا ان كان عربياً) (١) .

٣ ـ فَعَلَّلانة : ومثل له بـ (قَرَعْبَلانَة) وهي دُوَيبَّة . وانكر ابن عصفور هذه الكلمة فقال (لم تسمع الا من كتاب العين فلا ينبغي أن يلتفت اليها) (٢) . والى مثل هـــذا ذهب ابن جني من قبله .

أبنية الأفعال

استدرك الزبيدي ثلاثة أبنية ، ذهب فيهـا الى أنها من الثلاثي المزيد ، هي :

افْعَيَّل : ومثل له بقولهم (اهْبَيَّخ) الرجل ، اذا تبختر .

افْعَوْلَل (٣) : ومثل له بقولهم (اعثَوْجَجَ) البعير ، اذا اسرع

افْوَنْعَل : ومثل له بقولهم (احْوَنْصَل) الطائر ، اذا اخرج حوصلته .

وأما ابن عصفور فلم يقر بهذه الاوزان الثلاثة وذهب الى أنهـا (لم يذكرها أحد الا صاحب العين ، فلا يلتفت اليها) (٤) .

- و -

والآن ، وبعد أن عرضت لما أثير حول الأبنية التي استدركهـا الزبيدي على سيبويه ، استنتج ما يأتي :

(١) الاستدراك : ٣٧ والممتع : ١ / ١٦٥ والخصائص : ٣/ ٢٠٤ ٢٠٥ .

(٢) الاستدراك : ٣٧ والممتع : ١ / ١٦٥ والخصائص : ٣ / ٢٠٨ .

(٣) جاء في الاستدراك (أفعوعل) وهو تحريف .

(٤) الاستدراك : ٣٩ والممتع : ١ / ١٧١ .

١ ـ ادرك علماء اللغة والنحو في المشرق أن سيبويه لم يستوعب فيما ذكره من الابنية ، جميع ما تكلمت به العرب من صيغ واوزان وانه لم يستقر الكلام العربي استقراء دقيقاً يمكنه من حصر الهيئات والاوضاع التي جاءت عليها المفردات العربية ، أسماء كانت أم أفعالا فانبروا بعده يستدركون عليه ، وينبهون الى ما أغفله من أبنية الاسماء والافعال ، مستخرجين اياها مما سمعوه من العرب ، أو وقع اليهم من لغاتهم .

ولم يكن الزبيدي على حق حين ادعى انه أول من تنبه الى نقص الابنية في كتاب سيبويه ، فسعى الى اكمالها بما استدركه عليه ، وأن جلة المشايخ من أهل النحو كانوا يعتقدون أن سيبويه قد أحاط بجميع أبنية الكلام ولم يند عنه منها الا ثلاثة ، الا أن يكون قد عنى بهؤلاء النحاة ، شيوخه من أهل الاندلس .

لقد سبق الزبيدي الى الاستدراك عدد من نحاة المشرق كالجرمي وابن خالويه وابن السراج وابن دريد . كما كان القالي ممن عرف بتعقب سيبويه والاضافة الى أبنيته :

٢ ـ انفرد الزبيدي باستدراك بعض الصيغ والأوزان . والدليل على ذلك ان ابن جني لم يذكرها في (الخصائص) ، في الباب الذي أسماه (باب فوائت الكتاب) والذى أحصى فيه جميع ماعده النحاة المشارقة ، فائتا سيبويه ، ونادا من كتابه ، كما أن المتأخرين من الصرفيين عزوا بعض الأبنية المستدركة إلى الزبيدي ، ونسبوا بعضها الى غيره ، وأغفلوا نسبة بعض آخر ، وليس ببعيد أن يكون هذا المغفل النسبة ، مما كان الزبيدي قد انفرد باستدراكه أيضاً :

٣ - أقيمت بعض الأبنيـــة المستدركة على مفردات لم تك مما يطمأن لفصاحته، ويوثق بمن تكلم به من العرب، كما كان بعضها الآخر مؤسسا على ألفاظ أعجمية، أو كلمات غير مقطوع بعروبتهـا .

ولا شك أن سيبويه قد تعمد اهمال هذا اللون من الأبنية، لأن الامثلة عليها لم تثبت عنده، ولم تصح لديه . وهو في هذا ينزع منزع قومه البصريين، الذين لا يعتدون بكل مروى، ولا يأخذون من جميع الأفواه، بل ضيقوا دائرة السماع، وقصروه على القبائل الضاربة في سرة الجزيرة، البعيدة من أطرافهـا ، ونبذوا من الاطلس اللغوي عدداً كبيراً من القبائل التي استضعفوا فصاحتها، لاقامتها على مقربة من الحواضر .

٤ - استمدت طائفة أخرى من الزيادات من الفاظ سمعت بالشعر فقط ولا شك ان قوالب الشعر، وضرورات التعبير به، قـــد تحمل الشاعر على أن يتنكب الكلام المألوف ، ويدخل عليه من التغيير ما يكفل له صحة الوزن، وسلامة القافية .

وقد اجتهد المجاهدون عن سيبويه في تأول تلك المفردات، والكشف عما لحقها من تغيير بسبب الوزن أو القافية، وعادوا بها إلى ما كانت عليه من صور وهيئات ألفها الاستعمال، وكثرت عليها الشواهد :

٥ - ان بين الأبنية المستدركة، ما هو شاذ عن سنن العربية في تأليف المفردات . فمما لا يحتاج الى اثبـات ، أن العرب تكره في كلامها تعاقب حروف معينة، وتجاور حركات مخصوصة، كما أن ألسنتها لاتنطلق ببعض الكلمات التي تتنافر حروفها، أو تتناكر حركاتها ولسيبويه حجته الواضحة في اهمال أبنية من هذا النوع، وعدها شاذة أو مقحمة مصنوعة .

٦ - لم يكن الزبيدي وغيره على حق في استدراك بعض الأبنية ، لأنهم أقاموها على ألفاظ أخذت بطريق اوبآخر ، من ألفاظ كان سيبويه قد ذكرها وذكرأوزانها في مواضعها الملائمة لها ، ولاشك أن اثبات أصل الوزن يغني عن ذكرما يتفرع عنه بابدال ، أو زيادة حرف ، أو نقص حرف ، أو باشباع حركة ، ومن أمثلة هذا النوع كلمة (تِرْعَايَة) التي ذهب ابن جني إلى أنها مأخوذة من (تِرْعِيَّة) بابدال احدى الياءين ألفاً ، وقد ذكرسيبويه (تِرْعِيَّة) في مكانها الخاص بها :

وكذلك (تِلِقّامة) التي هي على وزن (تِفِعّال) زيدت عليه التاء ، وقد ذكر سيبويه (تِفِعّال) في باب المصادر ، ولا داعي لأن يذكر هذا المثل بصورته التي لحقته فيها التاء التي من شأنها أن تزاد وتحذف . ومن ذلك كلمة (خَزْعَل) التي اشبعت فتحة العين فيها ، فاستحالت ألفاً ، وصارت (خَزْعَال) فلم يعتد سيبويه بهذا الوزن الطارىء على الكلمة .

٧ - ويبدو لي أن الزبيدي بالغ في التحري والتنقيب عما فات سيبويه من أصول الأبنية ، حتى خرج عما عرف به من مذهب لغوي يمتاز بالتشدد ، وايثار الافصح ، واطراح الشاذ ، والقليل ، أوالمرغوب عنه من اللغات ، ففي باب الرباعي المجرد ، أهمل سيبويه (فُعْلَل) فاستدركه الزبيدي عليه ومثل له ببعض كلمات ، هي : جُؤْذَر ، بُرْقَع ، وطُحْلَب ، ثم اعترف بأن الضم فيها هو الأفصح (١) .

ولعل من استباق القول أن الاحظ أن الزبيدى الذي سنلقاه في (لحن العامة) متشدداً ، يأخذ بالافصح ، ويستضعف اليسير والشاذ ، يتحلل في هذا الكتاب من هذا القانون الصارم الذي أخذ به بنفسه ،

---

(١) الاستدراك : ٢٨ .

وطبقه بأمانة ودقة ، فيأخذ بالروايات النادرة ، واللغات المرجوحة ، وسر الاختلاف بين منهجي الكتابين هو أن الزبيدي في (الأبنية) في مقام استقصاء لجميع أبنية الكلام ، على اختلاف درجاته من الفصاحة وتفاوت نصيبه من الشيوع وكثرة الاستعمال ، وقد دفعه ذلك الى الاخذ بكل مروي ، والاعتداد بجميع الامثلة .

٨ ـ كانت بعض زيادات الزبيدي مأخوذة عن الكوفيين ، وغني عن البيان أن سيبويه ونظراءه من اعلام البصريين ، لا يسلمون بما يرويه الكوفيون ، ولا يعيرونه اهتمامهم ، بل استبعدوه ، وطرحوه ، حين شرعوا بوضع أصولهم ، واستنباط قوانينهم :

ومن الأبنية التي أسسها على أقوال الكوفيين ، بناء (فِيعَلىّ) الذي ذهب سيبويه إلى أنه من أبنية الاسماء ، فقال الزبيدي (قد جاء كَيْصىّ : قال أحمد بن يحيى ثعلب : يقال رجل كَيْصىّ للذي ينزل وحده ، وقد كاص طعامه اذا أكله وحده) (١) ؛

وبناء (فِيعِلاّن) ، من الثلاثي المزيد بألف أيضاً ، وقد ذهب سيبويه الى أنه لا تجيء عليه الصفات ، فقال الزبيدي : (قد جاء رجل كَيْلِمّاني جيد الكلام عن الفراء) (٢) .

وبناء (تِفْعَلَة) من الثلاثي المزيد بالتاء ، ذهب سيبويه فيه إلى أنه من أبنية الصفات ، فقال الزبيدي : (قد جاء تِفْعَل اسما ، قالوا تِتْفَل لولد الثعلب عن الكسائي) (٣) وبناء (مَفْعُل) الذي ذهب سيبويه الى أن الهاء لازمة له ، فقال الزبيدي : (قد روى

---

(١) الاستدراك : ١٢ .

(٢) نفسه : ١٨

(٣) نفسه : ٢٣ .

الكوفيون (مَفْعُلا) بغير هاء ، قالوا مَكْرُم ومَعُون) (١) .

٩ ـ كانت طائفة من الأبنية المستدركة موضع خلاف بين الدارسين من حيث اشتقاقها وما فيها من الأحرف الاصول والزوائد . فحين يذكر الزبيدي مثلا أن سيبويه قد أهمل بناء ، يبادر المدافعون عنه إلى تأول المفردة التي احتج بها الزبيدي على ذلك البناء ، فيردونها الى بناء كان سيبويه قد ذكره ، ومثل له ، والامثلة على ذلك كثيرة ، وقد مرت بنا عند الكلام على ماخالف فيه ابن جني وابن عصفور المستدركين على سيبويه ، ومنها كلمة (زَوَنَّك) التي ذهب الزبيدي إلى انها اسم ثلاثي مزيد بالنون ، وأن وزنه على ذلك (فَعَنَّل) وهو وزن لم يذكره سيبويه في الثلاثي المزيد ، فذهب ابن عصفور الى أنها رباعية وان النون فيها أصلية ، ووزنها على ذلك (فَعَلَّل) وهو وزن ذكره سيبويه فى الرباعي المزيد ومثل له بـ (شَمَلَّح) و (عَدَبَّس) .

ومن ذلك كلمة (تُرامِز) ، فقد ذهب الزبيدي فيها إلى انها من الثلاثي المزيد بحرفين : التاء والالف ، وان وزنها (تُفَاعِل) وهو وزن لم يذكره سيبويه في أبنية الثلاثي المزيد ، وذهب المدافعون عن سيبويه الى أنها من الرباعي المزيد بـ (ألف) وان وزنها (فُعَالِل) وهو وزن ذكره سيبويه في موضعه ومثل له بـ (عُذَافِر) و (عُلابِط) وغيرهما .

وذهب الزبيدي الى أن (مُفْعُلاَن) من أبنية الثلاثي المزيد بالميم والالف واحتج على وجوده بكلمة (مُسْحُلاَن) ، الا أن سيبويه لم يذكر ذلك في أبنية الثلاثي المزيد ، فذهب ابن عصفور الى أن هذا الاسم رباعي مزيد بألف ، وان الميم فيه أصلية ، ووزنه على ذلك (فُعْلُلاَن)

(١) الاستدراك : ٢٤ .

وهو وزن ذكره سيبويه في الرباعي المزيد بألف ومثل له بـ (عُقْرُبَان) وغيرها .

وعد الزبيدي الواو والالف زائدين في كلمة (عَدَوْلَى) وأنها ثلاثية على وزن (فَعَوْلَى) ، الا أن سيبويه لم يذكر هذا البناء في الثلاثي المزيد .

وأثبت ابن عصفور خطل هـذه الزيادة ، ودافع عن سيبويه لاهماله هذا البناء ، ورأى أن هذا الاسم رباعي ، وان الألف فيه أصلية ووزنه ، (فَعَوْلَل) وهو وزن ذكره سيبويه في الرباعي المزيد بواو ، ومثل له بـ (قَدَوكَس) .

١٠ ـ ويلوح لي ان الزبيدي كان أدق من ابن عصفور في وزن الكلمات ، وافطن منه لما فيها من الزوائد والاصول ، لأن تعصب ابن عصفور لسيبويه ، ورغبته الملحة في النضح عنـه ، قد زويا عنه وجـه الصواب في اوزان الامثلة التي استدركها الزبيدي ، فراح يجعل الاصل فيها زائدا ، والزائد أصلا ، ويتضح خبطه هذا في أمثلة كثيرة منها : أن الزبيدى رأى أن وزن (حِنْدِيرة) (فِنْعِيلَة) فهي من الثلاثي المزيد بنون ، وقد استدل على ذلك بأنها مأخوذة من قولهم (عين حَدْرَة) وليس في هذه المادة (نون) .

أما ابن عصفور فلم يشأ أن يعد هذا البناء من فوائت سيبويه ، فذهب الى أن (حنديرة) على وزن (فِعْلِيل) وأنها من الرباعي المزيد بـ (ياء) وليست (من لفظ حَدْرَة ، لما فى ذلك من اثبات بناء لم يوجد) (١) .

---

(١) الاستدراك : ٢١ والممتع : ١ / ١٠٠ .

ومن ذلك أن الزبيدي جعل (خَنْضَرِف) على وزن (فَنْعَلِل) وذهب الى أنها من الرباعى المزيد بـ (نون) لأنه ماخوذ من قولهم (خُضْرِف الجلد) اذا استرخى .

وقد عز على ابن عصفور أن يستدرك على سيبويه هـذا الوزن ، فرأى أن هذه الكلمة من الخماسي ، والنون فيها أصل ، ووزنها على هذا (فَعْلَلِل) ، وهي وان كانت من معنى (خضرف) الا انها لا توافقها في الأصول ، ومنعه من الأخذ بقول الزبيدي ، أنه يؤدى الى اثبات بناء غير موجود ،

وذهب الزبيدي الى أن (شَنَهْبَرَة) على وزن (فَنَعْلَل) وهي على هذا من الرباعي المزيد بـ (نون) واستدل على ذلك بأنها مأخوذة من قولهم (عجوز شَهْبَرَة) وليس بين أصولها (النون) .

أما ابن عصفور فقد جعل النون فيها أصلية ، وان الكلمة من الخماسي المجرد ، ووزنها (فَعَلَّل) كسفرجل ، وذهب الى أن الاخذ برأي الزبيدى يؤدى الى اثبات بناء غير موجود أيضاً ، ولكنه اعترف أن الكلمة مأخوذة من (شَهْبَرَة) الا انها تخالفها فى الاصول كسَبِط وسِبَطْر .

وعد الزبيدي (نخورش) من الثلاثي المزيد بحرفين : النون والواو ، ووزنها على ذلك (نَفْوَعِل) لأنها مأخوذة من (خرش) قالوا (جرو نَخْوَرِش) اذا خرش وخدش ولم يذكر سيبويه هـذا الوزن ، إلا أن المبرد كان قـد عد هذه الكلمة من الخماسي المجرد ، وأن حروفها كلها أصول ، ووزنها (فَعْلَلِل) فجاء ابن عصفور وقال بهذا الرأي لأن ذلك ـ عنده ـ أولى من ادعاء بناء لم يستقر في كـلامهم : واختار ابن سيدة رأى الزبيدى فقال بزيادة النون في

هذا (١) والاشتقاق يؤيد ما ذهبا إليه .

لقـد وقر في نفس ابن عصفور أن الأبنيـة التي رسمها سيبويه ، تمثل أغلب ما تكلمت به العرب ، ولم يند عنه من أبنية كلامهم إلا اليسير .

وأما هذا العدد الكبير الذى استدرك عليـه ، فلابد أن يرفض بعضه ويؤول بعضه الآخر ليوافق أبنيته ، ويكون من الأمثلة عليهـا ورأى أن التأويل خير من اضافة أبنية جديدة لم ترد في كلام العرب .

وكان من الممكن أن ينتصر لسيبويه في المفردات التي خفيت أصولها ، وصعبت معرفة الاصـــلي من الزائد من حروفها ، ويعترف بصيغ وأوزان الكلمات التي أثبت الاشتقاق الظاهر ما بها من أحرف الزيادة .

ولكنه لم يفعل ذلك ، بل مضى يجادل حتى فيما وضح اشتقاقه وبانت أصوله من زوائده ، وقـد استند في جدله إلى أن الكلمة إذا وجد فيها حرف من حروف الزيادة ، وأدى القول بزيادته الى ارتكاب وزن غير موجود ، حكم بأصالة ذلك الحرف .

توسع ابن عصفور في تطبيق هذا المبدأ ، وهو مبدأ لا يلجأ اليه إلا اذا خفي اشتقاق الكلمة ، ولم يقم الدليل على ما بها من أصول وزوائد ، وكان الصرفيون يعتمدون على الاشتقاق في معـــرفة الاصول والزوائد ، ويجعلونه مقدماً على سائر الأدلة .

قال الرضي (وانما قدم الاشتقاق المحقق على (الغلبة) و (عدم النظير) و (كون الاصل اصالة الحروف) لأن المراد بالاشتقاق كمـا ذكرنا اتصال احدى الكلمتين بالاخرى كضارب بالضرب ، أو اتصالهما

(١) شرح الرضي على الشافية : ٢ / ٣٦٤ هامش .

بأصل كضارب ومضروب بالضرب ، وهذا الاتصال أمر معنوى محقق ، لا محيد عنه ، بخلاف الخروج عن الاوزان ، فانه ربما تخرج الكلمة عن الاوزان بنظر جماعة من المستقرئين ، ولا تخرج فى نفس الأمر ، اذا ربما لم يصل اليهم بعض الاوزان ، وبتقدير الخروج عن جميع الاوزان يجوز أن تكون الكلمة شاذة الوزن) (١) .

فالاشتقاق هو الدليل القاطع على معرفة الزيادة في الكلمة ، ولا يعتمد على غيره من الادلة في حالة وضوحه ، وهذا ما فعله الزبيدى ، حيث استدل بالاشتقاق على صحة رأيه في تقدير وزن الكلمة ، وتحديد أصولها وزوائدها :

أما ابن عصفور فقد تجاهل الاشتقاق ، ولم يعتمد عليه ، لأنه وجدان الاستدلال به يؤدى إلى القول بأوزان لم يذكرها سيبويه ، أو قطع بأن العرب لم تتكلم بشيء منها .

ان الاشتقاق دليل ملزم ، لا محيد عن الاخذ به ، في معرفة الزيادة ، أما القول بعدم النظير فدليل ضعيف لان أحداً لم يقل بامكان حصر اللغة ، والاحاطة بجميع ما تكلمت به العرب .

التزم ابن عصفور بأقوال سيبويه ، ووقف عند أبنيته ، ورآها - كما قال صاحبها - مستوفية كلام العرب ، مستوعبة أوضاعه وهيئاته ولم يصح عنده ، من كل ما استدرك على سيبويه ، الا عدد قليل من الأبنية ، لم يستطع انكارها ، أو تأولها ، فاعترف بأنها ندت من سيبويه .

وأما الأمثلة التي استدركها الزبيدى ، فكان أكثرها واضحاً ، لا مجال لتأولها ولا سبيل الى التردد في بيان أصولها وزوائدها ، لان

---

(١) شرح الرضي على الشافية : ٢ / ٣٥٦ .

الاشتقاق ظاهر فيها ، ولأن لها أصولا يمكن ردها اليها ، وموازنتها بها لمعرفة ما أصابها من تغيير أو لحقها من الزوائد .

وماسقناه من الأمثلة يكفي لبيان أن الزبيدى كان يستدل بالاشتقاق على معرفة الزيادة في الكلمات .

أما ابن عصفور فلم يسلم بهذا الدليل ، وتشبث بغيره ، فوقع في الخطأ ، ودل على أنه كان طالب لجاجة ، لا طالب حق ، ولعل المثال الآتي يكشف بوضوح ، مدى التزام ابن عصفور بأبنية سيبويه ، على الرغم من اتضاح الخطأ فيها : ذكر سيبويه في أبنيـــة الثلاثي المزيد بتضعيف اللام أن (مِجَنّ) على وزن (فِعَلّ) فرد عليه الزبيدي : (مِجَنّ : مِفْعَل من (الجُنَّة) و ليس بفِعَلّ) (١) .

والاشتقاق دليل على أن (ميم) (مجن) زائدة ، وليست بأصل أما ابن عصفور فقد وقع في خطأ سيبويه نفسه فقال (وعلى فِعَلّ ... فالاسم نحو جِدَبّ . ومِجَنّ) (٢) .

١١ ـ ومن أوجه الخلاف بين الزبيدى وابن عصفور ، وغيره من المدافعين عن سيبويه ، أن الزبيدى رأى أن بعض الكلمات صفات أصيلة ، ولكن سيبويه لم يذكرها في أبنية الصفات ، فذهب المدافعون عنه الى أنها ليست بصفات متمكنة من الوصف ، وانما هي أسماء وصف بها ، لتضمنها معنى الوصف ، والوصف بها لايخرجها من دائرة الاسماء .

ومن الامثلة على ذلك كلمة (مِرْقِدّى) التي ذهب الزبيدى الى أنها من الصفات ، وأن وزنها (مِفْعِلّى) ، فذهب ابن عصفور إلى أنها اسم وصف به ، فقيل : رجل مِرْقِدّى للكثير الرقاد ، واستدل

(١) الاستدراك : ٢٦ .

(٢) الممتع : ١ / ٨٦ .

على رأيه بعدم مطابقتها الموصوف ، فلو كانت صفة أصيلة ، لطابقت موصوفها بالتذكير .

ومن ذلك أن الزبيدى عد كلمة (سِوًى) من الصفات ، وان وزنها (فِعَل) الا ان سيبويه لم يأت بها في أبنية الصفات الثلاثية المجردة ، فذهب ابن عصفور الى أن (سِوًى في الاصل اسم للشيء المستوى وصف به بدليل انه لو كان صفة أصلية لتمكن في الوصفية ، فكان يذكر مع المذكر ، ويؤنث مع المؤنث ، إذ حق الصفة أن تطابق الموصوف) (١) :

---

(١) الممتع : ١ / ٦٣ ، ٦٤ .

الفصل الثالث

كتاب « لحن العامة »

١ ـ نسخ الكتاب :

تذكر أغلب المصادر هذا الكتاب باسم (لحن العامة) وتذكره أحياناً بعناوين أخرى هي : (لحن العوام) أو (لحن عوام الاندلس) أو (ما يلحن فيه عوام الاندلس) أو (ما تلحن فيه العامة) (١) .

وقد اختار الدكتور رمضان عبد التواب حين قام بتحقيق الكتاب اسم (لحن العوام) وهو ما تحمله المخطوطة الوحيدة التي اعتمد عليها .

أما الدكتور عبد العزيز مطر الذي تولى بدوره تحقيق الكتاب أيضاً ، معتمداً على المخطوطة نفسها فقد قال : (عنوان الكتاب كما جاء في الصفحة الاولى من المخطوطة التي بين أيدينا منه هو كتاب

---

(١) جاء باسم (لحن العامة) في كل من جذوة المقتبس ، بغية الملتمس ، مطمح الانفس ، انباه الرواة ، وفيات الاعيان ، كشف الظنون ، شذرات الذهب ، المحمدون من الشعراء ، خزانة الادب المدخل إلى تقويم اللسان ، فهرسة ابن خير . وجاء باسم (ماتلحن فيه العامة) في البلغة . وجاء في معجم الادباء وبغية الوعاة ، والوافي باسم (ما يلحن فيه عوام الاندلس) وجاء في روضات الجنات باسم (لحن عوام الاندلس) .

فيه لحن العوام ولهذا سماه بروكلمان لحن العوام) (١) .

ولكن الدكتور مطر لم يختر الاسم الذي تحمله المخطوطة ، والذي اختاره عبد التواب وبروكلمان قبله ، بل عدل عنه الى اسم (لحن العامة) للمرجحات الآتية (٢) :

١ ـ اتفاق اكثر العلماء الذين ترجموا للزبيدي وذكروا أسماء كتبه ، على هذا العنوان .

٢ ـ ان ابن هشام اللخمي الذي رد على الزبيدي في كتابه هذا ونقل منه ، قد ذكر الكتاب بهذا الاسم .

٣ ـ ان عبد القادر البغدادي ذكر هذا الكتاب بين مراجع خزانته ، ونقل منه ، مصرحا بأن اسمه هو (لحن العامة) .

ويبدو أن الدكتور مطر مصيب في اختياره ، ومما يوثق هذا الاختيار ، ويضاف إلى المرجحات السابقة التي ذكرها ، أن ابن خير في فهرسته قد ذكر الكتاب بهذا العنوان ، وابن خير اندلسي ، قريب من عصر المؤلف ، وقد حمل الكتاب اجازة عن شيوخه .

جاء في الفهرست المذكور : (لحن العامة لأبي بكر الزبيدي التأليف الاول والتأليف الثاني) (٣) والذي يفهم من هذا القول ان للكتاب صورتين متفاوتتين كتبهما الزبيدي في تاريخين مختلفين ، ولكن عبارة ابن خير لا تدل على أن التأليف الثاني مختصر للتأليف الأول لانه عاد فذكر أن الزبيدي كتاباً آخر هو (مختصر لحن العامة) وقال

(١) لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية : ٨٤ .

(٢) نفسه : ٨٤ .

(٣) ابن خير : ٣٤٦ .

عنه انه (فى جزء واحد حدثني به أيضاً من تقدم ذكره من الشيوخ المتقدم ذكرهم بالاسانيد المتقدمة الا اني لم اقرأه عليهم ، ولا سمعته وأنا أحمله عنهم اجازة في جملة ما أجازوه لي رحمهم الله) (١) . ولهذا ان للزبيدي في لحن العامة كتابين ، أحدهما مختصر ، وثانيهما مطول ظهر في صورتين متباينتين ، وفي تاريخين مختلفين .

والكتاب المطبوع اليوم أما أن يكون هو المختصر المذكور ، وأما أن يكون صورة موجزة للتأليفين الاول والثاني ، أو هو احدى صور هذا الكتاب .

وقد هم الدكتور رمضان عبد التواب أن يطلق على النسخة التي حققها اسم (مختصر لحن العامة) لأنه عثر فى بعض الكتب على نصوص كثيرة منقولة من (لحن العامة) للزبيدي ، ولكنها لاتوجد في المخطوطة ثم عدل عن فكرته ، وآثر ابقاء العنوان الذي تحمله المخطوطة ، وألحق النصوص الساقطة من الكتاب في آخره ، وذلك لأن غياب تلك النصوص قد يكون بسبب النساخ ، ولايعني أن الزبيدي نفسه هو الذي استبعدها اختصاراً لكتابه (٢)

ولم يستطع الدكتور عبد التواب أن يلتقط كل ما سقط من الكتاب ، ويضم اليه جميع ماتناثر منه في بطون الكتب ، على الرغم من محاولته ذلك ، فجاء الكتاب المنشور ناقصاً ، وبقيت بعض مواده نادّة منه ، غير مضمومة إليه .

وقد ظهر لي أن المحقق الفاضل لم يستفد من كتاب (المدخل إلى تقويم اللسان) لابن هشام اللخمي ، ولم يرجع اليه فى التحقيق

---

(١) ابن خير : ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

(٢) لحن العوام ، مقدمة المحقق : ٣٣ :

وان كان قد ذكره بين مصادره التي اعتمد عليها في عمله ، فلو كان المحقق قد استضاء بهذا الكتاب لوقف على نصوص كثيرة نقلها ابن هشام من (لحن العامة) ، ولم تذكرها الكتب الاخرى ، ولاستطاع أن يهتدى الى وجه الصواب في كلمتين تصحفتا عليه ، فتركهما دون اصلاح أو تقويم ، وقد جاءتا في كتاب ابن هشام واضحتين ، لم يعتورهما التصحيف ، وهما : (فأستريب به) وجاءت فى الكتاب المطبوع (فاشتريت به) و (نجلت ولدى) وقرأها المحقق (نحلت ولدى) (١) :

وأما المواد التي نقلها ابن هشام اللخمي من كتاب الزبيدي ، ولم ترد فى نشرة الدكتور عبد التواب فهي : الدالية ـ المتهكم ـ وما جاء على فعلت مفتوح العين والعـــامة تكسره وما جاء على فعلت مكسور العين والعامة تفتحه ، وما جاء على أفعل والعامة تقوله على فعل ـ وما جاء على فعلت وهم يقولونه على أفعلت ـ وما غلط فيه من الأسماء .

وقـــد أورد ابن هشام اللخمي في (المدخل) بعض الكلمات الملحونة مضبوطة ضبطا يخالف ماهي عليه في نشرة الدكتور عبد التواب من ذلك كلمة (شبع) التي ذكر ابن هشام عن الزبيدي أن العامة تنطقها (شِبْع) .

وأما فى الكتاب المطبوع فان العامة تنطقهـا (شَبَع) ، وكلمة (كُلْوة) التي جاء في كتاب ابن هشام نقلا عن (لحن العامة) أن العامة تقولها (كَلْوَة) بالفتح :

وأما في المطبوع فان العامة تقولها (كُلْوَة) ، وكلمة (زرافة) فقد ذكر ابن هشام نقلا عن كتاب الزبيدي أن العامة تقولها (زُرافة)

---

(١) لحن العوام : ٨٢ ، ٢٦٠ .

واما في المطبوع فان العامة تنطقها (زِرافة) ، وكلمة (قدوم) التي جاء في الكتاب المطبوع أن العامة تجمعها على (قواديم) وجاء في كتاب ابن هشام نقلا عن كتاب الزبيدي ان العامة تجمعها على (قوادِم) .

ولو أن المحقق قابل نسخته بكتاب ابن هشام ، اوقف عند هذا الاختلاف ، وجلا لنا وجه الحق فيه .

وتوجد النسخة الوحيدة المخطوطة من كتاب (لحن العامة) في مكتبة رئيس الكتاب باستانبول برقم (١١٢١) ويوجد منها مايكروفلم بمعهد المخطوطات العربية .

ولا صحة لما ذكره محقق (طبقات اللغويين والنحويين) ومؤلف (الاخطاء اللغوية الشائعة) من أن للكتاب نسخة خطية أخرى في الاسكوريال

نصوص من (لحن العامة) لم ترد في نشرة الدكتور رمضان عبد التواب :

١ ـ الدالية :

قال ابن هشام اللخمي نقلا عن كتاب الزبيدي : (ويقولون للعنب المُعَرَّش دالية ، والدالية التي تدلو الماء من البئر أو النهر أي تستخرجه (١) .

---

(١) مخطوطة الرد على الزبيدي : ٥ :

٢ ـ المتهكّم :

قال ابن هشام نقلا عن كتاب الزبيدي : (ويقولون : فلان يتهكم بفلان ، أي يهزل به ، واما المتهكّم الغاضب) (١) .

٣ ـ ما جاء على فعلت مفتوح العين والعامة تكسره :

قال ابن هشام (وقال أيضا ـ يعني الزبيدي ـ : ومما جاء على فعلت مفتوح العين والعامة تكسره ، قولهم : ضَرِفت ، وَعَقِلت ، وملكِت ، وكسِبت وَعجِزت وَنكلِت) (٢) .

٤ ـ ما جاء على فعلت مكسور العين والعامة تفتحه :

قال ابن هشام (وقال أيضا ومما جاء على فعلت مكسور العين والعامة تفتحه قولهم لجَجْت وغَصَصْت) (٣) .

٥ ـ ما جاء على فعلت وهم يقولونه على أفعلت :

قال ابن هشام : (وقال أيضاً : ومما جاء على فعلت وهم يقولونه على أفعلت قولهم : رشوت السلطان ونجلت ولدي وعرضت عليه الأمر) (٤) .

(١) مخطوطة الرد على الزبيدي : ٨ .

(٢) نفسه : ٨ ، ٩ .

(٣) نفسه : ٩ .

(٤) نفسه : ٩ .

٦ ـ ما جاء على أفعل وهم يقولونه على فعل :

قال ابن هشام : (وقال أيضاً : ومما جاء على أفعل بالألف وهم يقولونه على فعل قولهم : أفلح الرجل ، وأصحت السماء ، وأقفلت الباب ، وأفرد الرجل اذا سكت ولم ينطق ، وأحددت السكين وأذيت الرجل) (١) .

٧ ـ ما غلط فيه من الاسماء :

قال ابن هشام : (وقال أيضاً : ومما غلط فيه من الأسماء قول حبيب :

احدى بني بكر بن عبد مناه بين الكثيب الفرد فالأمواه

والصواب عبد مناة بالتاء مثل عبد يغوث وعبد ود وعبد العزى ، وهي أصنام كانت العرب تعبدها . قال الله عز وجل (ومناة الثالثة الاخرى)) (٢) .

معنى اللحن :

جاء في لسان العرب (قال ابن برى وغيره : للحن ستة معان ، الخطأ في الاعراب ، واللغة ، والغناء ، والفطنة ، والتعريض ، والمعنى) (٣) .

---

(١) مخطوطه الرد على الزبيدي : ٩ :

(٢) نفسه : ١٣ :

(٣) اللسان : ١٧ / ٢٦٥ .

وليس (اللحن) بمعنى الخطأ في الكلام اقدم هذه المعاني ، بل هو معنى مولد ، متأخر النشأة .

ولانزال ينقصنا الدليل على الزمن الذي استعملت فيه كلمة اللحن لاول مرة بهذا المعنى ، الا أن يوهان فك يقول (وأغلب الظن انه استعمل لاول مرة بهذا المعنى عندما تنبه العرب بعد اختلاطهم بالاعاجم الى فرق مابين التعبير الصحيح والتعبير الملحون) (١) .

وقد تتبع بعض الدارسين (٢) النصوص النثرية والشعرية التي وردت فيها كلمة (اللحن) بمعنى الخطأ في الكلام فوجد أن عبدالملك ابن مروان هو أقدم من استعملها بهذا المعنى ، فقد نسبت اليه أقوال قبح فيها اللحن ، وعده هجنة للشريف ، قال : (اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب والجدرى فى الوجه) (٣) ، وقال (الاعراب جمال للوضيع واللحن هجنة على الشريف) (٤) ؛

وروى عنه أنه (قيل له : لقد عجل اليك الشيب يا أميرالمؤمنين قال : شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن) (٥) ؛

والحجاج ممن استعمل كلمة (اللحن) بمعنى الخطأ ، فقد روى أنه قال ليحيى بن يعمر النحوي (أتسمعني ألحن ؟ قال : لا ، الا أنه ربما سبقك لسانك ببعضه في آن وآن ، قال : فاذا كان ذلك

---

(١) العربية : ٢٤٥ ؛

(٢) لحن العامة والتطور اللغوي : ١٠ .

(٣) العقد الفريد : ٢ / ٤٧٨ ؛

(٤) المصدر نفسه : ٢ / ٤٧٩ .

(٥) نفسه : ٢ / ٤٧٩ ؛

فعرفني) (١) :

فهذه النصوص النثرية ، وما سنذكره من نصوص شعرية ، تدل على أن كلمة (اللحن) لم تتخذ الدلالة على الخطأ الا في العصر الاموى إذ لا نملك نصوصاً أقدم منها ، وردت فيها الكلمة بهذا المدلول ، بل انها في مطلع الدولة الاموية لم تكن قد شاعت بهذا المعنى بعد ، بدليل أن معاوية حين سمعها ظن أنها بمعنى الفطنة (وفي حديث معاوية انه سأل عن أبي زياد فقيل انه ظريف على انه يلحن ، فقال : أو ليس ذلك أظرف له ، قال القتبي : ذهب معاوية الى اللحَن الذي هو الفطنة محرك الحاء) (٢) .

ولم ترد كلمة (اللحن) بمعنى الخطأ في شعر جاهلي أو مخضرم بل وردت في شعر العصر الاموى ، ومن ذلك قول الحكم بن عبدل الاسدي في محمد بن عمير كاتب عبد الملك بن بشر بن مروان ، وكان ابن عبدك كلما مدح عبد الملك فأثابه ، دافعه هذا الكاتب وعارضه :

ليت الأمير أطاعني فشفيته من كل من يُكفي القصيد ويلحن (٣)

وقول يحيى بن نوفل في هجاء خالد بن عبد الله القسري والي العراق .

وألحن الناس كل الناس قاطبة وكان يولع بالتشديق في الخطب (٤)

(١) العقد الفريد : ٢ / ٤٧٩ .

(٢) اللسان : ١٧ / ٢٦٤ :

(٣) يرى يوهان فك ان هذا البيت أقدم الشواهد على استعمال اللحن بمعنى الخطأ اللغوى العربية : ٢٤٦ .

(٤) البيان والتبيين : ١ / ١١٤ ، ١١٥ تح (حسن السندوبي) ط ٢ ، و ٢ / ١٧٠ .

وقول يحيى بن نوفل أيضاً في رجل اسمه زيد :

ان يك زيد فصيح اللسان خطيبا فان استه تلحن

وردت كلمة (اللحن) بمعنى الخطأ اللغوي في شعر لرؤبة بن العجاج ، قاله مادحا قاضي البصرة بلال بن أبي بردة :

فُزْت بقِدْحَيْ مُعْرِبٍ لم يَلْحَنِ (١)

ومما يزيدك اطمئنانا الى أن كلمة (اللحن) بمعنى الخطأ في الكلام هي كلمة مولدة ، لا يرقى استعمالها الى ما قبل العصر الاموي (وهو العصر الذي بدأت الالسنة فيه تنحرف عن سنن العربية بسبب تلاقي الاجناس ، واختلاط الألسن) ، قول إبن فارس : (فأما اللحن بسكون الحاء فامالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية ، يقال لحن لحنا ، وهذا عندنا من الكلام المولد . لان اللحن محدث ، لم يكن في العرب العاربة ، الذين تكلموا بطباعهم السليمة) (٢) .

والذي عليه أكثر الباحثين أن العرب في جاهليتها وصدر اسلامها كانت تتكلم العربية الخالصة من شوائب اللحن والخطأ ، سليقة وطبيعة . وظلت ألسنتهم على نقائها وصفائها ، لم يعترها اختلال ، ولم يجر عليها لحن ، حتى خرجوا من جزيرتهم ، فخالطوا الاعاجم ، وعاشروهم ، وأطالوا اللبث في ديارهم .

فكان من آثار ذلك أن بدأ الفساد اللغوي يغزو ألسنتهم . ويتفشى في كلامهم ، كما بدأ الداخلون في الاسلام من أبناء الشعوب الاخرى يتعلمون العربية ، ويعالجون التفاهم بها مع العرب ، فلقيت على

---

(١) اللسان : ٢٦٣/١٧ ولحن العامة والتطور اللغوي : ١٨ ، ١٩

(٢) المقاييس : ٥ / ٢٣٩ .

ألسنتهم صنوفاً من التغيير ، وضروبا من الانحراف والفساد ، في أصوات كلماتها وأوزانها ، وفي نحوها وأساليب تركيبها .

وقد أشار أبو بكر الزبيدي إلى أن الفساد لم يفش فى العربية إلا بعد استقرار العرب بالامصار ، واختلاطهم بأبناء الشعوب المغلوبة ، قال : (ولم تزل العربية تنطق على سجيتها في صدر اسلامها ، وماضي جاهليتها ، حتى أظهر الله الاسلام على سائر الاديان فدخل الناس فيه أفواجاً ، وأقبلوا عليه أرسالا ، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة ، واللغات المختلفة ، ففشا الفساد في اللغة العربية) (١) .

وقال يوهان فك : (ولا يزال ينقصنا بعد كل دليل يبين متى تم نقل اللحن إلى معنى الخطأ في الكلام . وأغلب الظن أنه استعمل لأول مرة بهذا المعنى عندما تنبه العرب بعد اختلاطهم بالاعاجم إلى فرق مابين التعبير الصحيح والتعبير الملحون) (٢) .

وقال (وليكن هناك من الفرص قبل الاسلام أيضاً ما يسمح باختلاط العرب بغيرهم من الاعاجم في المناسبات المختلفة فان الهجرة العربية الكبرى التي تمت في القرن الأول للاسلام وهيأت الفرصة العظمى لاحتكاك العرب بالاعاجم ، واصطدام لغتهم باللغات الاخرى هي التي يعول عليها بالنسبة لما ترتب عليها من آثار جماعية غير فردية) (٣) .

---

(١) طبقات اللغويين والنحويين : ١ .

(٢) العربية : ٢٤٥ .

(٣) نفسه : ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

التأليف في (اللحن) :

حين ظهر الزيغ عن سنن العربية ، وشاعت على ألسن الناطقين بها ، أنواع من الخطأ في الاصوات ، وأوزان الصيغ ، ونظام الجمل ، وتغيير دلالات الالفاظ ، قامت في نفوس علماء اللغـــة ، منذ أواخر القرن الأول الهجري (١) ، رغبة صادقة في المحافظة عليها ، وتنقيتها ، ورد الناطقين بها إلى الاستعمال الصائب ، ثم ظهرت مؤلفات عديدة في المشرق والمغرب ، لمعالجة هذا الخطأ ، الذى اصطلحوا على تسميته باللحن ، وعرفت تلك المؤلفات بكتب (لحن العامة) ، فكان من ذلك تراث ضخم في هذا الباب .

وقد درج المؤلفون في (لحن العامة) على أن يجمعوا طائفة من الالفاظ التي يخطىء فيها الناس في زمانهم ، وفي القطر الذى يعيشون فيه ، ويبرهنوا على خطئها ، ويبينوا الصواب الذي يجب أن يحل محلها في الاستعمال .

ذلك هو الهدف العـام الذي توخاه مؤلفو هـذا اللون من الكتب ، ولكنهم تفاوتوا في الخطة والمنهج ، فكان لكـل منهم منهجه فى جمع المواد وتصنيفها ، ومقيـاسه الذي يحكم به في تخطئـــة النـاس ، والتصويب لهم .

ولا تقتصر أهمية هـذه الكتب على مقاومة الخطا ، والتوجيه إلى الاستعمال الفصيح ، وتصفية الكلام مما شابه من الدخيل الذي عمي أمره ، وتوهم الناس فصاحته ، بل تعدت ذلك إلى أنها اطلعتنا على جوانب من التطور اللغوي الذي حدث في تلك العصور . وبينت

(١) العربية : ٢٤٦ .

ما أصاب بعض المفردات العربية : من تغيير في أصواتها أو اوزان صيغها ، وما آلت اليـــه دلالاتها بتداول الناس اياها ، ولكل ذلك قيمته حين نحاول دراسة تطور اللغـة ، وتسجيل ما يعتريها من تغير عبر الاعصار :

الا أن كتب اللحن التي بين أيدينـا تقتصر على ذكر ما أصاب المفردات المجردة من تغيير في الصوت أو الصيغة أو الدلالة ، وتهمل الاشارة إلى ما أصاب الجمل والعبارات من خلل ، أو زيغ عن جادة الفصحى في بناء الاساليب وصوغ العبارات . فكتب اللحن لا تمدنا بغير مفردات محرفة ، وكلمات مفسدة ، ولذا لا نستطيع أن نفيد منها في الوقوف على التطور اللغوي الذي طرأ على الجمل والتراكيب .

وثمة عيب آخر منيت به كتب (لحن العامة) ، وهو أنها اقتصرت على تسجيل الخطأ الدائر على الألسن ، ووضع ما يقابله من الفصيح ، ولم تتجاوز ذلك إلى الكشف عن العوامل التي تدفع إلى الخطأ أو الاسباب التي ينجم عنها اللحن ، فاللحن (من وجهة نظر علم اللغـة الحديث ، ماهو إلا تطور لايحدث اتفاقاً ، ولايتم بطريقة عشوائية) (١) بل ينجم عن عوامل ، ما تزال بكل لغـــة حتى تخرج بها من حال إلى حال .

لقد وقف المؤلفون في (لحن العامة) عند وصف الخطأ الذي هو تطور لغوي ، والتوجيه إلى الصواب الذي يجب أن يحـل محله ، فقاموا بذلك بدور (المعلم) ولم يقوموا بدور (عالم اللغـــة) الذي لا يكتفي بملاحظة الظاهرة وتسجيلها كما هي ، بل يسعى إلى معرفة أسرارها ، والعوامل التي تقف وراءها ، وتؤدي إليها .

---

(١) لحن العامة والتطور اللغوي : ٣٣ .

يقول المستشرق الالماني برجستراسر : (والذي منع علماء الشرق - مع بذل الجهد العجيب في درس اللغـــة العربية من جهة الصرف والنحو ومن جهة المفردات - عن الاعتناء الكافي بالكشف عن تطور اللغة بعد الاسلام ، سببان يرتبطان أحدهما بالآخر أولهما : مداومتهم على السؤال عن الجائز في اللغـــة وضده ، وعلى المنع عن كثير من العبارات ، وهذا وان كان واجباً نافعا فهوعمل المعلم لا العالم ، فالعالم يفحص عما يكون في الحقيقة لا عما كان ينبغي أن يكون ، والمعلم لا يظن أن تعليمه أقوى من الحياة ، فان نسي هذه النصيحة ، واجتهد أن يقهر حياة اللغة ، ويعوقها ، جازته وغفلت عن تعليمه ، فيتسع إذا الشق الحاجز بين اللغة الحقيقية الحية ، ومايعلمه النحويون ، كما نشاهد ذلك في تاريخ اللغـة العربية . والسبب الثاني : اعتقاد علماء الشرق أن أكمل ما كانت عليه اللغة العربية وأتقنه واحسنه ما يوجد في الشعر القديم ، وهذا حكم غير علمي .) (١) .

كان عمل اللغويين الذين تصدوا لاصلاح اللحن ، وتصويب الاخطاء اللغوية ، عملا ناقصا ، لانهم اكتفوا بوصف الخطأ ، ومقاومته والوقوف بوجهه ، ولم يتعدوا ذلك إلى البحث في الخطأ ، بوصفه تطوراً لغوياً ، ناجماً عن علل ، وخاضعا لقوانين .

يقول الدكتور رمضان عبد التواب : (ولم يكن هذا المنهج الذى أشرنا إليه معروفاً لدى القدامى من اللغويين العرب ، ولذلك وجدناهم يتعدون وظيفة العالم إلى وظيفة المعلم ، فكانوا وهم يلحظون هذا التطور

---

(١) التطور النحوى : ١٣٧ ، ١٣٨ .

في اللغة ، لا يهمهم أن يسجلوه ويقارنوا بينه وبين أصوله ، بقدر ما كان يعنيهم أن يقفوا في وجهه ويعيبوه ، ويحاولوا ارجاع الناس إلى القديم ، وهم فى ذلك كله مدفوعون بعاطفة نبيلة ، هي الغيرة على هذا التراث القديم والخوف من اندثاره) (١) :

ولكتب (لحن العامة) قيمة أخرى ، تتجلى بما حشد فيها مؤلفوها من شواهد الشعر والنثر والأمثال والأخبار ، التي اتكأوا عليها في البرهنة على الصواب ، فكان هذا الجانب منها يجعلها أقرب إلى كتب الأدب ، ويزيل عنها الجفاف الذي عرفت به كتب اللغة :

وبعد ، فكتب (لحن العامة) هي كتب لغوية ، كرسها مؤلفوها لاصلاح ما شاب لهجات الخطاب من أخطاء ، وقد هدفوا منها إلى تحصين اللغة من هجوم اللحن والفساد عليها .

كما أرادوا الناس في زمانهم على أن يسترشدوا بتلك الكتب فيصححوا ما يقع منهم من خطأ ، ويجتنبوا الانحراف عن سنن العربية في التلفظ والأداء . وهي في مهمتها هذه تختلف عن المعجمات اختلافاً كبيراً ، فقد قيدت المعجمات ألفاظ اللغة . ودلالتها كما استعملها العرب الأول .

وأما كتب اللحن فقد عنيت بتصوير لغة الناس في العصور المتأخرة ، أو بتصوير اللغات الحية ودلالتها :

وقد تحدث الدكتور حسين نصار عن هذه الناحية فقال : (وجملة القول في (كتب لحن العامة والخاصة) بعد هذه الجولة السريعة ، أن أهميتها تقوم على تصويرها الشعب العربي وحياته في جميع الاقاليم تصويرا دقيقاً محكماً لا تعطيناه معاجم اللغة الفصيحة :

---

(١) لحن العامة والتطور اللغوى : ٣٢ :

فقد كانت هذه المعاجم يعتمد المتأخر منها على المتقدم ويحاول أن يفسر اللفظ بالمعاني التي كان يستعمله فيها الجاهليون والاسلاميون الأول وحدهم ، بينما عنيت هذه الرسائل باللغات الحية في الاقاليم ودلالاتها فكانت أصدق تصويراً ، بل صورت مع العامية لغة الخاصة بعد أن تسربت إليها الأخطاء . . .) (١) .

ومن هنا نستطيع القول أن كتب (لحن العامة) ذات فائدة جليلة لمن أراد أن ينظر فى (العربية) نظرة تاريخية ، ويسجل مراحل تطورها ، ويقف على ما اعتور مفرداتها عبرالعصور من تغيير في الصوت وفي المدلول .

أما المعجمات وكتب اللغة فلا تغني عنها في هذا الوجه من وجوه البحث ذلك (ان مادة اللغة وكتبها على كثرتها لا تشير إلى لغات القبائل ولهجات الاقاليم اشارات علمية واضحة .

وقد أشرنا إلى هذه الناحية ذلك أنهم اعتمدوا الاساليب القديمة الجاهلية وأسلوب القرآن وما خــلا هذين فليس مما يستشهد به ويبنى عليه) (٢) كما أن (كتب اللغـة لا تشير إلى اللفظة المفردة وطرائق استعمالها عبر العصور) (٣) .

---

(١) المعجم العربي : ١ / ١١٤ .

(٢) مباحث لغوية : ٩٠ ، ٩١ .

(٣) نفسه : ٩١ .

كتب (لحن العامة) حتى عصر الزبيدي :

حين أخذ اللحن ينتشر على ألسنة العرب ، والمتكلمين بالعربية ، انبرى اللغويين يؤلفون الكتب لمقاومته وتبيين وجه الصواب فيه ، تدفعهم إلى ذلك عاطفة نبيلة ، قوامها الحفاظ على لغة العرب وتحصينها من تسرب الفساد والخطأ إليها .

ولكن جهودهم تلك لم تحقق ماهدفت إليه ، بل استمر (اللحن) يفشو ، ومضت تلك اللغة المحرفة تنمو وتتزايد ، حتى لم تعد مقصورة على عامة الناس ، بل تغلبت على ألسنة الخاصة والمثقفين ، مما دفع اللغويين إلى تأليف الكتب في أوهام الخواص ، ولحن المثقفين والكتاب وأرباب العلوم .

ويبدو أن كتب (لحن العامة) في نشأتها الأولى لم يتبع فيها ترتيب أو تنظيم خاص ، ولم يسر مؤلفوها على طريقة معينة ، وانما أوردوا الالفاظ والأساليب كيفما اتفق الحال ، ويمثل هذا الطور من كتب (لحن العامة) ، كتاب الكسائي ، وهو أقدم ما وصل إلينا منها ثم تطور التأليف ، فأخذ المؤلفون يقسمون كتبهم إلى فصول تحتوى على أنواع متشابهة متفقة من اللحن ، وإن لم يرتبوا المواد داخل هذه الفصول ، ويمثل هذا النوع من الكتب ، كتاب (اصلاح المنطق) لابن السكيت ، و (أدب الكاتب) لابن قتيبة (١) .

وتفاوتت هذه الكتب في عهودها المختلفة ، من حيث الاطالة والاختصار ، فقد (ابتدأت موجزة مختصرة . تكتفي بإيراد اللفظ وتصويبه ، مع شاهد من القرآن أو الشعر ، ولكنها أخذت في الطول

(١) المعجم العربي : ١ / ٩٧ .

شيئاً فشيئاً ، حتى ارتمت في أحضان الاخبار والاشعار والأحاديث والتعليقات النحوية والصرفية والاستطرادات في القرنين الخامس والسادس واستمرت تميل إلى نظام المتون تارة ، وإلى نظام الاخبار الأدبية والاستطرادية أخرى ، وتتوسط بين ذلك ثالثة) (١) .

ويتبين لنا من كتاب (لحن العامة) للزبيدي ، أن هذا النمط من التأليف قد أصاب على يدي الزبيدى حظا من التطور والنضج ، فقد سار فيه مؤلفه على نظام التقسيم إلى فصول - وان لم يرتب مواد كل فصل - كما لم يبعد كثيراً عن الهدف منه وهو ايراد اللفظ وتصويبه مع الاحتجاج للتصويب . فلم يغرق الكتاب بالاخبار والاستطرادات والتعليقات النحوية والصرفية ، وما كان يلتزم به من ايراد بعض الجوانب اللغوية التي تتعلق بالمادة التي يتكلم عليها ، مثل بيان مرادفها وجمعها واشتقاقها واللهجات فيها ، فانه لا يعد من قبيل الاستطراد والتفصيل الذي يبتعد عن موضوع الكتاب ، ويجافي الغاية منه :

وقد نعى الزبيدي في مقدمة الكتاب على أبي حاتم السجستاني ، استطراده وحشده الكثير من المسائل اللغوية في كتابه (لحن العامة) ورأى أن ذلك مما أخل بالكتاب وسلبه قيمته ، وابتعد به كثيراً عن الغاية المرجوة منه .

ولا شك أن الزبيدى لم يقع في مالام السجستاني عليه ، بل حرص كثيراً على أن يبقى ضمن موضوعه ، غير أنه حرص أيضاً على أن ينفي عن كتابه الايجاز المخل ، فجاء الكتاب معتدلا ، متوسطا بين الكتب التي أوجزها مؤلفوها واجاعوها ، والكتب التي أطيلت واتخمت بالاخبار والاشعار والتعليقات .

---

(١) المعجم العربي : ١ / ١١٥ :

ويتضح لك هـذا المنهج الوسط الذي سلكه الزبيدي إذا وازنت كتابه بالكتب التي تقدمته ، والتي تأخرت عنه ، فكتاب الكسائي (ت ١٨٩ هـ) ذهب فيه مؤلفـه إلى الاختصار الشديد (بتقليل الشواهد والاقتصار على ذكر اللحن وابانة موضع الخطأ فيـه وصوابه) (١) ، وقل مثل ذلك عن كتاب (البهاء) للفراء ، فقد قال عنه ابن خلكان إنه صغير الحجم (٢) . وكتابا (أدب االكاتب) - أعني الجزء الخاص منه بتقويم اللسان - و (اصلاح المنطق) ، مال فيهما مؤلفاهما إلى الاختصار أيضا وقاما على (أساس ذى شعبتين هما حركة اللفظ الفصيح أو بناؤه وما يصير اليه عند العامة) (٣) .

وأما كتاب (الفصيح) لثعلب (ت ٢٩١ هـ) ، فقد التزم فيه مؤلفه الاختصار الشديد (حتى جعله لا يعني بتفسير أكثر المواد التي ذكرها ، والاقلال من الشواهد عليها ، التي اتخذها من الشعر وحده : وقد فعل ذلك سلفاه - يعني ابن السكيت (٢٤٦ هـ) وابن قتيبة (٢٧٦ هـ) - ولكن الى درجة أقل منه) (٤) .

واذا نظرت في كتاب (درة الغواص) للحريري (٥١٦ هـ) وجـدته يعج (بالشواهد الشعرية والقرآنيـة والاحاديث والقصص والحكايات عن اللغويين وغيرهم) (٥) .

---

(١) المعجم العربي : ١ / ٩٨

(٢) وفيات الاعيان : ٥ / ٢٢٩ .

(٣) المعجم العربي : ١ / ١٠٢ .

(٤) نفسه : ١ / ١٠٣ .

(٥) لحن العامة والتطور اللغوي : ٢١٣ .

واتسم كتاب (التكملة) للجواليقي (ت ٥٣٩ هـ) (بالاطالة وايراد الشواهد من شعر وحديث وأمثال والتعرض لبعض المشتقات) (١) .

من هنا نستطيع أن نصف كتاب الزبيدي ، بأنه وسط بين المنهجين فلم ، يتطرف في الاختصار ، ولم يغرق في الاطالة ، كما تخلص من الفوضى والاضطراب الذي عرفته الكتب القديمة المؤلفة في (اللحن) وجاء مبوباً ينتظم كل باب منه مواد متشابهة متفقة في نوع (اللحن) ولو أن الزبيدي رتب مواد كل باب وفقاً لحرفها الاول ، أو الاخير ، لكان بلغ الغاية في اتقان المنهج وإحكام التنظيم .

وإليك قائمة بالكتب المؤلفة في هـذا الموضوع حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، وهو القرن الذي توفي الزبيدي في ثلثه الأخير (٣٧٩ هـ) (٢) .

١ ـ ما تلحن فيه العوام للكسائي (١٨٩ هـ) .

٢ ـ ما يلحن فيه العامة لأبي الهيذام ، من علماء القرن الثالث الهجري .

٣ ـ البهاء فيما تلحن فيه العامة للفراء (٢٠٧هـ) .

٤ ـ ما تلحن فيه العامة لأبي عبيدة (٢١٠ هـ) :

٥ ـ ما يلحن فيه العامة للاصمعي (٢١٦ هـ) :

٦ ـ ما خالفت فيه العامة لغات العرب ، لأبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤ هـ) .

٧ ـ ما يلحن فيه العامة لأبي نصر الباهلي أحمد بن حاتم (٢٣١ هـ) .

---

(١) المعجم العربي : ١ / ١٠٩ :

(٢) لحن العامة والتطور اللغوى : ٩٧ وما بعدها .

٨ - اصلاح المنطق لابن السكيت (٢٤٤ هـ) .

٩ - مايلحن فيه العامة للمازني (٢٤٩ هـ) .

١٠ - لحن العامة لأبي حاتم السجستاني (٢٥٥ هـ) .

١١ - النحو ومن كان يلحن من النحويين لابن شبة (٢٦٢ هـ) .

١٢ - أدب الكاتب لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) .

١٣ - لحن العامة لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري (٢٨٢ هـ) .

١٤ - لحن العامة لأبي علي الدينوري (٢٨٩ هـ) .

١٥ - الفصيح لأبي العباس ثعلب (٢٩١ هـ) .

١٦ - تقويم اللسان لابن دريد الازدي (٣٢١ هـ) .

١٧ - تقويم الألسنة ، للديمرتي ، من علماء القرن الرابع الهجري .

١٨ - التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة بن الحسن الاصفهاني (٣٥٠ هـ) ، وهو في أوهام الخاصة وسهوهم وزللهم وتصحيفاتهم .

١٩ - فائت الفصيح لمحمد بن عبد الواحد غلام ثعلب (٣٤٥ هـ) .

٢٠ - لحن العامة لأبي بكر الزبيدى (٣٧٩ هـ) .

٢١ - شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف لأبي أحمد الحسن ابن عبد الله العسكري (٣٨٢ هـ) .

٢٢ - ما لحن فيه الخواص لأبي أحمد الحسن بن عبد الله العسكري أيضاً (٣٨٢ هـ) .

٢٣ - لحن الخاصة لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري (٣٩٥ هـ) .

٢٤ - التنبيهات على أغاليط الرواة لعلي بن حمزة البصري (٣٧٥ هـ) .

٢٥ - تمام فصيح الكلام لاحمد بن فارس (٣٩٥ هـ) .

دواعي تأليف كتاب الزبيدي :

يذكر الزبيدي في مقدمة الكتاب أن للحكم المستنصر فضلا في تأليفه ، فيقول : (وكان الذي قد دعانا إلى تأليف هذا الكتاب ما أملناه في الثقة التي أسندها إلى المؤلف الامام الفاضل ، والخليفة العادل ، الذي لا امام في الارض غيره ، ولا خليفة لله على الخلق سواه ، الحكم المستنصر بالله ، أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، محيي العلم وراعيه ، الراسخ في فنونه ، الموفي على دقيقه وجليله ، المشرف له ولحامليه) (١) .

ولم يكن هذا الكتاب هو الوحيد الذي ألفه الزبيدى تلبية لرغبة الحكم ، أو التماساً للحظوة لديه ، بل هناك كتابان آخران هما (الطبقات) و (مختصر العين) ، إلا أن الحكم لم يتدخل في منهجه وطريقة تصنيفه ، كما فعل في ذينك الكتابين ، إذ رسم له منهجها وأمده من أخبار اللغويين والنحاة بما سهل عليه تأليف كتاب (الطبقات) .

والحق أن الزبيدي لاحظ فشو الاخطاء في لغة أهل بلده ، وحاجة الناس إلى كتاب يبين لهم تلك الاخطاء ، ويرشدهم إلى وجه الصواب فيها ، فعمد إلى تأليف الكتاب جرياً على خطته في تحرى الموضوع البكر الذي تمس حاجة الناس إلى التأليف فيه .

---

(١) لحن العوام : ٩ .

وبذلك كان أبو بكر أول من ألف فى لحن عامة أهل الاندلس ، لأنه وجد أن علماء البيئة الشرقية قد بذلوا جهدهم في اصلاح المفسد من كلام الناس هناك ، ووضعوا الكتب العديدة التي توخت تحصين اللغة ، ومنع فشو اللحن فيها ، فذكر أسماء العلماء الذين شاركوا فى هذا المجال منذ أبي الاسود فقال : (ولم تزل العرب في جاهليتها وصدر من اسلامها تبرع في نطقها بالسجية ، وتتكلم على السليقة ، حتى فتحت المدائن ، ومصرت الامصار ، ودونت الدواوين ، فاختلط العربي بالنبطي ، والتقى الحجازي بالفارسي ، ودخل الدين أخلاط الامم ، وسواقط البلدان ، فوقع الخلل في الكلام .

وبدأ اللحن في ألسنة العوام ، فكان أول من استدرك ذلك وحاول اصـــلاح فساده ، أبو الاسود ظالم ابن عمرو الدؤلي ، فألف أبوابا من النحو ذكر فيها عوامل الرفع والنصب والجر والجزم ودل على الفاعل والمفعول والمضاف .

ثم فشا اللحن ، وكثر بعد اختلاط الناس وكثرتهم ، ونشوء الذرية على فاسد من لفظهم ، فاقتفى أثر أبي الاسود الدؤلي فيما ألفه جملة ممن أخذ عنه ، ففرعوا على ما أصله ، وبنوا على ما أسسه . فوضعوا العربية قياساً . ونهجوا إليهـا سبيلا ، حتى انتهى ذلك إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ففتح أبواب النحو ، ومد أطنابه ، وأوضح علله ، وبلغ أقصى حدوده ، واستوعب فيه غاية مراده ، وكان في علمه هـذا لا نظير له ، وفرداً لا قرين معه :

ثم ألف من بعده من أهل العـــلم في النحو والغريب واصلاح المنطق على قدر الحاجة ، وبحسب الضرورة ، تحصيناً للغتهم ، واصلاحا للمفسد من كلامهم ، إلى أن وضع أبو حاتم كتاباً اعتزم به تقويم

ما فيه أهل عصره من كلام العرب وسماه كتاب لحن العامة) (١).

وقد اعترف الزبيدي بأنه اطلع على كتاب أبي حاتم وتصفحه، ووجد فيه مواطن ضعف، نبه عليها، وحاول أن يتحاماها في كتابه، يقول : (واني لما تصفحت كتابه هـذا، رأيته مشتملا على ما يشتمل عليه سائر الكتب الموضوعة في اللغـــة، ورأيت الفن الذي قصده، والضرب الذى اعتمده، ووسم الكتاب به، نزرا فيما ضمنه من تفسير الغريب، وتصريف الافعال، وتوجيه اللغات، فكان الكتاب مؤلفـا لغير ما نسب إليه، وعرف به) (٢).

فالزبيدى يرى أن كتاب أبي حاتم لم يحقق الهدف منه، لأن مؤلفه شذ عن الموضوع، وضمنه مسائل لغوية عديدة، بحثها العلماء قبله، وانطوت عليها سائر كتب اللغة، وكان موضوع الكتاب يقضي بالابتعاد عن معالجتها، والاقتصار على ذكر الخطأ الدائر على ألسنة الناس، ثم تصويبه، وهذا هو مافعله الزبيدي في كتابه.

كان الزبيدي أصيلا في مادة كتابه، بمعنى أنه جمعها من أفواه معاصريه، ولم ينقلها من كتب اللغويين الذين سبقوه إلى التأليف في موضوع (اللحن)، كما فعل ابن الجوزى مثلا الذي صرح في مقدمة كتابه (تقويم اللسان) بأن كتابه (مجموع من كتب العلماء بالعربية كالفراء والاصمعي وأبي عبيد وأبي حاتم وابن السكيت، وابن قتيبة وثعلب، وأبي هلال العسكري ومن تبعهم من أئمة هذا العلم، وانما لي فيه الترتيب والاختصار) (٣) :

---

(١) لحن العوام : ٤، ٥.

(٢) نفسه : ٥، ٦ :

(٣) تقويم اللسان : ٧٤، ٧٥.

فالذين ألفوا في اللحن إما أصيــل سبق غيره إلى التنبيه إلى ما أفسدته العامة أو الخاصة من ألفاظ ، وإما جامع للاخطاء وتصويبها من كتب اللغويين ، وكان الزبيدى أول لغوي أندلسي توخى اصلاح عامية زمانه . فجمع الاخطاء التي تفشت على ألسنة معاصريه ، وأرشد إلى وجـه الصواب فيها ، معززا تصويباته بأقوال اللغويين القدامى ، وبالشعر الذي يحتج به ، وبالآيات والاحاديث ، وأقوال الصحـابة والتابعين .

لقد أحسّ الزبيدي حاجة الناس فى عصره الى كتاب يبين لهم مافي لهجة الخطاب اليومية من أخطاء ، ويرشدهم إلى الاستعمال الصائب الذي حفظته كتب اللغـة ، ونصت عليه المعجمات ، ووجد أن كتب (اللحن) المشرقية ، التي سبقت كتابه ، لا تفي بالحاجة .

ذلك لأن العامية الاندلسية تختلف عن عامية المشرق ، فقد حرف أهـل الاندلس ألفاظاً لم يحرفها المشارقة . ولم يذكرها أبو حاتم ولا غيره من اللغويين ، فيما نبهوا اليه مما أفسدته العامة فى المشرق ، كما سلم الاندلسيون من كثير من اللحن الذي وقع فيه أهل المشرق ، ونبه اليه أبو حاتم وغيره من اللغويين .

قال الزبيدى (ورأيت كثيراً من اللحن الذي نسبه إلى أهل المشرق قد سلمت عامتنا من موافقته ، ونطقت بوجه الصواب فيه كقولهم ود ، وظفر ، وعتيق ، وحدُوثة ، وعود مستوِى ، وقرْبوس ، وفلفِل ، وذهب إلى المكاريين ، وفلان يوزَن بكذا أي يزَنّ به .

ثم نظرت فى المستعمل من الكلام فى زماننا وبأفقنا فألفيت جملا لم يذكرها أبو حاتم ولا غيره من اللغويين فيما نبهوا إليه مما أفسدته العامة عندنا ، فأحالوا لفظه ، أو وضعوه غير موضعه ، وتابعهم على

ذلك الكثرة من الخاصة) (١) .

فكتاب الزبيدي جديد في مادته ، ذلك لانه عرض لمواد محرفة جديدة لم يعرض لها اللغويون المشارقة الذين سبقوا الزبيدي إلى التأليف في اللحن ، وهو بهذا أصبح مصدراً للغويين الذين جاءوا بعد الزبيدي فألفوا في لحن عامة صقلية أو الاندلس أو المغرب ، لأنهم وجـــدوا تشابها بين لحن العامة في زمانهم ولحنهم في زمان الزبيدي ، فنقلوا من كتاب الزبيدي كثيراً من الاخطاء وتصويبها ، كما سيرد ذلك في فقرة آتية من هذا الفصل .

فالعاميتان المشرقية والاندلسية مختلفتان ، ولكن اذا كان اللحن الذي وقع فيه أهل الاندلس موافقاً في بعض الوجوه لما وقع فيه أهل المشرق نبه الزبيدي إلى ذلك ، كقوله (ويقولون ـ يعني أهل الاندلس ـ قادوم فيلحقون الالف ويجمعونه على (قواديم) . قال محمد : والصواب (قَدُوم) وعامة أهل المشرق يقولون (قَدُّوم) بالتشديد ويجمعونه على (قواديم) وذلك أيضاً خطأ) (٢) .

وقوله (ويقولون : نافِقُ القميص ويجمعونه على (نَوَافِق) ، قال محمد ؛ والصواب نَيْفَق . وكذلك نَيْفَق السراويل والجمع (نَيَافِق) وعامة المشرق يقولون (نِيفَق) وذلك خطأ) (٣) .

وقوله : (ويقولون لثوب من ملابس النســاء قرقل بالتشديد : قال محمد : والصواب قَرْقَلٌ خفيف . وعامة المشرق يقولون قَرْقَر

(١) لحن العوام : ٦ ، ٧ .

(٢) نفسه : ١٠٠ .

(٣) نفسه : ١٢٥ ،

بالراء وذلك خطأ) (١) .

لم يكن للزبيدي بد من التأليف في عاميـــة بلده ، والنص على ما تفشى فيها من الخطأ ، لأن كتب (اللحن) المشرقية لم تكن بمغنية عن كتابه .

ما المقصود بالعامة عند الزبيدي :

الدكتور الاهواني رأى مفاده أن (العامة) في كتب لحن العامة ومنها كتاب الزبيدى (ليسوا الدهماء والسقاط ، أو ليسوا رجـــل الشارع فى اصطلاحنا الحديث ، وانما هم المثقفون الذين تسربت اليهم أخطاء من هؤلاء الدهماء أو من تصحيفات النساخ) (٢) الذين كانوا يحرفون ماينسخون ، ويحيلونه عن أصله ، ومن بين هؤلاء المثقفين شعراء وكتاب وفقهاء ، وقـد استند الاهواني في رأيه إلى مثالين ساقهما ابن مكي في كتابه (تثقيف اللسان) وكانا مما اخطأت فيـه أقلام الخاصة وهما (يشتهد) بمعنى (يجتهد) و (أصفـار) بمعنى (أسفار) جمع (سفر) واتخذ من ذكر ابن مكي لاخطاء المحدّثين والفقهاء والشعراء وأصحاب الوثائق والاطباء دليلا آخر يبين أن هدف هـذه الكتب هو أصلاح المفسد من كلام المثقفين لا كلام عوام النـاس وسُقّاطهم واتخذ كذلك من نص ورد في مقدمـة (لحن العامة) للزبيدى دليلا ثالثاً يستند إليه (٣) .

---

(١) لحن العوام : ١٨١ .

(٢) مجلة معهد المخطوطات المصورة ـ المجلد الثالث : ١ / ١٣٤ .

(٣) نفسه : ١ / ١٣٤ ـ ١٣٥ :

كما اتخذ باحثان آخران هما الدكتور عبد التواب والبير مطلق من هذا النص دليلا يستندان إليه فى أن المقصود بالعامة هم المثقفون لا عامة الناس ودهماؤهم ، يقول الدكتور عبد التواب : (والزبيدي لا يقصد من العوام الدهماء وسقاط الناس وانما يقصد طبقة المثقفين الذين تنزلق ألسنتهم فى اللحن بمتابعة أولئك الدهماء وهو نفسه يقول: « فألفيت جملا مما أفسدته العامة عندنا ، فأحالوا لفظه أو وضعوه غير موضعه ، وتابعهم على ذلك الكثرة من الخاصة حتى ضمنته الشعراء أشعارهم واستعمله جلة الكتاب وعليـة الخدمة في رسائلهم وتلاقوا به في محافلهم فرأيت أن أنبه عليه ، وأبين وجـه الصواب فيه وأن أفرد لما يحضرني منـه كتاباً أحصره به ، وأجمعه فيـــه ، وادع اجتلاب ما أفسده دهماؤهم مما عسى الا يعزب عمن تمسك بطرف من الفهم ») (١).

ويقول البير مطلق : (عامة الناس وعوامهم غير الخاصـــة من الناس ، وهذا المفهوم العام للكلمة لم يكن المقصود في كتاب الزبيدي فلقد أحسّ أبو بكر أنه لو أراد أن يحصي ما يلحن فيه الدهماء وسقاط الناس لاستغرقه ذلك زمناً طويلا ، قال وسوف « ادع اجتلاب ما أفسده دهماؤهم وسقاطهم مما عسى أن لا يعزب عمن تمسك بطرف من الفهم إذ لو استوعبنا ذلك لطال الكتاب به ») (٢).

أما الدكتور عبد العزيز مطر فقد رأى أن النص الوارد في مقدمة الزبيدي والذى استند إليـه أصحاب الرأي السابق لا يمكن أن يفهم منه هذا المدلول لكلمة (العامة) فقال ليس (ما جاء في كتاب الزبيدى

(١) لحن العوام : ٣٤ .
(٢) الحركة اللغوية : ١٥٠ .

هو لحن المثقفين وقد تسرب إليهم من العامة بالاضافة إلى القليل من لحن العامة بالمعنى الواسع بل الذي حدث في الكتاب هو العكس تماماً .

أورد الزبيدي مااختاره من لحن عامة الشعب وبعض اللحن الذى تسرب منهم إلى الخاصة ويؤيد ذلك أن الزبيدي ينبه إذا كان الخطأ قد تسرب إلى الخاصة بقوله « وقد غلط في هذا أحد الخطباء أوأحد الكتاب أو رجل من علية الخدمة . . . »)(١) .

ونحن نميل إلى هذا الرأي الاخير ، فقد عنى الزبيدي بكلمة (العامة) مداولها المعروف ، وقصد إلى جمع طائفة من أخطاء عامة الناس التي تسربت الى بعض الخاصة ، أو التي توقع أن ينزلق اليهما الخاصة من القوم ومثقفوهم وأوضح ذلك في النص الذي اعتمد عليه أصحاب الرأى السابق ، الا أنهم فهموا منه عكس مراد الزبيدي تماماً لأنهم اقتطعوه عن سياقه الذى لايتم معناه الا به ، وسنورد النص كاملا لنرى أن الزبيدى لم يرد بالعامة المثقفين وأرباب العلوم والفنون يقول : (ثم نظرت في المستعمل من الكلام فى زماننا وبأفقنا فألفيت جملا لم يذكرها أبو حاتم ولاغيره من اللغويين فيما نبهوا اليه ، ودلوا عليه ، مما أفسدته العامة عندنا ، فأحالوا لفظه ، أووضعوه غير موضعه وتابعهم على ذلك الكثرة من الخاصة حتى ضمنته الشعراء أشعارهم واستعمله جلة الكتاب وعلية الخَدَمَة في رسائلهم ، وتلاقوا به في محافلهم ، فرأيت أن أنبه عليه ، وأبين وجه الصواب فيه ، وان أفرد لما يحضرني منه كتابا أحصره به ، وأجمعه فيه ، وادع اجتلاب ما أفسده دهماؤهم وسقاطهم مما عسى أن لا يعزب عمن تمسك بطرف من

(١) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة : ٣٧ .

الفهم ، إذ لو استوعبنا ذلك لطال الكتاب به . وانما نذكر منه ما يتوقع الغلط من الخاصة فيه) (١) .

فالزبيدى اذن توخى جمع أخطاء العامة بمعناها المعروف ، وخطر له ان يحصرها ، ثم احس أن اجتلاب كل تلك الاخطاء سيجعل حجم الكتاب ضخماً ، وسيستغرق زمناً طويلا ، فعدل عن فكرة الحصر والاستقصاء الى اختيار طائفة من تلك الاخطاء وصفها بأنها مما تابع بعض الخاصة فيها العامة ، وما يتوقع أن ينزلق اليها هؤلاء الخاصة ، وقد نبه على الخطأ الذي تسرب إلى الخاصة بامثال قوله (وقد غلط في هذا أحد الخطباء أو احد الكتاب او رجل من علية الخدمة) وأما سائر اخطاء العوام مما هو خارج عن هذين النوعين فقد ترك التنبيه عليه لوضوحه ، ولأن الخاصة بعيدون عن التورط فيه .

واعتذر الزبيدي من ذكرالسوقي من الالفاظ لأن طبيعة موضوع الكتاب تقتضي ذلك اذ أن الفساد أوالتغيير لايتناول الوحشي الغريب لجهل عوام الناس به ، وقد اتخذ من أبي حاتم اسوة له في ذلك ، وكان أبو حاتم لم يتورع عن ذكر السوقي المبتذل من الالفاظ في كتابه (لحن العامة) ، قال الزبيدي : (ولعل طاعنا يطعن في كتابنا هذا بما ذكرناه من الكلام السوقي ، واللفظ المستعمل العامي ، جهلا منه أن الفساد انما يقع في المستعمل على الالسنة ، وان الوحشي مصون عن التغيير والاحالة بقلة استعماله . وجهل عوام الناس به ، وما ذكره أبو حاتم مما عسى أن يعاب علينا ذكر مثله لنا فيه عذر كاف ان شاء الله) (٢) .

---

(١) لحن العوام : ٧ ، ٨ .

(٢) نفسه : ٩ ، ١٠ .

وقد توهم السيد البير مطلق أن الزبيدى قد اعتذر في نصه السابق من التناقض الذى وقع فيه ، حين أورد الفاظ السوقة والدهماء ، وكان المفروض أن يذكر الفاظ الخاصة والمثقفين ، لأن الكتاب معقود لبيان أخطائهم ، يقول السيد مطلق : (غير أن هناك ملاحظة ينبغي الاشارة اليها ، وهي إذا كان الخاصة هم المقصودين من هذا الكتاب ، فان الالفاظ التي تعالج والتي طرأ عليها التحول والتبدل ليست من الالفاظ الغريبة والمغرقة في فصاحتها في اكثر الاحيان .

فالكتاب موجه أو يقصد به أخطاء الخاصة من الناس ، والخاصة الفاظهم مختارة ، غير أنه يعالج أيضاً الالفاظ السوقية والعامية وقد تنبه أبو بكر إلى أن مثل هذا الاعتراض وارد فقال : « ولعل طاعنا يطعن فى كتابنا هذا بما ذكرناه من الكلام السوقي ، واللفظ المستعمل العامي جهلا منه أن الفساد انما يقع في المستعمل على الألسنة ، وان الوحشي مصون عن التغير والاحالة بقلة استعماله وجهل عوام الناس به ») (١) :

واحسب أن الذي ساق السيد مطلق إلى هذا الفهم الخاطىء لنص الزبيدى هو اصراره على أن المقصود بالعامة فى كتاب الزبيدى هم الخاصة والمثقفون على الرغم من أن النصوص التي يستند إليها لا تؤيد هذا الرأى ، ولا تأخذ بناصر القائل به .

تبويب الكتاب :

لقد علمنا أن الزبيدي اختار نوعين من الخطأ الشائع فى استعمال معاصريه وهما ، أولا : أخطاء العامة التي يتوقع أن تتسرب إلى

(١) الحركة اللغوية في الاندلس : ١٥١ .

الخاصة وان لم تشع بينهم آنذاك . ثانياً : أخطاء العامة التي وافقهم فيها بعض الخاصة :

ويشكل القسم الاول من هذه الاخطاء معظم الكتاب ، وأما الثاني فهو قليل . وقد صرح الزبيدي بنماذج منه حين أشار إلى وقوع بعض الخاصة ببعض أخطاء العامة .

ويعني بالخاصة الشعراء والخطباء وجلة الكتاب وعلية القوم في الدولة ، إلا أنه لم يذكر أسماءهم ، لأنه لا يريد أن يؤذيهم في سمعتهم أو أن يغمزهم ، ويشهر بجهلهم ، مثال ذلك قوله : (أو نحو ما حدثني بعض أهل النظر عن رجل من أجلاء الحرمة ، ينسب إليه فنون العلم ، وضروب الآداب .

قال : ورد كتاب من بعض الكتاب كتب فيه الجُخْطُب بالطاء فانكرت ذلك فلم يصغ إلي حق عدوت إليه ببعض كتب اللغة فأريته الحرف مقيداً فيه . إلى كثير من هـذا سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى) (١) .

ومن ذلك قوله : (وانما حكينا هذا لأن بعض أهل العلم نازعني في (طراز) وزعم أنه (طيراز) بالياء وانما هو مثل طحال بغير ياء قال الأعشى :

فَرَميتُ غفلة عَينِه عن شاتِه فاصبتُ حَبَّةَ قلبِها وطِحَالَها

ورأيت لبعض متقدمي الكتاب (ايكاف) بالياء ، يعني (اكافا) وذلك مما ذكرناه من ولوعهم بالحاق الياء في هذا المثال) (٢) .

---

(١) لحن العوام : ٧ ، ٨ .

(٢) نفسه : ٧٨ .

ومن أمثلة اشارته لخطأ الخاصة ، وقفوهم أثر العامة في اللحن قوله : (ويقولون - يعني العامة - قِصْعَة ، لواحد القصاع . قال محمد : والصواب قَصْعَة بالفتح ولو كانت مكسورة الاول لجمعت على قِصَع ، وذلك غير معروف ، وقد غلط في هذا بعض أجِلَّة الأدباء) (١) .

وقوله : (ويقولون : يا غايث المستغيثين ، قال محمد : والصواب : يا مُغيث المستغيثين . لأنه من أغاث يغيث . وقد لحن في هذا رجل من جِلَّة الخطباء) (٢) .

والكتاب المطبوع ينقسم على ثلاثة أقسام ، القسم الاول منه تحت عنوان (ما أفسدته العامة وما وضعوه غير موضعه) ، وعنوان القسم الثاني (ما وضعته العامة في غير موضعه) .

وأما القسم الثالث فعنوانه (ما يوقعونه على الشيء وقد يشركه فيه غيره) . ولكن المتأمل لهـــذه الاقسام يستطيع ان يجعلها قسمين متميزين هما :

١ - ما أفسدته العامة بتغيير صوته او حركته او صيغته .

٢ - ما وضعته في غير وضعه ، وهـذا القسم خاص بما يسمى (الخطأ الدلالي) كأن تغير العامة ، دلالة اللفظة ، فتخصص عاما ، او تعمم خاصا ، او تستعملها في غير مجالها .

ويبدو لي ان التقسيم الحالي للكتــاب ، هو من فعـــل النقلة والناسخين وليس من صنع الزبيدي ، وذلك لاضطرابه وعـــدم دقته ، ولأن الزبيدي نفسه قـد ألمح في المقدمة الى اعتزامه أن يجعل كتابه في قسمين هما : ما أفسدته العامة باحالة لفظه ، وما وضعته في غير

---

(١) لحن العوام : ١١٦ .

(٢) نفسه : ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

موضعه ، فقال : (. . . مما أفسدته العامة عندنا فأحالوا لفظه ، أو وضعوه غير موضعه) (١) :

وهذا النص صريح ، لا يدع مجالا للشك في أن الكتاب فى أصله قسمان ، وليت المحقق قـد فطن لذلك ، فجعل الكتاب في بابين ، وأبرأه من الخلط الحاصل فى عناوين أقسامه .

ولم يرتب الزبيدي المواد داخل كل قسم ، بل ساقها فى غير ترتيب وإذا استثنينا التصحيحات الثلاثة الاولى ، وهي تتناول كلمات ذات مسحة دينية .

يبدو أن الزبيدى استفتح بهـا الكتاب تبركا وهي (ومن ذلك قولهم هو الله الازلي قبل خلقه . . .) و (وكذلك قولهم فيه تبارك وتعالى هـذه صفة ذاته وهو مباين بالذات . . .) و (ويقولون اللهم صل على محمد وآله . . .) أقول : إذا استثنينا هذه المواد ، فان الكلمات تتوالى بعدها بلا ترتيب أو نظام ، إذ لا جامع يجمع بين هذه المواد مثلا وقد تعاقبت في القسم الأول من الكتاب (بزيم - ميثه صئبانه - دشيش - قلنسوة . . . الخ) .

وقد أدى انعدام الترتيب داخل كل قسم من الكتاب الى أن يفرق الزبيدي بين أخطاء متشابهة ، كان المفروض أن تعالج في موضع واحد ، كالخطأ في صِئْبانة وذِبّانة ومُصرانة ، والخطأ في ضمصام وخلخال بل أنه فرق خطأين وقعا في كلمة واحدة وهي (مِسَنّ) الذي تنطقه العامة (مُسَنّ) ثم عاد فذكر بعد صفحات خطأهم في ثوب (مُسَنِّي) والصواب (مِسَنّي) منجوب الى (المسن) : ولكنه لم تفته الاشارة الى تشابه الاخطاء كلما عرض تشابه ، فقد أشار الى

(١) لحن العوام : ٧ .

تشابه خطأ العوام في صِئْبانة وذبانة ومصرانة ، وصمصام وخلخال ، وان لم يعالجها كلها في موضع واحد ، كما جمع بين أخطاء ثبت لديه باستقرائه لغة العامة ، أنها تجرى على نمط واحد ، وهو يعبر عن اطراد الخطأ عند العامة بقوله : (وقد أولعت العامة بكذا) ومن الأمثلة على ذلك قوله : (ويقولون الطيراز والتيلاد والشيمار والطيحال وقد أولعت العامة باقحام الياء) (١) وقوله (٢) (ويقولون فيما كان على فعل مسكناً إذا وقفوا عليه : فعــل بتحريك وسطه بالفتح نحو أمَرْ وقَصَرْ ورَمَلْ وحَفَص ورَقَعْ وما أشبه ذلك :

وكذلك يفعلون في فِعْل نحو ذِكِرْ وفِطِرْ) وقوله : (يقولون فيما كان من الافعال الثلاثية المعتلة العين على مثال مالم يسم فاعله بالحاق الالف فيبنونه على أفْعِل نحو أُبِيع الثوب وأُقِيم على الرجل وأُخِيف وأُدِير به وأُسِير به . قال محمد : والصواب في هذا اسقاط الألف) (٣) .

خطة التأليف في الكتاب

وأما الطريقة التي اتبعها الزبيدي في عرض مواد فهي ان يذكر الكلمة التي يخطىء بها عامة الاندلس مسبوقة دائماً بعبارة (ويقولون) ثم يذكر الصواب مسبوقاً بعبارة : (قال محمد) أو (قال أبو بكر)

---

(١) لحن العوام : ٧٦ .
(٢) نفسه : ٢٠٣ ، ٢٠٤ .
(٣) نفسه : ٢٠٤ . ٢٠٥ .

وقد أكثر من هذه العبارة في آخر الكتاب ، وفي حالة واحدة قال : (قال ابو بكر محمد) :

وترجع قيمة الكتاب وأهميته إلى أن الزبيدي لا يقتصر على ذكر الخطأ وتصويبه إلا في كلمات قليلة ، بل يتوسع في تناول الكلمة ، فيذكر اشتقاقها ومعانيها وجموعها واللغات الواردة فيها ، مورداً خلال ذلك الشواهد التي يأتي ببعضها برهانا على صحة تصويبه ، وخطأ مايجرى على الألسن ، ويأتي ببعضها الآخر ليثبت لغـة في مفردة ، أو معنى يذكره لكلمة ، كما يفسر ما يقع فى تلك الشواهد من الغريب .

لذلك نستطيع أن نقول ان الزبيدي كان يتناول المادة تناولا واسعا وعلى وفق خطة التزمها ، ولم يخرج عنها إلا في حالات قليلة ، ويمكن القول أيضاً إن الزبيدي لم يقصـد مجرد ايراد خطأ دائر على الألسن ووضع ما يقابله من الصواب ، بل جاوز ذلك إلى الامور الآتية :

١ ـ ذكر اللغات : لقد التزم الزبيدى بأن يورد اللغات المختلفة المفردة التي يعالجها ملتمسا الشواهد على ورود تلك اللغات في شعر من يحتج بهم ، وهو يذكر حينا رواة كل لغة ويهمل ذلك حينا آخر ، كما ينتقي أعلى اللغات ، ويدعو إلى الأخـذ بها ، يتجلى ذلك في الأمثلة الآتية :

(ويقولون قَلَنْسُوَة . قال محمد : والصواب (قَلَنْسُوَة) . وفيها لغات ، يقال قَلَنْسُوَة ، وقُلَنْسِيَة ، وقَلَنْسَاة . وذكر الطوسي عن أبي عمرو قَلَنْسُوَة . وروى ابو عبيد عن أبي زيد والاصمعي : قَلَنْسُوَة وقَلَنْسَاة والجمع قَلانِس وقُلَيْسِيَة وجمعها قَلاسِيّ) (١) .

---

(١) لحن العوام : ٢٥ ، ٢٦ .

ومنه (ويقولون الأيَّل بفتح أوله . قال محمد : والصواب إيل وفيه لغات يقال هو (الأُيَّل) وقال يعقوب : بعض العـــرب يقول (الاجَّل) يبدل الياء جيماً وانشدنا ابو علي :

كأنَّ في أذنابهن الشُوَّل من عَبَسِ الصَّيْف قُرُونَ الاجَّل (١)

ومنه قوله في (الأذان) : (وفيه لغة أخرى : الأَذِين) (٢).

٢ ـ ذكر اشتقاق الكلمة :

وهذه ناحية التزمها الزبيدي أيضاً في معرض كلامه على الالفاظ وقلما خرج عنها ، وحين يحس أن بعض اشتقاقات الكلمة غريب نادر وغير دائر في الاستعمال فانه يلتمس الشاهد الذى يثبت تكلم العرب به مثال ذلك : (ويقولون أصاب فلانا رَمْد اذا رَمِدَت عينه ، قال محمد : والصواب رَمَد وهو وجع يصيب العين ، يقال رَمِدَت عينه تَرْمَد رَمَدا فهو رَمِد ومَرْمُود وأرمد ، قال تميم بن مقبل :

تَأَوَّبَني دائي الذي أنا حاذِرُه

كما اعتاد مَرْمُودا من الليل عائِرُهُ) (٣)

وأمثلة ذكره اشتقاق الكلمة كثيرة منها : (ويقولون للموضع الذي تحط فيه السفن (مينه) قال محمد والصواب (مينا) بالقصر و(ميناء) بالمد والقصر فيه أكثر . وهو مشتق من الوَنَى وهو الفتور والسكون ، كأن السفن جرت حتى قَرَّت وسكنت هنالك فسمي مكان سكونها (مينا) . . .) (٤) ،

---

(١) لحن العوام : ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٢) نفسه : ٤٩ .

(٣) نفسه : ٣٩ ـ ٤٠ .

(٤) نفسه : ١٨ ـ ١٩ :

فالزبيدي معني بالبحث عن أصل الكلمة واشتقاقها ، وما ينجم عنها من مواد ، وقد بلغ من ولعه بذلك أنه نهج نفس المنهج في الكلمات المعربة وراح يبحث عن اصولها الاجنبية ، وما كانت عليه قبل ان تدخل في الكلام العربي ، موضحاً احرفها الاصلية وما طرأ على بعضها من ابدال عند تعريبها :

(ويقولون لحم بُرَيْق فيشدّدون . قال محمد : والصواب بُرَيْق تصغير بَرَق والبَرَق الخروف اذا اكل فاجتَرّ وجمعه بِرْقَان وبُرْقَان . والبَرَقُ فارسيّ معرّب وكان أصله (بَرَه) فعرب فقيل (بَرَق) والقاف تخلف الهاء في الاسماء الفارسية اذا عُرِّبَت) (١) ومنه (ويقولون مَرْعِزّ بفتح أوله . قال محمد : والصواب مِرْعِزّ هكذا قال سيبويه بالكسر فيه . وفيه لغات يقال : مِرْعِزّى على مثال مِفْعِلّى ومن العرب من يقول مِرْعِزَاء فيخفف ويمد ومنهم من يقول مَرْعِزَاء : وهي نبطية معربة واصلها مِرْتِزّا) (٢) .

٣ ـ ذكر مرادفات الكلمة :

ومن خطة الزبيدي في كتابه أن يأتي بالالفاظ المرادفة للكلمة ان وجدت وامثلة ذلك كثيرة منها : (ويقال للصَّوْمَعَة الطِّرْبال أيضاً) (٣) ومن ذلك (وزعم أبوحنيفة الاصبهاني ان النرجس يقال له قَهْد) (٤) ومنه (ويقال للميناء أيضاً (حِبْس) و (حصر)

---

(١) لحن العوام : ٦٢ .

(٢) نفسه : ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٣) نفسه : ١٧١ ، ١٧٢ .

(٤) نفسه : ١١١ .

و (صِنْع) و (مصنعة)) (١) ومنه (يقال المنطع أيضاً (ميِنْسَاة) عن أبي عبيد والاصمعي ، وأنشد بيت النابغة :

على ظَهْرِ مِنْسَاة جديد سُيُورُها

وقال بعضهم : المِنساة العَيْبة) (٢) .

٤ ـ ذكر الجموع :

وهذه ظاهرة تكررت عند معالجة الكلمات ، فكان الزبيدي حريصاً على ذكر جمع المفردة ، عارضاً أحياناً أراء اللغويين في ذلك الجمع ، وقد يدلي برأيه أيضاً ، وهو لا يذكر جمع المفردة موضوع التصويب فقط ، بل يذكر أيضاً جموع المفردات التي يستطرد إلى ذكرها ، حتى لكأنه لا يريد أن يغادر كلمة يذكرها دون أن يشير إلى جمعها :

(ويقولون : لَطَمْتُ الخبزة اذا صنعها بيده . قال محمد : والصواب طَلَمْتُها ، و (الطُّلْمَة) الخبزة بعينها والجمع (طُلَم)) (٣) :

ومنه (يقولون اضرب من الكَمْأة (الفَقاع) قال محمد : والصواب : فَقْع ، وروى يعقوب فِقْع بالكسر . وجمع الفَقْع فِقَعة . ويقال لها (الغِرْدَة) ايضاً) (٤) .

ومنه (ويقولون امرأة عروسة فيلحقون الهاء . قال : والصواب عَرُوس والجمع عروسات وعرائس وأما جمع المذكر فعروسون وأعراس

---

(١) لحن العوام : ١٩ .

(٢) نفسه : ٢٤ ، ٢٥ .

(٣) نفسه : ٩٦ .

(٤) نفسه : ١٢٨ .

عن الاصمعي . وقد لحن في هذا رجل) (١) .

٥ ـ ذكر وزن البناء :

وهذه طريقة سار عليها اللغويون وأصحاب المعجمات ، توخيا للدقة في ضبط الكلمة وازالة اللبس عن وزنها وكيفية نطقها ، وهم إما يذكرون وزنها ، وإما يمثلون لها بكلمة على وزنها أعرف منها وأشهر وقد فعل الزبيدي ذلك في كتابه ، ومثال ذلك (ويقولون للشجر الذي يعصر منه الزِّفْت صنُوبر : قال محمد : والصواب صَنَوْبَر على مثال فَعَوْلَل مثل فَدَوكس وسَرَوْمَط . . .) (٢) .

ومنه (ويقولون للدود الذي يغيب في قشره ويتطلع منه حلْزُوم قال محمد : والصواب حَلَزُون والجمع حَلاَزِين وهو على مثال فَعَلُول . وقال الاصمعي : دابة تكون في الرِّمْث) (٣) .

ومن ذلك (ويقولون لفلان زَىّ حَسَن يريدون الهيئة . قال محمد : والصواب زِيّ . ويقال تَزَيَّا فلان بزِيّ فلان وقد زيّيتُه تَزِيَّة مثل حَيَّيْتُه تَحِيَّة . . .) (٤) .

٦ ـ ذكر معاني اخرى للمفردة :

والزبيدي لا يدع الاشارة الى المعاني المعروفة للمفردة التي يعالجها ، مما يدل على وفور علمه باللغة ومعرفته بالمعاني . وامثلة ذلك كثيرة نجتزىء منها بما يأتي :

---

(١) لحن العوام : ١٩٣

(٢) نفسه : ١٣٢ .

(٣) نفسه : ١٩٢ .

(٤) نفسه : ٩١ .

(ويقولون : بعينه هُدْبُد . والصواب هُدَبِد . قال الاصمعي الهُدَبِد عَمَش يكون في العينين . والهُدَبِد أيضاً اللبن الخاثر والاصل فيه هُدَابِد فحذفت الألف) (١) :

ومن ذلك (ويقولون للذي يصيب الرَّجُل نَقْرَس والصواب نِقْرِس بالكسر على مثال فِعْلِل وقد نُقْرِسَ الرَّجُل اذا أصابه ذلك : والنِّقْرِس أيضاً العالم ، وكذلك النِّقْرِيس) (٢) .

ومنه و(يقولون لجمع الكرم كَرْمات . والصواب كُرُوم والكُرُوم القلائد أيضاً) (٣) .

٧ ـ ذكر المعنى الذي تؤديه الكلمة المحرفة :

وهـذا هو الخطر الكامن وراء اللحن ، وتغيير بعض اصوات الكلمات او تحريف صيغ المفردات ، إذ أن الكلمة ستخرج عن بنائها الحقيقي الى بناء آخر فيؤدي ذلك الى تغير معناها إذ أن اختلاف صورة الكلمة ، يتبعه اختلاف معناها .

وقد اشار الزبيدى الى المعاني التي تؤديها الكلمات المفسدة ، وهي معان لم يقصدها العوام طبعاً ، وانما كانوا يقصدون المعنى الذي تفيده الكلمة قبل أن تحال عن صورتها ، ومن ذلك (ويقولون أصاب فلاناً رَمْد اذا رَمِدَت عينه . قال محمد : والصواب رَمَد وهو وجع يصيب العين . . فأما الرَّمْد باسكان الميم فهو الموت يقال رَمَدَت الغنم اذا هلكت من برد أو سَقِيع عن يعقوب . ورَمَدْنَا القومَ

(١) لحن العوام : ٢٩٩ .

(٢) نفسه : ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٣) نفسه : ٢٨٩ :

اذا أتينا عليهم قتلا ومنه عام الرَّمادة لأن الاموال فيه هلكت وانشد في الرَّمْد :

صَبَبْتُ عليكم حاصبي فتركتُكم كأصرام عاد حين جَلَّلها الرَّمْدُ

والأَصْرام الجماعات واحدها صِرْم) (١) .

ومن ذلك (ويقولون مسك أظفر بالظاء . قال محمد : والصواب أذفر بالذال المعجمة . . . . . وأمـــا الأَظْفَر بالظاء فهو الطويل الأظفار) (٢) :

٨ - شرح المفردات :

لقد شرح الزبيدي أكثر الالفاظ الغريبة التي وردت في شواهده ، الا أنه لم يحرص كثيراً على هذه الناحية في كتابه . فقد أهمل شرح بعض المفردات ، ومن أمثلة شرحه للالفاظ :

(هُمُ السَّمْنُ بالسَّنُّوت لا أَلْسَ فيهم

وهمْ يمنعون جارهُم أن يُقَرَّدا

والسَّنوت الكمَّون والألْس الخيانة ويقال السَّنُّوت العَسَل) (٣).

ومن ذلك :

(تَأَوَّبَنِي دائي الذي أنا حاذِرُه

كما اعتادَ مَرْمُودا من الليل عائِرُهُ

يعني ما يَعُور بصره يقال عُرْتُ عينه أعورها والعائِر هو الرَّمَد مثل الشاهر) (٤) .

---

(١) لحن العوام : ٤٠ وما بعدها .

(٢) نفسه : ١٩٦ .

(٣) نفسه : ١٨٢ .

(٤) نفسه : ٣٩ ، ٤٠ .

ومن ذلك أيضاً :

(صببت عليكم حاصبي فتركتكم كأصرام عاد حين جللها الرمد

والاصرام الجماعات واحدها صِرْم) (١) ومنه :

(لَهُنَّ في شَبَاتِه صِئِيُّ اذا اكتلى واقْتُحِمَ المَكْلِيُّ

قال ابو بكر : الصَّئِيّ : الصوت) (٢) . ومن امثلة اهماله تفسير الغريب :

(قال زهير .

مُقْوَرَّةً تتبارى لا شَوار لها

الا القُطُوعُ على الاكوارِ والوُرُكُ) (٣)

ومنه : (قال امرىء القيس :

اقَبُّ رَبَاعٌ من حَمير عَمَايَةٍ

يُمجُّ لُعَاعَ البَقْلِ في كل مَشْرَب) (٤)

ومنه) : جُنُوحَ الهِبْرِقيّ على الفِعَالِ) (٥) .

ومن ذلك :

(ولا سَيَّئي زِيٍّ اذا ما تَلَبَّسُوا

الى قومهم يوما مُخَيَّسَةً بُزْلا) (٦)

---

(١) لحن العوام : ٤١ ، ٤٢ .

(٢) نفسه : ٦٧ ، ٦٨ .

(٣) نفسه : ١٤١ ، ١٤٢ :

(٤) نفسه : ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٥) نفسه : ١٠٠ ، ١٠١ :

(٦) نفسه : ٩١ .

٩ ـ الموازنة بين العاميتين المشرقية والاندلسية :

اشار الزبيدي في مقدمـة كتابه الى أن عاميتي المشرق والاندلس مختلفتان ، وان اهل الاندلس افسدوا الفاظا لم يفسدها المشارقة ، كما نبه الى بعض الالفاظ التي كان اللحن فيها متشابها بين المشرق والمغرب وقد مر بنا ذلك ، (وكأنه بهذه الموازنة يؤيد وجهة نظره التي ابداها في مقدمة كتابه وهي اختلاف لحن العامة فى الاندلس عن لحن العامة فى المشرق ، وانه لهذا أفرد كتابا لعوام بلاده) (١) .

ولكن الزبيدي لا يوازن الا حين (يكون اللحن الذي وقع فيه أهل الاندلس موافقا في بعض الوجوه لما وقع فيه أهل المشرق) (٢) . وفيما عـــدا ذلك فان الكتاب مكرس لعامية الاندلس ، والعاميتان مختلفتان تماما ، ولا مجـــال للموازنة بينهما ، ولذلك لا يدل اهمال الزبيدى الموازنة بين العاميتين في اكثر المواد على أن اللحن فيها متشابه بين المشرق والمغرب ، كما وهم السيد البير مطلق ، فذهب الى أن الزبيدي يدع الموازنة حيث تتفق العاميتان (٣) ولعـــل العكس هو الصحيح ، أي انه يوازن حين تتفق العاميتان في الخطأ من بعض الوجوه .

---

(١) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة : ٩٩ .

(٢) لحن العوام ـ المقدمة : ٦ .

(٣) الحركة اللغوية : ١٦١ .

الزبيدي وتعليل اللحن :

يذهب الدارسون المحدثون إلى ان اللغة كائن حي ، تخضع لما يخضع له الكائن الحي فى نشأته ونموه وتطوره (١) ، وهي ليست من صنع فرد او افراد ، بل هي ظاهرة اجتماعية ، يجد افراد المجتمع أنفسهم مضطرين اليها ، للتفاهم ، وتبادل الافكار والابانة عما يجول في النفوس (٢) ، وهي كأية ظاهرة اجتماعية (عرضة للتطور المطرد في مختلف عناصرها : اصواتها وقواعدها ومتنها ودلالاتها وان تطورها هذا لا يجرى تبعاً للاهواء والمصادفات ، او وفقا لارادة الافراد ، وانما يخضع في سيره لقوانين جبرية ثابتة ، مطردة النتائج ، واضحة المعالم ، محققة الآثار ، لايد لأحد على وقف عملها ، اوتغيير مايؤدى اليه .

(فليس في قدرة الافراد ان يقفوا تطور لغة ما ، او يجعلوها تجمد على وضع خاص ، أويسيروا بها في سبيل غير السبيل التي رسمتها لها سنن التطور الطبيعي) : واللغويون (مهما بذلوا من قوة في محاربة ما يطرأ عليها من لحن ، وخطأ ، وتحريف فانها لا تلبث ان تحطم هذه الاغلال ، وتفلت من هذه القيود ، وتسير في السبيل التي تريدها على السير فيها سنن التطور والارتقاء الطبيعيين) (٣) .

فاللغة تتطور ، وتخضع في تطورها لقوانين جبرية ، يصعب الوقوف بوجهها ، أو حماية اللغة من التعرض لآثارها ، واللغويون القدامى ، أو من سماهم المحدثون بأصحاب (حركة تنقية اللغة) ، وجدوا

(١) لحن العامة والتطور اللغوي : ٣٠ .

(٢) نفسه : ٣٠ .

(٣) اللغة والمجتمع : ٩١ .

أنفسهم امام سيل من الفاظ وكلمات متطورة ، حادت عن سنن العربية وخالفت قوانين الفصحى ، فاندفعوا يقاومونها ، ويقفون في سبيل شيوعها ويحاولون رجع الناس الى المأثور من لفظها ، دون أن يكشفوا القوانين التي تقف وراء هذا التطور اللغوي ، وتدعو اليه ، بل وتحمل الناس حملا على المضي فيه.، غير مبالين بصرخات حماة اللغة ، والمدافعين عن صيغها الموروثة ، واشكالها المحفوظة .

وهنا يبرز القصور الذي منيت به كتب (لحن العامة) لأنها لم تعن بغير تسجيل الخطأ الدائر على الالسن ، ووضع ما يقابله من الفصيح ، ولم تتجاوز ذلك الى الكشف عن قوانين هذا التطور اللغوي وعلله .

فاللحن من وجهة نظر علم اللغة الحديث ، ماهو إلا تطور لا يحدث اتفاقاً ، ولا يتم بطريقة عشوائية ، بل ينجم عن عوامل ، ما تزال بكل لغة ، حتى تخرج بها من حال الى حال .

أما الزبيدي فقد تناثرت في كتابه ملاحظات قليلة ، ولكنها موفقة في تفسير اللحن ، وتعليل حدوثه ، وقد أقر علم اللغة الحديث هذه الملاحظات ، وعدها من جملة عوامل كثيرة ، يفسر في ضوئها ما يعتري اللغة من تطور .

والملاحظات تتصل بالظواهر اللغوية الآتية :

١ ـ تجاور الأصوات (المماثلة) :

والمراد بها ، أن يلتقي صوتان مختلفان صفة او مخرجاً ، في كلمة دون ان يفصل بينهما صوت لين (حركة) او صوت ساكن ، فيؤدي هذا التجاور الى أن يتأثر أحد الصوتين بالآخر ، فينقلب إلى صوت يجانس الصوت المجاور في الصفة أو في المخرج ، ويحدث ذلك تحقيقاً

للانسجام الصوتي ، وتيسيرا لعملية النطق ، واقتصادا في الجهد العضلي (١) :

وقد تنبه الى هذه الحقيقة بعض الدارسين القدامى ، ومنهم سيبويه الذي عبر عن الدافع الى هذه الظاهرة ، بقوله (ليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد) (٢) :

ومن الأمثلة عليها في العربية :

١ ـ تقلب الصاد الساكنة زايا اذا وقعت بعدها الدال . ذلك لأن الصاد حرف مهموس مطبق ، والدالا حرف مجهور منفتح ، فاذا تجاورتا صعب على اللسان تحقيقهما ، أو التصويت بهما معاً ، فيسعى الى التخفف من الصعوبة الناشئة من تجاورهما ، بجعلهما متماثلين في الصفة ، وذلك بأن ينقلب الصاد زايا ، والزاي حرف مجهور مثل الدال . قالوا في أَصْدر : أزْدَر . وفي أصدقاء : ازدقاء : القَصْد : القَزْد (٣) .

٢ ـ وقلبوا السين صادا إذا جاوزت الطاء أو القاف أو الخاء ، ذلك لأن السين حرف مستفل ، والطاء والقاف والخاء حروف مستعلية يرتفع اللسان بهن إلى سقف الفم ، ولذا قالوا سراط وصراط ، سبخة وصبخة ، وصقت وسقت ، وسوق وصوق ، وصاخط وساخط (٤) .

---

(١) محاضرات الدكتور مهدي المخزومي على طلبة الماجستير (سنة ٧٢ ـ ٧٣) .

(٢) الكتاب : ٢ / ٤٢٦ ،

(٣) الخصائص : ٢ / ١٤٤ .

(٤) نفسه : ٢ / ١٤٢ ، ١٤٣ .

٣ ـ ومن ذلك ما يحدث في صيغة (افتعـل) إذا كانت فاؤها زايا أو دالا او ذالا ، فتقلب تاؤها دالا ، لأن التاء حرف مهموس ، والزاي والدال والذال حروف مجهورة ، فاذا انقلبت التاء دالا ، توحدت الصفتان ، وتجانس الصوتان المتجاوران . قالوا : ازدان واصلها ازتان وادّعى واصلها : ادتعى وادّكر بدل ادتكر .

ومن ذلك ان تقع فاء افتعل صادا أو ضاداً أو طاء ، فتقلب لها تاؤه طاء ، لأن الطاء تماثل هذه الاحرف في صفـــة الاطباق ، بينما التاء حرف منفتح لا ينسجم معهن ، وينشأ عن وجوده بينهن ثقل في النطق ، وعسر في التصويت وتنافر في موسيقى الكلمة ، لا تقبله الاذن ولا يأنس به السمع . قالوا : اضطرب بدل اضترب . واصطبر بدل اصتبر (١) .

٤ ـ وكما يحدث (التماثل) بين الاصوات الساكنة ، يحدث بين الحركات أيضاً ، حيث يعمد المتكلم إلى توحيـد حركـتين مختلفتين متجاورتين ، يؤدي ترك توحيدهما الى ثقل في النطق وتنافر في موسيقى اللفظة ، ولذلك قالوا : رِغيف بدل رَغيف ، وشِعِير بدل شَعِير (٢) وقرىء الحمدُ لله ، والحمد لله ِ (٣) ، وقـــد بين ابن جني ان العرب يؤثرون قرب الصوت من الصوت حتى دعاهم ذلك الى الاخلال بقواعد الاعراب نحو قولهم : الحمد لله ِ (٤) .

٥ ـ ومن ذلك الامالة (وانما وقعت في الكلام لتقريب الصوت

---

(١) الخصائص : ٢ / ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢) نفسه : ٢ / ١٤٣ :

(٣) نفسه : ٢ / ١٤٣ .

(٤) نفسه : ٢ / ١٤٥ .

من الصوت ، وذلك نحو : عِالم وكِتِاب وسَمِي ومضى واستقضى . ألا تراك قربت فتحة العين من عالم إلى كسرة اللام منه ، بأن نحوت بالفتحة نحو الكسرة ، فأملت الالف نحو الياء ، وكذلك سمى وقضى نحوت بالالف نحو الياء التي انقلبت عنها) (١) .

يتضح مما سبق أن القدامى ، وخاصة سيبويه وابن جني ، قد تناولوا ظاهرة التماثل وفسروا بها التغير الذي حدث في اصوات اللغة .

وقد لمح الزبيدي ظاهرة التماثل ، وفسر بها ما سمع من لحن في عامية زمانه ، قال : (ويقولون للذي يجعل تحت الصدغ (مَزْدَغَة) قال محمد : والصواب مِصْدَغَة وان شئت قلت مِزْدَغَة ، بالزاي والزاى تخلف الصاد ، إذا كانت ساكنة وبعدها الدال ، يقال أصدقاء وازدقاء ، وتقول العرب في مثل من أمثالها (لم يُحْرَم من فُصْدَ له ومن فُزْدَ له) يعنون من فُصِد له ذراع البعير . وكانوا يفعلون ذلك عند المجاعات ، ويطبخون الدم ، ويأكلونه) (٢) . وما قاله الزبيدي حق وقد تقدم تفسيره .

ومما يفسر بظاهرة التماثل - ولكن الزبيدي أهمل تفسيره - ما جرى عليه عامة الاندلس من توحيد حركتين متجاورتين ، ليتم الانسجام بينهما ، فيكونا فتحتين أو كسرتين تيسيراً في النطق ، واقتصادا في الجهد العضلي كقولهم : قَثَّاء بدل قِثَّاء (٣) ، ومَخَدَّة بدل مِخَدَّة (٤) .

---

(١) الخصائص : ٢ / ١٤١ .

(٢) لحن العوام : ١٩٤ .

(٣) نفسه : ٥٨ .

(٤) نفسه : ١٩٤ .

ومَقْوَد الدابة بدل مِقْوَد (١) ومَنْكَب بدل مَنْكِب (٢) . .

٢ ـ المخالفة (التغاير) :

ومما يتعلق بتجاور الاصوات ظاهرة أخرى يسميها اللغويون المحدثون بـ (المخالفة) وهي عكس (التماثل) ومعناها فى علم الاصوات اللغوية حدوث اختلاف بين الصوتين المتماثلين في الكلمة الواحدة ، ويحدث ذلك إذا كان في الكلمة صوتان مضعفان ، فيتغير أحدهما الى صوت لين طويل (حرف علة) ، أوالى احد الاصوات الشبيهة بأصوات اللين وهي اللام والنون والميم والراء (٣) .

وغاية المخالفة (تحقيق السهولة في النطق وتقليل الجهد العضلي ذلك ان النطق بالصوت المضعف يتطلب مجهودا عضلياً أكبر مما لوقلب أحد الصوتين الي صوت لين اوصوت من الاصوات التي برهنت الدراسة الصوتية الحديثة على وجود شبه بينها وبين أصوات اللين وهي الاصوات الاربعة السابقة : اللام والميم والنون والراء) (٤) .

وقد فطن سيبويه لهذه الظاهرة ، وعقد لها بابا في كتابه سماه (باب ما شذ فابدل مكان اللام الياء لكراهية التضعيف) (٥) ومثل لذلك بـ (تَسَرَّيت وتظنيت وتقصيت) وهي من تسرر وتظنن وتقصص . وورد في كتب اللغة : وتر عُرُنْد أي غليظ في موضع عُرُدّ

---

(١) لحن العوام : ٧٦ .

(٢) نفسه : ١٨٥ .

(٣) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية : ٢١٣ .

(٤) نفسه : ٢١٤ .

(٥) الكتاب : ٢ / ٤٠١ :

ونظيره التُّرنْج وهو الأُتْرُجّ (١) .

وقعت هذه الظاهرة في عامية الاندلس، كما رسمها الزبيدي في كتابه ولكن الزبيدي لم يفطن لها ، ولم يشر اليها بوصفها سبباً لبعض ماسمع من لحن على السنة معاصريه : ومن الامثلة عليها : (كُرْنَاسة) في (كُرّاسَة) و (قَنْبان) في (قَفّان) و (عَدَنْبَس) في (عَدَبَّس) و (ضارّة المرأة) في (ضَرّة المرأة) و (عُوْش) في (عُشّ) وغير ذلك (٢) .

٣ ـ القياس الخاطىء (التوهم) :

ويقع في المراحل الاولى للنمو اللغوي عند الطفل ، فالطفل يتلقى اللغة عمن يحيط به ، ثم يحدث أن يصادف شيئاً لم يسمع كلمة تدل عليه ، فيخترع له كلمة من عنده ، قياساً على مالديه من كلمات تشبهها . فاذا كانت الكلمة التي اخترعها موافقة لقوانين اللغة ، فقياسه صحيح ، وأما اذا خالفت ما تتطلبه اللغة فقياسه خاطىء (٣) .

وقد عرف القدماء هذه الظاهرة ، وسموها بالتوهم ، أو الحمل أو القياس الخاطىء ، قال سيبويه : (فأما قولهم مصائب ، فانه غلط منهم ، وذلك انهم توهموا أن مُصِيبَة فَعِيلَة ، وانما هي مُفْعِلَة) (٤) .

---

(١) الصحاح : (عرد) ١ / ٥٠٥ .

(٢) لحن العوام : ٣٥ ، ٧٢ ، ١٦١ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ .

(٣) لحن العامة والتطور اللغوي : ٤٢ وانظر لحن العامة في ضوء التطور اللغوي : ٢٦٣ .

(٤) الكتاب : ٢ / ٣٦٧ .

وجاء عن ابن هشام أن (رضِيّ عدّوها بعلى حملا على سخط . قاله الكسائي) (١) .

وجاء في المزهر (كان الفراء يجيز كسر النون في شتان تشبيها بِسيان وهو خطأ بالاجماع ، فان قيل : الفراء ثقة ولعله سمعه ، فالجواب : ان كان الفراء قاله قياساً فقد أخطأ القياس ، وان كان سمعه من عربي ، فان الغلط على ذلك العربي ، لانه خالف سائر العرب وأتى بلغة مرغوب عنها) (٢) .

وللقياس الخاطىء أثر في حدوث اللحن ، فقد تنشأ في العامية مفردات وصيغ ليست مما تكلمت به العرب ، ولكن العامة تولدها قائسة اياها قياسا خاطئا على ما يشبهها من مفردات . كأن تأتي كلمة على لفظ الجمع ، فتتوهمها العامة جمعاً ، ثم تلتمس لها مفرداً ، كما حدث في (سراويل) وهي مفردة في الفارسية ، إلا أن عامة بغداد توهمت انها جمع ، فاشتقت لها مفردا فقالوا (سروال) قياسا على مفردات ما جمع على وزن (فَعَاليل) (٣) .

وقد تكون الكلمة مؤنثة بالالف المقصورة أو الممدودة الا ان العامة لا ترى قوة علامة التأنيث فيها ، فتلحق بها التاء قياسا على ما يؤنث بالتاء كقول عامة العراق : (سَلْمَة وحبْلَة ودِنْيَة وحَمْرَة وصَفْرة وعَمْيَة وغير ذلك) .

وعلل الزبيدي بعض ما سمع من لحن على ألسنة معاصريه ، بالتوهم ، أو القياس الخاطىء ، من ذلك انهم قالوا (صِيشْبانة) وهو

(١) الاشباه والنظائر : ١ / ١٩٦ .

(٢) المزهر : ٢ / ٥٠٤ .

(٣) تقويم اللسان : ١٣٨ .

غلط صوابه (صُوَّابة) وتنبه الزبيدي الى علة هذا اللحن فقال : (وانما دخل عليهم لقولهم صِئْبان فتوهموا ان واحدته صِئْبانة ، وظنوه من الجمع الذي ليس بينه وبين واحده الا الهاء) (١) .

وربط الزبيدي بين هذا الخطأ وخطئهم فى ذبابة فقال (وغلطهم في هذا كغلطهم في الصِئْبان على نحو ما تقـــدم ذكره) (٢) وقال مفسراً حدوث اللحن في (مَصْرانة) بالتوهم (وغلطهم فى مُصْران على نحو ما ذكرناه في صئبانة وذبانة (٣) أي انهم توهموا المصران - وهو جمع مَصِير مثل رَغيف ورُغْفَان - جمعا واحدته مصرانة . وعلل بالتوهم خطأهم أيضاً في جمع (قرية) على (قرايا) فقال (وكأنهم تابعوا فى الجمع من شدد القرية وذلك خطأ) (٤) ويعني من قال (قَرِيَّة) مثل (سَرِيَّة) .

هذا ما التفت اليه الزبيدي من اللحن الواقع بسبب التوهم ، وفى لهجة عامة زمانه أخطاء أخرى سببها القياس الخاطىء أو التوهم من ذلك جمعهم (هِمْيان) على (همايا) (٥) وهو قياس خاطىء على مثل (سكران) و (سكارى) ، وقولهم لضرب من الشجر : دِفْلَة ، بدل دِفْلَى (٦) ، وهو قياس خاطىء على ما يؤنث بالتاء ،

---

(١) لحن العوام : ١٩ ، ٢٠ .

(٢) نفسه : ٣٢ .

(٣) نفسه : ١٥٧

(٤) نفسه : ١٧٣ .

(٥) نفسه : ٤٧ .

(٦) نفسه : ٩٩ .

وقولهم (مينة) و (حَلْوَة) (١) بدل (ميناء) و (حَلْوَاء) ، قياساً خاطئاً على ما يؤنث بالتاء ، وقد يقال ان اللحن في هذه الكلمات سببه ما يدعى (بقانون السهولة أو التيسير) ، وهو عامل ينجم عنه جوانب من التطور اللغوي ، اذ ان الناس يميلون في اللغة الى التخلص من الاصوات العسيرة ، ويستبدلون بها أصواتاً أخرى لا تتطلب جهوداً عضلياً كبيراً ، كما انهم يتفادون التفريعات المعقدة والانظمة المختلفة للظاهرة الواحدة . وعامة الاندلس في عصر الزبيدى ، استغنوا عن تعدد علامات التأنيث ، وجعلوها علامة واحدة هي التاء (٢) ، ومن هذا القبيل قولهم (سكرانة) بدل (سكرى) .

وأما قولهم (رجل أجْعَد) الشعر بدل جَعْد فهو قياس خاطىء على أشقر وأقرع وغيرهما . وتوهموا (الفِرَاء) مفرداً فجمعوه على (أفْرِيَة) ، وهو جمع (فَرْو) كما توهموا (آنية) مفردا فجمعوه على (أواني) ، والآنية جمع اناء (٣) .

٤ ـ التطور الدلالي :

ونعني به تغير معاني الكلمات ، وهذه (ظاهرة شائعة في كل اللغات ، يلمسها كل دارس لمراحل اللغة ، وأطوارها التاريخية) (٤) .

---

(١) لحن العوام : ١٨ ، ١٣٠ .
(٢) لحن العامة والتطور : ٤٤ ، ٤٧ .
(٣) لحن العوام : ٢٥٢ ، ٤٤ ، ٢١٢
(٤) دلالة الالفاظ : ١١٩ .

فليس التطور اللغوي للمفردات مقصوراً على تغير أصواتها ، أو اوزانها بل قد يلحق معانيها أيضاً .

وقد (وقع هذا التطور الدلالي في اللغة العربية قديماً وحديثاً ، كما وقع في غيرها من اللغات ، فمعاني الالفاظ التي كانت مستخدمة في العصر الجاهلي ، لم تبق جامدة بعد الاسلام ، بل لحقها تغير قليل أو كثير . . .

وهذا ما حدث فى العصور التالية أيضاً نتيجة لتطور المجتمعات والحاجة إلى التجديد ، واضفاء معان جديدة على كلمات قديمة ، وفاء بحاجات الحياة المتطورة) (١) .

واذا بحثنا عن انواع هذا التطور وجدناها (ذات شطرين : منها لاشعورى يتم في كل لغة ، وفى كل بيئة ، ثم لا يفطن اليه الا بعد المقارنة بين عصور اللغة ، ومنها ذلك المقصود المتعمد الذي يقوم به المهرة في صناعة الكلام ، أو تقوم به المجامع اللغوية لهدف ما أو لآخر) (٢) .

ولا يعنينا هنا أن نعرض للتطور المتعمد الذي تنهض به الهيئات العلمية والمجامع اللغوية ، وانما يعنينا أن نقف قليلا عند ذلك التطور الذي يحدث دون عمد أو قصد ، او دون ان يكون لجهة او هيئة يد فيه ، بل ينبع من البيئة اللغوية نفسها ، وتجرى به ألسنة اهلها بشكل لاشعوري أو غير ارادي .

يرى الدارسون المحدثون ان لهذا التطور عوامل ، منها : سوء

(١) لحن العامة في ضوء الدراسات : ٢٧٩ .

(٢) دلالة الالفاظ : ١٣٠ .

الفهم (١) ومعناه ان يسمع المرء اللفظ لأول مرة ، فيسيء فهمه ، ويبتكر له دلالة جديدة ، فتذهب في الناس وتحل محل الدلالة القديمة التي لا تلبث أن تنزوي ، وتأوي الى بطون المعجمات .

ومن الالفاظ التي تطورت دلالاتها في العصر الحديث ، واكتسبت معنى غير معناها بسبب من سوء الفهم ، كلمة (عتيد) التي أخطأ الناس فهمها واستعملوها بمعنى (القديم) ، وكلمة (المستشفى) التي اكتسبت التأنيث في لهجة الخطاب الحديثة ، بسبب سوء الفهم أيضاً . وقل مثل ذلك عن كلمة (الكفء) التي صارت بمعنى القدير وهي في الاصل بمعنى النظير والمثيل (٢) :

ومن عوامل التطور الدلالي (تطور اصوات الكلمة بحيث تصبح تلك الكلمة مماثلة لكلمة أخرى لها بمعنى آخر ، فان كلمة (كماش) الفارسية بمعنى نسيج من قطن خشن قد تطورت فيها الكاف فاصبحت (قماشا) فأشبهت الكلمة العربية (قماش) بمعنى اراذل الناس ، وما وقع على الارض من فتات الاشياء ، ومتاع البيت ، فأصبحت هذه الكلمة العربية ذات دلالة جديدة على المنسوجات) (٣) .

والعامل الثالث في التطور الدلالي (هو الابتذال الذي يصيب بعض الالفاظ في كل لغة من اللغات لاسباب منها السياسي ومنها الاجتماعي ومنها العاطفي) (٤) .

---

(١) دلالة الالفاظ : ١٣١ ، ١٣٤ .

(٢) مباحث لغوية : ١٨٧ :

(٣) لحن العامة والتطور : ٥٨ وانظر دلالة الالفاظ : ١٣٥ :

(٤) دلالة الالفاظ : ١٣٥ وما بعدها .

ولعل خير مثل لذلك كلمة (حاجب) ابتذلت دلالتها بعد أن كانت تعني في الدولة الاندلسية ، رئيس الوزراء . وكلمة (افندي) التي كان لها في مصر خلال القرن التاسع عشر مركز ومكان مرموق ثم انحط قدرها واصبحت اقل الرتب .

وقـــد لمح بعض القدماء هذا الابتذال الذي يصيب المفردات ، واشاروا اليه في ثنايا كتبهم ، فقالوا كلمة (خش) بمعنى (دخل) كلمة مبتذلة رغم أنها عربية صحيحة .

والالفاظ التي ترتبط بالقذارة والدنس ، أو تتصل بالغريزة الجنسية فان اللفظ منها لا يكاد يشيع حتى يأباه الذوق ، ويحل محله لفظ آخر أقل وضوحاً في دلالته ، أو اكثر غموضاً ، أو تعمية .

وللتطور الدلالي مظاهر ، أهمهـــا ثلاثة : تخصيص الدلالة ، وتعميمها ، وتغير مجال الاستعمال .

فمن أمثلة النوع الأول (الصلاة) التي كانت قبل الاسلام تعني مطلق الدعاء ، ثم تخصصت بعد الاسلام فصارت تعني العبادة بشروطها وكيفيتها المعروفة (١) .

ولفظ (الحج) الذى كان معناه القصد إلى معظم ، ثم تخصص في القصد إلى بيت الله الحرام في وقت معلوم لأداء شعائر معلومة (٢) . وكذلك كلمة (العيش) في اللهجة المصرية التى صارت تطلق على (الخبز) (٣) .

---

(١) لحن العامة في ضوء الدراسات : ٢٨١ ،

(٢) نفسه : ٢٨١ .

(٣) دلالة الالفاظ : ١٥٠ .

ومن أمثلة تعميم الدلالة اطلاق (البأس) على كل شدة ، وهي في الأصل تعني (الحرب) (١) و (الرائد) كانت تعني طالب الكلأ ، ثم صارت تطلق على كل طالب حاجة (٢) .

ومن ذلك أن عامة المشرق تقول للرفقة المسافرة أو العائدة (قافلة) وأصلها من (قفل) أي رجع (٣) . والمصريون اليوم يطلقون (البحر) على النهر والبحر .

وأما تغير مجال الاستعمال فهو ما يسمى بـ (المجاز) ، أو انتقال دلالة الكلمة لعلاقة بين المدلولين ، والعلاقة ضربان : علاقة مشابهة وهو ما يدعى بالاستعارة ، وعلاقة غير المشابهة ، في المجاز المرسل . والاستعارة كثيرة في كلام العرب ، وقد حفل بها وبغيرها من ألوان المجاز شعرهم ونثرهم .

ذلك هو التطور الدلالي للكلمات ، وهو مظهر من مظاهر التطور اللغوي معترف به ، وقد عرا الالفاظ العربية في مختلف العصور ، إلا أن اللغويين ، (بدافع الحرص الشديد على الحفاظ على اللغة ، وقفوا من هذا التطور الدلالي ، موقفهم من التطور الصوتي والنحوى والصرفي ، أي انهم وضعوا حدوداً زمانية ومكانيـة ينتهي عندها قبول الاستعمال الجديد ، الذى سموه مولداً ، لأنه لم يسمع عن العرب الذين يحتج بأقوالهم) (٤) .

ولذا فقد هب أصحاب حركة (تنقية اللغـة) يقاومون التطور

---

(١) المزهر : ١ / ٤٣١ .

(٢) نفسه : ١ / ٤٣٢ .

(٣) أدب الكاتب : ٢٠ .

(٤) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية : ٢٧٩ :

الدلالي للمفردات ويحرمونه على العرب المتأخرين ، ويصفون الاستعمال الجديد بأنه لحن ، فضمنوا كتبهم أبواباً سموها (ما وضعوه في غير موضعه) أو (ما جاء لشيئين أو لاشياء فقصروه على واحد) أو (ما يوقعونه على الشيء وقد يشركه فيه غيره) أو (ما جاء لواحد فأدخلوا معه غيره) .

لقد تشدد الزبيدى في معاني الالفاظ ، وتمسك بالمسموع عن العرب منها ، ولم يرتض أن يستعمل العامة الكلمة في معنى غير الذى استعملها فيه العرب الذين يوثق بأقوالهم ، على الرغم من أنه اعترف بأن انتقال اللفظ من مدلول لآخر بينهما علاقة وارتباط ، مما عرفته العربية في تاريخها ، فقال يخطىء عامة الاندلس في قولهم للزق الذى ينفخ به الحداد (كير) ، (والصواب الصحيح المعروف أن الكير موقد النار الذي يبنيه الحداد) (١) .

ثم روى قول أبي نصر (أحمد بن حاتم) (٢) : (الكير هو الذي ينفخ به الحداد) فعلق عليه قائلا (٣) : (وهو مما لا يصح عندى إلا على وجه تسمية الشيء بما قرب منه ، وما كان من سببه كما قالوا : رواية للمزادة والراوية البعير الذى يستقى عليه الماء) .

لقد حكم الزبيدى بالخطأ على كل المفردات التى تطورت دلالاتها واستعملت في معان لم يستعملها فيها العرب الذين يحتج بأقوالهم .

وكان التطور الدلالي عاملا من عوامل اللحن فى عامية الاندلس فمن أمثلة تعميم الدلالة استعمالهم كلمة (الاستحمام) لغسل الجسم

---

(١) لحن العوام : ٢٣٦ :

(٢) و (٣) نفسه : ٢٣٦ :

بالماء الحار أو البارد ، وهي في الاصل للغسل بالماء الحار .

ومن أمثلة تخصيص الدلالة استعمال (الريحان) الآس خاصة وهو في الاصل لكل نبت طيب الريح ؛ واستعمال (اللحاف) للغطاء الذي يكون على الاسرة خاصة وهو في الاصل لكل ما التحف به في حالة قيام أو قعود أو اضطجاع من ثوب أو كساء أو رداء . ومن امثلة انتقال مجال الدلالة استعمالهم (القلادة) للحزام وهي في الاصل العقد الذي يوضع في العنق .

٥ ـ التقارب بين الاصوات في المخرج أو الصفة :

ابدال صوت من آخر ظاهرة شائعة في كلام العرب ، قال ابن فارس : (ومن سنن العرب ابدال الحروف واقامة بعضها مقام بعض ويقولون : مدحه ومدهه ، وفرس رفل ورفن ، وهو كثير مشهور قد ألف فيه العلماء) (١) :

وقد احتوت كتب التصويب اللغوي على طائفة من المفردات ، حكم عليها بالخطأ لأن الناس أقاموا فيها حرفاً مقام حرف ، اما لأنهما من مخرج واحد ، أو لأنهما متقاربان فى المخرج أو في الصفة .

وعلى الرغم من أن هذه ظاهرة شاعت فى كلام العرب ـ على حد قول ابن فارس ـ فان المؤلفين في اللحن لم يرتضوها لمعاصريهم ، وكأنها في رأيهم ، وقف على العرب الاوائل ، فلا يحق لمن بعدهم أن يحدثوا شيئاً منها في اللغة ،

وفاتهم أن ظاهرة الابدال هي من ظواهر التطور اللغوي ، وأن

---

(١) الصاحبي : ٢٠٣ .

أهل اللغة يميلون إلى اقامة حرف مقام آخر لهذا السبب أو ذاك من الاسباب التي لمحها القدامى وفصلها الدارسون المحدثون ، وعللوا بها ما يحصل في اللغة من تطور صوتي عبر العصور .

واذا تأملنا الكلمات التي حكم الزبيدي عليها بالخطأ بسبب ما حصل فيها من ابدال الحروف ، رأينا ان الحروف المبدلة متقاربة في المخارج أو الصفات ، وان كتب اللغة قد حفلت بكلمات فيها ابدال مماثل .

وقد اعترف الزبيدي نفسه مثلا بأن اللام والنون متقاربان في المخرج ، ويبدل أحدهما من الآخر ، فقال (والخامل الخفي الذي لا ذكر له .

وروى أبو علي عن اللحياني : وخامن الذكر بالنون ، والنون هنا داخلة على اللام لتقارب مخرجيهما) (١) ولكنه أنكر على عامة زمانه أن يبدلوا اللام من النون في قولهم (في الطعام زُوّال) ورأى ان الصواب (زُوان) هي حَبَّة تكون في الحنطة تُنَقّى منها (٢) .

٦ - التخلص من التقاء الساكنين :

وفي عامية الاندلس كلمات يظهر أن سبب اللحن فيها هو التخلص من التقاء ساكنين متواليين في آخرها ، الساكن الاول في بنية الكلمة ، والآخر طرأ عليه السكون بسبب الوقف عليه ، وللتخلص من تجاور ساكنين مالوا الى تحريك عين الكلمة بحركة تنسجم مع حركة الحرف

(١) لحن العوام : ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) نفسه : ١٦٨ .

الاول ، تحقيقاً للانسجام الصوتي ، واقتصاداً في الجهد العضلي ، لأن توحيد حركتين متجاورتين يقتضي جهداً عضلياً أقل من الجهد المبذول فى التلفظ بهما وهما مختلفتان .

وقد لمح الزبيدي هذا السبب وفسر به ماوقع من لحن في بعض المفردات فقال : (ويقولون فيما كان على فَعْل مسكناً اذا وقفوا عليه (فَعَل) بتحريك وسطه بالفتح نحو أمر وقصر ورمل وحفص ورفع وما أشبه ذلك . وكذلك يفعلون في فِعْل نحو ذِكِر وفِطِر) (١) .

ويبدو أن التخلص من النطق بالساكنين المتتاليين بتحريك أحدهما وهو الاول ، مما ورد عن العرب ، ووعته كتب اللغة ، فقد ذكره سيبويه وقال (هذا باب الساكن الذي يكون قبل آخر الحروف فيحرك لكراهيتهم التقاء الساكنين وذلك قول بعض العرب : هذا بَكُرْ . ومِنْ بَكِرْ) (٢) ولكنهم اشترطوا أن يحرك الساكن الاول بنقل حركة اعراب الاخير اليه ، ولا يكون ذلك إلا في حالتي الوقف على الاسم الساكن الوسط المرفوع أو المجرور ، نحو هذا بَكُرْ ومررت ببَكِرْ . وفي حالة النصب يقال : رأيت بَكْرا ، أي لا يكون فيها وقف بالسكون (٣) .

---

(١) لحن العوام : ٢٠٣ .

(٢) الكتاب : ٢ / ٢٨٣ .

(٣) سر صناعة الاعراب : ٩٠ ، ٩١ .

مصادر الزبيدي ومنهجه اللغوي

اعتماد اللغويين والرواة :

ان أهم ما يمتاز به منهج الزبيدي في التأليف هو نسبة كل قول الى صاحبه ، وكل رواية الى راويها ، حتى اضفى ذلك على كتابه لحن العامة ، أهمية كبيرة ، لانه جاء سجلا وعى الكثير من أقوال اللغويين ، وحفظ لنا ثروة كبيرة من آرائهم ، ولا شك أن حرص الزبيدي على نسبة الاقوال الى قائليها يدل على الامانة العلمية ، والدقة فى التأليف .

وقد ترددت في الكتاب عبارة (وزعم بعض اللغويين) أو (قال بعض اللغويين) ، الا أن الآراء المعزوة أفشى في الكتاب من تلك التي وردت غير منسوبة ، أو مسبوقة باحـــدى العبارتين السابقتين .

وأما اللغويون الذين استقى الزبيدي آراءه منهم ، وورد ذكرهم في الكتاب فهم :

الاصمعي - القالي - ابن السكيت - سيبويه - ابو عمرو الشيباني أبو زيد الانصاري - ابو عبيدة - ابو عبيد القاسم بن سلام - ابن قتيبة أبو حنيفة الاصفهاني - ابو نصر احمد بن حاتم الباهلي المعروف بغلام الاصمعي - ابن دريد - ابو الحسن علي بن عبد الله بن سنان الطوسي - الفراء - يونس بن حبيب - الكسائي - المبرد - علي بن المبارك الاحمر - الاموي - ابن النحاس - الشيزرى - السكري - اليزيدي - المازني - ابو حاتم السجستاني - سعيد الاخفش - ابو داود السجستاني - شعبة ابن الحجاج - ابن أبي شيبة - بكر بن حماد - العدبس الكناني - قاسم بن أصبغ - احمد بن سعيد بن حزم الصدفي - بسطام بن قيس .

وقد نال القالي صديق الزبيدي واستاذه أوفى نصيب من الاستشهاد بأقواله ، ويأتي الاصمعي بعده ، ثم يليهما ابن السكيت ، ويأتي بعده أبو حاتم ثم سيبويه ، ثم لغويون آخرون ممن مر ذكرهم ، كما أن هناك كثيراً ممن استشهد بأقوالهم مرة واحدة .

ولم يذكر الزبيدي أسماء المؤلفات التي كان يستقي منها نقوله ورواياته ، بل كان يكتفي بذكر أسماء اللغويين الذين يأخذ عنهم ، دون ذكر كتبهم ، وقد ورد ذكر أربعة كتب فقط هي :

لحن العامة لأبي حاتم السجستاني ، وكتاب (المقصور والممدود) للقالي ، وكتابه الذي ذكره مرتين : الاولى باسم (أبنيـــة الاسماء والافعال) والثانية باسم (الأبنية) :

وأما الكتاب الرابع فهو (كتاب الادب) ولم يذكر صـاحبه ، ولعله أدب الكاتب لابن قتيبة . ولم يحمد السيد البير مطلق للزبيدي أنه لم يذكر أسماء كتب اللغويين الذين أخذ عنهم وقال : (ومثل هذا لا يحمد للمؤلف وان كان عملا شائعاً أنذاك) (١) .

والحقيقة أن هناك كتباً كثيرة اعتمد عليها الزبيدي ، وأخذ منها مادته ، ولكنه لم يذكر اسماءها ، والذي يتأمل مواد كتابه (لحن العامة) والنصوص المنسوبة لأصحابها فيـه لا يجـــد كبير مشقة في الاهتداء الى مصادر الكتاب . ويمكن القول ان مصادر الزبيدي في كتابه تنقسم الى ما يلي :

آ ـ القرآن الكريم .

ب ـ الحديث الشريف وأقوال الصحابة والتابعين .

ج ـ دواوين الشعراء .

---

(١) الحركه اللغوية : ١٦٢ .

د ـ الامثال وأقوال العرب .

هـ ـ المعجمات .

و ـ كتب النحو واللغة والادب وهي : كتاب سيبويه ـ لحن العامة للسجستاني ـ اصلاح المنطق والالفاظ لابن السكيت ـ أدب الكاتب والانواء وعيون الاخبار لابن قتيبة ـ النبات لأبي حنيفة الاصبهاني ـ الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام ـ الفصيح لثعلب ـ الامالي والمقصور والممدود والبارع للقالي ـ مجاز القرآن لأبي عبيدة ـ معاني القرآن لابن النحاس ـ الابنية للزبيدي .

والذي يتأمل مصادر الزبيدي ، وأسماء اللغويين الذين نقل منهم واعتمد عليهم ، يجد أنهم بصريون وكوفيون ، وفي ذلك ما يدل على أن الزبيدي قد أخذ من المدرستين ، وانتخب نقوله ومادة كتبه من الفريقين وكان في ذلك رائداً لما دعي بالمذهب الاندلسي ، وهو مذهب قام على مزج علمي البصرة والكوفة ،

الشواهد :

وكان الزبيدي يعزز تصويبه لعامية أهل بلده ، بالشواهد ، وقد استقى شواهده من المصادر الآتية :

أ ـ القرآن الكريم : بلغ مجموع ما استشهد به من الآيات خمس عشرة آية من سور مختلفة .

ب ـ الحديث : وقد اختلف النحاة فيه ، فذهب أكثرهم إلى عدم الاحتجاج به . وأجازه الآخرون ، وكان الذين يرفضون الاستشهاد بالحديث يعللون موقفهم بأمرين :

١ ـ ان رواة الحديث أجازوا نقله بالمعنى ، ولم يوردوه عن النبي (ص) بلفظــه ، وكان أحدهم ، وهو سفيان الثوري ، يقول :

(ان قلت لكم اني أحدثكم كما سمعت فلا تصدقوني ، انما هو المعنى) (١) .

٢ ـ ان كثيراً من رواته ، لم يكونوا من العرب ، فوقع فيما رووه شيء من اللحن (٢) ، ولذا لجأ النحاة الى تأويل طائفة من الاحاديث ، لم تكن جارية على الكثير المطرد من أساليب العربية ، من ذلك حديث (إنّ قعرَ جهنمَ سبعين خريفاً) ، فقد قالوا في تأويله : ان سبعين منصوبة على رأى من يجعل (إنّ) ناصبة للجزأين كقول عمر بن أبي ربيعة :

اذا اسودَّ جنح الليل فلتأتِ ولتكنْ
خطاك خفافا إنّ حُرّاسَنا أُسْدا

وذهب آخرون فى تأويله الى أن القعر مصدر (قَعَرْتُ البئر) اذا بلغت قعرها ، وسبعين ظرف ، أي أن بلوغ قعر جهنم يكون سبعين عاماً ، وأولوا البيت باعراب (اسدا) حال ، أى ان حراسنا تلقاهم اسدا ، أي كالاسد (٣) .

ويستشهد القائلون بوقوع اللحن في الحديث ، بالاحاديث الآتية ، وفيها المستثنى مرفوع ، والكلام تام موجب : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة الا امرأة ، أومسافر ، أو عبد ، أومريض) و (كلُّ أمتي مُعَافَى الا المجاهرون) أي بالمعاصي . و (فلما تفرقوا أحرموا كلهم الا أبو قتادة) .

---

(١) خزانة الأدب : ١ / ٥ .

(٢) نفسه : ١ / ٦ .

(٣) القواعد النحوية : ١٩٤ .

والمعروف في الاستثناء ان الكلام إذا كان تاماً موجباً وجب نصب المستثنى ، وهذا رأي الجمهور ، أما الرفع فلغة حكاها أبوحيان ، وخرج عليها بعضهم هذه الاحاديث .

وذهب آخرون إلى أن (الا) بمعنى لكن ، وما بعدها مبتدأ وخبره محذوف (١) .

وأما حديث (كاد الفقر أن يكون كفراً) فقد قال عنه ابن الانباري فى انصافه انه (من تغيير الرواة لانه صلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد) وكان قد منع أن في خبر كاد (٢) .

واذا لم يتخذ النحاة من الحديث اساساً يبنون عليه أحكامهم واصولهم لأن رواته أجازوا نقله بالمعنى ، وأن كثيراً منهم أعاجم ، لا علم لهم بصناعة النحو وأساليب تأليف الكلام العربي ، يؤيد ذلك ما وقع في الحديث من اللحن ، فليس للغويين عذر بابطال الاحتجاج به لاثبات الفاظ اللغة ، لانه روى بالفاظ عربية ولذا ذهب اللغويون الى الاستشهاد به في رواية مفردات اللغة .

أما الزبيدى فلم ير كذلك بأسا في الاستدلال بالحديث على فصاحة بعض ما روى من مفردات ، وهو بذلك يتابع اللغويين ، في الاعتداد بالحديث ، واستقاء مفردات اللغة منه .

وقد استطيع هنا أن أقول : ان الزبيدى كان من أوائل الاندلسيين - ان لم يكن أولهم - الذين التفتوا إلى الاحاديث ، وأقبلوا عليها ، يلتمسون فيها ما يشاؤون من الشواهد على ما يعن لهم من أحكام وآراء لغوية . وحين جاء ابن خروف وابن مالك ، ونقلا الاستدلال بالحديث

---

(١) القواعد النحوية : ١٩٤ :

(٢) خزانة الادب : ١ / ٧ .

من اللغة إلى النحو (١) ، أصبح ذلك معلماً بارزاً من معالم المذهب الاندلسي ، وسمة واضحة من سماته :

ومن أمثلة استشهاده بالحديث ، ما ذكره في مادة (كِير) من أن العامة تطلق (الكِيْر) على الزق الذي ينفخ به الحداد ، والصواب الصحيح المعروف أن الكير موقد النار الذى يبنيه الحداد ، واستدل على ذلك بقول الرسول (ص) : (مَثَلُ جليس السوء مَثَلُ الكِيران لم يحرقك من شَرارِه عَلِقَكَ من ريحه ونَتَنِه) ثم قال : (ألا ترى أن الشرار لا يطير من الزق ، انما يكون من البناء) (٢) .

وقد بلغ مجموع الاحاديث التي استشهد بها خمسة وثلاثين حديثا واستشهد أيضاً بأقوال بعض الصحابة والتابعين ، ففي مادة (كِنْف) قال الزبيدي : (ويقولون للوعاء الذي يجعل المسافر فيه متاعه من سكين وغيره ، كَنِيف ، قال محمد : والصواب كِنْف بالنون لانه يكتنف مافيه : ومنه حديث عمر رضي الله عنه انه قال في ابن مسعود رحمه الله (كُنَيْف مُلِيءَ عِلْماً) والكُنَيْف تصغير كِنْف ، يعني جمع فنونا من العلم كما يجمع الكنف ضروبا من الآلة) (٣) :

جـ ـ الامثال وأقوال العرب : وحظ الاستشهاد بها قليل .

د ـ الشعر : أكثر الزبيدي من الاستشهاد بالشعر ، فقد بلغت شواهده منه ٢٢٧ شاهداً لاكثر من ثمانين شاعراً : وهو كغيره من العلماء ، حريص على الاحتجاج بأشعار الذين صحت ملكاتهم ، وصفت لغتهم من شوائب العجمة والدخيل ، واحتج بهم اللغويون .

(١) خزانة الادب : ١ / ٥ .

(٢) لحن العوام : ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٣) نفسه : ١٢٧ ، ١٢٨ .

جاء في خزانة الادب أن العلماء قسموا الشعراء على طبقات أربع :

(الطبقة الأولى الشعراء الجاهليون ، وهم قبل الاسلام كامرىء القيس والاعشى . والثانية المخضرمون وهم الذين أدركوا الجاهلية والاسلام كلبيد وحسان . والثالثة المتقدمون ، ويقال لهم الاسلاميون ، وهم الذين كانوا في صدر الاسلام ، كجرير والفرزدق . والرابعة المولدون ، ويقال لهم المحدثون ، وهم من بعدهم الى زماننا ، كبشار بن برد وأبي نواس . فالطبقتان الاوليان يستشهد بشعرهما اجماعا ، وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها .

وقد كان أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي اسحاق والحسن البصري وعبد الله بن شبرمة يلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمـــة واضرابهم . . . وأما الرابعة فالصحيح انه لا يستشهد بكلامها مطلقاً ، وقيل يستشهد بكلام من يوثق به منهم . . . ونقل ثعلب من الاصمعي انه قال ختم الشعراء بابراهيم بن هرمة) (١) .

واذا استقرينا شواهد الزبيدى ، وجدنا أنه أكثر من الاستشهاد بشعر الطبقتين الاوليين ، كما استشهد بعدد من شعراء الطبقة الثالثة ، أما شعراء الطبقة الرابعة ، أى المحدثون ، فقد استشهد بشاعرين منها هما محمد بن مناذر (ت ١٩٨ هـ) وعمارة بن عقيل (ت ٢٣٩ هـ) . وسأقف هنا عند استشهاده بشعر بعض شعراء الطبقات الثلاث الذين لا يعتد بعض اللغويين بشعرهم ، كما أقف عند استشهاده بشعر شاعرين من المحدثين ،

١ - طبقة الشعراء الجاهليين والمخضرمين : وقد أكثر من الاستشهاد بشعرهم ، متابعاً اللغويين في ثقتهم بهم ، ومنهم :

---

(١) خزانة الأدب : ١ / ٣، ٤ .

زهير بن أبي سلمى - امرؤ القيس - طفيل الغنوى - ضمرة بن ضمرة النهشلي - عدى بن زيد - ابو داود الايادي - الشماخ - الاعشى الكبير - المتنخل الهذلي - الحصين بن القمقاع اليشكري - الافوه الاودى - أوس بن حجر - طرفة - النابغة - النمر بن تولب - عروة بن الورد عمرو بن الاهتم - ابن احمر - عنترة - النعمان بن المنذر - علقمة بن عبدة - أوس بن غلفاء - الهجيمي - لبيد - كعب بن زهير - أبوذؤيب الهذلي - الخنساء . . . .

ولا شك أن هؤلاء الشعراء ثقات ، وان أشعارهم وأشعار غيرهم ممن عاشوا في هذه الحقبة التي سبقت بزوغ الاسلام وتلته ، كانت اساسا هاما من الأسس التي انبنت عليها قواعد العربية ، وقوانين النحو ، الا أن اثنين منهم ، هما عدى بن زيد وأبوداود الايادي ، كانا مستضعفين تلف أشعارهما الشكوك وتحوم حولها الشبهات ، وكان الاصمعي ، ذلك اللغوى المتشدد ، قـد نالهما بالنقد ، ووصفهما بلين اللسان ، فقال : (لا تروى أشعارهما لان الفاظهما ليست بنجدية) (١) .

وكان حظ عدى من نقـد اللغويين له ، اكثر من حظ صاحبه ، ومأتى ذلك أنه سكن الحواضر ، وذاق عيش أهل الارياف ، بل وخالط الفرس الوافدين على الحيرة وطرقت رطانتهم سمعه ، فلم يؤمن على شعره من تسرب الدخيل اليه .

قال ابن سلاّم عن عدى (سكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه) (٢) .

وجاء في المرشح عنـه انه كان يسمع الوفود التي تفـد على ملوك

---

(١) الموشح : ١٠٤ .

(٢) نفسه : ١٠٣ .

الحيرة فيدخل لغاتهم في شعره (١) .

وعلى الرغم مما وصم به شعر هذين الجاهليين ، فان جمهور اللغويين كانوا يستشهدون بهما ، ويعتمدون بأقوالهما ، ولذا فلا مطعن على الزبيدي ان جعلهما من بين من احتج بهم ، ويبدو أنه كان على شيء من ريبة في شعرهما فلم يكثر من الاعتماد عليه ، أو الاستشهاد به ، ولم يذكر لاضعفهما - أعني عديا - الا بيتاً واحداً في مادة (كوب) حيث قال : (ويقولون لبعض الآنية قَبّ . قال محمد : والصواب : كوب : وجمعه أكواب : وزعم أبو عبيدة ان الكوب من الاباريق الواسع الرأس الذى لا خرطوم له : قال عدى بن زيد :

مُتَّكِئاً تُقْرَعُ أبوابُه يَسْعَى عليه العَبْدُ بالكُوبِ) (٢)

وذكر لأبي دؤاد الايادي بيتين ، استدل بأولهما على أن (ابزين) لغة في (ابزيم) ويجمع على ابازين :

من كلِّ جرداءَ قد طارت عقيقتُها وكل أجردَ مُسْترخي الأبازين

واحتاج الى الثاني ليثبت مازعم أن في (آجُرَ) لغة ثانية هي (آجُرُون) وهو من الفارسي المعرب :

ولقد كانَ في كتائبَ خُضْرٍ وبَلاطٍ بُلاَّطَ بالآجُرُونِ (٣)

ويبدو أن لم تكن له مندوحة عن الاستدلال في مثل هذه المادة ، بشعر أبي دؤاد لانه مظنة للمعرّب والدخيل .

---

(١) المرشح : ١٠٣ .

(٢) لحن العوام : ١٨٦ .

(٣) نفسه : ٢٩٢ ، ١٦٥ .

٢ - الشعراء الاسلاميون : ومنهم :

الفرزدق - جرير - الاخطل - كثّير - الراعي - ذو الرمة - ابن الملوّح - نصيب - عدى بن الرقاع - الكميت - الطرماح - ابن أبي عمار - العجاج - رؤبة - أبو النجم العجلي - أبو وجرة السعدي - ابن ميادة - أبو حية النميري .

وكان اللغويون قد ارتضوا الاستشهاد بشعر هؤلاء ، الا أن أبا عمرو بن العلاء لم يمل الى الاحتجاج بشيء منه ، فقد روى صاحب الخزانة عن الاصمعي قوله (جلست اليه - يعني أبا عمرو بن العلاء - عشر حجج فما سمعته يحتج ببيت اسلامي) (١) .

وهناك لغويون آخرون قد برموا بشعر الفرزدق والكميت وذي الرمة واضرابهم ، وضاقوا بشطّه عن قواعد النحو وقوانينه ومن هؤلاء اللغويين ابن أبي اسحاق والحسن البصري وعبد الله بن شبرمة (٢) .

ولقي الكميت والطرماح أعنف النقد وأمره من اللغويين ، وكانت حملة الاصمعي على شعرهما ، حملة شعواء وقاسية ، لانهما في زعمه لم يتقنا العربية فطرة ، وانما أخذاها بالتعلم والدراسة ، ولذا لم يصح عنده الاعتداد بشعرهما ، وهو القائل (الكميت تعلم النحو وليس بحجة وكذلك الطرماح ، وكانا يقولان ما سمعناه ولا يفهمانه) (٣) .

ومهما يكن فان الصحيح هو الاستشهاد بشعر الاسلاميين ، وأن الكميت والطرماح لم ينعقد اجماع ، أو شبه اجماع ، على اطراحهما

(١) خزانة الادب : ١ / ٤ .

(٢) نفسه : ١ / ٤ .

(٣) الموشح : ٣٠٢ .

وعدم الاعتداد بشعرهما ، وما أثاره الاصمعي حولهما لم يصرف جمهور اللغويين عن الاحتجاج بهما ، ولذا لم يكن الزبيدي بدعا منهم حين احتج بالطرماح في موضعين ، وان كان تقليل الاستشهاد به ، ينم عن أن ثقته بشعره لم تكن كبيرة .

ذكر الزبيدي للطرماح بيتين ، استدل بأولهما على أن قول العامة للاناء المتخذ من الصُّفْر (سَطْل) هو خطأ صوابه (سَيْطَل) على مثال فَيْعَل ، والشاهد قول الطرماح :

يَقَقُ السَّراةِ كأنَّ في سَفَلاتِهِ
أثَرَ النَّؤُورِ جَرَى عليه الإثْمِدُ
حُبِسَتْ صُهَارَتُه فَظَلَّ عُثَانُه
في سَيْطَلٍ كُفِئَتْ له يَتَرَدَّدُ) (١)

وذكر البيت الثاني ليستدل به على معنى كلمة (قَرْمَد) فقد ذهب الى أنه (الجصّ) أو الجيَّار الذى يكون بين الآجر حتى يلتئم ويتلاصق في البناء وليس الخزف المطبوخ كما رأى ابن السكيت ، قال الزبيدي : (فأما ما ذهب اليه يعقوب في قول الطرماح ،

حَرَجٌ كمِجْدَلِ هاجِرِيَّ لَزَّهُ
تَذْوابُ طَبْخِ أطيمةٍ لا تَخْمَدُ
حُذِيَتْ على مِثْلٍ فهنَّ تَوائمٌ
شَتَّى يُلائم بينهنَّ القَرْمَدُ

من أن القرمد خزف يطبخ فليس بصحيح . وانما يعني الطرماح

---

(١) لحن العوام : ٧٥ ، ٧٦ .

بقوله قصرا وهو المجدل يبنى بآجر حذيت وقدرت على أمثلة وطبخت في الأطيمة وهو موقـــد النار فصارت توائم معتدلة ، ثم قال يلائم بينهن القرمد ، يعني بالقرمد الجص والجيَّار الذي يكون بين الآجر حتى يلتئم ويتلاصق ، فأما الخزف فلا يلائم بينها لانها مطبوعة على تساو فلا تحتاج الى خزف) (١) :

ولم يكن حظ الكميت من ثقة أبي بكر واعتماده بأكثر من حظ الطرماح ، فقد ذكر له بيتين ، خطأه في أولهما ، وانكر عليه ادخال الالف واللام على كلمة (ذو) ثم جمعها على (ذوون) قال : (وقول الكميت :

فلا أعني بذلك أسْفَلِيكُمْ ولكني أريد به الذَّوِيْنَا

فليس من كلامهم المعروف) (٢) . وفي تعليق الزبيدي توهين للغة الكميت ، واستيحاش منها .

ثم ذكر للكميت بيتاً آخر ، استدل به على استعمال (الحلواء) في غير المطعوم على نحو المجاز ، وليس هـذا بشاهد على صحة قول ، أو فصاحة لغـــة ، وانما هو شاهد على معنى كلمة : قال الزبيدي : (ويقولون - يعني العامة - لما اعتقد من العسل والسكر والرُّبّ حَلْوَة . . . والصواب حلواء بالمد . وهو اسم لكل ما يؤكل من الطعام حلوا . ولا تعني به الا النَّاطِف خاصة : وقد يستعار لغير مأكول وقال الكميت :

فمن قال للاعداء حلواء ملككم ونحن اليكم كالموالهة العُجُل

---

(١) لحن العوام : ٢٢٦ .

(٢) نفسه : ١٣ .

العُجُل جمع عَجُول وهي الفاقد) (١) .

يتضح من ذلك أن الزبيدي حافظ على مبدئه المتزمت ، ولم يلجأ بكثرة الى الطرماح والكميت .

٣ ـ الشعراء المولدون ، أو المحدثون : وقد أجمع اللغويون على أنه لا يحتج بكلامهم في اللغة والعربية (٢) ، وشددوا النكير على من حاول أن يخرق إجماعهم ويستشهد بهم ، وعدوا بشارا أول المحدثين ، وكان ابراهيم بن هرمة (٣) آخر الحجج وكانت وفاته في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري (١٧٦ هـ) :

ولما كان كتاب الزبيدي لغوياً ، وكان مؤلفه متشدداً يتمسك بالافصح ، ويدعو له ، فقد كان متوقعاً الا يحتج بشعر المولدين ، ولكن الكتاب ضم شاهداً واحداً لابن مناذر ، وهو مولد ، فكان هـذا الشاهد الواحد ، احدى الثغرات التي نفـذ منهـا ابن هشام اللخمي الى رد الزبيدي والطعن عليه . وللزبيدي في الاستشهاد ببيت واحد لابن مناذر أكثر من عذر ، من ذلك :

١ ـ كان ابن مناذر من فحول المحدثين ، وكان (أصحاب الشعر والاخبار وأهل النحو والغريب يكتبون عنـه) (٤) كما كان (يجالس سفيان بن عيينة ، وكان سفيان يسأله عن غريب الحديث ومعانيه ، فيجيبه عن ذلك) (٥) .

---

(١) لحن العوام : ١٣٠ ، ١٣١ .

(٢) الاقتراح : ٢٦ .

(٣) نفسه : ٢٦ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز : ١٢١ .

(٥) نفسه : ١٢١ .

وقد كان اللغويون يجيزون الاحتجاج بمن يثقون بفصاحته من المحدثين ، أو بمن يبلغ منهم مبلغ ابن مناذر من العلم بالعربية ، والمعرفة بنحوها وغريبها ، فقد احتج الزمخشري بأبي تمام لانه كان يعده من أئمة اللغة ورواتها (١) ، وابن هشام اللخمي نفسه قد أجاز الاحتجاج بشعر أبي تمام .

٢ ـ ومع أن ابن مناذر من فحول المولدين ، وممن أخذت عنهم اللغة ، فان الزبيدي لم يحتج به على فصاحة لغة ، أو صحة قاعدة ، وانما استدل بكلامه على معنى مفردة . قال الزبيدي : (والزَّرافَة الجماعة من الناس وغيرهم . قال محمد بن مناذر .

وتَرى خلفَــه زَرَافات خَيْــلٍ

جافِلات تَعْدُو كمثل الأُسُودِ) (٢)

وقد ذكر الزبيدي بيتاً آخر لمولد آخر ، هو عمارة بن عقيل ، ولكنه لم يذكره مستشهدا به أو محتجاً ، وانما ليرد عليه ، ويبين مافيه من لحن ، وفساد لغة ، قال الزبيدي : (ويقولون : سكرانة ، يبنونها على سكران . قال محمد : والصواب سكرى ، وسكران ، مثل ريّى وريَّان . وذكر يعقوب أن قوماً من بني أسد يقولون سكرانة ، وذلك ضعيف رديء ، ولبني أسد لغات يرغب عنها . وقال أبو حاتم لبني أسد في اللغة مناكير لا يؤخذ بها . وقال عمارة بن عقيل امرأة ريانة ، أنشدنا أبو علي :

ومِنْ ليلةٍ قد بِتُّها غيرَ آثمٍ بساجيةِ الحِجْلَيْن ريَّانةِ القلب

(١) الاقتراح : ٢٦ .

(٢) لحن العوام : ١٦٠ .

وكان أبو حاتم لا يثق بعربية عمارة هذا) (١) .

وفي تعليق الزبيدي على بيت عمارة ، ما يفصح عن أنه يضعّف لغته ، ويعد التكلم بها لحنا :

ولم ينسب الزبيدي جميع شواهده ، بل ساق طائفة منها دون عزوها إلى قائليها .

تشدد الزبيدي :

ظهر للغويين في أثناء قيامهم برصد اللغـــة وجمعها ، أن في كلام العرب المطرد والكثير والغالب والقليـــل والنادر والشاذ والضعيف ، فسجلوا كل هـذا ، واختلف موقفهم منه ، ففريق منهم كان متشدداً يتحرى أفصح اللغات ، ويلغي ما سواها ، كالاصمعي ، ومنهم من كان يجيز كل شيء قيل ، ويجعل الشاذ والفصيح واحداً كأبي زيد .

وقد روى ابن خالويه في شرح فصيح ثعلب قول أبي حاتم (كان الاصمعي يقول أفصح اللغات ويلغي ما سواها ، وأبو زيد يجعل الشاذ والفصيح واحداً فيجيز كل شيء قيل . قال : ومثال ذلك أن الاصمعي يقول : حزنني الأمر يحزنني ولايقول أحزنني . قال ابو حاتم : وهما جائزان ، لأن القراء قرأوا : لا يَحْزُنُهم الفَزَع الاكبر . ولا يُحْزِنُهم ، جميعاً بفتح الياء وضمها) (٢) . وقال الزبيدى عن أبي زيد (كان أبو زيد يتسع في اللغات . . . وكل ما اتسع في اللغات فهو شر) (٣) .

---

(١) لحن العوام : ١٦٢ .

(٢) المزهر : ١ / ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٣) طبقات الزبيدي : ١٨٢ .

اختلف موقف اللغويين من كلام العرب ، وانقسموا ازاءه فريقين فريق يتشدد ولا يتردد في نبذ كثير منه ، واهداره ، وفريق يحترم كل اللغات ، ويأخذ بجميع اللهجات ولا يرد منها شيئاً .

وكما اختلف موقف اللغويين من كلام العرب ، اختلف موقف النحاة منه ، فنحاة البصرة ضيقوا دائرة القياس ، وقصروه على ما توافرت شواهده وأمثلته ، أما المفرد المسموع ، أو القليل النادر ، فقد أبوا أن يقيسوا عليه ، أو ينسجوا على منواله ، في حين أن الكوفيين كانوا أبعد عن التشدد من البصريين ، (فهم يعتمدون على الشعر المصنوع ، والمنسوب لغير قائله ، دون أن يهتموا بالتمحيص ، ويكتفون بالشاهد الواحد ، فيبنون حكمهم عليه ، ويستنبطون القاعدة ، بل أنهم يرخصون بالقياس النظري على مقتضى الرأي اذا اعوزتهم الشواهد ، فيصلون الى القاعدة دون اعتماد على شاهد) (١) . والكوفيون اعتمدوا بشعر الاعراب الذين خالطوا الحضر ، ففسدت سلائقهم ، وبنوا أحكامهم عليها .

وحين ظهر مبدأ تنقية اللغة ، وتصدى الذين ألفوا في لحن العامة الى تثقيف الالسن ، وتقويم اعوجاجها ، لم يتفقوا على (مقياس محدد يقوم على أساسه الحكم بالصحة أو الخطأ ، فمنهم من سلك مسلكاً متشدداً بالوقوف عند ما سمع ، وعدم الاعتراف الا بالافصح ، وماعداه فهو خطأ) (٢) ، ومنهم من ذهب الى التساهل ، وتجويز النطق بالنادر والرديء مادام ذلك وارداً في لهجة من لهجات العرب ، ففي رأي المتساهلين أن الناطق (على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير

---

(١) القواعد النحوية : ٧٥ .

(٢) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة : ٤٧ .

مخطىء ، وان كان غير ما جاء به خيراً منه) (١) .

وكان المتساهلون من اللغويين يحتجون لمذهبهم ، ويؤيدونه بأقوال يعزونها لبعض اللغويين ، وهي أقوال تدعو للتساهل ، وتحض على الاخذ به ، أولئك اللغويين الذين نصبوا أنفسهم لتنقية اللغة ومحاربة اللحن : من ذلك ما رواه ابن هشام اللخمي ، أحد المتساهلين ، فقال : (روى الفراء ان الكسائي قال : على ما سمعت من كلام العرب ليس احد يلحن الا القليل . وقال الاخفش عبد الحميد بن عبد المجيد : أنحى الناس من لم يلحن أحداً . وقال الخليل : لغة العرب اكثر من أن يلحن فيها متكلم) (٢) .

وحكى ابن الجوزى ، في معرض الرد على المتساهلين ، قول الفراء (وكثير مما أنهاك عنه ، قد سمعته ، ولو تجوزت رخصت أن تقول : رأيت رجلان . ولقلت اردت عن تقول ذلك) (٣) يريد (أن) وهي اللهجة المعروفة بعنعنة تميم . ويعـــد ابن الجوزي ممن سلكوا سبيل التشدد فطرحوا كل لغة قليلة أو رديئة ، وحكموا باللحن على من ينطق بها .

ومن يتأمل تصويبات الزبيدي ، يجد أنه لغوي متشدد ، يُنَقِّر عن الافصح ، ويأخذ به ، ويدع ما سواه ، ويعده لحنا ، وان كان وارداً في لهجات العرب ، وجوّز بعض اللغويين النطق به . وقد وردت في كتابه نقول كثيرة عن الاصمعي ، وابن قتيبة والفراء ، وثعلب ، وهم معروفون بالتشدد ، وبالاخذ بالافصح .

---

(١) الخصائص : ٢ / ١٢ .

(٢) مخطوطة الرد على الزبيدي : ٧ .

(٣) تقويم اللسان : ٧٥ ، ٧٦ .

ويظهر تشدد الزبيدي في ما يلي :

١ ـ الأخذ بالافصح ، واطراح ما عداه ، وتخطئة العوام ان نطقت به . من ذلك « ويقولون لريحانة طيبة الريح (نَعْنَع) قال محمد : والصواب (نُعْنُع) بضم النونين » ثم قال : « وقد روى بعض اللغويين (نَعْنَع بالفتح ، والأول أفصح وأعرف » (١) ؛ وفي مادة « مينا » قال : « مينا بالقصر ، وميناء بالمد والقصر فيه أكثر » (٢) . وهو يمنع قول العامة (ذُبابة) لواحد الذِّبَّان ، بينما يذهب ابن مكي الى أن بعض اللغويين أجازوا ذلك (٣) ، كما يمنع (حلوى) بالقصر ، ويرى ابن مكي أنها (حلوى) و (حلواء) (٤) ويمنع قول العامة (دِفْتَر) بكسر أوله يرى أن الصواب (دَفْتَر بالفتح على مثال فَعْلَل) (٥) .

وفي اللسان (الدَّفْتَر والدِّفْتَر كل ذلك عن اللحياني حكاه عنه كراع) وكذلك يمنع قول العامة (قرقل) بالتشديد لثوب من ملابس النساء ويرى أن الصواب (قَرْقَلُ) خفيف (٦) . وجاء في التاج : (قرقل ويشدد لامه لغة في التخفيف حكاها ابن الاعرابي في نوادره) ، إلى غير ذلك مما سيرد عند الكلام على ردود اللغويين عليه .

(١) لحن العوام : ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) نفسه : ١٨ .

(٣) نفسه : ٣١ وتثقيف اللسان : ١٩٤ .

(٤) لحن العوام : ١٣٠ وتثقيف اللسان : ١٠٤ ،

(٥) لحن العوام : ١٥٦ .

(٦) نفسه : ١٨١ .

٢ ـ رفض بعض اللغات ، والحكم بأنها مردودة من ذلك (وزعم بعض اللغويين أن أهل اليمن يقولون (كُلْوَة) بالضم وذلك مردود) (١) ومنه أيضاً « وزعم بعض اللغويين أنه يقال له (القَرَنْقُول) قال محمد : ولا اعرف في كلام العرب ما على هـذا المثال أعني (فَعَنْلُول) » (٢) . ومنه أيضاً « وذكر يعقوب أن قوماً من بني أسد يقولون (سكرانة) وذلك ضعيف رديء ، ولبني اسد لغات يرغب عنها . . » (٣) .

٣ ـ الاخذ بالمسموع من دلالات الالفاظ ، وتخطئة العوام في تغييرهم تلك الدلالات ، على الرغم من امكان قياس استعمال العامة على نظيره في الكلام العربي ، فالمعروف في كلامهم أنهم يتجوزون في الاستعمال ، وينقلون دلالة الكلمة اذا كان من باب تسمية الشيء بما قرب منه أو ما كان من سببه كقولهم (نزل السماء) ويعنون المطر وقولهم (نزلت بالقوم) ويعنون بمكانهم ، الا أن الزبيدي يتمسك بالمسموع من معنى اللفظة ، ويرفض تغيير دلالتها ولو على هذا النحو الذائع في كلام العرب الفني خاصة ، مثال ذلك أنه يرفض قولهم (نزل اليوم شتاء كثير) (٤) يريدون المطر ، وقولهم (الكِيْر) يريدون الزِّقّ الذي ينفخ به الحداد ، ويرى أن (الكير) في اللغة هو موقد النار الذي يبنيه الحداد (٥) .

---

(١) لحن العوام : ٦٧ .

(٢) نفسه : ٦٥ .

(٣) نفسه : ١٦٢ .

(٤) نفسه : ٢٢٠ .

(٥) نفسه : ٢٣٦ .

وقد استغل ابن هشام اللخمي ، تشدد الزبيدي ، وتمسكه بالأفصح وعده ما سواه لحنا ، فتركز رده في الغالب على تجويز ما رفضه الزبيدى من وجوه القول ، لان تلك الوجوه مما تكلمت به العرب ورواه اللغويون .

موقفه من اللغويين :

لم يكن أبو بكر الزبيدي في كتابه (لحن العامة) راوية لأقوال غيره فقط ، بل كانت له في مواطن شتى من الكتاب آراء وتعليقات على ما يرويه ، وقد دلت مواقفه من اللغويين على سعة رواية ، واستقلال في الرأي ، ونزوع الى نقد الآراء نقداً مدعوما بالحجة ، مؤيداً بالدليل ولم يسلم من نقد الزبيدى أعلام الرواية اللغوية كأبي زيد والاصمعي والشيباني وابن قتيبة وأبي حاتم وسيبويه والقالي . لقد كان الزبيدي في لحن العامة واضح الشخصية ، بارزا لا يختبىء خلف الرواة ، بل يناقشهم ويقف منهم المواقف الآتية :

١ - قد يخطىء بعضهم ويقدح في صحة روايته ، مثال ذلك أنه رفض ما زعمه بعض اللغويين من أنه يقال للقَرَنْفُل (قَرَنْفُول) بقوله « ولا أعرف في كلام العرب ما على هذا المثال أعني (فعنلول) » .

ومن ذلك أنه يذهب الى أن جمع (جِرِّيئَة) هو (جَرَارِيء) ثم يقول (وذكر أبو زيد أن جمعه جَرَائِيء بهمزتين مخففتين ، وقال أبو حاتم : اجتماع الهمزتين في (جرائىء) غير مأخوذ به ولا مفلح . قال محمد : وهذا عندى غلط من أبي زيد لأن (جِرِّيئَة) فِعِّيلة وجمعه (فعاعيل) فلابد من تضعيف الراء في الجمع على ما ذكرنا وكأن أبا حاتم لم ينكر عليه الا اجتماع الهمزتين ، وأغفل

ما هو أحق وأجدر بالانكار من سقوط الراء ، وذلك لا وجه له ، ولا يجوز ، وقد روى أبو العباس المبرد ان ابن أبي اسحق كان يجمع بين الهمزتين ويخففهما في هذا المثال وغيره ويقول انما هو كسائر الحروف ويجمع خَطِيئَة على خَطَائِيء وكذلك ما أشبهها) (١) .

وواضح أن الزبيدي يخطيء أبا زيد ، ولا يرتضي ما اعتل به أبو حاتم لرفضه (جَرَائِيء) جمعا (لِجِرِّيئَة) من أن اجتماع الهمزتين غير مأخوذ به ولا مفلح ، بل يرى أن توالي همزتين والجمع بينهما في مثال جمعي قد ورد في (خَطَائِيء) وان علة خطأ (جَرَائِيء) هو أن مفرده مضعّف الراء ، ولابد من ورودها مضعّفة في جمعه أيضاً :

ومن ذلك أن الاصمعي وأبا زيد ذكرا أن جمع (قُلَيْنِسِيَة) وهي لغة في (قَلَنْسُوَة) (قَلَاسِيّ) فرد عليهما الزبيدى بقوله (لا يجوز أن يكون قَلَاسِيّ جمع قُلَيْنِسِيَة كما ذكر الاصمعي وأبو زيد لأن قُلَيْنِسِيَة مصغرة ولا يكون جمعها الا قُلَيْنِسِيَات على التحقير ، فأما قَلَاسِيّ فجمع قَلَنْسَاة وقَلَنْسُوَة) (٢) .

ومن ذلك أن الزبيدى يروى لكلمة (حِدَأَة) جموعا هي (حِدَأ) و (ثلاث حِدْآت) و (حِدْآن) ثم يقول (وقرأت في كتاب الأدب في جماعة الحِدَأَة (حِدَآن) ، فرد علي أبو علي) : (حِدّآن) بتشديد الدال ، وراجعته فقلت له : ان التشديد لا أصل له في القياس ، فقال : هو من الجمع الشاذ ، ولا أحسب الذي ذكر

---

(١) لحن العوام : ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) نفسه : ٢٦ ، ٢٧ .

الا غلطا) (١) .

٢ - وقد يقف مما يروى موقف المفاضل فيجنح لرأى من الآراء التي يعرضها ويختاره ، ثم يعلل ذلك الاختيار ويحتج له ، من ذلك المثال التالي : (ويقولون للسيف صِمْصَامة وصِمْصَام فيكسرون . قال محمد : والصواب صَمْصَامة وصَمْصَام بالفتح ، وقدتقدم قولنا ماكان من المضاعف الرباعي على هـذا المثال فلا يجيء الا مفتوح الاول الا أن يكون مصدراً فيكسر نحو (القِلْقال) و (والزّلزال) ، وأهل الكوفة يَعُدُّون ما جاء من نحوهذا ثلاثياً ويشتقونه منه ويذهبون الى أن صَمْصَامة من صمم ولكنهم كرهوا اجتماع الامثال ففرقوا بينهما بحرف مثل الاول وكذلك كَفْكَفْت وصَلْصَلْت وحَلْحَلْت . والبصريون يعدون كل هذا رباعيا .

وقول الكوفيين عندي أولى لأن الاشتقاق يحكم بصحته والقياس يشهد له) (٢) .

والحق أن كتاب (لحن العامة) مملوء بتعقيبات الزبيدي التي تدل بوضوح على نضج شخصيته ، وثقته بعلمه ، وتنم على سعة حفظ وغزارة اطلاع ، فالعبارات التالية مثـــلا لاتصدر الا عن الثقات والاثبات : (وليس شيء في الكلام على مثال مُفْعَال بضم الميم) (٣) و (ولا يُعلَم في الكلام بناء على مثال فُعْيُول اسما ولاصفة) (٤) و (يقولون (كاغَظ) بالظاء المعجمة ، قال محمد : والصواب (كاغَد) بالدال غير

---

(١) لحن العوام : ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) نفسه : ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٣) نفسه : ١٣٠ :

(٤) نفسه : ١٥١ .

المعجمة أخبرنا به أبو علي ، ولا أدرى ذلك من غيره) (١) .

الزبيدي والقياس والسماع :

الزبيدي عالم يأخذ بالقياس في مواطن كثيرة من كتابه ، وقد دعاه القياس إلى رفض مارفض من صيغ ، وتفضيل ما فضل من آراء والامثلة على ذلك كثيرة ، وقد مرت بنا طائفة منها ، ومن ذلك رفضه قول الكميت :

فلا أعني بذلك أسفَلِيكم   ولكني أريد به الذَّوِيْنا

فقد قال عنه (وكما لا يجوز أن تقول هذا الذو والذوان فتفرد فكذلك لا تقول الاذواء ولا الذوون لأن ذو لا تكون الا مضافة وكذلك جمعها) (٢) .

ومن ذلك تفضيله رأى الكوفيين في عدهم (زَلْزَل) و (صَلْصَل) و (حَلْحَل) أفعالا ثلاثية الاصول (زلل ، صلل ، حلل) ثم زيد فيها الحرف الثالث مثل الاول كراهة اجتماع الامثال خلافاً للبصريين الذين يعدونها رباعية ، وقد بنى تفضيله على القياس فقال (وقول الكوفيين عندي أولى لأن الاشتقاق يحكم بصحته والقياس يشهد له) (٣)

وهو يرى أن تصغير (اصْطَبْل) هو (أُصَيْطِب) وذلك (لأن القياس أن يأخذ التصغير والجمع حقهما ثم يرتدعان عنه ،

---

(١) لحن العامة : ١٥٢ .

(٢) نفسه : ١٣ ، ١٤ .

(٣) نفسه : ١٣٧ .

ويحذف ما بعد الحرف الذي ارتدعا عنده) (١) : والزبيدى يقيس جمع (هِمْيان) وهو (هَمَايين) على جمع (سِرْحَان) (٢) .

ولكن الزبيدي يهتم بالسماع أيضاً ، ويأخذ به ، ويشترطه لسلامة القياس وصحته ، فهو لا يأخذ بقياس لا يؤيده السماع ولا يعضده ، من ذلك أن (أفْعِلَة) يأتي جمع قلة لـ (فِعَال) اذا كان مذكراً مثل (حمار) و (أحمرة) و (ازار) و (آزرة) و (لسان) و (ألْسِنَة) فيمن ذكر اللسان ، ثم يقول (ومن هذا الباب مالا يأتي له جمع على أدنى العدد مثل كِتاب وكُتُب ، ولجام ولُجُم ، ولم يقولوا ألْجِمَة وأكْتِبَة ، وكان القياس لو قيل ، وقد روى بعضهم (ألْجِمَة » (٣) .

ومن ذلك أن الزبيدي يرى أن مصدر (لَجَّ) هو (لَجَاج) و (لَجَاجَة) وأما قول العامة (لِجَاجَة) فخطأ ويحتمل أن يكون من لاججته لِجَاجا ولِجَاجة مثل راميته رِماء ورِمَايَة ، ولكنه يقول « ولم أسمعه والاول أصح) (٤) .

ويقف الزبيدي من المسموع موقف علماء البصرة ، فهو لايلتفت لكل مسموع ، بل يشترط فيه أن يجيء بواسطة نقلة صادقين ثقات ، لم تفسد لهم سليقة ، ولم تهن فيهم ملكة ، فالقياس مثلا لا يأبى أن يقال (اللهم صلى على محمد وآله) باضافة (آل) الى الضمير ، كما ذهب اليه ابن السيد البطليوسي فى الاقتضاب ، ولكن الزبيدي رفض

---

(١) لحن العوام : ١٣٤ :

(٢) نفسه : ٤٧ :

(٣) نفسه : ٥٦ .

(٤) نفسه : ١٥٦ .

ذلك متابعاً الكسائي وابن النحاس بعده ، مستنداً الى حديث الصلاة على النبي (ص) (قولوا اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل ابراهيم انك حميد مجيد) (١) .

ثم قال (وفي هـذا الحديث الذي ذكرنا دلالة على ما ذكره أبو جعفر مع أنا لم نره مضافاً الى مضمر لمن يوثق بعربيته) (٢) .

وهذه نزعة بصرية فقد تقدم القول بأن البصريين لم يأخذوا عن جميع العرب بل اهدروا كثيراً من الكلام العربي الذي أثر عن قبائل كثيرة لم تحظ باحترامهم ولم تنل ثقتهم ، وانما كانت عندهم متهمة في فصاحتها ونقاء ملكاتها . . . والزبيدي ينهج هذا النهج ، ويشدو شَدْوَ البصريين في عدم الأخذ بكل ما جاء عن العرب ، ويقتصر على من يوثق بعربيته منهم على حد تعبيره .

والزبيدى يتحرج من القياس ، ويبطله ، وان كان صحيحاً ، اذا كان اللفظ متعلقاً بصفة الله تعالى.اذ أن صفات الله مما نص عليـه في الكتاب وفي الاثر ، ولا تجوز صفته بغير ما وصف به نفسه في القرآن والحديث ، فان لم تسمع الصفة ، لم يجز اطلاقها ، ولو صحت في القياس .

من ذلك أن الزبيدى رفض استعمال (الازلي) صفة لله سبحانه فقال : (ولا يجوز لأحـد أن يصف الله عز وجل بغير ما وصف به نفسه في محكم كتابه وحيا ، أو ما ثبت به الخبر عن رسوله (ص) ولو صحت الكلمة في الاشتقاق ، وتمكنت في التصريف) (٣) .

---

(١) لحن العوام : ١٤ ، ١٥ .

(٢) نفسه : ١٥ .

(٣) نفسه : ١١ .

ومن مظاهر تمسكه بالسماع ، أنه يتقيد بالمسموع من معاني المفردات ، فلا يبيح للعامة في زمانه تخصيص العام من دلالات الالفاظ كقولهم (ريحان) للآس خاصة ، وهو في اللغة كل نبات طيب ، وقولهم « اللحاف » للغطاء الذي يوضع على السرير خاصة ، وهو كل ما يلتحف به في حال قيام أو قعود أو اضطجاع ، وقولهم « وادى » لمجرى النهر خاصة ، الى غير ذلك من ألفاظ تطورت دلالتها على سبيل تخصيص العام ، فمنع الزبيدي ذلك ، ووقف بوجهه ، وعده لحنا يجب أن تبرأ الألسن منه .

وموقفه من المسموع الشاذ ، هو موقف علماء البصرة ، اذ أنه يحفظه ، ويمنع أن يقاس عليه ، كقوله : (ويقولون هو مَبْطُول اليد قال محمد : والصواب مُبْطَل من قولك أبطله الله فبطل إلا أن يكون خرج مخرج مجنون ومزكوم وهذا مما يحفظ ولا يقاس عليه) (١) .

يتضح مما تقدم ، أن الزبيدي يتحرى في السماع ثقة النقل ، وفصاحة الأصل ، ويعزف عن الاخذ باللغات الرديئة والمرذولة وفي القياس يعتمد على الكثرة والاطراد ، ويجعل النادر والقليل شاذاً يحفظ ولا يقاس عليه .

---

(١) لحن العامة : ١٦٩ .

لا تقتصر أهمية الكتاب على أنه وعاء حفظ طائفة من أقوال اللغويين ، وآرائهم في بعض المشكلات اللغوية ، ولا تقف عند مناقشة الزبيدي للكثير من تلك الآراء ، والانتهاء الى رفض بعضها أو تضعيفه وترجيح الآخر أو الاخذ به ، بل تكمن أهميته في أثره الواضح في عدد من الكتب التي ألفت في موضوعه ، أو في غير موضوعه ، واذا كانت أهمية الكتب تقاس بما تحرك من نشاط علمي ، وبما ينشأ حولها من جدل وخلاف ، فان كتاب (لحن العامة) كان على جانب كبير من الأهمية ، نظراً لكثرة من نهل منه ، من المؤلفين في لحن العامة من جهة ، ولما أثاره مذهب الزبيدي فيه من ردود وخلاف من جهة أخرى . فأما الذين ألفوا في لحن العامة بعد الزبيدي واقتبسوا نصوصا كثيرة من كتابه ، وكان لبعضهم خلاف معه ، وردود عليه فهم :

١ - ابن مكي الصقلي في كتاب (تثقيف اللسان وتلقيح الجنان)

وقد قصد ابن مكي الصقلي المتوفى (٥٠١ هـ) من كتابه (أن يكون تثقيفا للسان بما يضم من تصحيح للاخطاء اللغوية التي شاعت بين العامة والخاصة في صقلية في القرن الخامس الهجري وان يكون تلقيحاً للجنان بما تضمنه من شرح لما يجرى على الألسنة من أمثال سائرة ومن تفسير طائفة من أبيات الشعر ظاهر لفظها مخالف لمعناها الى غير ذلك من الموضوعات التي اشتمل عليها الكتاب) (١) :

ففي الكتاب خمسون بابا أفرد ثلاثة وثلاثين بابا منها للحن

(١) تثقيف اللسان : مقدمة المحقق : ١٤ .

العامة والخاصة وقـد عنى بالخاصة ، المتخصصين من العلماء كالفقهاء والقراء وأهل الحديث وأهل الطب ، والوثائق ، والمغنين ، وأما باقي الابواب فقد تضمنت موضوعات شتى ، ومعارف كثيرة لا علاقة لها باللحن وتصحيحه . وليس ابن مكي في كتابه باللغوي المتشدد الذى يقول بالافصح ويطرح ماعداه ، كما رأينا الزبيدي في تصويباته ، بل يذهب الى قبول أية لغة نطق بها العرب ، وان كانت رديئة ، وكان غيرها خيرا منها وأفصح ، فهو يأخذ بمبدأ التساهل ، ويوسع دائرة الصواب اللغوي فيجيز للعامة أن يستعملوا لغـات القبائل التي عدها الزبيدي رديئة ، وخطأ الناطقين بها ، كما سيأتي ذلك .

ويختلف ابن مكي عن سلفه الزبيدى في طريقـة معالجة المواد الملحونة وتصويبها ، فهو ينزع إلى الايجاز غالباً ، ويكتفي بذكر الخطأ ووجه الصواب فيه ، على حين وجدنا الزبيدى يطيل الكلام على اللفظة ويشقق القول فيها :

رجع ابن مكي الى كتاب « لحن العامة » ، فاقتبس نصوصاً كثيرة منه ، وأخذ برأى الزبيدي في تصحيح طائفة من الاخطاء التي اشترك فيها أهل صقلية والاندلس ، الا أنه لم يتابعه فى بعض آرائه وانما خالفه في مفردات منها :

أ ـ ذُباب وذُبابة : ذهب الزبيدي الى أنه لا يقال الا ذُباب كغُراب للذكر والانثى ولا يقال ذُبَابة (١) .

اما ابن مكي فقد أجاز ذبابة قال . (ويقولون : ذِبَّانَة والصواب ذُبَابَة وجمعها ذُباب وجمع الذباب أذِبّة وذِبّان كغراب وأغْرِبة

---

(١) لحن العوام : ٣١ وما بعدها :

وغِرْبان) (١) .

ب ـ أردف ، ارتدف : ذهب الزبيدي الى أن قولك (أردفت الرجل) أي صرت له ردفا وركبت خلفه ، وان أردت أنه صار خلفك تقول (ارتدفته) ، وأما ابن مكي فقد ذهب الى أن (اردفت الرجل وزانه اركبته خلفي) ، ورَدِفْتُه وزانه ركبت خلفه وقال : « اردفت من الأضداد ، تقول أردفته أي جعلته ردفاً واردفته أي كنت له ردفاً) (٢) .

٢ ـ المدخل الى تقويم اللسان وتعليم البيان :

مؤلفه محمد بن أحمد بن هشام اللخمي (٣) المتوفى في حدود (٥٧٠ هـ) .

ذكر له السيوطي في البغية كتاب (المدخل) وكتاب (لحن العامة) وكأنهما كتابان . والحقيقة انهما كتاب واحد :

ولكتاب ابن هشام الموسوم بـ (المدخل الى تقويم اللسان) نسختان خطيتان ، كلتاهما في مكتبة (دير الاسكوريال) تحمل الاولى عنوان (كتاب الرد على الزبيدي في لحن العوام لابن هشام) وهي برقم (٤٦) وتحمل الثانية عنوان (كتاب المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان مما عني بجمعه وتأليفه الفقيه ... ابن هشام اللخمي) ورقمها (٩٩) .

---

(١) تثقيف اللسان : ١٩٤ .

(٢) لحن العوام : ٢٥٤ وتثقيف اللسان : ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

(٣) انظر في ترجمته : الوافي بالوفيات : ٢ / ١٣١ وبغية الوعاة ١٩ ، ٢٠ ومجلة معهد المخطوطات العربية المصورة ـ المجلد الثالث ـ الجزء الاول لعام ١٩٥٧ :

ويعزو الدكتور الاهواني الاختلاف في عنوان النسختين الى أن المؤلف لم ينص فى مقدمته نصا صريحاً على العنوان الذي تخيره لكتابه ، وجاء المحدثون فزادوا الأمر التباساً حين وهموا أنهما كتابان لا علاقة لاحدهما بالآخر ، أو أن احدهما تكملة للاخر (١) .

وكتبت الى مكتبة الاسكوريال طالبا تصوير النسخة التي تحمل عنوان (الرد على الزبيدى) فوصلت الي ، وعملت على تكبيرها ، فوجدت ابن هشام بدأ كتابه بخطبة قصيرة لا تتجاوز بضعة أسطر ، دعا فيها طالب اللغة الى تحرى الدقة في النطق ، وتصحيح ما حرفته العامة ، ونطقت به على غير ما تكلمت به العرب ، ثم أنحى باللائمة على بعض خاصة زمانه ، وقد استعمل في كلامه (الخِرْبِز) ، فسأله بعض الحاضرين عنه ، فقال هو البطيخ ، فنطقها بفتح الباء ، وكان الأولى به أن يصحح المستعمل القريب ويضبطه ، قبل أن يعمد إلى الوحشي الغريب فيستعمله .

ثم شرع ابن هشام في مناقشة الزبيدي ، وانتقل منها الى ابن مكي فناقشه وذكر أوهامه فى كتابه المسمى بـ (تثقيف اللسان) وقد استغرق الرد عليهما عشرين ورقة ، ثم انتقل إلى باب جديد جعل عنوانه (باب ماجاء عن العرب فيه لغتان فأكثر فاستعملت العامة منها اضعفها وربما استعملت أقواها وربما عدلت عن الصواب في ذلك ونطقت باللحن) :

وجاء بعد ذلك باب آخر عنوانه (باب ما تلحن فيه العامة مما لا يحتمل التأويل ولا عليه من لسان العرب دليل) .

---

(٤) مجلة معهد المخطوطات ـ المجلد الثالث : ١ / ١٣١ :

وحين انتهى من ذلك ، ختم الكتاب بموضوع قال في صدره (ومما تمثلت به العامة مما وقع في اشعار المتقدمين والمحدثين تلقوها عن الفصحاء وهم لا يعرفون الاشعار التي أخـذت منها وربما حرفوا بعض ألفاظها) . وينتهي الكتاب في ورقة (٧٢) :

وقـد عد الاهواني كتاب ابن هشام اكثر وفاء بالغرض ، من كتاب سابقيه الزبيدي وابن مكي ، كما عده أقرب الى تحقيق مانشتهيه من معرفة اللغات العامية قديماً في الاقطار العربية المختلفة ، ذلك لأن الزبيدي وابن مكي قصرا كتابيهما على اصلاح ما أفسدته العامة من الالفاظ العربية ، ولم يتجاوزا ذلك الى بيان الالفاظ الاعجمية التي دخلت عامية زمانهما ، وما جاء في كتابيهما من الفاظ أعجمية ، فهي ألفاظ عربت في المشرق منذ عهد مبكر ، ودخلت في الكلام العربي ، واستقرت في المعجمات ، ولم يذكراها الا ليصححا نطقها كما ضبطتها المعجمات (١) :

لم يعن الزبيدي بما دخل لغة العامة فى الاندلس من ألفاظ أعجمية تسربت من الرومية المحلية (الاسبانية فيما بعد) ولم يلتفت ابن مكي بعده الى ما دخل لغة العامة فى صقلية من الكلمات الرومية (الايطالية فيما بعد) لانهما كانا يتوخيان اصلاح المفسد من الكلام العربي ، ورد الناطقين به الى الاستعمال الصائب كما دونته المعجمات ونصت عليه كتب اللغة .

أما ابن هشام اللخمي فقد كان أدق رسماً لعامية زمانه ، واكثر احاطة بها ، لانه اثبت في كتابه عددا من الألفاظ الاعجمية المحلية التي دخلت لغة العامة في الاندلس والمغرب ، متسربة اليها من جيرانهم

(١) مجلة معهد المخطوطات ـ المجلد الثالث : ١ / ١٣٧ .

أصحاب اللغتين الاعجميتين : الاسبانية والبربرية .

ومما انفرد به ابن هشام اللخمي عن صاحبيه انه تجاوز معالجة الكلمات المفردة التي أصابها التحريف ، الى معالجة الامثال التي جرت بها ألسنة العامة في عصره ، فنبه الى أصولها ، والى الاشعار التي أخذت منها ، ونبه الى ما دخل بعض الفاظها من تحريف .

ابن هشام والزبيدي :

لقد مر بنا أن الذين ألفوا في لحن العامة ، لم يكونوا متفقين على مقياس محدد يحكمون به على الخطأ والصواب ، وانما كانوا فريقين :

الأول متشدد ، لا يكتفي بمحاربة اللحن ، بل يدعو الى استعمال أفصح ما وعت اللغة من صيغ ومفردات ، وينسب الى الخطأ من يستعمل اللغات الضعيفة أو المغمورة ،

ولا شك ان هذا الفريق من اللغويين لا يحترم الا لغة اعراب البوادي ، الذين لم ينزلوا الحواضر والارياف ، التي من شأنها أن تفسد الالسن بسبب من يقطنها من الاعاجم .

والثاني وهو فريق المتساهلين الذين كانوا يترخصون في قبول اللهجات واللغات ولا يرفضون شيئاً منها . وكان ابن هشام من هـذا الفريق المتساهل . فالذي يتأمل ردوده على الزبيدي يجدها متركزة في تلك الالفاظ التي كان للعرب فيها اكثر من لغـة ، فتخير الزبيدي أعلاها ، وخطأ عامة زمانه لاستعمالهم الضعيف ، أو غير المشهور من تلك اللغات . أما ابن هشام فقـد نعى على الزبيدي تشدده ، وأنكر عليه تمسكه بالافصح ، وأجاز كثيراً مما نهى العامة عنه ، وحظر عليهم

المنطق به ، وقد صرح بمذهبه هذا في اكثر من موضع من كتابه ، فقال : « وما تكلمت به العرب ووقع في أشعارها واخبارها ونقله أهل الثقة عنها لا تُلَحَّن به العامة ، وان قلت شواهده وضعف قياسه » (١) وقال : « فلا معنى لانكاره مع نطق العرب به وان كان لغة قليلة » (٢) .

وقد حاول ابن هشام أن يحتج لمذهبه اللغوي ، فذكر أقوالا ترجح التساهل ، وتحض اللغويين عليه ، فقال : « ومن اتسع فى كلام العرب ولغاتها لم يكد يُلحّن أحدا ولذلك قال ابو الخطاب عبد الحميد ابن عبد المجيد : أنحى الناس من لم يلحن أحدا .

وقال الخليل رحمه الله : لغة العرب اكثر من أن يلحن بها متكلم . وروى الفراء أن الكسائي قال : على ما سمعت من كلام العرب ليس أحد يلحن الا القليل » (٣) .

ويبدو لي أن ابن هشام لم يكن وحده في هذا الاتجاه بين الاندلسيين وانما سبقه اليه ابن السيد البطليوسي (٥٢١ ﻫ) الذي أنحى « بشدة اللائمة على ابن قتيبة لأنه احتضن مذهب الاصمعي المتطرف في تنقية اللغة دون أن يُعْنى بمذاهب الثقات الآخرين من علماء اللغة ولو على سبيل العرض فحسب » (٤) .

فابن هشام اذن . تأثر ابن السيد ، ونهج نهجه ، فلم يتطرف

---

(١) مخطوطة الرد على الزبيدي : ٣ .

(٢) نفسه : ٤ .

(٣) نفسه : ٧ .

(٤) العربية : ٩١ .

تطرف الزبيدي ، ولم يرفض مارفضه من صيغ والفاظ ، لانها مما تكلمت به العرب ، وجاءت به الرواية :

رد ابن هشام اللخمي على الزبيدى في اثنتين وستين مفردة ، كان الزبيدي قد عدها من اللحن ، فجعلها اللخمي من الفصيح الذى يجب الا تلحن العامة به .

ومن الأمثلة على ردوده على الزبيدي :

١ - الصّارِى :

ذكر الزبيدي عن الاصمعي أن « الصّارى المَلاّح ، وجمعه (صُرّاء) على غير قياس » فعلق الزبيدى - وقد وهم - على مقالة الاصمعي بقوله : « وفُعّال من الأبنية التى تكون جمعا لفاعل مثل قائم وقُوّام ، وصائم وصُوّام وضارب وضُرّاب ، وقد غلط الاصمعي فيما رواه » (١) .

فرد اللخمي على الزبيدي قائلا : (ليس رد أبي بكر على الاصمعي بشيء . لأن الاصمعي انما بنى على الجمع المعهود في (فاعِل) من المعتل اللام ، وهو مخصوص بـ (فُعَلَة) أو (فُعَّل) نحو ماش ومشاة ، وقاض وقضاة ، ورام ورماة ، وغاز وغُزّى ، وعاف وعُفّى وانما كان ينبغي أن يكون (صُرّاء) على أحدهما فلما لم يأت على أحدهما جعله شاذاً . وقول أبي بكر ان فُعّالاً من الأبنية التي تكون جمعاً لفاعِل ، انما ذلك في البناء الصحيح اللام نحو ضارب وضُرّاب وقائم وقُوّام ، وصائم وصُوّام ، وأما من بناء ماش وقاض فلم يأت

---

(١) لحن العوام : ٢٢٤ .

الا شاذاً نحو صراء) (١) .

٢ ـ سكرانة :

قال ابن هشام ينقـل عن كتاب الزبيدي ويرد عليه : (وقال أيضا ـ يعني الزبيدى ـ ويقولون سكرانة يبنونها على سكران والصواب سكْرى وسكران مثل ريّى وريان وذكر يعقوب أن قوماً من بني أسد يقولون سكرانة . قال الراد : فاذا قالها قوم من بنى أسد فكيف تلحن بها العامة ، وان كانت لغة ضعيفة ، وهم قـد نطقوا بها كما نطقت بعض قبائل العرب) (٢) .

وعلى الرغم من نقد ابن هشام اللخمي للزبيدى ، فقد اعتمد على كتابه ، ونقل منه كثيراً ، ويتضح لنا ذلك في صفحات عدة من كتاب ابن هشام (٣) :

٣ ـ كتاب (أغلاط الضعفاء من الفقهاء) لأبي محمد عبد الله ابن برى المصري (ت ٥٨٢ هـ) . وقد نشر (تورى) هذا الكتاب عام ١٩٠٦ في الكتاب التذكاري لنولدكه (٤) . وتتصل احـدى نسخه الخطيـة بالنسخة المخطوطة الوحيدة لكتاب (لحن العامة) للزبيدي المحفوظة بمكتبة رئيس الكتاب باستانبول :

نقل ابن بري في كتابه هـذا (طائفة من تصحيحات الزبيدي .

---

(١) مخطوطة الرد على الزبيدي : ٩ .

(٢) نفسه : ١٠ وانظر لحن العوام : ١٦٢ .

(٣) انظر الصفحات ٥٨ وما بعدها حتى ٦٣ من مخطوطة « الرد على الزبيدي » .

(٤) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ؛ ٧٠ .

وان لم يذكر صراحة انه نقل عن الزبيدي بل ذكر انه نقل الفاظه مما ذكره المتقدمون من علماء أهل اللغة) (١) .

٤ ـ كتاب (تصحيح التصحيف وتحرير التحريف) لصلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤ ﻫ) :

نقل الصفدي في هذا الكتاب اكثرمادة كتاب (لحن العامة) للزبيدى ورمز له بالحرف (ز) . وقد نبه الدكتور رمضان عبد التواب محقق كتاب الزبيدي الى المواد التي نقلها الصفدي من الكتاب وكانت تلك النقول والاقتباسات خير عون له في التحقيق ، واصلاح ما ابتليت به النسخة الوحيدة المخطوطة من خلل وتحريف .

كما استضاء الدكتور عبد العزيز مطر أيضاً بكتاب الصفدي ، وقابل به النسخة المخطوطة نفسها ، حين تولى تحقيقها ، وعده نسخة ثانية لها ، الا أنه لاحظ أن الصفدي كان يكتفي في حالات كثيرة بنقل التصويب دون نقل الشواهد وغيرها مما يتصل بالمواد . وما زال كتاب الصفدي مخطوطا (٢) .

٥ ـ الجُمانة في ازالة الرطانة :

وهو كتاب صغير الحجم ، حرره لغوي مجهول من علماء القرن التاسع الهجري :

يبدو أنه (كان اما من أبناء تونس سكن حيناً بلاد الاندلس وخاصة غرناطة ، أوأنه من مهاجري الاندلس الى البلاد التونسية) (٣)

---

(١) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة : ١١٣ .

(٢) مقدمة لحن العوام : ٣٣ ولحن العامة فى ضوء الدراسات : ٨٨ ، ٨٩ .

(٣) مقدمة المحقق : م .

ولذا اكثر من ذكر أغلاط عامية الاندلس ، وأخذ بآراء الزبيدي في تصويب تلك الاخطاء ، ولكن المؤلف انصرف في اكثر الكتاب الى اصلاح أخطاء لهجة الخطاب التونسية ، وتقويم مابها من اعوجاج .

قسم المؤلف كتابه على أربعة عشر باباً ، الا أنه لم يرتب المواد داخل كل باب حسب قاعدة معينة ، بل ساقها دون نظام أو ترتيب . وطريقته في العرض هي أن يذكر عنوان الباب ، ثم يسوق الكلمات المفسدة ، مسبوقة كل منها بعبارة (من ذلك قولهم) ومقفوة بكلمة (والصواب) ، وقد يعزز تصويبه ببعض الشواهد من القرآن الكريم أو الحديث أو الشعر .

وأما حين يكون الصواب (اشهر من أن يستشهد عليه) (١) ، فلا يأتي بشاهد . وما وقع في الكتاب من شعر لبعض المولدين فانه لم يكن على سبيل الاستشهاد به بل لتمليح الكتاب وتحليته كما أشار المؤلف الى ذلك فى خطبته . واليك مثالا يوضح ما ذكرنا من خصائص الكتاب وطريقته :

(باب ما جاء مفتوحا وهم يكسرونه :

من ذلك قولهم : يوم السبت بكسر السين . والصواب فتحها .

ومن ذلك قولهم : اعرابي بكسر الهمزة والصواب فتحها ، فيقال أعرابي بفتح الهمزة لأنه منسوب الى الاعراب قال تعالى : (قالت الاعراب آمنا) (٢) .

---

(١) متن الجمانة : ١ .

(٢) الجمانة : ٥ .

ونلاحظ أن مؤلف الجمانة قد فعل أحياناً ما فعله الزبيدي فذكر المعنى الذى تؤديه الكلمة المفسدة ، وهو معنى لا يريده العامة طبعا وانما يريدون المعنى الذي كان للكلمة قبل افسادها وتحريفها ، مثال ذلك (ومن قولهم : بكر للجارية التي لم تفتض - بفتح الباء - فيحرفونه لأن البكر بالفتح انما هو الفتى من الابل والصواب بكر بكسر الباء) (١) .

وقد نقل المؤلف عدداً من تصويبات الزبيدي ، ناسبا بعضها اليه ومهملا نسبة البعض الآخر ، فمما نقله وعزاه المواد الآتية :

فى باب ما جاء مكسوراً والعامة يضمونه قال المؤلف : (قال الزبيدي : ومن ذلك الذِّبّان بكسر الذال ، والعامة تضمه والصواب الكسر لأنه جمع ذُباب فهو كغُراب وغِرْبان .

ومن ذلك قولهم : اخضر مُسَنّي بضم الميم الذي أشبع خضرة ، قال الزبيدي : والصواب بكسر الميم لأنه منسوب الى المِسَنّ الذي يشحذ عليه أي في لون المِسَنّ) (٢) .

وفى باب ما يبدلون فيه بعض الحروف ببعض ، قال المؤلف : (ومما ذكر الزبيدي في هذا الباب قولهم لما طحن غليظا : الدَّشيش ، قال : والصواب الجَشيش بالجيم) (٣) وهوهنا مطمئن لرأي الزبيدي في هذه الكلمة ، ومما نقله من لحن العامة ولم يعزه قوله : (ومن ذلك قولهم :

---

(١) الجمانة : ١١ .

(٢) نفسه : ١٣ .

(٣) نفسه : ٢١ .

له زيّ حسن ، بالفتح ، والصواب زيّ بالكسر) (١) وقوله (ومن ذلك قولهم حُك وحُكّة بالكاف لنوع من الاوعية والصواب حُقّ وحُقّة بالقاف والكاف) (٢) .

(ومن ذلك قولهم : قِيح لمدة المياه الخارجة من الجرح بكسر القاف والصواب قَيح بفتحها ويقال له الوَعْي) (٣) وقوله (ومن ذلك قولهم : لحم نَيْ بفتح النون والصواب نِيء بكسر النون والهمزة) (٤) .

فهذه المواد مقتبسة من كتاب (لحن العامة) لتقارب عبارة المؤلف وعبارة الزبيدي فيها ، الا أن صاحب الجمانة نقل التصويب فقط ولم ينقل ما استطرد اليه الزبيدي من شواهد وأمور أخرى تتعلق بالمواد (٥) :

٦ - (شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل) لشهاب الدين محمود بن محمد بن عمر الخفاجي الحنفي ، قاضي القضاة المصري (ت ١٠٦٩ هـ) :

نقل الخفاجي في هذا الكتاب كثيراً من تصحيحات الزبيدي ، فصرح بالنقل حينا وترك التصريح حينا آخر ، ولم يكتف بتسجيل آراء الزبيدي وتصويباته بل كانت له على بعضها تعقيبات واضافات ، ومن أمثلة نقوله قوله (٦) : (أزلي والأزل ، وأزليته ، كله خطأ لا أصل

(١) الجمانة : ١٢ .

(٢) نفسه : ٢٣ .

(٣) نفسه : ٩ .

(٤) نفسه : ١٠ :

(٥) لحن العوام : ٩١ ، ٦٨ ، ١٨٥ ، ١٠٣ :

(٦) شفاء الغليل : ٦٠ وانظر لحن العوام : ١١ .

له في كلام العرب ، وانما يريدون المعنى الذي في قولهم لم يزل عالما ولا يصح ذلك في اشتقاق ولم يسمع وان أولع به أهل الكلام . قاله الزبيدي) ومن ذلك (حارة هي المحلة لأن أهلها يحورون اليها أي يرجعون جمعه حارات قاله الزبيدي وبعض العوام جمعها على حواير وهو خطأ أيضاً) (١) .

ووقع الخفاجي في الوهم الذي في كتاب الزبيدي والمتعلق بمادة (حائر) ، فنقل عنه شرح المادة اذ قال : (وهذا حائر وهو الحائط أو المكان المطمئن والعامة تقول له حَيِّر وهو خطأ) (٢) :

وستكون لنا ، بعد قليل ، وقفة عند هذا الوهم الذي تسرب من كتاب الزبيدى الى الخفاجي وآخرين . ومن أمثلة اقتباس الخفاجي من لحن العامة قوله : (خيزران معروف بضم الزاي وفتحها غلط ، قاله الزبيدى) (٣) وقوله : (الدالية الذى يستخرج الماء من البئر بدلو ونحوه ، واستعمالها للعنب المُعَرَّش خطأ ، قاله الزبيدي) (٤) .

وقد عقب الخفاجي على طائفة من تصويبات الزبيدي ، بأقوال لبعض اللغويين تجيز ما منع ، من ذلك أنكر الزبيدي على العامة قولهم : (غيرْبال) ، ورأى أن صوابه (مُغَرْبِل) ، وجاء في شفاء الغليل : (غرْبال) هو المنخل الواسع الخصاص ، ثم قيل : للمذياع الذى لا يستودع سرا الا أفشاه ، غربالا على التشبيه ، قال :

أغربالا اذا استُودِعْتِ سِرّاً وكانونا على المتحدثينا) (٥)

(١) شفاء الغليل : ١٠٥ وانظر لحن العوام : ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٢) نفسه : ١٠٥ ولحن العوام ١٢١ .

(٣) نفسه : ١١٣ ، وانظر لحن العوام ٥٤ .

(٤) نفسه : ١٢٦ .

(٥) شفاء الغليل : ١٩٤ .

تلك هي كتب لحن العامة التي كان كتاب الزبيدي منهلا عذبا لمؤلفيها وهناك كتب أخرى لم تؤلف في اللحن وتصويبه قد نقلت من هذا الكتاب قدراً صالحاً من المفردات اللغوية وشروحها ، ولا غرو فالزبيدى عالم سمت مكانته ، وحظي بثقة أهل اللغة فأقبلوا على شروحه وآرائه يرصعون بها كتبهم ، ويوثقون آراءهم ، وسأعرض هنا لتلك الكتب وأقف عند بعض نقولها واقتباساتها ، وهذه هي :

١ - خزانة الأدب :

جعل مؤلف الخزانة كتاب لحن العامة من مصادره ، فنقل منه ما يتصل بثلاث مواد لغوية هي : حائر ، الذات ، الشقور . وسأقف عن الاولى لأهميتها : حائر :

قال البغدادي في كلامه على الشاهد :

صَعْدَةٌ نابتةٌ في حائرٍ ايثما الريحُ تُمَيِّلْها تَمِلْ

(والحائر بالحاء المهملة ، قال أبو نصر : يقال للمكان المطمئن الوسط ، المرتفع الحروف حائر ، وانشد هذا البيت ، وانما قيل له حائر لأن الماء يتحير فيـــه فيجيء ويذهب ، قال الأعلم : الحائر : القرارة من الارض يستقر فيها السيل فيتحير ماؤه ، أي يستدير ولا يجري وجعلها في حائر لأن ذلك أنعم لها وأسد لنبتها اذا اختلفت الريح . أ هـ .

وقال أبو بكر الزبيدى في كتاب لحن العامة : ويقولون للحظيرة تكون في الدار حَيْرا ويجمعونه أحيار والصواب حائر وجمعه حُوْران وحِيْران . وبالبصرة حائِر الحجاج معروف .

وقال أحمد بن يحيى ثعلب : الحائر هو الذي تسميه العامة حَيْرا وهو الحائِط) (١) :

وقد وقف الدكتور عبد العزيز مطر عند عبارة ثعلب التي رواها الزبيدي ، فاستبان له أن الحائر ليس هو الحائط ، كما توهم به العبارة اذ ليس بين اللفظين صلة او ترادف ، فالحائر هو مجتمع الماء ، أو هو حوض يسيب اليه مسيل ماء الامطار ، أو هو المكان المطمئن الوسط المرتفع الحروف ، وأما الحائط فهو الجدار أو البستان ، ولذا قد افترض ان النساخ بتروا العبارة التي رواها الزبيدي عن ثعلب ، فرجع إلى فصيح ثعلب ليقابل رواية الزبيدي بما ذكره ثعلب هناك فوجد العبارة الآتية : (وهي عائِشة ولا تقل عَيْشَة ، وهو الحائر الذي تسميه العامة الحَيْر وجمعه حُوران وحِيْران . وهو الحائط ولا تقل حَيْط) وواضح من هذا النص أن كلمة الحائط هي احدى كلمات ثلاث يخطىء فيها العامة خطأ متماثلا وقد ذكر ثعلب صواب كل كلمة ، ولكن النساخ بتروا العبارة السابقة فوهم بعض اللغويين أن الحائر هو الحائط أو البستان ، وشاع هذا القول في بعض المعجمات كالقاموس وتاج العروس والمعجم الوسيط ، كما وقع في الوهم نفسه صاحب الخزانة ، ولم يفطن أحد من مؤلفي هذه الكتب الى النقص الذي اعترى عبارة ثعلب التي نقلها الزبيدى من فصيحه . أما صحاح الجوهرى وأساس البلاغة ولسان العرب فلم تذكر البستان من معاني الحائر (٢) .

(١) خزانة الأدب : ١ / ٤٥٨ ولحن العوام :

(٢) لخصت رأى الدكتور عبد العزيز مطر من كتابه (لحن العامة في ضوء الدراسات) : ١١٦ ، ١١٧ . وانظر : فصيح ثعلب والشروح التي عليه : ٩٦ .

٢ ـ الاقتضاب وشرح الأشموني :

آل :

ذهب أبو بكر الزبيدي في لحن العامة . إلى أن قول العامة (اللهم صل على محمد وآله) خطأ ، وقال (وقد رد ذلك أبو جعفر ابن النحاس وزعم أن العرب لا تستعمل اضافة آل إلا إلى المظهر خاصة وانها لا تضاف إلى مضمر) وهذا هو مذهب الكسائي وابن النحاس بعده ، وتابعهما الزبيدى فيه ، فقال (والصواب اللهم صلّ على محمد وآل محمد) وعلى عادته في البحث عن شاهد رفيع يعزز تصويبه ، ويدعم اللغة التي يختارها ، فقد استنصر بحديث شريف ، وفيه : (أن بشير بن سعيد قال : يا رسول الله ان الله أمرنا أن نصلي عليك فكيف نصلي عليك ؟ فسكت رسول الله (ص) حتى تمنوا أنه لم يسأله ثم قال : قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل ابراهيم انك حميد مجيد) ثم عقب الزبيدي بقوله « وفي هذا الحديث الذى ذكرنا دلالة على ما ذكره أبو جعفر ، مع أنا لم نره مضافاً الى مضمر لمن يوثق بعربيته » (١) .

وجاء في كتاب (الاقتضاب) :(ذكر أبوجعفر بن النحاس أن آلا يضاف إلى الاسماء الظاهرة ولايجوز أن تضاف الى الاسماء المضمرة فلم يجز أن يقال صلى الله على محمد وآله قال وانما الصواب وأهله ، وذكر مثل ذلك أبو بكر الزبيدي في كتابه الموضوع في لحن العامة ، وهذا مذهب الكسائي وهو أول من قاله ، فاتبعاه على رأيه وليس بصحيح

(١) لحن العوام : ١٤ ، ١٥ .

لأنه لا قياس له يعضده ولا سماع يؤيده) ثم استشهد البَطَلْيَوْسي بكلام رواه المبرد وفيه كلمة (آل) مضافة الى الكاف ، كما أورد قولا لأبي علي الدينوري ذكره في كتابه اصلاح المنطق وفيه (تقول فلان من آل فلان وآل أبي فلان ولا تقل من آل الكوفة وتقول هو من أهله ولا تقول من آله إلا في قلة من الكلام) وعقب ابن السيد على هذا بقوله « فهذا نص بأنها لغة ، وقد وجدنا مع ذلك آلا في الشعر مضافاً الى المضمر ، قال الكميت :

فأبلغ بني هند بن بكر بن وائل　　وآل مناة والأقارب آلها

ألوكاً توافي ابني صفية وانتجع　　سواحل دُعمّيٍ بها ورمالها

وقال خفاف بن ندبة :

انا الفارس الحامي حقيقة والدي　　وآلي كما تحمي حقيقة آلكا

واختلف الناس في قول الأعشى :

كانت بقية أربع فغنمتها　　لما رضيت مع النجابة آلها

فقال قوم أراد بآلها شخصها ، وقال آخرون أراد رهطها ، وكذلك قول مقاسي المعايذي :

اذا وضع الهزاهز آل قوم　　فزاد الله آلكم ارتفاعا

قيل : أراد بالآل الاشخاص وقيل أراد الأهل ، وقد قال أبو الطيب المتنبي ، وان لم يكن حجة في اللغة :

والله يسعد كل يوم جدَّه　　ويزيد من أعدائه فى آله

وأبو الطيب وان كان ممن لا يحتج به فى اللغة فان في بيته حجة من جهة اخرى ، وذلك أن الناس عنوا بانتقاد شعره وكان في عصره

جماعة من اللغويين والنحويين كابن خالويه وابن جني وغيرهما وما رأيت منهم أحداً أنكر عليه اضافة آل إلى المضمر ، وكذلك جميع من تكلم في شعره من الكتاب والشعراء كالواحدي وابن عباد والحاتمي وابن وكيع لا أعلم لأحد منهم اعتراضا في هذا البيت فدل هذا على أن هذا لم يكن له أصل عندهم فلذلك لم يتكلفوا فيه » (١) .

وأما الاشموني (ت ٩٢٩ هـ) فقد قال (واختلف في جواز اضافته إلى المضمر ، فمنعه الكسائي والنحاس وزعم أبو بكر الزبيدى أنه من لحن العوام ، والصحيح جوازه ، قال عبد المطلب :

وانْصُرْ على آل الصليب وعابديه اليوم آلَكْ

وفي الحديث : اللهم صل على محمد وآله) (٢) .

٣ ـ لسان العرب : ونقل من كتاب (لحن العامة) ما يتعلق بمادتين هما (القنبيط) و (أردف) .

٤ ـ تاج العروس للزّبيدى : ونقل من كتاب (لحن العامة) ما يتعلق بمادة (واف) .

٥ ـ شرح الفصيح للبطليوسي : ونقل من (لحن العامة) مايتعلق بـ (القلنسوة) (٣) .

---

(٢) الاقتضاب : ٦ / ٧ / ٨ .

(٢) الاشموني : ١ / ٤ / ٥ .

(٣) المزهر : ٢ / ٩٣ ولحن العوام : ٢٧ ، ٢٨ .

الفصل الرابع

كتاب (مختصر العين)

نسخ الكتاب :

أجمعت المصادر التي ترجمت للزبيدي على نسبة هـذا الكتـاب اليه فهو أشهر كتبه ، وأسيرها ذكرا .

ولعـل ما أصاب الزبيدي من مقام رفيع بين اللغويين يرجع إلى هذا الكتاب الجليل القـــدر ، العظيم المنزلة . واذا رمت أن تعرف بالزبيدي ، كفاك أن تقول عنه : إنه مؤلف (مختصر العين) .

وجمهرة هذا الكتاب ما تزال مخطوطة ، ولم ينشر منـه الا جزء صغير يقع في ثمانين صفحة ، وهي تعادل (١٦) صفحة من مخطوطة المكتبة المركزية ، بجامعة بغداد ، البالغ عـــدد صفحاتها (٢٣٢) صفحة . عني بتحقيق هذه القطعة من الكتاب الاستاذان علال الفاسي ومحمد بن تاويت .

ومخطوطات الكتاب كثيرة ، فقد ذكر بروكلمان ان في (برلين) نسخة منـه برقم (٦٩٥٠ ـ ٦٩٥٢) وفى (دحداح) نسختان الاولى برقم (١٥٩) وهي في ثلاثة أجزاء ، والثانية برقم (١٩٣) :

وهناك نسخ أخرى منه ، ففي (باريس) واحدة برقم (٥٣٤٧) وفي (مدريد) أخرى برقم (٤٩) وفي (غرناطة) (ثالثة) ، وفي

كوبريلي رابعة برقم (١٥٧٤) وفي الاسكوريال برقم (٥٦٩ - ٥٧١) وفي مكتبة القرويين بفاس نسخة اخرى برقم (١٢٤٦ - ١٢٤٧) .

وفي دار الكتب المصرية ثلاث نسخ (٣٨٦) و (٤٠٦) و (٥٩٧) لغة .

وفي مكتبة المجمع اللغوي في القاهرة نسخة مصورة مأخوذة عن فلم لمخطوطة في مكتبة فيض الله بالاستانة تحت رقم (٢٠٩٨) : وتحتفظ المكتبة المركزية في جامعة بغداد بنسخة تقع في جزأين تحت رقم (١٦ - ١٧ م خ) .

وقد وهم الدكتور علي عبد الواحد وافي حين قال ان (مختصر العين) شرع في طبعه في العراق قبل الحرب العالميـــة الاولى (١) . فكتاب (العين) لا مختصره هو الذي شرع الاب انستاس الكرملي في طبعه ، في تلك الحقبة ، ونشر منه جزءاً صغيراً وقع في (١٤٤) صفحة .

دواعي تأليفه :

دخلت الاندلس عدة نسخ من كتاب (العين) ، وكان ثابت بن عبد العزيز وابنه قاسم أول من أدخله (٢) ، ثم أدخل القاضي منذر ابن سعيد البلوطي نسخة أخرى منـــه رواها عن ابن ولاد (٣) ، واحتوت المكتبة الاندلسية على نسخ أخرى من (العين) غير هاتين ، الا أن النسخ جميعا لم تكن موثقة ، فاضطر (الحكم الاموي) إلى

(١) فقه اللغة : ١٩١ .

(٢) طبقات الزبيدي : ٣٠٩ .

(٣) نفسه : ٣١٩ .

أن يندب الثقات من اللغويين ، لمقابلة النسخ ، واستخلاص نسخة معتمدة من بينها ، وكان (القالي) و (محمد بن أبي الحسين) و (ابناسيد) هم الذين أوعز اليهم (الحكم) بالقيام بهذا العمل فأفرد لهم جناحاً في دار الملك وأحضر لهم نسخاً كثيرة في جملتها نسخة القاضي منذر بن سعيد البلوطي التي رواها بمصر عن ابن ولاد (١) .

لقد أولى هذا الخليفة كتاب (العين) عناية خاصة ، ووجه اليه أنظار اللغويين ، ولم يكتف بما أسلفنا من مقابلة نسخه ، واستخلاص نسخة موثقة من بينها ، بل تشوف إلى اختصاره ، وتخليصه مما أثقله من حشو وفضول وتكرار ، ليسهل حفظه ، وتعم فائدته . فعهد بذلك إلى الزبيدي . قال الزبيدي في مقدمته للكتاب : (هذا كتاب أمر بجمعه وتأليفه أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله ـ أطال الله بقاءه ـ عناية منه بالعلم ، وتهمما به ، ورغبة في نشره ، والانتفاع بفائدته) (٢)

ويبدو أن الحكم لم يختر الزبيدي لهذا الامر ، الا لما عرفه عنه من اهتمام بالعين ، وعناية فائقة بنقده ، وتتبع مواده .

وقد مر بنا أن الزبيدي كان أول اندلسي تجرأ على نفي نسبة (العين) إلى الخليل ، فقاسى بسبب ذلك ما قاسى من هجوم لاذع شنه عليه معاصروه ، اذ أكبروا أن يشذ عنهم ، ويطلع عليهم برأى لاعهد لهم به . مفاده أن فى (العين) اخطاء وأوهاماً تحمل على القطع بعدم تأليف الخليل اياه ، لاستحالة صدورها عنه .

---

(١) جذوة المقتبس : ٤٧ وما بعدها .

(٢) مختصر العين (الجزء المطبوع) : ٧ .

وعلى الرغم من أن كتاب (العين) قوبل في المشرق بحملة نقد واسعة ، منذ اللحظة التي ظهر فيها ، فان علماء اللغة في الاندلس كانوا جميعاً يرون أنه من تأليف الخليل ، وعلى هذا الاساس فقد أظلته شخصية الخليل العلمية ، فسلموا بكل ما فيه ، وأكبروا أن يمس بالنقد والتجريح ، ونفروا من الزبيدي لأنه نقده ، ورأوا أنه في عمله هـذا لم يشركهم في اجلال الخليل ، واكباره .

والحقيقة أن الزبيدى لم ينقد الخليل ، ولم ينتقصه فضله وعلمه ، وانما نقـد كتـاب (العين) بعـد استبعاده أن يكون الخليل مؤلفه ومحرر نصه . وقد أوضح هـذا لأهل عصره مرتين ، الاولى في مقـدمة (مختصر العين) حيث قال : (ونحن نربأ بالخليل عن نسبة هذا الخلل اليه ، أو التعرض للمقاومة له والرد عليـه ، بل نقول : ان الكتاب لا يصح له ، ولا يثبت عنه) (١) .

والثانية فى مقدمة كتـاب (استدراك الغلط الواقع في كتـاب العين) وقد مر بنا ذلك .

وكتاب (مختصر العين) أسبق زمن تأليف من كتاب (استدراك الغلط الواقع في كتاب العين) ذلك لانه أحال في مقدمة (الاستدراك) على كتاب (مختصر العين) .

ويبدو أنه انتهى من تأليفه سنة (٣٦٢ هـ) ذلك لأن ابن حيان ذكر في حوادث هذه السنة أن الزبيدى أتم كتاب (مختصر العين) وقدمه الى الحكم ، فاستحسنه ، وأجزل صلة مؤلفه (٢) .

---

(١) مختصر العين (الجزء المطبوع) : ٧ وما بعدها .

(٢) المقتبس : ١٣٣ وما بعدها .

وقد وردت في بعض المصادر اشارة الى ان ابا بكر أخرج نسختين من (مختصر العين) الاولى كبرى ، والثانية صغرى .

وهذا يدل على أن الزبيدى اختصر كتاب (العين) مرتين ، (احــداهما تمثلها النسخة الكبرى ، وكانت فيما يظهر تشتمل على الشواهد اللغوية من آيات قرآنية واحاديث نبوية وأبيات شعرية ، كما كانت تحتوى على الاعتراضات مفرقة في الكتاب ، كل اعتراض منهـا بحذاء مادته) (١) .

ولم يحذف الزبيدي من النسخة الكبرى الا (الشواهد المختلفة ، والحروف المصحفة ، والأبنية المختلة) (٢) .

وكان أبو زيد عبد الرحمن بن عبد العزيز التادلي ثم المدني ، قد رأى هذه النسخة الكبرى ، وتحدث عنها في مقدمة كتابه (الوشاح وتثقيف الرماح) حيث قال : (قلت وجمعني الله أيضاً على نسخة من مختصر العين للامام القاضي أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدى ، قال كاتبها بعــد خطبة المؤلف : وقفت على هذه الخطبة بخط القاضي الزبيدى رحمه الله في آخر النسخة الكبرى من مختصر العين ألتي اختصرها للمستنصر بالله ، وذكر فيها عدد المستعمل والمهمل من كلام العرب وحذف ذلك من النسخة التي بأيدي العامة) (٣) .

ويبدو أن الحكم المستنصر استطال النسخة الكبرى من المختصر فأوعز الى الزبيدي باعادة الاختصار ، وتعديل خطته فيه ، فألف الزبيدي النسخة الصغرى ، وأشار في مقدمتها الى أنه اتبع في الاختصار الطريقة

---

(١) مقدمة محقق (مختصر العين) : و .

(٢) المزهر : ١ / ٨٧ .

(٣) مقدمة مختصر العين : ز .

التي رسمها له الحكم المستنصر ، فقال : (هذا كتاب أمر بجمعه وتأليفه أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله ـ أطال الله بقاءه ـ عناية منه بالعلم وتهمما به ، ورغبة في نشره ، والانتفاع بفائدته ، وذهب فيـــه إلى اختصار الكتـاب المعروف بكتاب (العين) المنسوب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي ، بأن تؤخذ عيونه ، ويلخص لفظه ، ويحذف حشوه وتسقط فضول الكلام المتكررة فيه ، لتقرب فائدته ، ويسهل حفظه ، ويخف على الطالب جمعه) (١) .

والنسخة التي وصلت الينا هي النسخة الصغرى ، ولكن زيد في آخرها عدد المستعمل والمهمل :

وقد أعجب العلماء بمختصر العين ، فأقبلوا عليه يروونه ، وينسخونه ويلغوا من اعجابهم به أنهم فضلوه على أصله (العين) ، وعلى سـائر المعجمات وكتب اللغة . جاء في المزهر : (قال ابو الحسن الشاري في فهرسته : كان شيخنا ابو ذر يقول : المختصرات التي فضلت على الامهات أربعـــة : مختصر العين للزبيدي ، ومختصر الزاهر للزجاجي ، ومختصر سيرة ابن اسحاق لابن هشام ، ومختصر الواضحة للفضل بن سلمة) (٢) . وقال السيوطي أيضاً : (قال الشاري : وقد لهج الناس كثيراً بمختصر العين للزبيدى ، فاستعملوه ، وفضلوه على كتـاب (العين) ، لكونه حذف ما اورده مؤلف كتاب (العين) من الشواهد المختلقة ، والحروف المصحفة ، والأبنية المختلة ، وفضلوه أيضاً على سائر ما ألف على حروف المعجم من كتب اللغة مثل جمهرة ابن دريد ، وكتب كراع ، لاجـل صغر حجمه ، وألحق به بعضهم ما زاده ابوعلي البغدادي في (البارع)

(١) مختصر العين : ٧ وما بعدها .

(٢) المزهر : ١ / ٨٧ .

على كتاب (العين) فكثرت الفائدة) (١) وقال ابن خلدون (٢) في معرض كلامه على العين : (وجاء أبو بكر الزبيدى وكتب لهشام المؤيد بالاندلس في المائة الرابعة فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله ، وكثيراً من شواهد المستعمل ، ولخصه للحفظ أحسن تلخيص) .

ومصدر اعجاب اللغويين بمختصر العين ، أن الزبيدي حذف منه ما أورده مؤلف (العين) من الشواهد ، غير أن هناك من قدح فيه بسبب حذف الشواهد منه ، وكان ابوالحسن الشارى يقول : (ومذهبي ومذهب شيخي أبي ذر الخشني ، وأبي الحسن بن خروف ، أن الزبيدي أخل بكتاب العين كثيراً لحذفه شواهد القرآن والحديث وصحيح أشعار العرب منه) (٣) .

ولما كان أهم ما أخذ على الزبيدي ، هو حذف الشواهد من مختصره ، وضع اللغوى أبوغالب تمام بن غالب المعروف بابن التياني (ت ٤٣٦ هـ) « كتابه العظيم الفائدة الذي سماه بفتح العين وأتى فيه بما في العين من صحيح اللغة الذي لا اختلاف فيه على وجهه ، ودون اخلال بشيء من شواهد القرآن والحديث وصحيح أشعار العرب ، وطرح ما فيه من الشواهد المختلقة ، والحروف المصحفة ، والأبنيــة المختلة ، ثم زاد فيه ما زاده ابن دريد فى الجمهرة ، فصار هذا الديوان محتويا على الكتابين جميعا » (٤) .

(١) المزهر : ١ / ٨٧ .

(٢) المقدمة : ٥٤٩ .

(٣) المزهر : ١ / ٨٨ .

(٤) نفسه

وليس بصحيح قول (القنوجي) في كتابه (البلغة) : « وصنف أبو غالب تمام بن غالب التياني كتابا متعلقا به (يعني كتاب العين) سماه (فتح العين) واختصره ـ أي فتح العين ـ محمد بن حسن الزبيدى وهذبه ، واشتهر بمختصر العين ، وفضلوه على أصله » (١) :

وقد رد عليه محققاً مختصر العين بقولهما : ان هذا « كلام يحمل تكذيبه في ثناياه ، فما معنى كونه (مختصر العين) اذا كان تهذيبا واختصارا لـ (فتح العين) ؟ ثم عاد الزبيدي المتوفى ٣٧٩ هـ إلى الحياة مرة أخرى ليختصر كتاب ابن التياني المتوفى ٤٣٦ هـ » (٢) .

ومنشأ خطأ القنوجي ان صاحب كشف الظنون قال عقب كلامه على (فتح العين) للتياني : (قال السيوطى وهو كتاب عظيم النفع واختصره محمد بن حسن الزبيدي أوله الحمد لله حمداً . . .) فوهم القنوجي ان الكلام ما زال على (فتح العين) ولم يفطن الى أنه عاد الى (العين) نفسه .

ونسب القنوجي في كتاب (البلغة) إلى أبي نصر الهوريني قوله « لما قدحوا في مختصر العين بأنه أخل بكتاب العين . لحذفه الشواهد النافعة ، صنف أبو علي القالي كتابه (البارع) أتى فيه بما في (العين) وزاد » (٣) .

ويبدو أن القنوجي ارتضى هذا وسلم به ، فلم يعلق عليه بشيء .

---

(١) مقدمة مختصر العين : ج .

(٢) مقدمة مختصر العين « المطبوع » : ج . وانظر كشف الظنون ٥ / ١٢٢ .

(٤) مقدمة محقق مختصر العين : ج .

وهو قول لا يستند إلى معرفة ، فالقالي انتهى من تأليف (البارع) سنة ٣٥٥ ﻫ (١) وانتهى الزبيدي من تأليف (مختصر العين) سنه ٣٦٢ ﻫ (٢) .

أهمية (العين) وما ألف حوله

لما كان (العين) أقدم المعجمات في العربية ، فلا عجب اذا رأينا المعجمات بعده ، تتأثر به ، في هذا المنحى أو ذاك ، من مناحي التأليف المعجمي :

فالمعجمات كلها التزمت خطته فى جعل الحروف الأصول أساساً في ترتيب الكلمات ، وتأثرت به في عدم ترتيب موادها من الداخل (٣) وسلكت سبيله في حشد الالفاظ على اختلاف معانيها ، وتنوع دلالاتها وايراد اللغات المختلفة فيها ، وذكر المعرب والمولد منها .

وكان اللغويون قبل الخليل ، وفي أيامه ، قد شعروا بضرورة تدوين المفردات التي اجتمعت لديهم ، حفظاً لها من الضياع ، فاتجهوا إلى تأليف الكتب والرسائل ، وكانت كتب (الغريب) و (النوادر) أقدم ما دون ، ومن هذه الكتب (غريب القرآن) لأبي عبيدة و (غريب القرآن) لأبي فيد مؤرج السدوسي صاحب الخليل ، وكتاب (النوادر) لأبي زيد الانصارى .

ثم ظهرت كتب جمعت فيها المفردات بحسب الموضوعات ، حيث

(١) انباه الرواة : ١ / ٢٠٩ .

(٢) المقتبس : ١٣٢ .

(٣) المعجم العربي : ١ / ٢٧١ :

أخذ اللغويون يخصون كل موضوع بكتاب ، يستقصون فيه جميع الالفاظ المتعلقة به ، فكتاب للخيل وآخر للابل وثالث للنبات وهكذا.

واتجه اللغويون اتجاهاً آخر في تدوين المفردات ، فظهرت كتب جمعت فيها المفردات بحسب أحد اصولها . وكانت هذه الكتب تسمى باسم الحرف الذي تشترك المفردات بالاشتمال عليه ، ككتاب (الجيم) لأبي عمرو الشيباني وكتاب (الهمز) لأبي زيد الانصارى .

ومن الكتب التي هدفت إلى جمع المفردات كتاب (المثلثات) لقطرب وهو كتاب يجمع المفردات المثلثة الأوائل ، والمفردة المثلثة هي الكلمة التي ينطق أولها بالحركات الثلاث لتدل على ثلاثة معان مختلفة .

لم يجد الخليل فى هذه الرسائل ، والكتيبات ، على كثرتها ، ما يحقق الغرض الذي دفع الى تصنيفها ، وأدرك أنه او ألفت مئات الكتب على هذا النحو ، لما أمكن حصراللغة ، واستيعاب كلام العرب بواضحه وغريبه .

أعمل الخليل فكره المبدع ، فهداه إلى نحو جديد من التصنيف يكفل له ما يريد ، ويبلغه غرضه الذى نشده ، فألف كتاب (العين) الذي جاء مستوعبا جل ما تكلمت به العرب .

وقفا اللغويون أثر الخليل ، وتبنوا الغرض الذي أراد أن يحققه وهو جمع اللغة ، وحصرها ، فألفوا معجماتهم ، وابتغوا أن تكون مثل (العين) محيطة بالمستعمل من المفردات ، (ولم يشذ عن ذلك الا الجمهرة ، وربما الصحاح والاساس .

ولكن الجمهرة ادعى صاحبها أنه يجمع جمهور الكلام ، لاغريبه

ولم يحقق دعواه هذه ، بل ناقضها) (١) .

ولم يقف أثر (العين) في المعجمات عند ذلك ، بل تجاوزه ، فصرنا نجد كثيراً من عباراته بنصها في أكثر المعجمات المتأخرة ، مما يدل على أنها اعتمدت عليه ، ونقلت منه اللغات ، والمفردات ، والشروح :

وكانت مقدمة (العين) كنزاً ، ضم العديد من الآراء اللغوية ، التي أفاد منها اللغويون المتأخرون أمثال ابن جني واستاذه أبي علي الفارسي ، وابن فارس ، وبنوا عليها ما وصلوا اليه من آراء ونظريات .

تناول الخليل في مقدمة الكتاب مسائل لم يسبق لدارس قبله أن تناولها ، ووقف عندها . وهذه المسائل هي :

١ ـ بحث الخليل في عدة أحرف الكلمة المجردة ، اسماً كانت أم فعلا ، فوجد أنها لا تقل عن ثلاثة أحرف ، وان الاسم مثلا « لا يكون أقل من ثلاثة أحرف ، حرف يبتدأ به ، وحرف تحشى به الكلمة ، وحرف يوقف عليه ، فهذه ثلاثة أحرف ، مثل سعد ، وعمر ونحوهما من الاسماء ، بدىء بالعين وحشيت الكلمة بالميم ، ووقف على الراء) (٢) .

وحين واجهته أسماء ثنائية ، تأولها ، ليطرد الاصل الذى ذهب اليه . وهذه الاسماء هي : أخ ويد ودم وغيرها . فهي ثلاثية كما يظهر في تثنيتها وجمعها وتصغيرها ، والفعل المشتق منها ، (اخوان) و (يدية) و (دَميَ) .

---

(١) المعجم العربي : ١ / ٢٧١ .

(٢) العين : ٥٥ .

وانما ذهب الثالث منها - في رأي الخليل - لانه ساكن ، فلما دخل عليه التنوين . وهو ساكن أيضاً ، اجتمع ساكنان (فثبت التنوين لانه اعراب . وذهب الحرف الساكن) (١) .

كان الخليل اذن ، يقول بالاصل الثلاثي للكلمة العربية ، وهو رأي أقره الدرس الحديث ، فقد ثبت لدى الباحثين في اللغات السامية ان الوحدة الكلمية الغالبة في اللغات السامية هي الثلاثي (٢)

ولكن هذا الرأي لقي هجوما عنيفا من الباحثين المعاصرين ، الذين ذهبوا إلى أن الكلمات الأولى التي اخترعها الانسان تقليداً لما سمعه من أصوات الطبيعة والحيوان ، تتألف من مقطع واحد ، يبرز فيه حرف أو حرفان ، أولهما متحرك وثانيهما ساكن ، واستدلوا على رأيهم هذا بما نلاحظ في لغة الطفل ، فهو لا يحسن التلفظ بالكلمات التي يسمعها ، ويحاول تقليدها ، فيلجأ إلى اختصارها وبترها ، لان عضلات فمه ولسانه لا تسمح له باخراج الاصوات ، كما سمعها (٣) .

على أن الخليل حين كان يقول بالأصل الثلاثي للكلمة العربية ، انما كان يتكلم على العربية التي يتكلمها أهل عصره ، لا العربية الاولى (٤) ، وقد صدرت عنه أقوال يمكن أن يفهم منها ، انه كان يذهب إلى (ثنائية) العربية الأولى ، قبل أن تصل الى مرحلة « الثلاثية » وتستقر عندها (٥) .

---

(١) العين : ٥٦ .

(٢) فقه اللغة ؛ ١٢ وانظر عبقري من البصرة : ٤٨ ،

(٣) المعجم العربي : ١ / ٢٠٦ .

(٤) نفسه : ١ / ٢٠٩ .

(٥) عبقري : ٤٧ .

٢ ـ ومما حوته مقدمة (العين) من آراء تتعلق بنشأة اللغة ، والعلاقة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله ، ما كان الخليل يراه بشأن الرباعي المضاعف ، نحو (صلصل) و (صرصر) وغيرهما ، فقد ذهب إلى أن الرباعي المضاعف ، حكاية للاصوات الطبيعية ، وإلى أن كثيراً منه مأخوذ من الثنائي الخفيف :

قال : « ألا ترى الحكاية ، أن الحاكي يحكي صلصلة اللجام فيقول : صلصل اللجام ، وان شاء قال صلْ ، مخففة مرة اكتفاء بها وان شاء أعادها مرتين أو اكثر من ذلك فيقول (صل صل صل) يتكلف من ذلك ما بدا له » (١) .

وقال أيضاً (ولا تكون الحكاية مؤلّفة حتى يكونُ حرف صدرها موافقا لحرف صدر ما ضُمّ اليها ، في عجزها فكأنهم ضموا الى (د ه) (دق) فألفوهما » (٢) .

وقال أيضاً « والعرب تشتق في كثير من كلامها أبنية المضاعف من البناء الثلاثي المثقل بحرفي التضعيف ، ومن الثلاثي المعتل الا ترى أنهم يقولون : صَلّ اللجام يَصِلُّ صليلا ، فلوحكيت ذلك قلت صَلّ تمد اللام وتثقلها ، فقد خففتها في (الصَّلصل) ، فالمثقّل مد والمضاعف ترجيع ، وتخفيف . فلا تنفذ للتصريف حتى تتضاعف أو تثقل على ما وصفت لك .

ويجيء منه كثير مختلفاً نحو قولك (صَرّ الجندب وصَرْصَر الأخطب صرصرة) فكأنهم توهموا في صوت الجندب مدا وفي صوت

---

(١) العين : ٦٢ .

(٢) نفسه : ٦١ .

الأخطب ترجيعا » (١) .

وهو هنا لا يتكلم على مسألة صرفية اشتقاقية فقط ، وانما يضع البذرة الاولى لمذهب في اللغة ، تبناه ابن جني فيما بعد ، وعمل على انضاجه ، وهو المذهب القائل بأن اللغة نشأت أول الأمر حكاية للاصوات المسموعات من الطبيعة والانسان والحيوان ، وان هناك مناسبة طبيعية بين اللفظ ومدلوله .

قال ابن جني « وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها انما هو من الاصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندي وجه صالح ، ومذهب متقبل » (٢) .

٣ ـ وفي مقدمة (العين) نمط جديد من الدرس اللغوي ، لم يعرفه العرب ، قبل الخليل ، وان كان اليونان والهنود قد سبقوا اليه ، الا ان الخليل لم يقف على ما انجزه هؤلاء فيه (٣) . واعني به الدراسة الصوتية .

لقد ظهر من مقدمة (العين) ان الخليل أول من تصدى للحروف العربية بالدرس ، فوصف لنا مخارجها ، وصفاتها ، وما ينجم عن تمازجها وتجاورها من آثار .

وأفاد علماء (التجويد) من عمل الخليل ، واشتقوا لهم من دراساته للحروف ، علماً له قواعده وأحكامه ، سموه (علم التجويد)

(١) العين : ٦٣ .

(٢) الخصائص : ١ / ٤٦ ، ٤٧ .

(٣) عبقري من البصرة : ٤٢ .

وألفوا فيه كتباً كثيرة ، ليتعلم النـاس منها كيف يؤدون القرآن أداء صحيحاً (١) .

ومن استفاد من الدراسات الصوتية عند الخليل ، علماء البلاغة والنقد « وخاصة فيما سموه فصاحة اللفظ المفرد ، وكل ماقالوه في هذا راجع إلى ماقاله الخليل » (٢) .

بدأ الخليل دراسة الحروف باعادة ترتيبها ، وكان هناك نوعان من الترتيب ، الأول : وهو المعروف في اللغات السامية ، وكانت الحروف العربية بمقتضاه مرتبة في كلمات ليست لهـا معنى ، هي : أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ضظغ .

والثاني هو ترتيب نصر بن عاصم ، وقد رتبت الحروف بمقتضاه على اساس التشابه في الصورة ، فبدئت بالثلاثيات وهي : ب ت ث ج ح خ ، ثم بالثنائيـات وهي : د ذ ، ر ز ، س ش ، ص ض ، ط ظ ، ع غ ، ف ق ، ثم بالمفردات التي لا أشباه لهـا . وبقيت الهمزة متصدرة الحروف ، كما كانت في الترتيب القديم : أما الألف اللينة والتي لا تكون في الابتداء لسكونها ، فقد وصلت بلام قبلها ، على هذا النحو (لا) .

(وكان الداعي إلى هـذا الترتيب هو عملية اعجام الحروف التي كانت ترسم مهملة) (٣) .

فكر الخليل بترتيب جديد ، يقوم على أساس علمي ، فاهتدى إلى ترتيبها على حسب مالها من مخارج في جهاز النطق ، وابتدأها بأبعدها

---

(١) سر صناعة الاعراب : ١٥ :

(٢) نفسه : ١٥ .

(٣) عبقري من البصرة : ٣٦ :

مخرجا ، وهي مجموعة حروف الحلق ، وانتهى بما يخرج منها من الشفتين وكان ترتيب الحروف عنده كما يأتي :

ع ح ه غ خ ، ق ك ، ج ش ض ، ص س ز ، ط ت د ، ظ ذ ث ، ر ل ن ، ف ب م ، ا و ى ء .

وأوجز الخليل القول في هذه الحروف ومخارجها ، فرأى أنها ٢٩ حرفاً ، ٢٥ ، منها صحاح ، لها أحياز ومدارج ، و ٤ هوائية ، وهاك ما قاله (فالعين والحاء والهاء والخاء والغين حلقية ، والقاف والكاف لهويان ، والجيم والشين والضاد شَجْرِية ، والشَّجْر مفرج الفم ، والصاد والسين والزاي اسَلية ، لان مبدأها من اسلة اللسان ، وهي مستدق طرف اللسان ، والطاء والتاء والدال نطعية ، لان مبدأها من نطع الغار الاعلى ، والظاء والذال والثاء لثوية ، لان مبدأها من اللثة والراء واللام والنون ذولقية ، وهي الذلق ، الواحد أذلق ، وذولق اللسان كذولق السنان ، والفاء والباء والميم شفوية ، ومرة قال شفهية . والواو والالف والياء هوائية . نسب كل حرف الى مدرجته) (١) .

بدأ بالعين لانها أدخل في الحلق من سائر الحروف ، عدا الهمزة فهي وان كانت أسبق مخرجا من العين (٢) ، الا أن الخليل لم يبدأ بها لأنه وجدها متغيرة ، لا تثبت على صورة ، فهي تسهل دائما الى (الف) أو (واو) أو (ياء) ، فضمها الى حروف العلة ، ورأى أنها شبيهة بها ، من حيث التغير ، وعدم الثبات .

قال الخليل عن الهمزة (وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتوتة مضغوطة ، فاذا رفه عنها لانت ، إلى الياء والواو والألف ، عن

---

(١) تهذيب اللغة : ١ / ٤٨ .

(٢) سر صناعة الاعراب : ٥٢ ؛

غير طريقة الحروف الصحاح) (١) .

ولم يجعل لحروف العلة مدرجة ، أو حيزاً تنسب اليه . وانما سمّاها (هوائية) وجعل فراغ الفم كله مدرجة لها (٢) .

وبعد أن تم للخليل ترتيب الحروف ، وتحديد مخارجها ، عاد يبحث في خصائصها ، وصفاتها ، فلاحظ انها لم تكن من طبيعة واحدة ، ثم وضع لكل مجموعة من الحروف لقبا ينم على مالها من صفات فمنها المجهور والمهموس ، والمستعلي والمستفل ، والشديد والرخو ، والأذلق والمصمت ، والصحيح والمعتل (٣) .

ووضع نظريته المعروفة في فصاحة الكلمة ، فقد رأى أن أفصح الكلمات ما كان مؤلفا من اصوات متباعدة المخارج (٤) .

واستطاع بماله من حس لغوي مرهف ، ومعرفة واسعة بكلام العرب ، أن يدرك منهج العربية في بناء المفردات وتأليف الحروف ، ويكتشف ما يتميز به اللفظ العربي من خصائص موسيقية ، يمكن اتخاذها مقياساً للتمييز بين الاصيل والدخيل ، والمستعمل والمهمل .

وكان يرى أن العرب لم تألف في كلامها تجاور الحروف المتقاربة في مخارجها ، واذا تجاور حرفان متقاربان في المخرج ، في كلمة واحدة تنافرا ، ويزداد التنافر شدة اذا كانا من حيز صلب ، لا يؤدي عمله بسهولة ، كتجاور الهاء والعين في كلمة ، وهما متقاربان في المخرج ، ولا يأتلفان في العربية الا اذا تقدمت العين ، نحو (عَهِد) و (عِهْن)

(١) العين : ٥٨ .

(٢) تهذيب اللغة : ١ / ٤٨ .

(٣) جمهرة اللغة : ١ / ٧ ، ٨ .

(٤) نفسه : ١١ .

أو كانتا مفصولتين نحو (هرع) و (هلع) وعلى هذا الاساس انكر (الهُعْخُع) وقال (سمعنا كلمة شنعاء الهعخع فانكر تأليفها) (١) ورأى أن القاف والكاف لا يأتلفان الا في كلمات معربة ، وكان يقول (تأليفهما معقوم في بناء العربية لقرب مخرجيهما) (٢) :

والضاد والكاف لا تجتمعان في بناء عربي ، الا اذا قدمت الضاد وفصل بينها وبين الكاف ، مثل الضنك والضحك ، ولكنهما تأتيان في المضاعف متصلتين كالضكضكة والكضكضة وهما مشي في سرعة : قال الخليل (وهو جائز فى المضاعف نحو الضكضاكة) (٣) :

ومن المقاييس التي وضعها لبيان المهمل ، وتمييزه من غيره ، ماقاله عن الأبنية الرباعية والخماسية ، فقد كان يرى ان هذه الأبنيـــة لا تَعَرّى عن واحـد أو أكثر من حروف الذلاقة الستة وهي (ر ل ن ف ب م) (فان ورد عليك خماسي معرى من الحروف الذلق والشفوية فاعلم أنه مولد وليس من صحيح كلام العرب ، نحو الخُضُعْثُج والكُشُعْطُج ، وأشباه ذلك ، وان أشبه لفظهم وتأليفهم ، فلا تقبلن منه شيئاً ، فان النحارير ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كـلام العرب ، ارادة التلبيس والتعنت) (٤) .

ولكنه يستثني البناء الرباعي المجرد من هذه القاعدة ، فقد يخلو هذا البناء ، من أحد احرف الذلاقة ، ويشترط عندئذ أن يقترن بحرفي

---

(١) العين : ٦٣ :

(٢) لسان العرب : حرف القاف .

(٣) العين ؛ ٦٣ .

(٤) تهذيب اللغة : ١ / ٤٤ :

الطلاقة (العين والقاف) أوبأحدهما ، فهما يحسنان جرسه ، ويخففانه على اللسان ، ويشترط أن يقترن أيضاً بالسين أو الدال أو بكليهما فهما يحسنان جرس الأبنية أيضاً . وكان يقول (فمهما جاء من بناء اسم رباعي منبسط معرى من حروف الذلق ، والشفوية فانه لا يعرى من أحد حرفي الطلاقة أو كليهما ، ومن السين والدال أو احداهما ، ولا يضره ما خالطه من سائر الحروف الصتم) (١) .

يتبين لنا من هذا العرض السريع لما حوته مقدمة (العين) من الآراء ، أن هذه المقدمة غنية بالاقوال واللمحات البارعة الذكية ، التي ظلت قابعة في صفحاتها حتى قيض لها لغويون كبار ، فتدبروها ، وبنوا عليها ما وصلوا إليه من آراء ونظريات ،

فقد أخذ ابن فارس من هـذه المقدمة البذور الأولى لنظريته في الرباعي والخماسي ، وكان يقول : (اعلم أن للرباعي والخماسي مذهبا في القياس يستنبطه النظر الدقيق وذلك أن أكثر ما تراه منه منحوت ، ومعنى النحت أن تؤخذ كلمتان وتنحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعاً بحظ ، والاصـل في ذلك ما ذكره الخليل من قولهم حَيْعَلَ الرجل اذا قال حي على) (٢) .

وعرض استاذنا الدكتور مهدي المخزومي لما في (العين) من آراء سبق بها الخليل الدارسين ، وكان لها أبعد الاثر فى تطوير الدرس اللغوي و وامداده باسباب الحياة والنمو ، واشار الى ما انبنى عليها من درس في القرنين الثالث والرابع .

---

(١) تهذيب اللغة : ١ / ٤٥ .

(٢) المقاييس : ١ / ٣٢٨ ، ٣٢٩ وانظر (الفعـــل) للدكتور السامرائي : ١٣٤ .

وهاك شيئاً مما قاله بهذا الصدد : (فالخليل بعد هذا كله هو المصدر الذي صدر عنه ابن جني واستاذه أبو علي وهو رئيس المدرسة اللغوية التي نسبت اليهما . وهو الذي مهد لهذه المدرسة السبيل إلى دراسة اللغة على اساس هذا المبدأ اللغوي القائم على اساس من حكاية اللغة للاصوات ، ووجود المناسبة الطبيعية بين الالفاظ ومدلولاتها ، ولا اظن ما جاء به أبو علي وتلميذه الا شرحا لما قاله الخليل ، وتفصيلا لما أجمله .

وليست فكرة الاشتقاق الكبير القائم على أساس التقاليب للكلمة الا تطبيقاً للفكرة التي أجملها الخليل ، وهي تشير في وضوح إلى أن دلالة اللفظ على معناه انما تقوم على ما للاصوات من دلالة ، وحكاية للمسموع من أصوات الطبيعة والانسان والحيوان ، لان فكرة التقاليب تنتهي بنا إلى اشتراكها في المعنى العام ولم تشترك في المعنى العام إلا لاشتراكها في الاصوات التي تتألف منها ، بقطع النظر عن ترتيبها فدلالة (ك م ل) و (ك ل م) و (ل ك م) و (م ك ل) و (م ل ك) على معنى عام مشترك وهو القوة والشدة لم تكن لتكون لولا اشتراك هذه التقليبات في الكاف واللام والميم .

وهذا هو ما كان الخليل يقصد اليه حين كان يتخذ كلمة من الكلمات أصلا يثبته في باب من كتاب العين ويفسرها فاذا انتهى اثبت تقاليبها بعدها في الباب نفسه ليكون من مجموع التقاليب وحدة لغوية مستقلة) (١) .

وأخيراً فان من أوجه أهمية (العين) ان اتبع نظامه عدد من المعجمات فسارت على طريقته من حيث الترتيب الصوتي للحروف ،

(١) عبقري من البصرة : ٥٦ ، ٥٧ .

ومن حيث الجمع بين الكلمة وتقاليبها في موضع واحد وهذه المعجمات هي (التهذيب) للازهري و (المحيط) للصاحب بن عباد و (البارع) للقالي و (المحكم) لابن سيدة :

تلك هي نظرة سريعة للاثر القوى الذي تركه (العين) في المعجمات ، وكتب اللغة ، بقي أن أشير إلى الكتب التي ألفت حوله ، واتخذته موضوعاً للدراسة ، فأقول إن منها ما اتجه إلى اكماله واستدراك ما فاته من مواد ، ومنها ما توخى تصحيحه ، وتخليصه مما أثقله من أوهام ، ومنها ما مضى يختصره ، ويستبعد منه الحشو والفضول .

ولابد أن نلاحظ أن مؤلفي هـذه الكتب ، لم يكونوا جميعاً في موقف واحد من الخليل ، وانما صدر بعضهم عن جفاء له ، ورغبة في تنقصه ، متخذا مما في (العين) من أوهام تسربت إليه ، واندست فيه ذريعة للنيل من الخليل ، والتقول عليه ، وكان آخرون يجلون الخليل ويربأون به عن أن ينسب إليه خطأ أو وهم ، فدافعوا عنه ، وانتصروا له ، وعزوا مافي كتابه من الخطأ إلى الذين تهيأ لهم أن يعبثوا به تصحيفاً وتحريفا واضافة .

وأهم الكتب التي ارادت أن تكمل نقصه ، كتاب (فائت العين) لأبي عمر الزاهد المعروف بغـــلام ثعلب (ت ٣٤٥ هـ) (١) وكتاب (التكملة) ألفه أبوحامد أحمد بن محمد البشتي الخارزنجي (ت ٣٤٨هـ) (٢) وكتاب (الحصائل) لأبى الازهر البخاري ، وهو من معاصرى الازهري وقد أراد من كتابه تحصيل ما أغفله الخليل (٣) .

---

(١) كشف الظنون : ٥ / ١٢٢ .

(٢) انباه الرواة : ١ / ١٠٧ .

(٣) نفسه : ١ / ١٠٨ .

وكتاب (المستدرك من الزيادة في كتاب البارع لأبي علي البغدادي على كتاب العين) لأبي بكر الزبيدي (١) : وكتاب (الموعب) لأبي غالب تمام بن غالب المعروف بابن التياني (ت ٤٣٦ هـ) وقد اختلف فى اسم هـذا الكتاب ، فسمي (تلقيح العين) و (تنقيح العين) و (فتح العين) (٢) .

وهناك كتب أخرى هدفت إلى اكمال (العين) وتدارك نقصه ، فقد ذكر ابن النديم ان الخليل بن أحمد نفسه ألف كتاب (فائت العين) وذكر أيضاً أن أبا فيد مؤرج السدوسي ونصر بن علي الجهضمي استدركا على كتاب (العين) (٣) . ولم يشر غيره إلى أنهما استدركا شيئاً على (العين) :

وأشهر الكتب في نقد (العين) كتاب (٤) (الرد على الخليل واصلاح ماني كتاب العين من الغلط والمحال) لأبى طالب المفضل بن سلمة الكوفي (٣٠٨ هـ) وكتاب (استدراك الغلط الواقع في كتاب العين) لأبي بكر الزبيدي ، وكتاب (غلط العين) لأبى عبد الله محمد ابن عبد الله المعروف بالخطيب الاسكافي (٤٢٠ هـ) أحـد أصحاب الصاحب بن عباد (٣) .

وأهم الكتب التي دافعت عن الخليل ، وانتصرت له ، ونزهته

---

(١) فهرست ابن خير : ٣٥٠ .

(٢) المزهر : ١ / ٨٨ والمعجم العربي : ١ / ٢٧٦ :

(٣) الفهرست : ٤٣ :

(٤) المزهر : ١ / ٨٦ .

(٥) كشف الظنون : ٥ / ١٢٢ :

عن نسبة الخطأ اليه ، كتاب (التوسط) لابن دريد (١) وكتاب (الرد على المفضل في الرد على الخليل) لعبد الله بن جعفر بن درستويه (٣٤٧ هـ) (٢) و (رسالة الانتصار للخليل فيما رد عليه في العين) لابى بكر الزبيدى .

واختصر الكتاب اثنان ، وهما الزبيدي وأبو الحسن علي بن القاسم السنجاني (٣) :

الطريقة التي سار عليها الخليل في « العين » (٤)

قلنا ان الخليل لم يجـد في الرسائل اللغوية الصغيرة التي شهدها عصره ، ما يحقق الفرض الذى صنفت من أجله ، وهو جمع اللغة . وحصر مفرداتها ، ففكر في تأليف كتاب يستوعب كلام العرب واضحه وغريبه ، ويحصر المفردات فلا يشذ منه شيء منها .

وبعد تفكير طويل ، هداه عقله إلى طريقة في التصنيف ، بناها على أربع خطوات ، هي :

---

(١) فهرست ابن النديم : ٦٢ .

(٢) الزهر : ١ / ٨٩ .

(٣) المعجم العربى : ١ / ٢٨٢ .

(٤) بنيت هذه الفقرة على ما كتبه الدكتور مهدي المخزومى فى (عبقري من البصرة) والدكتور حسين نصار في (المعجم العربى) والدكتور عبد الله درويش في (المعاجم العربية) وعلى كتاب (العين) نفسه و (مختصر العين) للزبيدى .

الخطوة الأولى :

لما كانت حروف الهجاء - وهي تسعة وعشرون حرفاً - هي مادة اللغة ، ومنها تتألف المفردات ، فقد اتجه إلى هذه الحروف ، ليرتبها ترتيباً جديداً ، لأنه لم يرتض أياً من الترتيبين اللذين وجدهما أمامه واعني بهما الأبجدية القديمة ، وترتيب نصر بن عاصم :

وكان ترتيب الخليل الجديد للحروف العربية ، ترتيبا صوتيا ، يقوم على أساس مالها من مخارج في جهاز النطق ، فسلسلها حسب عمقها في الفم وابتدأ بأبعدها مخرجا وهي مجموعة حروف الحلق ، وانتهى بمجموعة الحروف الشفوية . فكانت (العين) أول الحروف ، وكانت (الميم) آخرها .

الخطوة الثانية :

صنف المفردات بحسب عدد أصولها التي تتألف منها ، فرأى أن الكلمات العربية إما ثنائية أو ثلاثية أو رباعية أو خماسية ، ولا شيء غير ذلك .

الخطوة الثالثة :

رتب الكلمات تبعا لحروفها الأصلية فقط ، بقطع النظر عما فيها من الحروف الزوائد ، وتوزعت المفردات على الثنائى ، والثلاثي ، والرباعي ، والخماسى .

والثناني عند الخليل ما اجتمع فيه حرفان صحيحان ، وان تكرر

أحدهما ، أو كلاهما ، فالكلمات (قَدْ ، قَدَّ ، قَدْقَدْ) كلها من الثنائي ، لأن أصل بنائها متكون من حرفين صحيحين ، هما (القاف) و (الدال) ولا عبرة بتشديد (الدال) فى (قدّ) ولا عبرة بتكرارها في (قدقد) . وهـــذا هو سبب وضعه (تدقد) في مادة (قـد) و (عقعق) في مادة (عق) و (كعك) في مادة (كع) :

وأراد بالثلاثي ما اجتمع فيه ثلاثة أحرف اصول ، وقد قسمه الى ثلاثي صحيح ، وثلاثي معتل بحرف واحد ، وثلاثي لفيف .

فأما الصحيح فهو ما كانت احرفه الثلاثة كلها صحاحاً ؛ وامـــا المعتل فهو ما كان فيه حرفان صحيحان وحرف واحد من احرف العلة : وأما الثلاثي اللفيف فهو ما كان فيه حرف صحيح واحد ، وحرفا علة سواء أكانا متصلين نحو (عوى) و (نوى) أم كانا مفصولين نحو (وفى) و (وعى) . وهو على هذا لم يفرق بين اللفيف المقرون ، واللفيف المفروق :

وقـــد علل الدكتور مهدي المخزومى ذلك بقوله (وانما أجمل اللفيف ولم يفصله لأن اللفيفين جميعاً ينطويان فى مادة لغوية واحدة أو أصل واحد ، فلو أخذنا كلمة (عوى) مثـلا ، وهى من اللفيف المقرون ، ثم استخرجنا تقاليبها ، كان من تقاليبها (وعى) وهو من اللفيف المفروق ، فلا حاجة به إلى أن يجعل اللفيف المقرون في باب والمفروق في باب آخر) (١) .

(١) عبقرى من البصرة : ٦١ .

الخطوة الرابعة :

قسم الكتاب إلى كتب ، وخص كل حرف من الحروف بكتاب فكتاب العين ، ويليه كتاب الحاء ، فكتاب الهاء وهكذا :

وبدأ بكتاب (العين) وجعلـــه للمفردات المشتملة على حرف (العين) ، وصنف هذه المفردات على الثنائي والثلاثي والرباعى والخماسي بأصنافه المختلفة ، الصحيحة والمعتلة .

بدأ بباب (الثنائى الصحيح) ويسميه أيضاً (الثنائى المضاعف) وكان اللازم أن يبدأ الخليل بالعين مع ما يليها في المخرج وهو (الحاء) ثم (العين) مـع ما يلي (الحاء) في المخرج وهو (الهاء) ثم (العين) مـع ما يلي (الهـــاء) في المخرج وهو (الغين) ، ثم (العين) و (الخاء) .

الا أنه لم يجد فى كلام العرب كلمات تتألف من (العين) و (الحاء) ولا (العين) و (الهاء) ولاالعين والخاء ، فوقف عند هذه الظاهرة ، ودرسها ، فقرر ان العين لا تأتلف مع الحاء ولا مع الهاء ولا مع الخاء ولا مع الغين في كلمة واحدة من الثنائيات ، وذلك لتقارب مخارج هذه الحروف (١) ، ولانها من حيز الحلق ، الذي هو أصلب الاحياز عضلا :

وبذلك كانت أول الكلمات الثنائية عنده كلمة (عق) ، وانما تآلفت (العين) مع (القاف) لتباعد مخرجيهما :

ومضى الخليل يركب (العين) مع الحروف التي تلي (القاف) في المخرج ، مستخرجاً من ذلك الكلمات الثنائية المستعملة ، ومتناولا

---

(١) العين : ٦٨ .

بالشرح كل ثنائي ومقلوبه ، ولا يتأتى من الثنائى الا صورتان أو تقليبان ، حتى وصل إلى آخر ثنائي ، وهو (عم) الذي يتألف من (العين) و (الميم) ، الذي هو آخر الحروف ، وكان الخليل ينبه في صدر كل باب على المهمل والمستعمل .

قال في أول باب (الثنائى المضاعف) : باب العين والحاء والهاء والخاء والغين . الغين مع القاف ، وما قبله مهمل . (عق) و (قع) (مستعملان) .

وبعد أن تكلم على (عق) ومقلوبها (قع) عقد بابا للعين مع الكاف ثم عقد باباً للعين (مع الجيم) تناول فيه (عج) و (جع) وهكذا حتى وصل إلى باب (العين) مع (الميم) وهو آخر الباب .

وبعد أن انتهى من الثنائيات ، عقد بابا أسماه (باب الثلاثى الصحيح) ثم أخذ يقلب الثلاثى مستخلصا من كل ثلاثي ستة أوجه نحو : ع ب د ، ع د ب ، د ب ع ، د ع ب ، ب ع د ، ب د ع .

وكان يفسر ما تكلمت به العرب من التقاليب ، ويهمل مالم تتكلم به : وأول الثلاثي الصحيح (باب العين والهاء والقاف معهما) ولم يستعمل من تقاليب هذه المادة الا (عهق) و (هقع) فلم يثبت غيرهما .

وآخر هـذا الباب (باب العين والميم والباء) ولم يستعمل من هذه المادة ، إلا (عبم) فقط .

فاذا انتهى من (الثلاثى الصحيح) عقـــد باباً آخر خصصه للثلاثى المعتل ، وأخذ يركب (العين) مع ما تأتلف معه من الحروف التي تليها فى المخرج ، مضيفاً إلى كل ثنائى يتحصل عنده ، حرفاً من أحرف العلـــة ، فمرة الواو ، واخرى الالف ، وثالثة الياء : ثم

يستخرج مقلوب كل بناء أيضاً ، ويفسر المستعمل ، ويهمل ماعدا ذلك .

وكان أول أبواب (الثلاثى المعتل) : (باب العين والهاء : و اى) ، ويستعمل من هذه المادة : هوع ، هيع ، عوه ، عيه ، هاع وآخر هذا الباب (باب العين والميم : واى) .

ويلي باب (الثلاثى المعتل) باب (اللفيف) . وهو باب تختلط فيه أنواع مختلفة من الالفاظ ، كان اللازم أن يفصل الخليل بعضها عن بعض ، والا يحشرها في هذا الباب .

ففى باب (اللفيف) يعرض الخليل للاصوات ، المؤلفة من حرفين أحدهما حرف علة ، مثل قولهم (يَعْ) وهو صوت يطلقه الصبيان إذا رمى أحدهم الشيء إلى الآخر . وفى باب (اللفيف) من كتاب الحاء ، يورد الخليل قولهم (حا) وهو أمر الكبش عند السفاد ويسمي الزبيدي هذا الضرب من الالفاظ (الثنائي الخفيف المعتل) .

ويورد الخليل في باب (اللفيف) أيضاً الثلاثى المعتل بحرفين ، سواء أكان الحرفان متصلين مثل (عوى) أم كانا منفصلين مثل (وعى) :

ويورد الثنائى المعتل المضاعف مثل (عاعى) و (الوعوع) و (اليعياع) ويورد فيه أيضاً الثنائى المعتل المشدد نحو (عَيَّ) .

وواضح أن هذه المفردات ، ليست كلها مما يسلك في (باب اللفيف) ، وكان الزبيدي قد أخذ على صاحب (العين) خلط هذه الالفاظ جميعاً في باب (اللفيف) واتخذ من هذا الصنيع دليلا على عدم تأليف الخليل (العين) .

و (باب اللفيف) عند الزبيدي خاص بالثلاثي المعتل بحرفين منفصلين كانا أم متصلين ، وأما الالفاظ الاخرى التي وردت في هذا

الباب عند الخليل ، فقد أخرجها الزبيدي منه ، وصنفها في باب خاص أسماه (الثنائى المضاعف المعتل) ولم يعقد الخليل مثل هذا الباب .

وزع الزبيدى باب (اللفيف) عند الخليل إلى بابين : باب الثنائى المضاعف المعتل ، وادرج فيه نوعين من الالفاظ ، الأول نحو (عيّ) ، والثانى نحو (عيعان) و (يعيعة) و (عاعى) ونحوها .

وباب (اللفيف) وعرض فيه لنحو (عَوَى) و (وَعَى) و (وَعْي) ونحو ذلك :

وعقد الخليل بعد (باب اللفيف) بابا آخر للابنية الرباعية ، بأصنافها المختلفة ، الصحيحة والمعتلة . وكان آخر الابواب هو باب الخماسى :

وسمى الخليل كتابه (العين) إما لأن العين عنده هي أول حروف الهجاء ، فسمى الكتاب كله بالعين من باب التغليب ، وكانت هذه طريقة درج عليها المؤلفون في ذلك العصر ، وهى أن يسموا الكتاب بأول أبوابه أو أجزائه : وإما لأن باب العين أوسع أبواب الكتاب وأكبرها .

منهج الزبيدى في (مختصر العين)

بين الزبيدي في مقدمة كتابه المنهج الذي سار عليه في الاختصار فقال : (هذا كتاب أمر بجمعه وتأليفه أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله ، وذهب فيه إلى اختصار الكتاب المعروف بكتاب العين ، المنسوب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي ، بأن تؤخذ عيونه ، ويلخص لفظه ، ويحذف حشوه ، وتسقط فضول الكلام المتكررة فيه ، لتقرب بذلك

فائدته ويسهل حفظه) (١) .

وقد وفى بما تعهد به ، فاختار العيون ، واستبعد المشكوك فيه ، ولخص التفسيرات ، وحذف الشواهد كلها . فدل بذلك على قدرة فائقة على الاختصار . حتى نعته بعض من ترجم له بأنه أسعد أهل التلخيص والايجاز (٢) .

ولكن الزبيدي لم يكن مختصراً فحسب ، بل كان ناقداً ومصححا وواضعاً الاصول في مواضعها الصحيحة . وقد صرح بذلك في مقدمته أيضاً فقال : (ومذهبنا أن نصلح ما ألفيناه مختلا في الكتاب ، وان نوقع كل شيء منه مواقعه ونضمه في بابه ان شاء الله تعالى) (٣) .

وذكر في خاتمة الكتاب القصيرة ، عدد الأبنية المستعملة والمهملة وعرض لأشياء تتصل بمنهجه كحذفه الصيغ القياسية ، ووضعه كل شيء في موضعه ، وضمه إلى مثله ، وعدم استقصائه لما أهمله صاحب (العين) من مواد .

تلك هي الخطة التي رسمها المؤلف لكتابه . ونتقدم الآن لنرى مدى التزامه بها .

يمكن القول إن الزبيدي عمل فى كتاب العين أربعة أمور ليخرج مختصره هي :

آ ـ تنظيمه . ب ـ تصحيح المختل والمصحف من مواده . ج ـ اختصاره . د ـ الاستدراك عليه . وسنعرض لكل ناحية من هذه النواحي الاربع بشيء من تفصيل ، ونمثل لها بما يكفي لايضاحها :

(١) مختصر العين (الجزء المطبوع) : ٧ .
(٢) مطمح الانفس : ٦٢ .
(٣) مختصر العين (الجزء المطبوع) : ٧ .

آ - التنظيم والتبويب :

ساير الزبيدي كتاب (العين) والتزم بترتيبه للحروف بكل دقة وارتضى فكرة تقسيم المعجم إلى كتب بحسب هـذه الحروف ، وجعل كل كتاب في سبعة أبواب ، هي بالترتيب : المضاعف الثنائى من الصحيح - الثلاثى الصحيح - المضاعف الثنائى المعتل - الثلاثى المعتل اللفيف - الرباعى - الخماسى .

وكانت الابواب فى كتاب (العين) ستة أبواب ، هى : الثنائى المضاعف من الصحيح - الثلاثى الصحيح - الثلاثى المعتل - اللفيف - الرباعي - الخماسى .

فالخليل أدمج (الثنائى المضاعف المعتل) في باب (اللفيف) ، أما الزبيدي فقد فصله عن (اللفيف) وأفرد له بابا خاصا ، فاصبحت مجموع أبواب المختصر سبعة ، بزيادة باب واحد على أبواب (العين) .

وجعل الزبيدي الهمزة من حروف العلة فوافق الخليل في ذلك ولكنه فصل هذه الحروف ، وجعل لكل منها قسما خاصا به ، ينتظم جميع المفردات المشتملة عليه ، وقدم الهمزة منها ، فالياء فالواو :

وكان الخليل يخلط هذه الاحرف جميعا في الموضع الواحد . فيقول مثلا فى باب الثلاثى المعتل (باب العين والميم : واي) .

أما الزبيدي فيعرض لهذا في ثلاثة مواضع ، فيذكر (العين والميم والهمزة) مع المعتلات بالهمزة ، ثم يذكر (العين والميم والياء) مع المعتل بالياء ، ثم يذكر (العين والميم والواو) مع المفردات المعتلة بالواو .

وكثرة الابواب عند الزبيدي ، ووضوحها ، مما سهل عليه عملية التنظيم ، وجعله لا يضع الكلمة إلا في الباب الملائم لها ، وكان لايضع اللفظ في بابه إلا بعد دراسته وتمحيصه . فتجنب بذلك ، ما وقع في (العين) من خلط واضطراب ، ووضع للمواد في غير مواضعها الصحيحة .

ومن أمثلة نقله المواد من أبوابها إلى أبواب اخرى تلائمها ، حذفه كلمة (المُدْقِع) من مادة (نقع) في كتاب (العين) . وحذفه كلمة (المِيقَع) من مادة (مقع) لأنها من (وقع) والميقع داء يأخذ البعير فيقع فلا يقوم .

ب ـ التصحيح :

سبق لنا القول ان كتاب (العين) تعرض لاضافات المضيفين ، وعبث النساخ وغيرهم ، فامتلأ بالخطأ ، وتصحف الكثير من ألفاظه ، فكان لابد لمن يعرض له بالاختصار ، أن يصلح اخطاءه ، ويصوب المُزال والمفسد من مواده ، وهذا ما فعله الزبيدى ، ونبه إليه في مقدمته .

عرض الزبيدي بالتصحيح لنوعين من الخطأ :

١ ـ خطأ علمي :

ومن هذا النوع ما جاء في (العين) : (ويقال رجل أرقع ومَرْقَعان ، وامرأة رقعاء ومرقعانة أى حمقاء) (١) . فنفى الزبيدي

(١) العين : ١٧٩ .

أن تكون (رقماء) من كلامهم ، فقال : (ويقال للرقيع ارقع ومرقعان وللمرأة مرقعانة ولا يقال رقماء) (١) .

وجاء في (العين) : (رجل عقيم ورجال عُقَماء) (٢) ، فصوب الزبيدي هذا الجمع بقوله : (رجل عقيم ورجال عَقْمَى) (٣) .

ومن هذا القبيل قول صاحب (العين) : « وامرأة كَرِيعَة : غَلِمَة » (٤) فصحح الزبيدي هذه الصيغة بقوله (الكَرِعَة المرأة المغتلمة تكرع إلى الفحل كرعاً) (٥) .

٢ ـ خطأ ناشيء عن التصحيف :

ويترتب على تصحيف الالفاظ ادخالها في أبواب لا تلائمها ، فصحح الزبيدي الالفاظ المصحفة ، ونقلها إلى مواضعها الصحيحة : وقد عرضت لنماذج من تصحيحه للكلمات المصحفة ، عند الكلام على كتابه الموسوم بـ (استدراك الغلط الواقع فى كتاب العين) وكان في ذلك الكتاب يذكر اللفظ المصحف ، ويصححه ثم يذكر من صحفه من اللغويين عدا صاحب (العين) .

وأما في (مختصر العين) فكان يكتفي بنقل الالفاظ المصفحة إلى مواضعها الصحيحة .

---

(١) مختصر العين (المطبوع) : ٤١ ،

(٢) العين : ٢١٠ ،

(٣) مختصر العين (المطبوع) : ٥١

(٤) العين : ٢٢٦ .

(٥) مختصر العين (المطبوع) : ٥٦ .

من ذلك كلمة (الفُقّاعي) وهو الاحمر يخالطه بياض ، أوردها الزبيدي في مادة (فقع) وكانت في كتاب (العين) في مادة (قفع) لتصحيفها (١) . و (الاحتزاك أي الاحتزام بالثوب) أوردها الزبيدي بالكاف ، وجاءت في (العين) باللام تصحيفاً (٢) :

واذا اختلف صاحب (العين) عن غيره من اللغويين في كلمة أورد القولين معا ، كما نرى في قوله في مادة (عهب) : (العَيْهَب من الرجال : الضعيف عن طلب وِتْره : وقد حكي بالغين المعجمة) (٣) .

وأورد بعض المواد المصحفة في موضعها من كتاب (العين) دون تنبيه مثل (التّوعيق صوت قُنْب الدابة) (٤) وهي بالغين المعجمة (٥) . و (الحناك والحنكة : العود الذى يضم المراصيف) (٦) وهو بالباء (٧) .

ج - الاختصار :

وأقامه على اساسين ، هما :

---

(١) مختصر العين (المخطوطة) : ٤٨ :

(٢) نفسه : ٤٩ .

(٣) نفسه : ٥ .

(٤) مختصر العين (المخطوطة) : ٣٥ .

(٥) المزهر : ٢ / ٣٨٣ .

(٦) مختصر العين (المخطوط) : ٥٠ ،

(٧) المزهر : ٢ / ٣٨٣ :

أولا ـ الحذف :

استطاع الزبيدي أن يهذب كتاب (العين) ، ويستبعد منه كثيراً من الامور التي لايضار الكتاب بحذفها منه . فما هي المواد التي حذفها ؟ .

١ ـ حذف المصادر القياسية ، والافعال المضارعة ، والصيغ القياسية . فمن أمثلة حذفه المصادر القياسية قوله : (رقعت الثوب رَقْعاً ورَقَّعْتُه) (١) وذكر صاحب (العين) مصدري الفعلين فقال : (رقعت الثوب رَقْعاً وَرَقَّعْتُه ترقيعاً) (٢) ومن أمثلة حذفه الافعال المضارعة قوله : (لَكِعَ الرجل لَكَعا) (٣) وجاء في (العين) : (لكع الرجل يلكَع لَكْعا) (٤) . وقوله : (لَقَعْتُ الشيء إذا رميته) (٥) وجاء في (العين) : (لَقَعْتُ الشيء رميت به الْقَعَةُ لَقْعا) (٦) .

ومن أمثلة حذفه الصيغ القياسية ، حذفه مؤنث (عَبِق) في قوله : (ورجل عَبِق إذا تطيب بأدنى طيب فلم تذهب عنه ريحه أياماً) (٧) .

---

(١) مختصر العين (المطبوع) : ٤١ .

(٢) العين : ١٧٩ .

(٣) مختصر العين (المطبوع) : ٥٧ .

(٤) العين : ٢٢٩ .

(٥) مختصر العين (المطبوع) : ٤٤ .

(٦) العين : ١٩٠ .

(٧) مختصر العين (المطبوع) : ٤٩ .

وجاء في (العين) : (وامرأة عَبِقَة ورجل عَبِق . . .) (١)
وكان لا يذكر اسم الفاعل من الفعل الثلاثي ، كما نرى في قوله (شَكِع الرجل شَكَعا إذا كثر انينه وضجره من المرض) (٢) : أما صاحب (العين) فقد ذكر اسم الفاعل من (شَكِع) وهو (شاكع) فقال (شَكِع الرجل شَكَعا فهو شاكِع . . .) (٣) .

وكان الزبيدي لايذكر الجموع القياسية ، كما نرى فى قوله (ورجل كُتَع : لئيم . وأكتع ردف لا جمع) (٤) وجاء فى (العين) : (ورجل كتع ، وقوم كُتَعُون واكتع حرف يوصل به أجمع تقوية له ومؤنثه كتعاء ، تقول جمعاء كتعاء وأجمع اكتع واجمعون اكتعون : كل هذا توكيد) (٥) .

حذف الزبيدي من هذه المادة الصيغ القياسية كلها ، فلم يذكر جموع المفردات لانها جموع قياسية ، ولا حاجة به إلى النص عليها ، ما دام فى مقام اختصار ، ولم يذكر مؤنث (اكتع) لان القياس أن يجيء مؤنث (أفعل) على (فعلاء) .

ومن أمثلة حذفه الجموع القياسية قوله فى مادة (قمس) : (ونملة قمساء رافعة صدرها) (٦) وجاء في (العين) : (والقَمْساء

---

(١) العين : ٢٠٦ .
(٢) مختصر العين (المطبوع) : ٥٢ .
(٣) العين : ٢١٥ .
(٤) مختصر العين (المطبوع) : ٥٤ .
(٥) العين : ٢٢١ .
(٦) مختصر العين (المطبوع) : ٣٢ .

من النمل الرافعة صدورها وذنبها ، ويجمع قُمْساً وقَمْسَاوات على غلبة الصفة) (١) .

٢ - حذف الالفاظ المشكوك فيها ، أو التي لم يطمئن إلى أن العرب استعملتها بالمعنى الذي يذكره (العين) ، من ذلك حذفه من مادة (رقع) كلمة (الرَّقْع) بمعنى الهجاء . جاء فى (العين) (والرَّقْع : الهجاء . يقال رَقَعَه رَقْعاً شديدا إذا هجاه) (٢) .

وحذف من مادة (رقع) نفسها ، كلمة (أرقع) بمعنى السماء الدنيا . قال صاحب (العين) : (والارقَع والرَّقيع اسمان للسماء الدنيا) . وقال المختصر : (والرقيع اسم للسماء الدنيا) (٣) .

وحذف من مادة (زقع) كلمة (الزقاقيع) بمعنى فِراخ القَبَج وأكبر الظن أنها محرفة وأن صوابها (الزعاقيع) فقـد جاء في مادة (زعق) من (العين) : (والزُّعْقُوقَة فرخ القَبَج ويجمع الزعاقيق) (٤) .

والزبيدي ذكر (الزعقوقة) فى مادة (زعق) إلا انه لم يذكر جمعها ، جريا على خطته في حذف الجموع القياسية . وحذف من مادة (زعق) كلمة (زَعَقَت الريحُ الترابَ : أثارته) . وقد وردت فى (العين) (٥) .

(١) العين : ١٤٩ .

(٢) نفسه : ١٨٠ .

(٣) مختصر العين (مطبوع) : ٤١ .

(٤) العين : ١٥٢ .

(٥) نفسه : ١٥٢ .

ولم يورد مستعملا من مادة (عجب) إلا ثلاثة تقليبات ، وأهمل التقليبين الآخرين اللذين أوردهما صاحب (العين) وهما (جبع) و (عبج) .

وكان صاحب (العين) يستطرد أحياناً فيذكر الالفاظ المرادفة الكلمة التي هو بصددها ، أويذكر لفظا لا علاقة له بالمادة التي يعالجها الا أنه يشترك معها في أكثر حروفه . وللتمثيل على ذلك أقول :

جاء في (العين) : (ويقال أرض مَزْعُوقَة وَمَذْعُوقَة وَمَمْعُوقَة وَمبْعُوقَة) (١) وجاء في مادة (جلع) : وروى عرام ، مُجَالِع أي مكابر) (٢) .

أما الزبيدي فقد حذف ذلك كله من مادة (زعق) و (جلع) لأنه وجد أن هذه الالفاظ مقحمة . وانها سترد فى مواضعها الملائمة لها من المعجم ، ومن الاطالة أن يؤتى بها في أكثر من مكان :

ومن هذا القبيل ما جاء في (العين) : (شَقَمَع في الاناء كَرَع فيه ومثله قَبَعَ وقَمَعَ ، ومَقَع ، وكله من شدة الشُّرْب) : وجاء في المختصر (شَقَمَع الرجل في الاناء يَشْقَمَع إذا شرب وهو مثل كرع) (٣) .

وحذف المواد المختلف فيها ، أو التي لم ترو بصورة واحدة ، مثل (العَرَق العانك بمعنى الأصفر) التي قيل ان صوابها بالتاء لا النون و (وَغَلَتها أي رضعها فى عجلة) التي قيل أنها مصحّفة وان صوابها بالزاي ، عن أبي زيد ، وقيل إن أبا عبيد صحفها تصحيف صاحب

(١) العين : ١٥٢ .

(٢) نفسه : ٢٦٤ :

(٣) العين : ١٤٣ ومختصر العين (المطبوع) : ٣٠ .

(العين) ورواها بالراء . وما دامت هاتان الكلمتان موضع خلاف ، فقد رأى الزبيدي أن يسقطهما من مختصره .

٣ ـ حذف القواعد والاحكام اللغوية ، والاقوال المنسوبة للخليل أو المنسوبة لغيره من اللغويين :

لم يذكر الزبيدي في مختصره أسماء اللغويين والرواة الذين ورد ذكرهم في (العين) وأخذت عنهم الشروح والتفسيرات واللغات ، ولم يورد ما تردد في الأصل من أقيسة وقواعد واحكام .

وجاء في (العين) : (ورَجُل مَجَّاعَة أي كثير التَّمَجُّع مثل علاّمة ونسّابة . قال الخليل : يدخلون هذه الهاء في نعوت الرجال للتوكيد) (١) .

أما الزبيدى فقد اكتفى بشرح الكلمة ، وحذف ما سوى ذلك ، فقال (ورجل مَجَّاعَة ومُجَّاعَة كثير التَّمَجُّع) (٢) ونلاحظ هنا أنه أورد لغــة أخرى في المفردة ، لم يذكرها (العين) . والمَجْعُ أكْلُ اللبن بالتمر .

وإذا قرأت مثلا ما جاء في (العين) عن كلمة (القَرَع) وقرأت ما جاء عنها في (المختصر) أدركت أن الزبيدى كان موفقاً في الاختصار ، لأنه حذف كثيراً من التفصيلات التي ليس من شأن المعجمي الوقوف عندها ، والاحتفال بها ، وحــذف الصيغ التي لا حاجة إلى ذكرها والنص عليها لوضوحها واطرادها :

جاء في (العين) : (القَرَع : ذهاب شعر الرأس من داء . رجل أقْرَع وامرأة قَرْعَاء ، ونساء قُرْع ، ورجال قُرْعان . ويجوز

(١) العين : ٢٨٠ .

(٢) مختصر العين (المطبوع) : ٧٠ .

قُرْع . الا ان (فُعْلاَن) في جماعة (أفْعَل) في النعوت أصوب .
ونعام قُرْع ويقال ما تُسَنّ الا قرعت . وفي المثل : استَنَّت الفِصَالُ حتى القَرعَى . أي سَمِنَت يضرب مثلا لمن تعدّى طوره ، وادّعى ما ليس له . ودواء القَرَع الملح وجُباب ألبان الابل ، فاذا لم يجدوا مِلْحا نتفوا أو باره ، ونَضَحُوا جلده بالماء ، ثم جروه على السَّبْخَة وتقرّع جلده : تَقَوَّب عن القرع . وقُرِّع الفصيل تقريعا فُعِلَ به ما يُفْعل به إذا لم يوجد الملح . قال اوس بن حجر يذكر الخيل :

لدى كل أُخْدُودٍ يغادِرْن دارعا
يُجَرُّ كما جُرَّ الفصيل المُقَرَّع

وهذا على السلب لأنه ينزع قَرَعَه بذلك ، كما يقال قَذَّيْت العين : نزعت قذاها ، وقَرَّدْتُ البعير) (١) .

وجاء في (مختصر العين) : (القَرَع : ذهاب الشعر . وقد قَرِع . ورجال قُرْعان ، وقُرْع) (٢) .

اكتفى الزبيدي بشرح الكلمة ، وبيان الفعل منها وهو (قَرِع) ولم ينص على أن الصفة منه تجيء على (أفْعَل) (فَعْلاء) ، لان ذلك مما يطرد وينقاس في كل فعل من باب (فَعِل) وكان دالا على عيب أو حلية . ولم يشر إلى جمع (قرعاء) لأنه قياسي ومعروف : واكتفى بالنص على جمع (أقرع) وهو أما (قُرْعان) أو (قُرْع) ولم يفاضل بين الجمعين كما فعل صاحب (العين) حين ذهب إلى أن (فُعْلان) في جماعة (أفْعَل) في النعوت ، أصوب .

---

(١) العين : ١٧٧ .

(٢) مختصر العين (المطبوع) : ٤١ .

وحذف الزبيدي كلمتين هما (تَقَرَّع) و (قُرُّع) ولم يذكر ما تفيده صيغة (فَعَّل) من معنى السلب والازالة . وحذف أيضاً ما يتعلق بعلاج القَرَع :

وجاء في (العين) : (لَكَعَ الرجلُ يَلْكَع لَكْعا ولَكَاعة فهو ألْكَع ولُكَع ولَكِيع ولُكَاع ومَلْكَعان والكُوع ، كل ذلك يوصف به من به الحُمْقُ . واللؤم. ويقال : لا يقال مَلْكَعان الا في النداء كما يقال يا مَخْبَثَان ويا مَحْمَقَان ويا مَرْقَعَان وقالوا : يقال في النداء وغيره ، قال :

عليك بأمر نفسك يا لَكَاعِ   فما مَنْ كان مَرْعِياً كَرَاعِ

ويقال : الأُلْكَع : العَبْد) (١) .

وجاء في (مختصر العين) : (لَكِع الرجل الكَعا ولَكَعَةً ولَكَاعاً اذا لَؤُم وهو الكَع . ولَكِع ولَكِيع والمرأة لكيعة وملكعانة . واللَّكَع العَبْد ويقال للمرأة لَكَاع ولَكْعاء ومَلْكَعان للرجل معرفة) (٢) .

نلاحظ أن الزبيدي حذف من هذه المادة ما يتعلق بـ (مَلْكَعان) من أقوال كما حذف بعض الالفاظ ، واستدرك الفاظا أخرى . كما نلاحظ اختلافا في ضبط الافعال والمصادر بين الكتابين .

٤ ـ وحذف الزبيدي الشواهد كلها ، نثرية وشعرية ، واستثنى (بعض الشواهد القرآنية القليلة ، وما فيها من قراءات ، فلم يحذفها كما نرى في قوله : « وقوله عز وجل فعززنا بثالث ، أى شددنا ، وقد

---

(١) العين ١ ٢٢٩ :

(٢) مختصر العين (المطبوع) : ٥٧ :

قرئت بالتخفيف » و « ما أعبأ بهذا الأمر أى ما أصنع به ، ومنه يعبأ بكم ربى » (١) .

وتقابلنا في كتاب « العين » شواهد كثيرة ، أيد بها الخليل شروحه للمواد اللغوية ، وأقام عليها أحكامه وأقيسته ، وما بثه من قواعد وأقوال . وقد استقى هذه الشواهد من القرآن والحديث والشعر والأمثال .

ووجد الزبيدى أن الابقاء عليها ، لا يحقق ما قصد إليه من الحصول على أوجز صورة للكتاب ، فعمد إلى حذفها ، فتخلص بذلك من أهم مظهر من مظاهر الاطالة التي اتسم بها كتاب « العين » .

ثانياً ـ الايجاز :

لقد أبدى الزبيدي مهارة فائقة في ايجاز شروح المفردات ، واختصار عبارات التفسير الطويلة ، التي تقابلنا في كتاب (العين) . فكان يحذف من الشروح الكلام المكرر الذي لا يضيف جديداً إلى ماقبله .

كان الزبيدي يفسر اللفظة بأوجز قول ، وأقصر لفظ ، على حين يأتي شرحها في (العين) طويلا ، فيه حشو وتكرار . فاذا جاء في (العين) أن : (القَوابِع : الخيل المسبوقة ، بقيت خلف السابق) (٢) .

---

(١) المعجم العربي : ١ / ٢٨٥ ومختصر العين (المخطوطة) : ٣ ، ٣٢ .

(٢) العين : ٢٠٧ .

قال الزبيدي : (القَوابِح : الخيل المسبوقة) (٣) لأن في قول « العين » بقيت خلف السابق المسبوق خطلا ، فأين يكون اذا لم يكن خلف سابقه ؟ وإذا ذكر (العين) أن : (الدَّقْعَاء : التراب المنثور على وجه الارض) (٢) قال الزبيدى : (الدَّقْعَاء : التراب) (٣) وحذف عبارة (المنثور على وجه الارض) لأنها زائدة ، ويحسن بالمختصر ألا يلتفت اليها .

وإذا جاء في (العين) أن : (الارْعَاج تلألؤ البرق وتفرقه في السماء) (٤) قال الزبيدى : (الارْعَاج تلألؤ البرق وتفرقه) (٥) وحذف ما بقي من العبارة لعدم الحاجة إليه :

ويعرف الزبيدي (الشُّكَاعَى) بأنه (نبت دقيق العود) (٦) على حين يطيل صاحب (العين) الكلام على هذه الكلمة ، فيقول (والشُّكَاعَى نبات دقيق العود رِخْو ، ويقال للمهزول كأنه عُود شُكَاعَى ، وكأنه شُكَاعَى ، قال ابن احمر الباهلي :

شَرِبْتُ الشكاعَى والتَدَدْتُ ألِدَّةً
وأقبَلْتُ أفواهَ العُروق المَكَاوِيا

يصف تداويه بها ، وقد سقي بطنه) (٧) .

---

(١) مختصر العين (المطبوع) : ٥٠ .

(٢) العين : ١٦٥ .

(٣) مختصر العين (المطبوع) : ٣٦ .

(٤) العين : ٢٥٦ .

(٥) مختصر العين (المطبوع) : ٦٤ .

(٦) نفسه : ٥٢ .

(٧) العين : ٢١٥ .

وإذا ذكر صاحب « العين » قبيلة ، فانه كثيراً ما يستطرد فيحدثنا عن صفات رجالها وما يشتهرون به بين القبائل مستشهداً على ذلك بالشعر ، على حين يكتفي الزبيدي بذكر القبيلة فقط . جاء في (العين) (وعُكْل قبيلة فيهم غَفْلَة وغَباوة . يقال لكل من به غفلة عُكْلِيٌّ قال :

جاءت به عُجُزٌ مقابلة ماهن من جَرْمٍ ولا عُكْلِ) (١)

واكتفى الزبيدي بذكرها فقال (وعُكْل : قبيلة) (٢) :

وقد يقع تغاير - بسبب الاختصار - بين تفسير الزبيدي الموجز للكلمة ، وتفسير (العين) الاكثر تفصيلا لها ، من ذلك تعريف « العين » للكُتَع بأنه « من أولاد الثعالب وهواردؤها » (٣) وتعريف « المختصر » وفيه « الكُتَع ولد الثعلب » (٤) وبين التفسيرين خلاف ففي « العين » تخصيص وتحديد ، وفي تفسير الزبيدي اطلاق وتعميم . ويبدو أن تعريف « العين » أدق ، فقد قال الفيروزآبادي في مادة (كتع) : « وكَصُرَد من ولد الثعلب أردؤه » :

ومن ذلك أيضاً (الجَعِظ) الذي عرفه (العين) بأنه (السيء الخلق الذي يَتَسَخَّط عند الطعام) (٥) وعرفه الزبيدى في مختصره بأنه (السيء الخلق المتسخِّط) (٦) .

(١) العين : ٢٢٨ .

(٢) مختصر العين (المطبوع) : ٥٦ :

(٣) العين : ٢٢١ .

(٤) مختصر العين (المطبوع) : ٥٤ .

(٥) العين : ٢٥٢ .

(٦) مختصر العين (المطبوع) : ٦٢ .

فتفسير (العين) أكثر دقة ، وقد أخذ به الفيروز آبادي فقال (الجَعِظ : وهو العظيم في نفسه والسيء الخلق الذي يتَسَخَّط عند الطعام) (١) .

غير أن الزبيدي في مواضع كثيرة ، كان لا يتصرف بتفسيرات (العين) وشروحه للمواد ، وانما ينقلها بنصها ، دون أن يحذف منها أو يضيف إليها . والامثلة على ذلك كثيرة ، منها (والقَرْعَة سِمَة خفيفة على وسط أنف البعير والشاة) و (والاقْتِراع صك الحمير بعضها بعضاً بحوافرها) . و « الدَّاقِع الذي يطلب مَدَاقّ الكسب » ؛ و « القُبَاع : الاحمق » . و « قَبَع الخنزير بصوته قَبْعاً وقُبَاعاً . وقَبَع الانسان قُبُوعاً أي تخلف عن أصحابه » . و « المَقْمَع شدة الشرب » . و « رجل كُمَّع : لئيم » (٢) .

د ـ الاستدراك :

وجد اللغويون أن كتاب « العين » لم يستوعب مفردات اللغة ولم يحصر ما تكلمت به العرب ، على الرغم من أن ذلك كان الهدف من تأليفه ، والباعث على اتباع نظام التقليبات فيه ، فأخذوا يؤلفون الكتب في تتبع نقصه ، واستدراك ما أهمله من مواد ، وقد أشرت إلى طائفة من هذه الكتب في غير هذا المكان ، وحاول أصحاب المعجمات أن تكون معاجيمهم أوفى من كتاب « العين » واكثر احاطة بالمستعمل

(١) القاموس المحيط (جعظ) .

(٢) مختصر العين (المطبوع) : ٣٦ ، ٤١ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ وانظر (العين) : ١٦٥ ، ١٧٨ ، ٢٠٧ ، ٢١٤ ، ٢٢١ .

من كلام العرب ، كما فعل القالي الذي ألف « البارع » و زاد فيه على كتاب العين نيفا وأربعمائة ورقة مما وقع في العين مهملا فأملاه مستعملا ، ومما قلل فيه الخليل فأملى فيه زيادة كثيرة . وألف الزبيدي كتاباً حول زيادات القالي على (العين) أسماه (المستدرك من الزيادة في كتاب البارع لأبي علي البغدادي » .

فالزبيدي اذن عالم بفوائت (العين) ، ومحيط بما لم يرد فيه من المفردات ، وقد استدرك في « مختصره » الشيء الكثير من الفوائت إلا أنه - كما قال في خاتمة الكتاب - لم يستقص جميع ما أهمله العين ، لأنه اكتفى بكتابه الذي خصصه لهذا الموضوع . ولأنه أراد أن يكون (المختصر) صورة موجزة لما فى « الاصل » من مواد بعد تجريدها من الخطأ ، وازالة مالحقها من التصحيف .

زاد الزبيدي اذن بعض الالفاظ والمواد المهملة في (العين) ، والذي يوازن بين « المختصر » و « الاصل » يتبين ذلك .

ففي مادة « قمع » اضاف الزبيدي : « القِمْع » : ما التزق بأسفل العنب والتمر ونحوها » و « القَمَع : ذباب أزرق عظيم واحدته قَمَعَة » . و « القَمَع : عيب في الدواب » . و « القَمَع : عيب في العين » و « قَمَعَةُ : اسم رجل » (١) .

وفي مادة « كتع » ، أضاف الزبيدى : « وما بالدار كَتِيع : أي مابها أحد . والكُتْعَة : طرف القارورة » (٢) .

واضاف الزبيدى إلى مادة « عكر » : « العِكْر : الأصل .

---

(١) مختصر العين (المطبوع) : ٥١ و (العين) : ٢١٤ .

(٢) نفسه : ٥٤ و (العين) : ٢٢١ .

العَكَرَّة : أصل اللسان ، والعَكَرْكَر : اللبن الغليظ » (١) .

وزاد الزبيدي في مادة (جـــدع) : « جادَعْتُهُ : شاتمته . والجُنْدَع والجنادِع : الآفات » (٢) .

واذا كان للكلمة معنى آخر ، أتى به الزبيدي ، من ذلك كلمة (العَوْكَل) التي جاء عنها في (العين) : (والعَوْكَل : ظهر الكثيب) وقال الزبيدي : « والعَوْكَل ظهر الكثيب . والعَوْكَل : المرأة الحمقاء) (٣) .

ووقعت بعض المواد مهملة في كتاب « العين » فأوردها الزبيدي مستعمله ، من ذلك (عكش) التي ذكر الزبيدي منها « عَكَشَ على القوم : اذا حمل عليهم . وعُكَاشَة اسم رجل ، وعكّاش : موضع » و « عكص » قال الزبيدي : « جاء منه رجل عَكِص : شكس » . و « زعك » أورد الزبيدى منه « الأَزْعَكِيّ » : الرجل القصير اللئيم » (٤) ؛

---

(١) مختصر العين (المطبوع) : ٥٥ و (العين) : ٢٢٤ .

(٢) نفسه : ٦٢ و (العين) : ٢٥٠ .

(٣) نفسه : ٥٦ و « العين » : ٢٢٨ .

(٤) نفسه : ٥٢ ، ٥٣ و (العين) : ١١٥ ، ٢١٩ :

والآن وقبل أن ألقي بالقلم ، أجمل لك صورة هـــذا البحث ، واضع بين يديك خلاصة لأهم ما فيه .

بدأ البحث بنظرة سريعة إلى العصر الذي عاش فيه أبو بكر الزبيدي وهو القرن الرابع الهجري ، الذي شهدت فيه الاندلس ، أزهى عصورها ، وتعاقب على حكمها في اثنائه أربعة حكام أقوياء ، بذلوا جهوداً محمودة في نشر الاستقرار ، والقضاء على الفتن ، وتشجيع العلم والعلماء ، وهم عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر والحاجب المنصور ، ثم ابنه المظفر .

وكان الزبيدي قـــد عاصر ثلاثة منهم أعني الناصر والمستنصر والمنصور ، وحظي منهم بالحفاوة والاكرام : وما ان أوشك القرن الرابع على الانتهاء حتى هبت رياح الفتنة ، ثم لم تهدأ الا بقيـــام دويلات الطوائف .

وأما الحياة الاجتماعية في هذا العصر فقد امتازت بمظاهر عدة منها أن المجتمع الاندلسي كان امشاجا من طوائف شتى ، وعناصر مختلفة ، ففيه العرب والبربر والاسبان والصقالبة ، ثم المولدون من تزاوج هؤلاء .

ولم يكن هذا الشعب المؤلف من عناصر متباينة بالذي يسهل ضبطه ونشر الاستقرار في ربوعه ولذا كثرت الفتن ، ونشبت الثورات وكانت هذه العناصر تصطرع مالم يثبت الحاكم كفايته ، ومالم تأنس فيه القوة والبطش : وقد رأينا الاندلس تهدأ ، منذ تولي الناصر حتى سقوط دولة بني عامر بحدود سنة ٤٠٠ هـ .

وحين رأى الاسبانيون غطرسة العرب وشموخهم بأنوفهم على من سواهم ، ظهر تيار شعوبي يعادي العرب ويجرؤ على غمزهم وثلبهم ، وكان سكان البلاد الاصليون يقودون هذه الحركة ، ويجهرون بها .

ولم تقع في البلاد خلافات مذهبية ، ذلك لانتشار مذهب مالك واعتناق الاكثرية إياه .

ولم تكن الاندلس في عهد من عهودها أغنى ولا أكثر خصباً وامراعاً ووفرة خيرات مما كانت عليه في هذا العصر ، ومما يعطينا صورة لانغماس القوم بالترف والرخاء ما عرفوا به من شغف بسماع الغناء ، وكلف بمجالسه ، وما عرفوا به من اناقة الملبس والمأكل .

وكانت المرأة متاعا رخيصاً فقد غصت سوق الرقيق بقرطبة ببنات الروم وأولادهم وامتلأت البيوت الاندلسية بالحرائر والاماء من الاسبانيات وغيرهن ، وكان الاندلسيون يتسامحون فى حجاب الاماء والسراري ولكنهم يحجبون الحرائر وقد قابلوا سفور ولادة بنت المستكفي بشيء من الاستغراب ولم يرضوا عن بروزها للرجال وسمرها معهم :

وكان من النساء فى جميع العصور من أثرت في السياسة وتدخلت فى شؤون الدولة وأوضح مثال على ذلك ما فعلته صبح زوج المستنصر بعد موت زوجها من التواطؤ مع الحاجب المنصور وتعيينها اياه حاجبا (أي رئيس وزارة) ليضمن لابنها دوام السلطة ويقضي على منافسيه .

وأما الحياة العقلية في هذا العصر فقد رأينا كيف خطت الاندلس خطوات فساحاً في ميادين العلوم على اختلافها ، وقد أجملت العوامل التي تآزرت على تحقيق هذه النهضة العلمية الشاملة التي أشاد بها المؤرخون ، واطنبوا في وصف مظاهرها . ثم تكلمت على ما انجزت الاندلس فى ميدان العلوم الدينية ، وعرضت لأشهر اعلام هذا اللون

من النشاط الفكري ، ونوهت بما لهم من آثار .

وخصصت العلوم العقلية بفقرة درست فيها ما بلغته الاندلس ، في هذا المضمار من شأو بعيد ، استحقت به اعجاب المؤرخين .

ثم عرضت بعد ذلك للعلوم اللغوية في هذا العصر ، فوجدت أن هذا العصر هو ما يمكن أن نسميه بالعصر الذهبي لعلوم اللغة ، وقد كان نتيجة لما سبقه من نشاط قام به المؤدبون الاوائل ، وعدد من أهل العلم الذين وفدوا على المشرق ، وأفادوا من أئمة اللغة فيه .

ثم رأيت ان أول ملامح النهضة اللغوية ، هو ظهور العالم اللغوى المتخصص ، الذي يقف في صف أكابر علماء اللغة في المشرق . فقد كان الزبيدى ابن دريد المغرب ، وكان تلامذة القالي الآخرون يقاسون بتلامذة المبرد .

ورأيت ان أول عالم لغوى متخصص هو الرباحي ، الذي لم يؤثر عنه اشتغال بالحديث وغيره من علوم الدين . وكان المحدثون والفقهاء هم الذين يقومون بتدريس العربية ، ولم تكن اللغة إلا جانباً من جوانب ثقافتهم ، وبذا انتقل الدرس اللغوى في أوائل هذا القرن ، وعلى يدى الرباحى ، من كونه معارف عامة ، ومسائل لغوية أولية ، إلى درس يمتاز بالعمق ، ويميل إلى اكتناه العلل ، وينشد الوقوف على اسرار اللغة وخفايا النحو .

وكان وفود القالي على الاندلس فى هذا العصر ذا أثر كبير في دعم الدرس اللغوي ، فقد حمل هذا الوافد الكبير خلاصة العلم المشرقي ، وكفى طلاب العربية هناك ، مؤونة الرحلة إلى المشرق ، وأتاح لمن ينشد التخصص منهم أن يقف على ما شاء من كتب ومتون ، لم يكن بد من الرحلة الى المشرق ، للوقوف عليها ، والافادة منها ، ورأيت أن

من مظاهر النهضة اللغويه في هذا القرن ، كثرة المؤلفات ، وتنوع موضوعاتها واتجاهاتها .

وعرضت في الفصل الثاني لحياة الزبيدي ، وبدأته بالحديث عن نسبه ، فتبين لي أنه يتحدر من قبيلة زبيد ، وهي قبيلة كبيرة باليمن . وأعقبت ذلك بالحديث عن أسرته ، فقد كان والده ، الحسن بن عبد الله وهو شيخ طاهر من أهل الفضل ، يسكن اشبيلية ، ويتولى تدريس كتب الرجال ، وأساليب تعديلهم وتجريحهم ، وكان للزبيدي أخ وابنان ، فأما الاخ فهو أبو محمد عبد الله بن الحسن ، ذكره الحميدي في (جذوة المقتبس) وقال إنه على حظ من اللغة والأدب .

وأما الابنان فقد ذكرهما الحميدى أيضاً وكان أكبرهما أحمد ، ويكنى أبا القاسم ، والثاني محمد ويكنى أبا الوليد . وولي الأخير قضاء اشبيلية بعد أبيه . وكان أحد الثلاثة الذين قبضوا على مقاليد الامور في اشبيلية عند نشوب الفتنة فيها عام ٤١٤ هـ :

واتفقت المصادر على ان الزبيدي توفي عام ٣٧٩ هـ ، إلا انها لم تذكر سنة مولده ، فذهب المحدثون الى انه ولد سنة ٣١٦ هـ ، معتمدين على رواية لابن خلكان ، جاء فيها أن الزبيدي عاش ٦٣ سنة :

أما أنا فقد شككت في تقدير عمره ، وافترضت انه ولد سنة ٣٠٨ هـ : ليتاح لي التوفيق بين روايتين ، لا مجال لاطراحهما أو الشك فيهما .

تقول الأولى : إن أباه توفي وهو صغير فلم يسمع منه لصغر سنه . وإذا كان أبوه - كما تقول المصادر - قد توفي سنة ٣١٨ هـ فان عمره يكون - إذا أخذنا بما افترضت - عشر سنين وهو عمر لا يسمح

بسماع كتب الرجال من أبيه .

وتقول الاخرى : انه كان اماماً عند وفود القالي على الاندلس ، ولكنه عرف فضل القالي ، فمال إليه وأقر له . وإذا كان القالي قد وفد على قرطبة سنة ٣٣٠ ﻫ فان عمره يكون ـ إذا أخذنا بما افترضت ـ اثنين وعشرين عاما ، وهو عمر يمكن أن يبلغ الانسان فيه درجة الامامة في العربية إذا كان قد أوتي ما أوتيه الزبيدي ، من رسوخ ملكة وتوقد خاطر .

وبذلك فان الهبوط بسنة ولادته عن هذا العام ، أو الارتقاء بها عنه ، يؤدي إلى التضحية باحدى هاتين الروايتين .

ونحن لا ندري عن طفولته شيئاً ، وكل الذي نعلمه ، انه كان صغيراً حين توفى أبوه ، وانه تلقى مبادىء علومه في اشبيلية ، ثم أم قرطبة ، فأكمل بها تعليمه ، وعاد إلى اشبيلية .

ولما ذاع صيته ، وظهر فضله ، استدعاه الحكم المستنصر إلى قرطبة على عادته في استقدام أهل الفضل ، فاتصلت أسبابه ، بالقصر الاموي ولقي فيه الحظوة ، ثم اصطفاه المستنصر مؤدباً لابنه هشام وقلده أحكام القضاء في الموضع الذي يسكنه من قرطبة ، ولما توفي المستنصر ، قلده هشام خطة الشرطة .

ولكن الاقامة في قرطبة ، لم تطب للزبيدي ، بعد أن تسلط الحاجب المنصور على الحكم ، وحجر على الخليفة هشام . واستأصل البارزين من رجال دولته ، وأصبح الآخرون مراقبين ، لا يأمن المنصور جانبهم ، فعاد الزبيدي إلى اشبيلية ، ليقضي فيها بقية حياته فتسلم قضاءها ، وتوفي بها وهو ما يزال في منصبه .

وأعقبت ذلك بالكلام على أخلاقه ، فرأيت أنه امتاز بالتواضع

ودماثة الخلق ، وتوقير العلماء ، وبنيت على انتخابه للقضاء وخطة الشرطة أنه كان حسن السيرة مستقيم السلوك ، معروفاً بالحزم والعدل .

وقد تنوعت ثقافته ، وتعددت جوانب معرفته ، فكان مع أدبه من أهل الحفظ للفقه والرواية للحديث ، ولكن علوم اللغة ، استمالته وحظيت بأوسع جهده ، فشهر بها وتبوأ مكان الصدارة منها ، لا بين علماء اللغة فى الاندلس فقط ، بل بين علماء المشرق أيضاً .

وعرضت لشيوخه ، فقسمتهم على مجموعتين ، تضم الأولى شيوخه في العلوم الدينية وهم : قاسم بن أصبغ ، وسعيد بن فحلون ، وأحمد ابن سعيد بن حزم بن يونس الصدفي ، واحمد بن نصر بن خالد .

وتضم الثانية شيخين من شيوخه درس عليهما العربيـــة ، وهما الرباحي والقالي .

ورأيت أن الاندلس لم تعرف قبلهما من خطا بالدرس اللغوي نحو النضج والازدهار ، فقـــد تولى الاول تدريس دقائق النحو ، وعلله ، وأخذ الطلاب عنه كتاب سيبويه وغيره من كتب اللغة .

ولم يقتصر الثاني على مجرد التدريس والتأليف ، بل كان لتلك الثروة التأليفية الضخمة والكتب الموثقة المقروءة التي حملها معـه ، أثر بعيد في تنشيط الدرس اللغوي ، وبعث الحياة فى أوصاله .

وقد استطعت أن أتعقب فى المصادر أسماء الذين درسوا عليه ، وقرأوا به ، فأحصيت منهم ثمانية ، والمشهور أنهم ثلاثة :

وأما شعره ، فاستطعت ان أجمع منه ما تناثر في كتب التراجم ، وهو شعر يكاد ينتظمه غرض واحد هو الوعظ والارشاد ، وهو بكـلام الناظمين أشبه منه بشعر الشعراء .

وجاء الفصل الثالث خاصاً بمؤلفاته ، وهي ثلاثة عشر كتاباً ،

لم تصل إلينا منها إلا خمسة ، وقـــد اكتفيت بذكر كتبه المفقودة ، والاشارة إلى المظان التي ذكرتها ، ولكني أطلت الكلام على واحد منها هو (استدراك الغلط الواقع في كتاب العين) ذلك لأن السيوطي نقل منه في مزهره ، مقداراً كافياً يعين على تعرف منهجه ، وطبيعة مادته .

وكان ابرز مافي الكتاب بعد نقد الاخطاء التي وقعت في (العين) رأى الزبيدى فى نسبة (العين) إلى الخليل . فقـــد كان يرى أن الخليل وضع فكرة الكتاب ، ورسم خطة السير فيـه ، ولكنه عوجل عن اتمامه ، فتولى حشوه ، قوم غير اثبات . وقد بنى رأيه هـذا على أدلة أربعة ذكرتها وذكرت ما قام حولها من اعتراض .

وأما كتبه الخمسة التي وصلت إلينـا ، فدرست أربعة في الباب الثاني ، ودرست الخامس وهو (طبقات النحويين واللغويين) فى هذا الفصل ، ولم أضمه إلى الباب الثاني ، لانه في جملته كتاب أخبار وسير ، وليس كتاب نحو أو لغة .

وبهذا الفصل انتهى الباب الاول . وأما الباب الثاني فقد تضمن أربعة فصول ، جعلت كل واحد منها خاصاً بكتاب من كتب الزبيدى الأربعة .

فكتاب (الواضح في النحو) كان موضوع الفصل الأول ، وقد جعلت الكلام على هذا الكتاب في قسمين : تناولت في القسم الأول التعريف بنسخ الكتاب ، وبدواعي تأليفه ، وبالطريقة التي اتبعهـا الزبيدي في تبويبه ، ثم تكلمت على ميزاته فرأيت أنها أربع :

١ ـ الايجاز والابتعاد عن التفصيل ، وتعقب الوجوه الممكنة في المسألة الواحـدة ، ذلك لانه كتاب ألف تلبية لحاجة المبتدئين إلى كتاب سهل :

٢ ـ عزوف الزبيدي فيه عن الاخذ باسلوب التقدير والتأويل في الموضوعات ، رغبة منه في تيسير النحو على الشادين به ، والمبتدئين فى طلبه .

٣ ـ انعدام الشواهد فيه ذلك لانه كتاب لا يعرض إلا لمسائل أولية وأحكام عامة لا تقتضي الاستدلال عليها بالشواهد .

٤ ـ سهولة عبارته ووضوحها حتى إن قارئه ، لا يجد عسراً في فهمه والانتفاع به ، مهما بلغ حظه من النحو .

وتناولت في القسم الثاني منهج الزبيدي النحوي : فتكلمت على المصطلح النحوي فى الكتاب وعلى ظاهرة أخرى برزت فيه ، تلك هي مزج النحو باللغة .

ثم عرضت لموقف الزبيدي من السماع والقياس ، ورأيت أنه ينهج فيهما نهجاً بصرياً ، فلا يقبل من وجوه القول ، وصور التعبير ، إلا ما ساندها النقل الكثير ، وأيدتها الشواهد الوفيرة ، فهو دائماً يتحرى تلك الوجوه ، وينعتها بالجودة ، ويهمل ما قد يكون هناك من أوجه أخرى بناها النحاة على ما وقع اليهم من شواهد قليلة .

وأعقبت ذلك بالكلام على تعليلاته فرأيت أنه لم يكن يميل إلى ذكر العلة ، بل يكتفي بتقرير الحكم مجرداً من تعليله ، ذلك لأنه توخى أن يجعل كتابه في مستوى شداة لم تستحصد ملكاتهم ، ولم يبلغوا الشأو الذي يهيئهم لفهم النحو المتكيء على التعليل الفلسفي . ولكن الكتاب مع ذلك لم يخل من عدد نزر من التعليلات القريبة التي تختلف عما يسمى بالعلل الثواني والثوالث .

ثم عرضت لموقفه من المسائل الخلافية ، فرأيت أنه لم يتقيد بأقوال البصريين ، وان كانت هذه الاقوال هي الغالبة على كتابه ، بل

رجح عليها أقوال الكوفيين في بعض المسائل ، فكان بذلك رائدا لما عرف بالمذهب الاندلسي في النحو ، وهو مذهب امتـــاز بمزج علمي البصرة والكوفة ، مع اعطاء البصرة شيئاً من التفضيل والتقدير :

وكان كتاب (أبنية الاسماء والافعال) موضوع الفصل الثاني : وقبل أن أعرض له بالدرس أعطيت القارىء فكرة واضحة عن معنى الابنية ، وعن الحروف الأصلية وحروف الزيادة ، وأهمية الميزان الصرفي في بيان هذه الحروف ، والكشف عن مواقعها من الكلمة .

وتقدمت بعد ذلك لدراسة الكتاب ، فعرضت لنسخه ، وللاختلاف حول عنوانه ، ولدواعي تأليفه ، ثم تكلمت على منهجه وطريقة تبويبه ووقفت عند جهود الزبيدي فيه ، وهي جهود تلخصت بما يلي :

١ - تلخيص الابنية التي ذكرها سيبويه في كتابه ثم اتباعها بالابنية المستدركة .

٢ - بيان ما وقع فيه سيبويه من أخطاء .

٣ - إظهار ما في كتاب سيبويه من التناقض .

٤ - بيان خلل المنهج الذى اتبعه سيبويه فى تبويب الابنية .

٥ - الكشف عن عبث النساخ بالكتاب والنص على الاختلاف الواقع بين النسخ المتداولة منه في عصر الزبيدي :

٦ - شرح ما وقع فيه من غريب الكلمات .

ثم تكلمت على مصادر الكتاب وشواهده ، ووضوح شخصية الزبيدي فيه : وتناولت في شيء من اسهاب موقف ابن جني وابن عصفور من الابنية التي استدركها الزبيدي وغيره على سيبويه ، فقد دافع هذان العالمان عن سيبويه وحاولا أن يجدا له المسوغ فى اهمال ما أهمل من أبنية ومفردات . وعقبت على ذلك بملاحظات عامة كشفت فيها عن

أسباب اهمال سيبويه هذا العدد الكبير من الابنية ، وبينت أنه كان على حق في اهمال بعضها ، كما رأيت أن المدافعين عنه لم يكونوا على حق دائما في دفاعهم .

وكان كتاب (لحن العامة) موضوع الفصل الثالث من الباب الثاني .

بدأت الفصل بالكلام على نسخ الكتاب ثم عرضت لنسخته المطبوعة ، ورأيت انها لا تحتوي على صورته الكاملة ، فقد ندت منها مواد ، لم يهتد إليها محققه الدكتور رمضان عبد التواب ، على الرغم من محاولته ، جمع ما تناثر منه في بطون الكتب .

وتكلمت بعد ذلك على معنى (اللحن) ، والكتب التي ألفت فيه حتى نهاية القرن الرابع ، وأوضحت مزاياها وعيوبها ، ومكانة كتاب الزبيدي منها : ثم عرضت لدواعي تأليف الكتاب ، ووقفت عند المقصود بالعامة عند الزبيدي ، فرأيت انهم الدهماء والسُقّاط ، وليسوا المثقفين كما وهم الدكتور الاهواني ، وتابعه في ذلك الدكتور رمضان عبد التواب ، والبير مطلق ، واستدللت على ذلك بنص أورده الزبيدى في مقدمة كتابه .

وبعد الكلام على تبويب الكتاب ، تناولت الخطة التي سلكها الزبيدي في تأليفه والطريقة التي التزمها في عرض مواده .

وكان الذين سبقوا الزبيدى إلى التأليف فى لحن العامة يكتفون بتسجيل الخطأ الدائر على الالسن ووضع ما يقابله من الفصيح ، دون أن يعللوا الخطأ ، ويكشفوا عن العوامل التي تدفع الناس إلى ارتكابه

والتورط فيه .

أما الزبيدي فقد تناثرت في كتابه ملاحظات قليلة ، ولكنها موفقة في تفسير اللحن ، وتعليل حدوثه ، وهي ملاحظات أقرها علم اللغة الحديث ، وعدها في جملة عوامل كثيرة ، يفسر في ضوئها مايعتري اللغة من تطور . وقد عرضت لتلك الملاحظات ، ووقفت عند رأي المحدثين فيها :

وتكلمت بعد ذلك على مصادر الزبيدى ، وشواهده ، ومنهجه اللغوى ، وهو منهج يتميز بالتشدد ، والأخذ بأفصح اللغات ، وتخطئة من ينطق بغيره .

وعرضت لموقفه من السماع والقياس ، فرأيت أنه ، يتحرى في السماع ثقة النقل ، وفصاحة الأصل ، ويعزف عن الأخذ باللغات الرديئة والمرذولة .

وفي القياس يعتمد على الكثرة والاطراد ويجعل النادر القليل شاذاً يحفظ ولا يقاس عليه .

وعقدت فقرة خاصة ببيان أثر (لحن العامة) في الكتب التي ألفت بعده فكان لمؤلفيها المنهل العذب ، كما وقفت عند عدد من الكلمات التي خولف الزبيدى فيها ، فجعلها من اللحن ، وعدها غيره من الفصيح الذي يجب أن يقبل .

وكان كتاب (مختصر العين) موضوع الفصل الرابع والاخير من هذه الرسالة : وقد بدأته بالكلام على نسخ الكتاب ، ودواعي تأليفه فرأيت أن الزبيدي كان كثير الاهتمام بكتاب (العين) وكان من الذين جعلوه موضوعاً للدرس والتأليف ، فقد اتجه إلى نقده ، واصلاح ما فيه من الخطأ ، كما عمد إلى اختصاره ، وحذف حشوه ، وفضوله

فنال مختصره اعجاب العلماء ، وحظي باهتمامهم ، حتى فضله بعضهم على أصله (العين) .

ثم تكلمت على أهمية كتاب (العين) ، ووقفت عند أثره البعيد في التأليف المعجمي ، وفيما ظهر من آراء ونظريات ، بناها اللغويون المتأخرون على ما في (مقدمته) من لمحات موفقة ، وآراء قيمة ، فاذا فرغت من ذلك ، عرضت لأهم الكتب التي دارت حول (العين) فرأيت أن منها ما اتجه إلى اكماله ، واستدراك ما فاته من مواد ، ومنها ما توخى تصحيحه ، ومنها ما مضى يختصره ، ويستبعد منه الحشو والفضول .

ثم عرضت للطريقة التي سار عليها الخليل في تأليف (العين) فوصفتها ، وتكلمت على أبوابه ، وما ضمه كل باب من الالفاظ .
ثم تناولت منهج الزبيدي في مختصره ، فرأيت ان الزبيدي لم يكن مختصراً فحسب ، بل كان ناقداً ومصححاً ، وواضعا الاصول في مواضعها الصحيحة ، حتى ليمكن القول إنه أعاد النظر في ترتيب مواد (العين) ، ونقل بعضها من مكانه ، وجعله في الباب الملائم له ، كما صحح المختل والمصحف من الفاظه ، ثم استدرك عليه ، وزاد فيه كثيراً من المواد . وقد مثلت لكل ذلك بما يكفي لايضاحه .

ملحق شرح المفردات الغريبة

حرف الهمزة

الكلمة	معناها
أُبْلُم	خُوصُ المُقْلْ . والمال بيننا شق الأُبْلُمة أي نصفين .
الإثْمِد	حجر الكحل .
أَجْفَلَى	يقال دعونهم الاجفلى اذا دعوت الجماعة كلها
احْرَنْبَى	نام واستلقى على ظهره .
اخْرَنْطَم	رفع أنفه واستكبر .
إرْزَب	القصير الغليظ من الرجال .
الأَرطَى	شجر .
إزْمَوْل	الأُزمولة بالضم والكسر المُصَوِّت من الوعول وغيرها .
اسْلَنْقَى	نام على ظهره .
اعرورى	سار في الارض وحده وفرسا : ركبه عريانا .
اعلوَّط البعير	تعلق بعنقه وعلاه .
اغدودق	اغدودق المطر : كثر .
اغدودن	اخضر وطال .
اغْرَنْدَى	الشيء علاه .
الأَفْكَل	الرعدة .
اقْعَنْسَس	رجع الى الخلف .

الكلمة	معناها
الأَلَنْدَد	الألد من الرجال في الخصومة .
أُمْلُود	الناعم اللين .
إنْقَحْل	الرجل المسن .
الإهْجِيري	العادة .
الأَيْدَع	دم الأخوين :

حرف الباء

البُرْثُن	هو للسبع كالاصبع للانسان :
بَرْنَاسَاء	الناس .
البَرَهْرَهَة	من النساء الناعمة التي كأنها ترعد من الرطوبة .
بلِز	المرأة الضخمة .
بُلَهْنِيَة	السعة والرفاهية .
بُهْلُول	الضحاك .

حرف التاء

تَتْرَى	المتابعة .
تِتْفَل	الثعلب : أو جروه .
تِجْفاف	وهي آلة للحرب يلبسه الفرس أو الانسان ليقيه في الحرب .
تَذْنُوب	البُسْر الذي قد بدا فيه الارطاب من قبل ذنبه .
تُرْتَب	الراتب الثابت .

الكلمة	معناها
تِرْعِيَة	بتشديد الياء وقد تخفف : من يجيد رعي الابل .
تَسَرْعَف	سرعفت الصبي احسنت غذاءه فتسرعف .
تَمَدْرَع	لبس المدرعة وهي ثوب كالدراعة ؛
تَنْضُب	شجر ذو شوك قصار ؛
تَهْوَاء	تهواء من الليل : ساعة .
تَيْتَاء	من يحدث عند الجماع أو يُنْزِل قبل الايلاج.

حرف الجيم

جَحْجَبَى	اسم رجل .
جَحْمَرِش	الأفعى الغليظة ؛
الجُخَادِب	دابة نحو المظا .
جُدٌّ	رجل جد عظيم الجَد وهو البخت .
الجُرَائِض	الجمل العظيم الشديد ؛
الجِرْدَحْل	الناقة الغليظة . والوادي ؛
الجُرْشُع	العظيم من الجمال ؛
جَعْبَى	قلبه وجمعه وصرعه .
جِلْوَاخ	الوادي الواسع الممتلىء .
جَيْشَل	من أسماء الضباع ؛

حرف الحاء

حَبَرْبَر	الشيء القليل . والقصير اللئيم ؛

الكلمة	معناها
الحُبُنْرُج	من طير الماء :
الحَبَنْطَى	العظيم البطن .
الحَبَوْكَر	الداهية .
حِشْيَل	شجر ،
حَدُث	الحَسَن الحديث .
حِذْرِيَة	الأرض الخشنة :
الحَزَابِيَة	الغليظ القصير :
الحَنْدَقُوق	بقلة .
الحِنْزَقْر	القصير .
الحِنْطَأْو	العظيم البطن :
الحَوْفَزان	لقب رجل .

حرف الخاء

خِدَبّ	الضخم .
الخِرْفُع	القطن المندوف .
الخِرْمِل	المرأة الحمقاء :
الخَفَيْفَد	الظليم .
الخَنْشَلِيل	الماضي من الرجال .
الخَنْفَقِيق	الداهية .
الخَيْتَعُور	الباطل . والذي لا يوثق به .
الخَيْسَفُوج	الخشب البالي :
الخَوْزَلى	والخيزلى مشية فيها تفكك :

حرف الدال

الكلمة	معناها
الدُرْدَاقِس	عظم في القفا .
الدُلاَمِص	والدملص والدلمص : البراق .
الدِلنْقِيم	من النوق التي تكسر فوها وسال مَرْغُها وهو اللعاب .
الدَمَكْمَك	الشديد من الرجال .

حرف الذال

ذُرْنُوح	دويبة حمراء منقطة بسواد .
ذِفْرَى	صفحة العنق .
ذِهْبَوْط	موضع ؛

حرف الراء

الرُبَع	ما نتج في أول الربيع : من أولاد الابل ؛
رَعْشَن	المرتعش .
رِوى	ماء روى : روي .

حرف الزاى

الزِئْبِر	ما يظهر من درز الثوب .
الزِبْرِج	السحاب الخفيف الذي تسفره الريح .
الزُرْقُم	الازرق .
الزُمَّلِق	من يُنْزِل قبل أن يُدْخِل .

الكلمة	معناها
الزُمَّيْل	الجبان الضعيف .
الزِهْلِق	حمر زهالق اذا استوت متونها من الشحم .

حرف السين

السِبَطْر	السبط الطويل .
السِرْدَاح	المكان اللين .
السَلْهَب	من الرجال الطويل :
السُمَّانَي	طائر .
السَمَيْدَع	السيد الكريم :
السَنْبَتَة	الحين من الدهر .
سِنْدَأْو	وقِنْدَأْو : الخفيف :
السِيَرَاء	ثوب مخطط يعمل من القز :

حرف الشين

الشَأْمَل	الريح تهب من قبل الحجر :
الشَجْعَم	الطويل .
الشَجَوْجَى	الرجل المفرط الطول .
الشَفَلَّح	الواسع المنخرين .
الشَمَرْدَل	الحسن الخلق من الابل . والذليل .
شَنَهْبَرَة	عجوز شهبرة وشنهبرة : كبيرة .

حرف الصاد

صِرّي	ماء صرى : المجتمع المستنقع .

الكلمة	معناها
الصِقَعْل	التمر اليابس ينقع في اللبن الحليب .
الصَمَحْمَح	الشديد من الرجال ؛
الصَهْصَلِق	المصوِّت ؛
الصِيهْمِيْم	الذي يركب رأسه ، من الرجال أو الجمل الذي لا يرغو .
صَوْمَع	الشيء جمعه ودقق رأسه .

حرف الضاد

ضِئْبُل	الداهية ؛
الضَبَغْطَرَى	الرجل الاحمق .
ضَهْيَاء	المرأة الت لا تحيض .
الضَيْفَن	من يجيء مع الضيف تطفلا .
الضَيْمُران	ضرب من الشجر .

حرف الطاء

طَخْرِبَة	قطعة خرقة .
الطُرْطُب	الثدى العظيم .
طِرْيَم	رجل طريم : طويل .
سَبْي طِيَبَة	أى بلا غدور نقض عهد .

حرف العين

العَبَاقِيَة	الداهية .

الكلمة	معناها
عُبْر	ناقة عبر أسفار : قوية على السفر .
العَبَنْقَس	ولد الأمة :
العَبَوْثَران	نبات طيب الريح .
العِثْيَر	الغبار :
العَثَوْثَل	الكثير اللحم .
العَدَبَّس	الشديد .
العُذَافِر	من الجمال الغليظ .
العِرْبَدّ	حية تنفخ ولا تؤذي .
العِرَضْنَى	نوع من سير الخيل :
العَرْقُوَة	الدلو :
العَرَنْقَصان	والعَرَيْقُصان ، نبات .
العِزْهَاة	الذي لا يلهو .
العِزْوِيت	موضع .
العَضْرَفُوط	ذكر العظاء .
العَطَوَّد	الانطلاق السريع :
العَفَنْجَج	الاحمق .
العَقَنْقَل	الكثيب من الرمل .
العُلَابِط	الضخم : واللبن الخاثر :
عُلَادَى	الشديد من الابل ،
العَلَنْطَمِيس	الضخم الغليظ من الابل .
العَلَنْقَى	شجر قضبانه دقاق :

الكلمة	معناها
العَمَلَّس	القوى على السير السريع .
عَنْبَس	من صفات الاسد مأخوذ من العبوس .
العَنْسَل	الناقة السريعة .
العُنْظَب	الجراد الضخم ،
العِنْفِص	القليلة الحياء البذيئة :

حرف الغين

الغَدَوْدَن	الطويل المسترخي .
الغَشَمْشَم	الذي يركب رأسه فلا يثنيه عن مراده شيء.

حرف الفاء

الفُتَكْرِين	الداهية : أو الامر العجيب .
الفَدَوْكَس	اسم رجل .
الفَرْتَنَى	كل أمة عند العرب :
الفِرْناس	الشديد الماضي من الرجال :
الفِطَحْل	دهر لم يخلق الناس فيه بعد :
الفِلْطُوس	الكمرة العظيمة ،

حرف القاف

القَبَعْثَرَى	العظيم الخلق الكثير الشعر من الابل والناس.
القُدَعْمِل	الضخم من الابل .
القُدَعْمِلَة	الفقير الذي لا يملك شيئاً :

الكلمة	معناها
القِرْشَبّ	وهو الغليظ الضخم الطويل .
القِرْطَبُوس	الناقة العظيمة .
قِرْطَعْبَة	ما عليه قرطعبة : أى ليس عليه شيء .
القَرَعْبَلانَة	دويبة .
قَرْقَرَى	موضع .
القَراوِيح	جمع قرواح وهي الناقة الطويلة .
القِرْواش	الطفيلي . والعظيم الرأس :
القَطَوْطَى	الحمار يقطو فى مشيته ، والقصير الظاهر .
القَفْشَلِيل	المغرفة .
القَمَنْدَد	القصير .
القِلْعَم	الشيخ المسن .
القَمَطْرِير	الشديد :
القَنْدَوِيل	العظيم الهامة :
القَهْبَلِس	حشفة الذكر : والمرأة العظيمة :

حرف الكاف

الكدْيَوْن	دردى الزيت :
كُنْتَأْل	القصير :
الكَنْدَأْوْ	الجمل الغليظ .
الكُنْدُر	القصير . وحمار غليظ :
الكَنَهْبُل	شجر :
الكَوَأْلَل	القصير .

حرف اللام

الكلمة	معناها
اللُبَادَى	طائر يلبد في الارض فلا يكاد يطير الا أن يطار :
لُبَد	مال لبد ا كثير .

حرف الميم

المَرْمَرِيت	الداهية :
المَرْمَرِيس	الاملس ؛
مُعْلُوق	كل ما علق به الشيء ؛
المُغْرُود	جمع غردة وهي ضرب من الكمأة :
المُغْفُور	الصمغ .

حرف النون

النافقاء	حُجْر من جِحَرة اليربوع :
النَدُس	الفطن .
النِقْض	الجمل الهزيل :

حرف الهاء

الهِبْلَع	الاكول أو الذي لا يعرف أبواه :
هَبَيَّخ	الغلام .
الهِجْرَع	الطويل والأحمق
الهَمَرْجَل	السريع :

الكلمة	معناها
الهَمَّرِش	العجوز الكبيرة .
الهُمَّقِع	ثمر التنضب :
هَيْنَم	صوّت :

حرف الواو

الوَرَنْتَل	الامر العظيم :
الوَقَل	الصاعد في الجبل من الوعول وغيرها .

حرف الياء

اليَرْمَع	حجارة رخوة .
اليَحَامِد	جمع اليَحْمَد وهي قبيلة من الازد .
اليَسْتَعُور	شجرة ، ويقال هي الداهية :
اليَلْمَق	القباء .
اليَلَنْجَج	عود الطيب
اليَلَنْدَد	الالد من الرجال في الخصومة

المصادر والمراجع

١ ـ أبنية الصرف في كتاب سيبويه .
د . خديجة الحديثي ـ الطبعة الاولى ـ بغداد ١٩٦٥ .
٢ ـ أبو زكريا الفراء ومذهبه فى النحو واللغة .
الدكتور أحمد مكي الانصاري ـ دار المعارف ـ مصر ١٩٦٢ م
٣ ـ أبو عثمان المازني ومذاهبه في الصرف والنحو
رشيد عبد الرحمن العبيدى ـ بغداد ١٩٦٩
٤ ـ أخبار النحويين البصريين
أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي ـ تحقيق فريتس كرنكو
بيروت ١٩٣٦
٥ ـ الاخطاء اللغوية الشائعة
محمد علي النجار ـ القسم الثاني ـ القاهرة ١٩٦٠
٦ ـ أدب الكاتب
ابن قتيبة الدينورى ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
الطبعة الثالثة ١٩٥٨
٧ ـ الاستدراك على سيبويه في كتاب الابنية والزيادات على ما أورده فيه أبو بكر الزبيدى
نشر جويدى ـ روما ١٨٩٠
٨ ـ الاشباه والنظائر
السيوطى ـ الطبعة الثانية ـ حيدر آباد الدكن ١٣٥٩ هـ
٩ ـ اصلاح المنطق
ابن السكيت ـ تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون
الطبعة الثانية ١٩٥٦ ـ دار المعارف ـ القاهرة

١٠ ـ الاضداد
محمد بن القاسم بن الانبارى ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ الكويت ١٩٦٠
١١ ـ الاعلام
خير الدين الزركلي ـ الطبعة الثانية (بدون تاريخ)
١٢ ـ الاغراب في جدل الاعراب
أبو البركات عبد الرحمن بن الانبارى ـ تحقيق سعيد الافغانى ـ مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٧
١٣ ـ الاقتراح
السيوطى ـ طبع مجتبائى (بدون تاريخ)
١٤ ـ الاقتضاب في شرح أدب الكتاب
ابن السيد البطليوسى ـ بيروت ١٩٠١ ، المطبعة الادبية
١٥ ـ إنباه الرواة علي أنباه النحاة
للقفطي ـ تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ـ طبعة دار الكتب ١٩٥٠ ـ ١٩٥٥
١٦ ـ الانصاف في مسائل الخلاف
أبو البركات بن الانبارى ـ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة ١٩٤٥
١٧ ـ أوضح المسالك الى الفية ابن مالك
ابن هشام ـ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ـ الطبعة الرابعة ١٩٥٦
١٨ ـ البارع
لأبى علي القالي ـ تحقيق هاشم الطعان (رسالة ماجستير مخطوطة)

١٩ ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس
للضبى ـ بجريط ١٨٨٤
٢٠ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة
للسيوطى ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة ١٣٢٦ هـ
٢١ ـ البلغة في تاريخ أئمة اللغة
للفيروزآبادى ـ تحقيق محمد المصرى ـ دمشق ١٩٧٢
٢٢ ـ البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب
ابن عذارى المراكشى ـ تحقيق ليفى بروفنسال ورفيقه ـ دار الثقافة ببيروت
٢٣ ـ البيان والتبين
الجاحظ ـ تحقيق حسن السندوبى ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٣٢
٢٤ ـ البيان والتبين
الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ١٩٦١
٢٥ ـ تاج العروس من جواهر القاموس
محمد مرتضى الزبيدى ـ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت
٢٦ ـ تاريخ الادب العربى
بروكلمان ـ ترجمة عبد الحليم النجار ١٩٥٩ ـ ١٩٦٢
٢٧ ـ تاريخ الاسلام السياسى
الدكتور حسن ابراهيم حسن ـ الطبعة الرابعة ـ ١٩٥٨ القاهرة

٢٨ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية
كارل بروكلمان ـ ترجمة الدكتور نبيه امين فارس ومنير البعلبكي ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٩٦١
٢٩ ـ تاريخ العرب في اسبانيا
الدكتور خالد الصوفي ـ الطبعة الاولى ـ دار الشرق بحلب
٣٠ ـ تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس
لابن الفرضى ـ القاهرة ١٩٥٤
٣١ ـ تاريخ الفكر الاندلسي
بالنيثيا ـ ترجمة حسين مؤنس ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة ١٩٥٥
٣٢ ـ تاريخ قضاة الاندلس
أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي ـ نشر ليفي بروفنسال ـ القاهرة ، دار الكاتب المصري ١٩٤٨
٣٣ ـ تثقيف اللسان وتلقيح الجنان
ابن مكي الصقلي ـ تحقيق عبد العزيز مطر ـ القاهرة ١٩٦٦
٣٤ ـ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد
ابن مالك ـ تحقيق محمد كامل بركات ـ دار الكاتب العربي ١٩٦٧
٣٥ ـ تصريف الاسماء
محمد الطنطاوي ـ الطبعة الخامسة ١٩٥٥
٣٦ ـ التطور النحوي للغة العربية
برجستراسر ـ مطبعة السماح ـ ١٩٢٩

٣٧ ـ تقويم اللسان
عبد الرحمن بن الجوزي ـ تحقيق عبد العزيز مطر ـ
الطبعة الاولى ١٩٦٦
٣٨ ـ التنبيه على حدوث التصحيف
حمزة بن الحسن الاصفهاني ـ تحقيق محمد أسعد طلس
دمشق ١٩٦٨
٣٩ ـ تهذيب اللغة
أبو منصور الازهري ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار
القومية العربية للطباعة ١٩٦٤
٤٠ ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس
للحميدي ـ تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ـ القاهرة
١٩٥٢
٤١ ـ الجمانة في ازالة الرطانة
لمؤلف مجهول ـ تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ـ
القاهرة ١٩٥٣
٤٢ ـ الجمل
أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي ـ تحقيق
ابن أبي شنب ـ الطبعة الثانية ـ باريس ١٩٥٧
٤٣ ـ جمهرة أنساب العرب
ابن حزم الاندلسي ـ تحقيق عبد السلام هارون ١٩٦٢
دار المعارف بمصر
٤٤ ـ جمهرة اللغة
لابن دريد ـ الطبعة الاولى ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣٤٤هـ

٤٥ ـ الحركة اللغوية في الاندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف
البير حبيب مطلق ـ بيروت ١٩٦٧
٤٦ ـ الحلة السيراء
لابن الابار ـ تحقيق الدكتور حسين مؤنس ـ القاهرة ١٩٦٣
٤٧ ـ خزانة الادب ولب لباب لسان العرب
عبد القادر بن عمر البغدادي ـ الطبعة الاولى ـ بولاق ١٢٩٩ هـ
٤٨ ـ الخصائص
لابن جنى ـ تحقيق محمد علي النجار ـ الطبعة الاولى ـ طبعة دار الكتب المصرية
٤٩ ـ الخليل بن احمد الفراهيدي
الدكتور مهدي المخزومي ـ مطبعة الزهراء ـ بغداد ١٩٦٠
٥٠ ـ دراسات في فلسفة النحو والصرف والرسم
الدكتور مصطفى جواد ـ مطبعة أسعد ـ بغداد ١٩٦٨
٥١ ـ دلالة الألفاظ
الدكتور ابراهيم انيس ـ الطبعة الاولى ١٩٥٨
٥٢ ـ دولة الاسلام في الاندلس
محمد عبد الله عنان ـ الطبعة الثالثة ١٩٦٠ « القسم الثالث »
٥٣ ـ الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب
لابن فرحون ـ الطبعة الاولى ١٣٢٩ هـ بمصر
٥٤ ـ الرد على الزبيدي في لحن العوام
لابن هشام اللخمي ـ مخطوطة الاسكوريال رقم ٤٦

٥٥ - روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات
محمد باقر الخوانساري - الطبعة الثانية - طهران ١٣٤٧هـ
٥٦ - سر صناعة الاعراب
ابن جني - تحقيق مصطفى السقا وآخرين - الطبعة الاولى ١٩٥٤
٥٧ - سمط اللالي في شرح أمالي القالي
لابي عبيد البكري - تحقيق عبد العزيز الميمني - القاهرة ١٩٣٦
٥٨ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب
لابن العماد الحنبلي - طبع مكتبة القدسي - القاهرة ١٣٥٠ - ١٣٥١ هـ
٥٩ - شرح الاشموني على الفية ابن مالك
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - الطبعة الاولى ١٩٥٥
٦٠ - شرح درة الغواص
أحمد شهاب الدين الخفاجي - الطبعة الاولى - القسطنطينية ١٢٩٩ هـ
٦١ - شرح شافية ابن الحاجب
رضي الدين الاستراباذي - تحقيق محمد نور الحسن وآخرين - مطبعة حجازي - القاهرة
٦٢ - شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل
شهاب الدين أحمد الخفاجي - تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى - الطبعة الاولى ١٩٥٢
٦٣ - الصاحبي
أحمد بن فارس - تحقيق مصطفى الشويمى ١٩٦٣

٦٤ ـ الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية
اسماعيل بن حماد الجوهري ـ تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ـ دار الكاتب العربي بمصر
٦٥ ـ الصلة
لابن بشكوال ـ تحقيق عزت العطار الحسيني ـ القاهره ١٩٥٥
٦٦ ـ طبقات الشعراء
لابن المعتز ـ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ـ طبعة دار المعارف بمصر
٦٧ ـ طبقات النحويين واللغويين
لابي بكر الزبيدي ـ تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة ١٩٥٤
٦٨ ـ ظهر الاسلام
أحمد أمين ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٣
٦٩ ـ عبقري من البصرة
الدكتور مهدي المخزومي ـ نشر وزارة الاعلام العراقية ١٩٧٢
٧٠ ـ العربية : دراسات في اللغة واللهجات والاساليب
يوهان فك ـ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ـ القاهرة ١٩٥١
٧١ ـ العقد الفريد
لابن عبد ربه ـ تحقيق أحمد أمين ورفيقيه ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة
٧٢ ـ العلة النحوية : نشأتها وتطورها
الدكتور مازن المبارك ـ الطبعة الاولى ١٩٦٥

٧٣ ـ العين
الخليل بن أحمد الفراهيدي ـ مخطوطة المتحف العراقي رقم ٧٧٣
٧٤ ـ العين
الخليل بن أحمد الفراهيدي ـ تحقيق الدكتور عبد الله درويش ـ بغداد ١٩٦٧
٧٥ ـ عيون الاخبار
لابن قتيبة الدينوري ـ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥
٧٦ ـ فصيح ثعلب والشروح التي عليه
نشر وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي ـ الطبعة الاولى ١٩٤٩
٧٧ ـ الفعل : زمانه وأبنيته
الدكتور ابراهيم السامرائي ـ بغداد ١٩٦٦
٧٨ ـ فقه اللغة
الدكتور علي عبد الواحد وافي ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٤٤
٧٩ ـ فقه اللغة المقارن
الدكتور ابراهيم السامرائي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٨
٨٠ الفهرست
لابن النديم ـ طبعة مطبعة خياط ـ بيروت
٨١ ـ فهرست ابن خير ـ الطبعة الثانية ١٩٦٣ ـ بيروت
٨٢ ـ القاموس المحيط
الفيروزآبادي ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٥٢

٨٣ ـ القواعد النحوية ، مادتها وطريقتها
عبد الحميد حسن ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٥٣
٨٤ ـ الكتاب
سيبويه ـ الطبعة الاولى ـ ١٣١٦ ﻫ ـ ١٣١٧ ﻫ
٨٥ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون
حاجي خليفة ـ طبعة لندن
٨٦ ـ لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة
الدكتور عبد العزيز مطر ـ القاهرة ١٩٦٦
٧٨ ـ لحن العامة والتطور اللغوى
الدكتور رمضان عبد التواب ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة ١٩٦٧
٨٨ ـ لحن العوام
ابو بكر الزبيدي ـ تحقيق رمضان عبد التواب الطبعة الاولى ١٩٦٤
٨٩ ـ لسان العرب
ابن منظور ـ طبعة بولاق ـ وطبعة دار صادر
٩٠ ـ اللغة والمجتمع
الدكتور علي عبد الواحد وافي ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٥١
٩١ ـ مباحث لغوية
الدكتور ابراهيم السامرائي مطبعة الآداب في النجف الاشرف ١٩٧١

٩٢ ـ مجالس ثعلب

لاحمد بن يحيى ثعلب ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٥٦

٩٣ ـ المحمدون من الشعراء

للقفطي ـ تحقيق حسن معمري ـ منشورات دار اليمامة ـ الرياض

٩٤ مختصر العين

ابو بكر الزبيدي ـ مخطوط المكتبة المركزية بجامعة بغداد (رقم م خ ١٦ ، ١٧)

٩٥ ـ مختصر العين

أبو بكر الزبيدي ـ تحقيق علال الفاسي ومحمد بن تاويت الطنجي ـ نشر وزارة الدولة في المملكة المغربية السلسلة اللغوية ١ .

٩٦ ـ مدرسة البصرة النحوية

الدكتور عبد الرحمن السيد ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٨

٩٧ ـ مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو

الدكتور مهدي المخزومي ـ بغداد ١٩٥٥

٩٨ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان

لليافعي ـ الطبعة الاولى ـ حيدر آباد ١٣٣٨ هـ

٩٩ ـ مراتب النحويين

لابي الطيب اللغوي ـ تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم القاهرة ١٩٥٥

١٠٠ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها

للسيوطي - تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم وآخرين - مطبعة عيسى البابي الحلبي (دون تاريخ)

١٠١ - مستقبل اللغة العربية المشتركة

الدكتور ابراهيم أنيس - القاهرة ١٩٦٠

١٠٢ - مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والادب والتراجم

الدكتور عمر الدقاق - حلب ١٩٦٨

١٠٣ - مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح أهل الاندلس

للفتح بن خاقان - مطبعة السعادة - مصر ١٣٢٥ هـ

١٠٤ - المعاجم العربية

الدكتور عبد الله درويش - القاهرة ١٩٥٦

١٠٥ - معاني القرآن

للفراء - الجزء الاول - تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٥ ، الجزء الثاني : تحقيق محمد علي النجار ونشر الدار المصرية للتأليف والترجمة

١٠٦ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب

لعبد الواحد بن علي المراكشي - امستردام ١٩٦٨

١٠٧ - معجم الادباء

ياقوت الحموي - مطبعة دار المأمون

١٠٨ - المعجم العربي : نشأته وتطوره

الدكتور حسين نصار - القاهرة ١٩٥٦

١٠٩ - مغني اللبيب
ابن هشام - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - دار الكاتب العربي - بيروت
١١٠ - مقاييس اللغة
أحمد بن فارس - تحقيق عبد السلام هارون - الطبعة الاولى ١٣٦٦ - ١٣٧١ هـ
١١١ - المقتبس في أخبار بلاد الاندلس
أبو مروان حيان بن خلف بن حيان - تحقيق عبدالرحمن علي الحجي - بيروت ١٩٦٥
١١٢ - المقتضب
للمبرد - تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة - القاهرة ١٣٨٥ هـ - ١٣٨٨ هـ
١١٣ - مقدمة ابن خلدون
طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر
١١٤ - الملاحن
لابن دريد - تحقيق ابراهيم اطفيش الجزائري - القاهرة ١٣٤٧ هـ
١١٥ - الممتع في التصريف
لابن عصفور - تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة - الطبعة الاولى حلب ١٩٧٠
١١٦ - من تاريخ النحو
سعيد الافغاني - نشر دار الفكر (بدون تاريخ)

١١٧ - المنصف
شرح ابن جني لكتاب التصريف للمازني - تحقيق ابراهيم مصطفى وعبد الله أمين - الطبعة الاولى ١٩٥٤ القاهرة
١١٨ - الموشح
للمرزباني - تحقيق علي محمد البجاوي - القاهرة ١٩٦٥
١١٩ - النحو العربي : نقد وبناء
الدكتور ابراهيم السامرائي - دار الصادق - بيروت ١٩٦٨
١٢٠ - نشأة النحو
محمد الطنطاوي - الطبعة الرابعة ١٩٥٤
١٢١ - نصوص عن الاندلس
لابن الدلائي - تحقيق عبد العزيز الاهواني - معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ١٩٦٥
١٢٢ - نظرات في اللغة والنحو
طه الراوي - الطبعة الاولى - بيروت ١٩٦٢
١٢٣ - نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب
للمقرى - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ١٣٦٩ هـ
١٢٤ - هدية العارفين
لاسماعيل باشا البغدادى - استانبول ١٩٥٥
١٢٥ - الواضح فى النحو
أبو بكر الزبيدى - مخطوطة مصورة عندى عن مكروفلم دار الكتب المصرية برقم ١٧١ نحو
١٢٦ - الوافي بالوفيات
صلاح الدين الصفدى - استانبول ١٩٤٩

١٢٧ ـ وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان
ابن خلكان ـ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة ١٩٤٨
١٢٨ ـ يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر
الثعالبى ـ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٥٦

المجلات والمحاضرات

١ ـ مجلة معهد المخطوطات العربية ـ المجلد الثالث ـ الجزء الاول ١٩٥٧ .

٢ ـ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤١

٣ ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة بغداد ١٩٥٩ .

٤ ـ مجلة أدب الرافدين ـ كلية آداب الموصل ـ العدد الاول ١٩٧١ .

٥ ـ مجلة الشرطة العدد ٢٣ ، ٢٤ سنة ١٩٧٢ مقال الدكتور محسن جمال الدين عن الزبيدي .

٦ ـ محاضرات الدكتور مهدي المخزومي على طلبة الماجستير سنة ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٧١٣ لسنة ١٩٧٥
١٠٠٠ - ١٠ /١٠/١٩٧٥
السعر ١٥٠٠فلس
مطبعة الآداب - النجف الأشرف